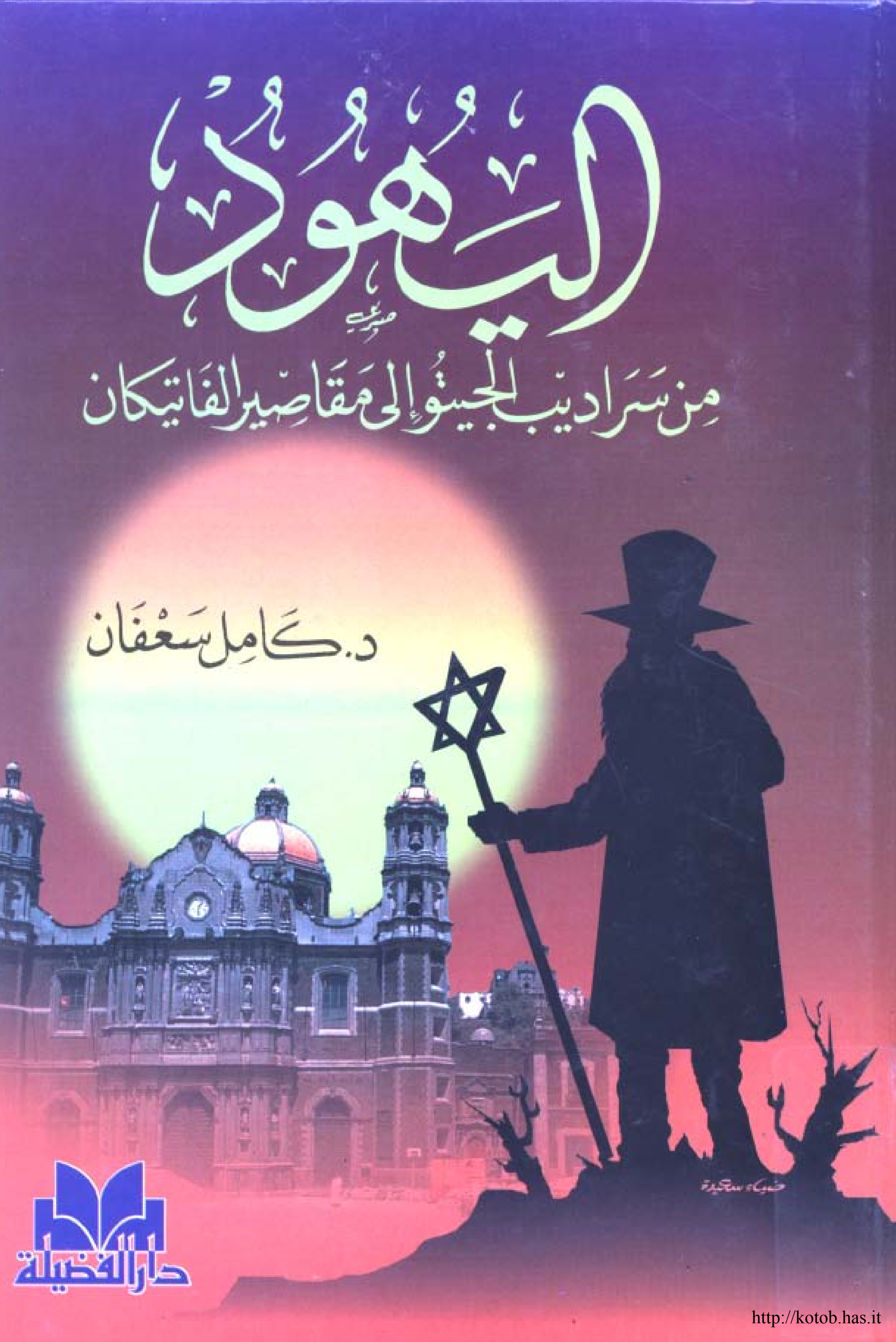

اليهود
من سراديب الجيتو إلى مقاصير الفاتيكان
د. كامل سعفان
دار الفضيلة
http://kotob.has.it

د. كامل سعفان



دار الفضيلة



﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾

[المائدة : ٦٤] .

★ ★ ★

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ﴾

[الأعراف : ١٦٧] .

صدق الله العظيم

بدون إعداد سابق ، وبدون قصد ..

حدث أن توافرت لى المصادر والمراجع الخاصة باليهود .

أهدانى (تلميذ مسيحى) نسخة من الكتاب المقدس ، منذ ربع قرن ، فقرأته ، وكانت لى عليه (هوامش) ، حرصت على تحقيقها ، فجمعت من الكتب ما يساعد على هذا التحقيق ، وكانت (دراسة فى التوراة والإنجيل) .

وحين عملت فى جامعة بغداد ، كان التعاقد أن أحاضر فى النقد الأدبى ، موضوع تخصصى ، لكن قسم اللغة العربية اعتذر بأنه مكتف بأساتذته ، فصرت إلى قسم الدين محاضراً فى التفسير والحديث ، ثم طلب إلىّ قسم اللغات الشرقية أن أُحاضر عن اليهود ، فكانت دراسة (اليهود تاريخاً وعقيدة) .

وأهدانى صديق كتاباً عن (المسيح الدجال) ، فوجدته (جمعًا لـمّا) لإسرائيليات وخرافات ، فكان كتابى (الساعة الخامسة والعشرون) الذى تضمن دراسة عن يهود الخزر وعن الماسونية .

وصرت كأنى متخصص فى الدراسة اليهودية ، يجتمع لى أكثر ما يصدر فى هذا المجال .. ومن هنا تهيأت لى أسباب هذا الكتاب الذى يهتم فى الدرجة الأولى بأخلاقيات اليهود ، وبوسائلهم (الذرائعية) المتسللة إلى مصادر القوة ، وإلى تعرفهم مختلف السراديب ، وحرصهم - حين يملكون - على ابتزاز القادرين ، وإبادة غير القادرين .

وقد حرصت على الإشادة بما حققوا من إنجازات ، فأنا على يقين من أن آفتهم العدوانية إنما نشأت عن صنوف التعذيب التى لحقت بهم من شعوب كثيرة ، مما أكسبهم قدرات غير مألوفة على المقاومة والإصرار والالتواء ، واتخاذ أحط الوسائل وأخبثها للوصول إلى الأهداف القريبة والبعيدة ، من أجل تخريب كيانات (الآخرين) ، والالتفاف من حولهم ، حتى يتم تذليلهم والاستيلاء على مقدراتهم .

فإن أكن قد أصبت هدفاً فبفضل من الله .

﴿ واللَّهُ يهدى من يشاءُ إلى صِراطٍ مُستَقِيم ﴾ .

د. كامل سعفان

١٤ ش عبد القادر المغربى - النزهة - مصر الجديدة

أبو الأنبياء ..

قصة إبراهيم ، عليه السلام - كما وردت فى القرآن الكريم - أن أباه (آزر) كان صانعًا للأصنام ، وأن إبراهيم لما وعى ، وعرف الله سبحانه ، خاصم أباه فى صناعته ، ودعاه إلى الله فأبى ، وطرده من بيته .

لكن إبراهيم - عليه السلام - دعا الله لوالديه بالهداية ، ودعا الحاكم ومن حوله إلى الله ، واتخذ لدعوته وسيلتين لإقامة الحجة عليهم .

كان القوم يعبدون الكواكب (الشمس والقمر والنجوم) فأثبت لهم أن هذه الكواكب يصيبها الأفول ، ولا ينبغى للإله الخالق المهيمن أن يغيب عن الكون لحظة ، ومن ثم قال : ﴿ **إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّى شَيْئًا وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ * وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴾ [الأنعام : ٧٩ - ٨١] .

اتخذ إبراهيم حجة مرئية ، تطالع الجميع صباح مساء ، لكن القوم مأخوذون بما ورثوا ، لا يملكون التحول عما اعتقدوا .

فى يوم عيد - كما قيل - تسلل إبراهيم إلى بيت الأصنام ، استنطقها فلم تنطق ، أخذ فأسًا وكسرها ، وعلق الفأس فى رأس الصنم الأكبر .

روى القرآن الكريم أن إبراهيم قال : ﴿ **وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ * فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ * قَالُواْ مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ * قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ * قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ * قَالُواْ أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَسْئَلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ * فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا**

إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ * ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاَءِ يَنطِقُونَ * قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلاَ يَضُرُّكُمْ * أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ * قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَانصُرُواْ آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ * قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ * وَأَرَادُواْ بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ * وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٥٧ - ٧١] .

وزاد القرآن الكريم كيف بُشّر إبراهيم بإسماعيل ، ثم بإسحاق من زوج (عجوز عقيم) ، وكيف ذهب مع ابنه إسماعيل وزوجه (هاجر) إلى أرض غير ذى زرع ، وأقام هو وإسماعيل القواعد من البيت الحرام ، وأذّن فى الناس بالحج ، ليأتوا : ﴿ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِّيَشْهَدُواْ مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ ... ﴾ [٢٧ - ٢٨] .

هذه قصة إبراهيم فى الكتاب المصدق لما بين يديه ومن خلفه ، ﴿ تَنْزِيلٌ مِّن حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت : ٤٢] .

● والتوراة تحدثت عن إبراهيم مهاجراً من (أور) فى جنوب العراق ، حيث دولة السومريين ، إلى الشمال ، حيث (حاران) على نهر بلخ ، رافد الفرات ، ثم اتخذ طريقه إلى الجنوب ، مخترقاً دولة المدن الصغيرة ، ووصل إلى مصر ، ولم تطل الإقامة بها ، ثم أخذ طريقه إلى الشمال ليحارب عدة ملوك وينتصر ، ويقيم فى أرض كنعان ، ويرسم خطوط الدولة اليهودية من النيل إلى الفرات ، على مساحة الرحلة التى ارتحلها من (أور) إلى مصر .

ولما كان العهد القديم قد كتب فى بابل ، أو بعد العودة من المنفى فإن قصة إبراهيم وقصة آبائه إلى آدم قد حيكت من التراث البابلى ، وما داخله من بقايا حضارات قديمة ومعاصرة لهذا التراث البابلى .. وطوّر (الأحبار والحاخامات) ما وقع فى أيديهم بما وقع فى أوهامهم ، بسبب من الرغبة فى الانتقام من جلّاديهم ، والانتصار لتاريخهم .. وشكلوا شرنقة من حولهم تحميهم ، وتؤهلهم ليوم الخروج من هذه الشرنقة ، ليفرضوا وجودهم على العالم كله .

يلخص الأستاذ العقاد (أبو الأنبياء ص : ٤٤ - ٥١) ما جاء فى (المدراش) أو

الدراسات التى صنعها حاخامات (التلمود) التى تشمل بعض المأثورات الإسرائيلية ، وأقوال الفقهاء ، وحواشيهم على النصوص والمحفوظات ، وأشهرها (مدراش رباه) التى تدور كل دراسة منها على كتاب من كتب التوراة الخمسة ، وقد تمت عند القرن السادس الميلادى ، وترجع أسانيدها - كما جاء فيها - إلى أيام إبراهيم ، لكنها عند اليهود على درجات ، فمنها ما يعول عليه ، ومنها ما هو من قبيل القصص التعليمية ، والأمثال الوعظية ، تساق للاعتبار ، ولا يقصد بها التاريخ أو الاعتقاد .

ويظن بعض الشراح الألمان مثل - جرونيوم - أن من المدراش نبذًا منقولة عن اللغة العربية ، ولكن المقابلة بين رواياتها والروايات الإسرائيلية الأخرى تدل على مشابهة قريبة ، وإنها على كل حال مصادر غير إسلامية .. لكن جرونيوم يزعم أن بعض العبارات ترجمة حرفية من القرآن الكريم .

كما جاء فى كتاب من المدراش أن الله قال : (ليوهب البرد والعزاء لخادمى إبراهيم) ، والكلمة فيها معنى العزاء والراحة والسلام .

وتحكى المدراش أن تارح تزوج من إيمتالى بنت كرناب ، فرزقا إبراهيم ، وكان مولده مرصوداً فى الكواكب ، فاطلع عليه النمروذ ، واستشار الملأ من قومه ، فأشاروا عليه بقتل كل طفل ذكر ، واستحياء البنات ، وإغداق العطايا والجوائز على أهلهن ، ليفرحوا بمولد البنات .

وأحس تارح أن امرأته حامل ، فلما أراد أن يتحقق ذلك صعد الجنين إلى صدر أمه ، فخوى بطنها ، ولم يظهر فيه حمله ، وهربت أمه حين جاءها المخاض ، فأوت إلى كهف ولدته فيه ، وتركته ثمة ، وهى تدعو له ، فبقى ثلاث عشرة سنة لا يرى الشمس - على رواية بعض الكتب - ومكث فى الكهف أقل من ذلك ، على روايات أخرى ، وأرسل الله جبريل يرعاه ، فجعل الطفل يمتص أصابعه فيرضع منها ، ويكبر قبل الأوان .

وخرج من الكهف ليلاً وهو فى الثالثة ، فرأى النجوم ، فقال : هذه هى الأرباب ، فلما أشرقت الشمس قال : كلا ، بل هذه هى الرب ، فلما أفلت وظهر القمر ، قال : بل هذا هو ، فلما أفل قال : ما هذه بأرباب ، إنما الرب المعبود هو الذى يديرها ويسيرها ، ويبديها ويخفيها .

وفى بعض الكتب أن أمه خرجت تتفقده بعد عشرين يوماً حيث تركته ، فوجدت فى طريقها صبيًّا ناميًا ، فسألها : ماذا جاء بك إلى الصحراء ؟

فأنبأته بقصتها ، وعرّفها بنفسه ، فدهشت ، وعجبت لطفل يكبر ويتكلم ، ولما يمض على مولده شهر واحد .

قال لها : إنها قدرة الله الذى يرى ولا يُرى .

قالت أمه : أإله غير النمروذ ؟

قال : نعم ، يا أماه ، رب السموات والأرض ، ورب النمروذ بن كنعان ، فاذهبى وبلغى النمروذ ما سمعت .

أنبأت زوجها تارح ، وكان أميرًا من أمراء الملك ، فذهب إليه يطلب لقاءه ، وروى له القصة ، ففزع ، وفزع وزراؤه وأعوانه ، ثم ملكوا جأشهم ، وقالوا له : علام هذا الفزع من صبى لا حول ولا قوة ، ومن أمثاله فى المملكة ألوف وألوف ؟ .

قال لهم النمروذ : هل رأيتم صبيًّا فى العشرين يتكلم وينطق بمثل هذا البيان ؟

خشى الشيطان أن يسبق الإيمان إلى قلب الملك ، فحرضه على قتل الصبى .

ذهب إلى الكهف جمعٌ من القادة والفرسان ، فإذا هم يصابون بالفزع ، ولا يقدرون على الثبات .

عادوا إلى النمروذ ، وشرحوا له ما أصابهم ، فقرر الرحيل إلى أرض بابل ، ولحق به إبراهيم على جناح جبريل ، ولقى هناك أبويه ، ثم بدأ الدعوة إلى الله الأحد الذى لا إله غيره ، رب السمٰوات ورب الأرباب ، ورب النمروذ ، وأنذرهم أن يتركوا عبادة الصنم الذى صنعوه على مثال النمروذ .

وأمر الملك تارح أن يعود بابنه إلى وطنه .

وتتكاثر الروايات فى عشرات من المصادر ، من كتب المدراش والتفسيرات ، حول ما حدث بعد ذلك بين إبراهيم وقومه ، وبينه وبين الملأ والملك وكهنة الأرباب ، مما تغنى هذه الأمثلة عن تفصيله واستقصائه .

ومما ورد فى مدراش رباه (أبو الأنبياء : ص ٤٧ - ٥١) : أن أباه حنق عليه حين كسر الأصنام ، فخاصمه إلى النمروذ .

سأل النمروذ : إن كنت لا تعبد الصور والمشبهات ، فلماذا لا تعبد النار ؟
قال إبراهيم : أولى من عبادة النار أن أعبد الماء الذى يطفئها .
قال النمروذ : فاعبد الماء إذن .
قال إبراهيم : أولى من عبادة الماء أن أعبد السحاب الذى يحمله .
قال النمروذ : إذن تعبد السحاب .
قال إبراهيم : أولى من عبادة السحاب أن أعبد الريح التى تبدده وتسير به من فضاء إلى فضاء .
قال النمروذ : فما لك لا تعبد الريح ؟
قال إبراهيم : إن الإنسان يحتويها بأنفاسه ، فهو إذن أحق منها بالعبادة .

فلما أعيا النمروذ أن يخضعه سجنه ، ومنع عنه الطعام والماء ، وبعد عام وجد إبراهيم على قيد الحياة .

أمر الملك بضرب عنقه ، فلم يعمل فيه السيف ، فأوقد له نارًا ، فلما أراد أعوانه أن يقذفوا بإبراهيم فى النار امتد لسان من النار والتهم الأعوان ، فتشاوروا ، واتفقوا على قذفه فى النار بمنجنيق ، فإذا الجمر من حوله كأنه فراش من الورد والريحان .

لم يصدق النمروذ أنها معجزة من الله ، واتهم إبراهيم بالسحر ، أما الأمراء والوزراء فآمنوا برب إبراهيم .

قال الأستاذ العقاد : « ويندر الاتفاق على أصل قصة واحدة من القصص التى تفيض بها كتب المدراش وحواشيها » .

هذا ما نقله الأستاذ العقاد ، ويلاحظ من تعليقه أن هذه القصص مختلقة ، لا أصل لها ، وإلا كان الاتفاق على الأصل ، والاختلاف فى الصورة .. وهذا هو النهج المتمثل فى الكتابات اليهودية .

ولو أنك تتبعت المعجزات الواردة فى التوراة والتلمود وكتب (الأبوكريفا) لوجدت ألوانًا لا تكاد تحصى ، سيقت دون ما يدعو إليها ، على أيدى الأنبياء الحكماء والأنبياء الكذبة ، ممثلة خيالًا مريضًا ، وقدرة زائفة على التلفيق وعدم التدقيق .

ومرد هذا الغثاء إلى الوهم الذى اصطنعه الأحبار والحاخامات حول علاقة (الشعب) بالرب، فالشعب اختاره الرب من دون الأمم الأخرى (الجوييم) الموسومين بالدنس والرجس، ومن أجل (الشعب المختار) تفرغ (الرب) لكل ما يؤيده ويحميه، فأجرى المعجزات، وبث الفزع فى قلوب الأعداء، وشجع على إبادة كل نسمة حية فى كل مكان لا يعلن استسلامه لليهود.

أوهام الضعيف الجبان الذى يجد سلامه وأمنه فيما يصنع لنفسه من دعاوى واختلاقات !!

● عن زيارته (ديار بكر) الكردية شمال العراق يقول الأستاذ فهمى هويدى (الأهرام ٧ أكتوبر ١٩٩٧م):

(تمثل «أورفا» مفاجأة أخرى كبرى، وهى معروفة فى التراث العربى باسم «الرها» وفى تركيا يسمونها «شانلى أورفا»، ومعناها أرض الأنبياء، حيث تشير البحوث والحفريات الجيولوجية إلى أن هذه المدينة العريقة عاش فيها لفترة من الزمن أبو الأنبياء إبراهيم، والأنبياء أيوب وشعيب وجرجس، وحين تزورها يقودك الأدلاء إلى المغارة التى يقال إن سيدنا إبراهيم ولد فيها، ويطلق عليها الآن مقام خليل الله، ثم يذهبون بك إلى القلعة التى كانت للملك الظالم نمروذ، ومنها ألقى سيدنا إبراهيم لإحراقه فى النار، وتجد أمام عينيك بعد ذلك بحيرة مليئة بالسمك الذى لا يقترب منه أحد، ويُقال لك إنها المكان الذى ألقى فيه سيدنا إبراهيم، واستجابة للأمر الإلهى تحولت النار إلى ماء والحطب إلى سمك).

كأن النار شيء والحطب شيء آخر، وإن صح هذا الخبر ثبت كذب كل ما جاء فى كتب اليهود المختلفة، وما أظن دعوى التنقيبات الأثرية هذه تختلف عن دعاوى أخرى خاصة بالآثار المصرية والسومرية والفينيقية، وكلها تنقيبات تعوزها الدقة، ويعوزها الصدق، لأسباب كثيرة ترجع إلى توصيف الآثار، ونسبتها إلى زمن معين، وإلى صعوبة قراءة اللغات القديمة، وإلى أن هذه الآثار كثيرًا ما تكون كِسْرات مصابة بالمحو والتشويه بفعل الزمان، واستنطاقها يعتمد على (الاجتهاد) المنفعل بنشوة الكشف وبمعاناة التنقيب.

ولعل التنقيب عن الإنسان الأول فى (فيوم) مصر، وفى وسط أفريقيا، وفى

أمريكا اللاتينية وفى الصين وفى تركيا - يدل ذلالة قوية على ما تدل عليه المزاعم الكثيرة حول عمر الكون ، إذ نجد من يقول : إن الإنسان وجد منذ ١٥٠ مليوناً ، ومن يقول : منذ ٥٠ مليونًا ، ومن يقول منذ ١٥ مليونًا من السنين ، وإن هذا الإنسان وجد فى مرحلة متأخرة جداً من خلق العالم ، بعد خلق النبات والحيوان ، بحجة أن الحيوان يتغذى على النبات ، والإنسان يتغذى على النبات والحيوان .

صور من الحدس والتخمين طافت وطغت على كل ما انطمست آثاره ، وأخنى عليه الذى أخنى على لُبَد .

وإذا كنا فى زمن ثورة المعلومات والأقمار الصناعية والإنترنت لم نصل إلى حقيقة (مقتل ديانا) ، وضلت بنا وسائل الإعلام المختلفة ، فكيف بأحداث أربعة آلاف عام عن سيدنا إبراهيم ، إلا إذا جاءنا الخبر اليقين من رب العالمين ، بالطريق الذى ﴿ **لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ** ﴾ [فصلت : ٤٢] !! .



اليهود فى مصر القديمة

مات إبراهيم ، وحصل يعقوب على (مباركة) إسحاق بالحيلة ، مع أن أخاه عيسو كان الأحق بهذه المباركة ، لأنه بكر أبويه ، ولأنه الكاسب قوت الأسرة ، ولأن إسحاق - وقد وهن منه العظم ، وفقد بصره - طلب عيسو ليباركه ، لكن يعقوب - كما زعم كتّاب التوراة - بمساعدة أمه ، تقدم إلى أبيه على أنه عيسو .

وكما كاد يعقوب لعيسو ، كاد أبناء يعقوب لأخيهم يوسف ، وألقوه فى غيابة الجب ، يلتقطه بعض السيارة .

وصار يوسف فى بيت عزيز مصر موضع الرعاية والمحبة .

وكان أن استخلصه الملك ، ليكون (الأمين) على خزائن مصر .

نزلت ببادية كنعان مجاعة ، فذهب إخوة يوسف إلى مصر ، ليحصلوا على حظ مما اختزنته مصر من القوت ، فعرف يوسف إخوته ، وطلب إليهم أن يعودوا بأبويه (من البدو) ، واستقر مقام هذه الأسرة المكونة من أبوين واثنى عشر ولدًا ، بالإضافة إلى زوجات وأطفال وعبيد ، أسرة لا تكاد تتجاوز سبعين نسمة ، صنع منها التاريخ اليهودى قبائل خلال مائتى عام أو تزيد قليلًا ، ولنقل خلال أربعة أجيال ، أو جيلين بموجب ما قدرته التوراة لأعمار بنى إسرائيل ، فلما كان (الخروج) من مصر زعموا أنهم كانوا مئات الألوف .

وللأسف الشديد سقط المؤرخون الإسلاميون فى وهدة المزاعم الإسرائيلية ، فذكر المقريزى أن عدد اليهود تزايد تزايدًا عظيمًا حتى أصبحوا مئات الألوف ، وانقسموا إلى اثنتى عشرة قبيلة .

وقد ظل كل سبط من أسباط اليهود - منذ عهد أبيهم يعقوب عليه السلام ، وطوال إقامتهم فى مصر - متميزًا عن غيره من الأسباط ، كأنه قبيلة مستقلة ، وله رؤساؤه ، وعصبيته ، وتقاليده المتميزة .

ومن عجيب أمر المقريزى أنه يقول : إن موسى خرج فى كثرة ، كفاك عن مقدارها قول الله عز وجل ، إخبارًا عن فرعون : ﴿ **إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ** ﴾

﴿ وَإِنَّهُم لَنَا لَغَائِظُونَ ﴾ [سورة الشعراء : ٥٤ ، ٥٥] .. القرآن الكريم يتحدث عن (شرذمة) ، وعن قلة ممزقة ، والمقريزى يتحدث عن كثرة بلغت (ستمائة ألف رجل محارب ، سوى النساء والصبيان والغرباء) ، أى عدة ملايين ، لأن المحاربين عادة نسبة قليلة ، لأن النساء والصبيان والشيوخ والعبيد (الخدم والرعاة) أضعاف عدد المحاربين ، وكأن المقريزى وقف عند قول فرعون ﴿ إِنَّهُم لَنَا لَغَائِظُونَ ﴾ .

مع أن عدة آلاف من أفراد العصابات (الصهيونية) قبل سنة ١٩٤٨م كانت سبب إغاظة وإثارة وإدانة وإهانة ملايين العرب ، ومئات الملايين فى دول أخرى ، ومن بينها بريطانيا العظمى وألمانيا وروسيا ، والمعروف أن شريرًا واحدًا فى قرية بها عدة آلاف يسبب لها نكد العيش ، ويفرض الإتاوة على كبرائها وكبراء القرى المحيطة .

لكنها كما قلت آفة الخضوع للإسرائيليات ، بالرغم من كثرة التحذير من الإسرائيليات .

● نزلت هذه الأسرة فى ضيافة مصر ، فى منطقة (جاسان) ، الصالحية ، الخصيبة ، شرق الدلتا ، ورتعوا ، وتكاثروا ، وإن كان هناك من ادعى أنهم نزلوا بالفيوم ، واخترع لرحلة الخروج طريقًا عجبًا .

وجاء موسى - عليه السلام - ودعا بدعوته ، وأثار ثائرة فرعون ، وأثار المصريون ثائرة اليهود .

فكيف جرؤ (شرذمة قليلون) ، ينزلون أرضًا لا يملكونها ، على تحدى من يملكون ، وعلى الاستيلاء على ذهبهم ، ومخزون حصادهم ، وهم يعلمون أن من الممكن استمرار مطاردتهم إلى حيث يذهبون ، وبخاصة أن الطريق أمامهم صحراء قاحلة ، وقد اعتاد المصريون اجتيازها بجيوشهم ، لا إلى أرض كنعان فحسب ، بل إلى أرض الحيثيين ، وقد ظلت هذه الشعوب خاضعة لحكم الفرعون زمنًا طويلًا ، وبخاصة فى عهد الأسرتين الثامنة عشرة (تحتمس الثالث) ، والتاسعة عشرة (رمسيس الثانى) ، بل إنها ظلت تدين بالولاء لمصر إبان الصراع بين الفرس والروم ؟!

* * *

الهكسوس

فى رواية جوزيفوس المؤرخ اليهودى عن مانيتون المؤرخ المصرى ، يقول مانيتون :

(لسبب لا أعرفه حلت بنا ضربة من الله ، وفجأة تقدم فى ثقة بالنصر غزاة من إقليم الشرق ، من جنس غامض ، إلى أرضنا ، واستطاعوا بالقوة أن يتملكوها فى سهولة ، دون أن يضربوا ضربة واحدة ، ولما تغلبوا على حكام الأرض - مصر - أحرقوا مدنًا بغير رحمة ، وقوضوا أرض معابد الآلهة ، وعاملوا المواطنين بعدوان قاس ، فذبحوا بعضهم ، وساقوا زوجات آخرين وأطفالهم إلى العبودية ، وأخيرًا عينوا من بينهم واحدًا ملكًا ، يسمى ساليتُس ، وكان مقره ممفيس ، ففرض الضرائب على مصر العليا والسفلى ، وكان يخلف وراءه حاميات فى الأماكن المهمة .. وقد أنشأ ساليتُس مدينة « أفاريس » ، على الضفة الشرقية لنهر النيل ، وحصنها بأسوار ضخمة ، وجعلها مقر حكمه ، ثم مات بعد أن حكم ١٩ عامًا ، وخلفه ملك آخر يدعى بنون ، حكم ٤٤ عامًا ، تلاه أبا خنان الذى حكم ٣٦ عامًا وسبعة شهور ، ثم أبو فيس الذى حكم ٦١ عامًا ، ومن بعده ياناس الذى حكم ٥٠ عامًا وشهرًا واحدًا ، وأخيرًا جاء أسيس الذى حكم ٤٩ عامًا وشهرين .. وهؤلاء الملوك الستة هم أول من حكم منهم ، وكانوا يعملون جاهدين لاستئصال العنصر المصرى ، وكان جنسهم عامة يسمى هكسوس ، أى ملوك الرعاة ، لأن « هيك » تعنى فى اللغة المقدسة « ملك » ، و « سوس » تعنى فى اللغة الدارجة « راعى ») . عن مصر الفراعنة لسير ألن جاردنر ص ١٧٧[1] .

ويبدو أن التفسير اللغوى من عمل جاردنر ، كما يرجح أن يكون (أسيس) هو (عزيز) مصر فى رواية القرآن الكريم ، وهو الملك الذى احتضن (يوسف) عليه السلام ، وهو الذى أطلق يدى النبى الأمين فى تدبير شئون الدولة الاقتصادية ، وفى

---

(١) جاء فى (قائمة ملوك مصر) الملحقة بكتاب (تاريخ مصر) لبريستيد ، أن ملوك الهكسوس ساليتوس - شيشى - خيان - أبوفيس (١٥٨٥ / ١٥٤٢) - خمودى (١٥٤٢ / ١٥٣٢) ، وهم ملوك خمسين سنة فقط .

عهده هاجرت أول أسرة يهودية إلى مصر ، وظلت تتكاثر وتمتد فى ربوع الوادى حتى وصلت إلى أقصى الجنوب ، جزيرة الفنتين ، مما يفيد أن (الخروج) لم يشمل جميع اليهود ، وإنما الفئة التى التفت حول موسى ، أو الجماعة التى عاشت فى كنف الهكسوس ، وفى خدمة السلطة الحاكمة ، بالقرب من العاصمة « أفاريس » ونحن نعلم أن اليهود - وإن كانوا رعاة الأصل - كانوا حريصين على سكنى المدن المهمة ، أو بالقرب منها ، وبخاصة إذا تمكنوا من مد خيوطهم حول الحاكمين ، ومن ثم تحولوا عن الرعى إلى الأعمال المصرفية والربوية ، لأنها لا تعوق الحركة والانتقال ، وبخاصة إذا جد الجد ولم يؤمن الاستقرار ، وكانت التجارة كذلك أعون على الحركة ، إذا كانت تجارة الاستيراد والتصدير ، التى تساعد على تكوين علاقات خارج حدود إقامتهم ، تكون دروع وقاية إذا حَزَب الأمر ، مع الحرص على إقامة محطات تجارية أو سياسية أو إعلامية ، تتحسس الأخبار ، أو تلفقها ، وتغرسها حيث شاءت ، وترعاها حتى تجنى ثمارها .

ولقد استفاد اليهود كثيرًا من وجود الهكسوس فى مصر ، لأن الهكسوس - شأن اليهود - قبائل بدوية كانت تعيش فى شرقى مصر - كما يقول المؤرخ المصرى أحمد فخرى (مصر الفرعونية ص ٢٤٥) - وفى كتابه نجد أن كلمة (هكسوس) مصرية ، تحريف للقب معروف - منذ الأسرة الثانية عشرة - وهو (حقا خاسوت) : أى حاكم البلاد الأجنبية ، ونراه مكتوبًا فوق منظر قدوم البدو الساميين فى إحدى مقابر بنى حسن ، كما جاء فى قصة (سنوحى) أثناء حديثه عن إقامته بين بدو لبنان وسورية .. ولا جدال فى أن هؤلاء الهكسوس جاءوا من طريق فلسطين ، وربما كانت جحافلهم المختلطة مستقرة هناك قبل مجيئهم إلى مصر ، فلما ضغط عليهم غيرهم هاجروا إلى وادى النيل ، وحملوا معهم كثيرًا من عاداتهم ومظاهر ثقافتهم .

وقول أحمد فخرى لا يختلف عن قول بعض المؤرخين العرب : أن الهكسوس هم العماليق ، خرجوا من تهامة بأرض الحجاز ، واستولوا على بلاد ما بين النهرين ، وأسسوا ملك بابل وآشور ، ونزلوا بسوريا ، ومنها هبطوا إلى دلتا النيل .. ذلك لأن الهجرات - منذ فجر التاريخ - لم تتوقف ، سواء من الشمال أو من الجنوب ، وقد ظلت سيناء معبرًا إلى مصر ، وممرًا للجيوش الغازية ، خلال تاريخ طويل .

وأسرة يعقوب - عليه السلام - لم تهاجر إلى مصر إلا لنفس أسباب هجرة الهكسوس ، ولم تخرج من مصر إلا لنفس أسباب خروج الهكسوس ، فلم تكن دعوة موسى - عليه السلام - سببًا فى الخروج ، لأن فرعون مصر احتضنه ، وأحسن تنشئته ، ولما قتل موسى مصريًا لم يسع فرعون فى طلبه ، وإن كان (الملأ ائتمروا به ليقتلوه) ، ومكث فى مدين عشر سنين أو أكثر ، ولما عاد إلى مصر دعا فرعون إلى الله ، وكان بوسع فرعون أن يقتله بحجة أنه قاتل ، إذا كانت إرادة (الحاكم) تحتاج إلى حجة ، وكان يمكن أن يرأف به فيسجنه ، لكن فرعون لم يفعل ، وأصغى إليه ، وجادله ، وأحضر السحرة ليكيدوا له ، فلما آمن السحرة بموسى هددهم ، وكان يمكن أن يحيط بموسى وبمناصريه ، لكنه لم يفعل ، وكان أن أرسل (إله موسى) على مصر (الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم) ، فكانت الأسباب التى تدعو إلى التعجيل بالقضاء على « شرذمة قليلين » ، لكن فرعون صبر وصابر ، أو أنه تناول القضية من جانبها الفكرى ، مع أنه كان يتميز غيظًا ﴿ **إِنَّهُم لَنَا لَغَائِظُونَ** ﴾ .. كان يعلم أن اليهود ظلوا أكثر من قرن عملاء للهكسوس ، وقد أضروا كثيرًا بالبلاد ، فأما وقد انتصر المصريون على الهكسوس فى أكثر من معركة ، زمن سِقْنِنْ رع ، وكامس ، وأحمس ، حتى تم طردهم من البلاد ، فقد آن التعامل مع بقايا أو عملاء الهكسوس ، وفق نظام يؤمّن المجتمع المصرى ، ويحمى اقتصاده .. ولا ريب فى أن اليهود علموا بما تجيش به نفوس المصريين ، فأخذوا يعدون لمغادرة مصر ، وكان أن عملوا على الحصول على ذهب مصر ، وعلى ما اكتنزوا من الغلال .

لم يتبين فرعون ما بيّته اليهود إلا بعد أن أخذوا طريقهم إلى خارج مصر .

- يقول صاحب (مصر الفرعونية ص ٣٥٩) :

(ما جاء من نتائج التنقيبات الأثرية فى فلسطين جعل خروج بنى إسرائيل فى عهد مرنتباح أمرًا يكاد يكون مستحيلًا ، ويجب أن يكون فى عهد الأسرة الثامنة عشرة ، ولهذا نرى أن كثيرًا من أسماء الفراعنة تتردد فى الأبحاث المختلفة .. وقد ظهر أخيرًا رأى يقول : إن خروج بنى إسرائيل من مصر كان قبله بنحو ٤٠٠ سنة ، إذ كان فى عهد الهكسوس .. وكل ما نستطيع أن نؤكده أنه لم يظهر فى الآثار المصرية أو الآثار الفلسطينية ما يحدد وقت الخروج تحديدًا تامًا) .

والأستاذ « جارستنج » عضو بعثة مارستن Marston التابعة لجامعة ليفربول ، يذكر أنه بعد كشف مقابر أريحا الملكية ، وجدت أدلة تثبت أن موسى قد أنجته من (اليم) الأميرة حتشبسوت (قبل أن تكون ملكة) ، وكان ذلك فى عام ١٥٢٧ ق. م ، وأنه تربى فى بلاطها ، بين حاشيتها ، وأنه فر من مصر حين جلس على العرش عدوها تحتمس الثالث - أضواء على السيرة النبوية ج ١ ، ص ٣٠ - وهذا الرأى يتعارض مع ما ورد فى القرآن الكريم من أن امرأة فرعون هى التى انتشلته ، واحتضنته ، وأنها كانت امرأة صالحة ، ﴿ **قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** ﴾ [التحريم : ١١] ، ولم تكن حتشبسوت إلا امرأة طموحًا ، صعبة المراس ، فرضت سطوتها على البطل العظيم تحتمس الثالث ، كما سجل المؤرخون ، وادعت نسبتها إلى آمون ، ورسمت قصة بنوتها لآمون على جدران معبدها (الدير البحرى) .

وإذا كان أغلب المؤرخين ربطوا الخروج بكل من رمسيس الثانى ومرنبتاح ، فإن مرنبتاح قد أقام لوحة سنة ١٢٢٥ ق. م كتب فيها :

(لقد غُلب الملوك ، وقالوا سلاما / وهدأت أرض الحثيين / وانتهت كنعان وحلّت بها الشرور / وخربت إسرائيل ، ولم يعد لأبنائها وجود / وأصبحت فلسطين أرملة مصر ، وضُمّت كل البنود وهدأت / وكل من كان ثائرًا قيده الملك مرنبتاح) .

وليصْدُق هذا الخبر لابد أن تكون إسرائيل قد تكونت قبل أن يشنّ عليها مرنبتاح هجومه ، ويحقق الانتصار الذى دونه فى هذه اللوحة .. ثم إن أرض كنعان لم تعرف الفلسطينيين إلا فى عهد داود ، وقد هاجروا إليها من كريت ، أو من غيرها من جزر البحر المتوسط ، وكانوا أشد قوة .. والحروب التى شنها يشوع - بعد موت موسى عليه السلام - لم تشر أية إشارة إلى الوجود الفلسطينى ، مما يعنى أن هذه (اللوحة) ، أو أن ترجمتها عبثت بها الأيدى ، وقد تكون لوحة مزيفة ، وما أكثر ما أصاب الأثريات من تزييف .

يقول ويلز (معالم التاريخ الإنسانية ج ٢ ، ص ٢٨٥ ، ٢٨٦) : « من الجلى أن قصة الخروج Exodus- وقد كتبت بعد الحوادث التى ترويها بزمن طويل - ربما كانت تركيزًا وتبسيطًا ، أو لعلها تمثيلٌ ورمز لما كان فى الحقيقة تاريخًا معقدًا طويلًا

لغزوات قبلية ، ولعل كل ما فى الأمر أن إحدى القبائل العبرانية انحدرت إلى مصر ، وأصبحت مستعبدة ، على حين كانت القبائل الأخرى قد أخذت بالفعل تهاجم المدن الكنعانية النائية ، بل إن فى الإمكان ألا تكون مصر - واسمها بالعبرانية مصرايم - هى أرض الأسر ، بل « مسريم » فى شمال بلاد العرب ، على الجانب المقابل من البحر الأحمر) .

والحديث عن (قبائل عبرانية) - من أحد رواد الخيال العلمى - يخرج بتاريخ اليهود كله عن نسبته إلى يعقوب ، ويشكك فى قصة يوسف ، وفى دعوة موسى فرعون وقومه إلى الله ، وينفى الآيات التسع التى حدثت بشأن الصراع بين النبى موسى والفرعون المتجبر ، لأن هذا كله تم فى مصر ، لا فى (مسريم) ، ويلاحظ أن القرآن الكريم صادَقَ التوراة فى المعالم الرئيسية لهذه الأحداث .

لكن الذى ينبغى ذكره هو أن تاريخ الفراعنة ليس تاريخًا كاملًا ، بسبب من ضياع كثير من السجلات والآثار ، وبسبب من عدم دقة الترجمة عن الهيروغليفية والديموطيقية ، حتى ما كتبه المؤرخ المصرى الكاهن مانيتون تعوزه الدقة فى تتابع الأحداث ، بل فى تتابع السجلات الملكية ، فثمة فجوات كثيرة سقط معها عدد كبير من ملوك مصر وقادتها وأمرائها .. ومن هنا يجب الوقوف عند العبرة من الحدث ، وعند خطوطه الرئيسية التى هى فى متناولنا ، حتى يجود الزمان بجديد من الآثار .

* * *

الحضارة العبرانية

قلنا إن العبرانيين - منذ رحل إبراهيم عليه السلام من أور الكلدانيين - كانوا أقرب إلى البدو الرحل ، فهم دائمو التنقل (العبور) ، في طلب المرعى ، أو في طلب الاستقرار ، وقلَّ أن يجد هؤلاء العابرون حيث ينزلون أمنًا وسلامًا ، ومن ثم لا يقصدون المدن ، بل يقيمون على مقربة منها ، وبهذا لا يكتسبون في مسيرتهم الطويلة إلا هوامش من الحضارات التي يمرون بها .. ثم إنهم لا يأخذون طريقًا أَمًّا إلى هدف محدد ، بل هم في طلاب العيش ، ما تيسّر لهم ، يصعدون الجبال ، ويهبطون الأودية ، مشرّقين ومغرّبين ، ميممين شمالاً ، وميممين جنوبًا ، لا يعنيهم من أمر الحضارة إلا الكساء والغذاء ووسيلة النقل .

ولما وصلوا إلى أرض كنعان ، بعد الخروج من مصر ، وحققوا انتصارات ، وأخذوا في الاستقرار ، وجدوا أنفسهم - كما يقول بريستيد (فجر الضمير ص ٣٧٢ - ٣٧٤) - بين قوم حضارتهم تصل أكثر من ألف عام ، وهم شعب سامي ، وثيق القربى بالفينيقيين الذى أسسوا صور وصيدا ، وبالعموريين الذى فتحوا بابل ، وأسسوا الإمبراطورية البابلية الأولى بقيادة حمورابي ، وكان الكنعانيون - كما يقول ويلز (معالم التاريخ الإنسانية مج ٢ ، ص ٢٨٤) : شعبًا عرف الاستقرار في زمن معاصر لحكم حمورابي (تقريبًا) ، وقد مرت ببلادهم قطعان إبراهيم ورعيانه .

قد يقول قائل : لقد أقاموا في مصر أكثر من قرنين ، ومصر ذات حضارة أكثر عراقة ، لكنهم في مصر كانوا في كنف الهكسوس ، وكانوا يعيشون على (حدود) البلاد ، لا في داخلها ، حتى من وصل منهم إلى الجنوب تحوصلوا في (جيتو) ألفنتين ، وهذا يعني أنهم كانوا يعيشون محرومين من الشعور بالأمان ، ومهما طال بهم الزمن فهم (على سفر) ، لكنهم في أرض كنعان فرضوا أنفسهم على عدة مدن بقوة السلاح ، وإذا صدقنا ما ورد في (العهد القديم) فقد قاموا بعملية (إحلال) شعب مكان آخر ، ومن هنا كان الشعور بالقوة وبالاستقرار في أرض اغتصبوها ، وعملوا على توثيق ملكيتها باتخاذ الأساليب الحضارية التي وجدوها في أرض

كنعان ، والتى لا يزالون يذكرونها على أرض مصر ، ولهذا ظلت مصر وآلهة مصر ، حتى (عبادة العجل) ، من شواغلهم ، ومن إفرازاتهم الوجدانية .

إن أرض كنعان من زمن بعيد كانت واقعة تحت تأثير الحضارة المصرية القديمة ، إذ إن المصريين بسطوا سيطرتهم على الساحل الفينيقى ، قبل أن يصل العبرانيون بأكثر من ألفى عام ، وقد وصل المصريون إلى نهر الفرات خلال القرن السادس عشر ق. م ، وبقيت أرض كنعان فى أيدى المصريين عدة قرون ، حتى بعد وجود كيان عبرانى ظلت هذه الأرض فى مجال السيطرة المصرية .

هذا ، بالإضافة إلى أن علاقة مصر ببابل وآشور ساعدت على نقل التراث البابلى إلى الفكر العبرى ، ومن قبل أسر بابل ، ولما كان أسر بابل استطاع العبرانيون الاستعانة بما اكتنزوا من التراثين المصرى والبابلى ، فى الفن والدين والأدب .

ويرى (بريستيد) أن العبرانيين قد اتخذوا لغة الكنعانيين ، وبها كتبوا التوراة ، ونبذوا لهجتهم السامية التى لم تكن ذات إنتاج أدبى ، أو ذات تاريخ مكتوب ، بحكم بداوتهم وكثرة ترحلهم ، ومقامهم بعيدًا من المدن ، أو على هوامشها .

يقول صاحب (مصر القديمة ج ٩ ، ص ٥٣٣) : إن العبرانيين أخذوا عن الكنعانيين الشعائر الدينية والأحفال ، بما فى ذلك تقديس العمد الخشبية ، و (الشجرة المقدسة) ، و (المرتفعات) ، وعبادة (الثعابين) ، و (العجل الذهبى) الذى كان صدى حرمانهم من خيرات مصر ، وشوقهم إلى أيام الرخاء بها ، وصدى ما سببت لهم رحلة (الخروج) من رعب استقر فى وجدانهم ، حتى تكرر فى أدبياتهم (لا تعودوا تدخلوا أرض مصر) ، وانصبت الشتائم والسخائم فى أسفارهم على شعب مصر ، مع أنهم - خلال حركتى المد والجزر الفارسيين عبر الأراضى (الكنعانية) - كان اليهود على صلة وثيقة بفرعون مصر ، رجاء أن يخلصهم من الكابوس الفارسى .

وفى (مصر القديمة ج ٩ ص ٥٣٤ - ٥٣٨) أن رقص داود أمام التابوت ليس إلا صدى للرقص الكنعانى الخاص بالخصب ، وقد انتقلت هذه العادة إلى (الدراويش) أثناء الذكر ، حتى يومنا هذا .

(وكانت نظرتهم إلى الحياة فى الدنيا والآخرة صورة من حياة الكنعانيين ،

كما كانت عادات الدفن فى كلا الشعبين واحدة ، إذ كان الجسم يوضع فى القبر معه أشياء من التى كانت تستعمل فى الحياة الدنيا ، كالأطباق والجرار والملابس والمجوهرات) ، وقد يكون الشعبان قد أخذا هذه العادة عن المصريين ، (وكان فخارهم وصناعاتهم على طراز ما عند الكنعانيين) ، أو المصريين .

ويقول الأستاذ العقاد فى كتابه (الله ص ١٠٥) : إن قصة الخليقة فى العقائد الإسرائيلية الأولى تشبه قصة الخليقة فى ألواح بابل ، وعقيدة (المخلّص) المنتظر فى الديانة الفارسية موجودة فى الديانة الإسرائيلية .

ويقول ويلز (معالم التاريخ الإنسانية مج ٢ ، ص ٢٨٣) : وقد عثر القائمون بالحفائر الحديثة على نصوص بابلية تروى كلًّا من قصتى الخليقة والطوفان ، وهى نصوص ترجع إلى زمن يسبق عودة اليهود إلى وطنهم ، ومن ثم فإن نقاد الكتاب المقدس يحاجّون بأن اليهود استولوا فى أثناء أسرهم على تلك النصوص .

لقد كانت أساطير منطقة غرب آسيا ، وبخاصة وادى الرافدين ، المعين الغزير الذى استمد منه كتاب العهد القديم أكثر (أدبياتهم) .. أما ما هو عن الجنة وآدم والخطيئة فيروج فى جميع القصص الشعبية ، فى مصر ، والهند ، والتبت ، وبابل ، واليونان ، والمكسيك ، وغيرها ، وفى معظم هذه القصص أشجار محرمة ، وأفاع ، وهولات ، سلبت الناس الخلود ، أو نفثت السم فى الجنة ، وأكبر الظن - كما يقول ول ديورانت (قصة الحضارة مج ١ ج ٢ ، ص ٣٤٥) : أن الحية والتينة كانتا رمزين للشهوات الجنسية .

ولا يكاد يوجد فى الأمم القديمة أمة لم تعرف قصة الطوفان ، وقلما يوجد جبل فى آسيا لم يرس عليه نوح أو شمش - بنشتيم ، بعد أن أضناه التعب من تدافع المياه .

ولم يرد فى الدين اليهودى شيء عن الخلود ، وكان الثواب والعقاب مقصورين على الحياة الدنيا ، ولم ترد فكرة البعث فى خَلَد اليهود إلا بعد أن فقدوا الرجاء فى أن يكون لهم سلطان فى هذه الأرض .. ولعلهم أخذوا هذه الفكرة عن الفرس ، أو لعلهم أخذوا شيئًا منها عن المصريين .

وعن بيوت النار المقدسة عند المجوس جاءت شريعة المحرقة عند اليهود التى

تقول : (وكلم الرب موسى قائلًا : أوص هرون وبنيه : هذه شريعة المحرقة ، المحرقة تكون على الموقد فوق المذبح كل الليل حتى الصباح ، ونار المذبح تتقد عليه ، ثم يلبس الكاهن ثوبه من كتان ، ويلبس سراويل من كتان على جسده ، ويرفع الرماد الذى صيرت نار المحرقة إياه على المذبح ، ويضعه بجانب المذبح ، ثم يخلع ثيابه ، ويلبس ثيابًا أخرى ، ويخرج الرماد إلى خارج المحلة ، إلى مكان ظاهر ، والنار على المذبح تتقد ولا تطفأ ، ويوقد عليها شحم ذبائح السلامة ، نار دائمة تتقد على المذبح لا تطفأ) .

نفس الطقوس التى يقوم بها (الهربذ) فى بيت نار المجوس .

ويلاحظ أن فكرة (المسيح المنتظر) نبتت فى عقائد بنى إسرائيل بعد زوال ملكهم ، وانتقالهم إلى الأسر البابلى ، قبل الميلاد بأكثر من خمسة قرون ، لكنهم أطلقوا اسم المسيح على كل من يعاقب أعداءهم ، ويفتح لهم باب الخلاص من أسرهم ، كما فعل قورش بالبابليين ، وفى أواخر القرن السادس ق. م خطر لكل من النبيَّيْن زكريا وحجاى أن زَرُبّابل هو المسيح المنتظر ، لأنه أعاد بناء البيت بعد أن قاد العائدين من الأسر .

● ولا يعد هذا (الاقتباس) الحضارى لونًا من المرونة ، والقدرة على الانتماء ، أو التصالح ، أو (التطبيع) ، أو (المعايشة) مع البيئة التى ينزلون بها ، أو تمتد إليها خيوطهم ، إنما هو نوع من (السلب) ، لأنهم ما كانوا يعترفون بالأخذ ، وهو نوع من (التسلح) بكل سلاح يحصلون عليه ، لتكون لهم القوة الغالبة ، والغلبة القاهرة .

ولهذا ظل اليهود بدوًا رُحلًا يخافون شياطين الهواء ، ويعبدون الصخور ، والماشية ، والضأن ، وأرواح الكهوف والجبال ، بالرغم من وجود موسى عليه السلام - بينهم .. ولم يتخلوا قط عن عبادة العجل والكبش والحمل ، ذلك أن موسى - عليه السلام - لم يستطع منع قطيعه من عبادة غير الله ، لأنهم - خلال رحلة (الخروج) و (التيه) - فقدوا القدرة على التماسك الفكرى والوجدانى ، وصاروا يستعينون أو (يسلبون) كل ما يجدون فى طريقهم من آلهة ومقدسات أشبه بمن تمكن منه مرض قاتل ، فيستجيب لكل (تشخيص) ، ولكل (وصفة) طبية أو شعبية ، وإن وصل الأمر إلى الاستعانة بالعفاريت ، والرقص على إيقاع (الزار) .

وقد ظل اليهود يعبدون (الأفعى النحاسية) التى زعموا أنها من صنع موسى - عليه السلام - ، حتى أيام حزقيال .

ومن بين الآثار التى وجدت فى كنعان سنة ١٩٣١م قطع من الخزف ، من بقايا عصر البرونز (٣٠٠٠ ق. م) ، عليها اسم إله كنعان المسمى (ياه) أو (ياهو) الذى صاغه اليهود فى صورة إله خاص بهم (يهوه) ، وجعلوا منه إلهًا صارمًا ذا نزعة حربية ، صعب المراس ، قادرًا على مطاردة الأعداء ، وإبادة الشعوب غير اليهود ، وحتى لا يخطئ فيهلك اليهود طلب إليهم أن يرشّوا بيوتهم بدماء القرابين ، حتى تنجو إذا ما اشتد غضبه ، على غير علم منه ، وقد اعترف هذا الإله بأن أشنع ما وقع فيه من الأخطاء أنه خلق الإنسان ، ولهذا كان يصب أحيانًا غضبه على شعبه (المختار) ، فقد كان غضوبًا ، نزقًا ، نكدًا ، متعطشًا للدماء ، شرهًا ، متقلب الأطوار .. رضى عما صنع يعقوب من ختل وخداع منتقمًا من خاله (لابان) ، وكما يقول ول ديورانت (قصة الحضارة مج ١ ج ٢ ، ص ٣٤٠) - لا يقل ضميره مرونة عن ضمير الأسقف الذى يندفع فى تيار السياسة ، فهو كثير الكلام ، يحب إلقاء الخطب الطوال ، وهو خجول لا يسمح للناس أن يروا منه إلا ظهره .

وقصارى القول : إنه لم يكن للأمم القديمة (إله آدمى فى كل شىء) كإله اليهود هذا .

ويستطرد ول ديورانت : يلوح أنه كان فى بداية الأمر إلهًا للرعد ، يسكن الجبال ، ويعبده الناس للسبب الذى كان (جوركى) الشاب يؤمن من أجله بالله ، إذا أرعدت السماء .. وحوّل كاتبو أسفار موسى - عليه السلام - الخمسة ، وهم الذين كانوا يتخذون الدين أداة للسياسة - إله الرعد هذا إلى إله للحرب ، فأصبح (يهوه) فى أيديهم إلهًا للجيوش ، يدعو للفتح والاستعمار ، يحارب من أجل شعبه بنفس القوة التى كان يحارب بها آلهة الإلياذة ، وفى ذلك يقول موسى - عليه السلام - : (الرب رجل حرب) ، ويردد داود صدى هذا القول نفسه ، فيقول : (الذى يعلم يدى القتال ، ويَعدُ (يهوه) أن يطرد (الحوريين والكنعانيين والحثيين) ، يطردهم (قليلًا قليلًا) ، (ويزعج جميع الشعوب الذين تأتى عليهم ، وأعطيك جميع أعدائى مدبرين) .. ويقول : إن الأرض الموعودة ملك له وحده ، وهو

لا يقطع مع اليهود ولا مع أعدائهم عهدًا سخيفًا .. إنه يتباهى بقدرته على أن يغرق المصريين فى البحر ، (فيعرف المصريون أنى أنا الرب ، حين أتمجد بفرعون ومركباته وفرسانه) .. وهو يرتكب - فى سبيل انتصار شعبه - من ضروب الوحشية ما تشمئز منه نفوسنا اشمئزازًا لا يعادله إلا رضاء ذلك العصر عنها ، إنه يذبح أممًا بأكملها ، راضيًا مزهوًا بعمله .

ولما بدأ اليهود يزنون مع بنات موآب ، قال لموسى : (خذ جميع رءوس الشعب ، وعلّقهم للرب مقابل الشمس) ، كما كان يفعل آشور بانيبال .

وهو يعرض رحمته على الذين يحبونه ، ويتبعون أوامره ، لكنه يفعل ما تفعله جراثيم الأوبئة الفتاكة (أنا الرب إله غيور أفتقد ذنوب الآباء فى الأبناء ، وفى الجيل الثالث والرابع من مبغضى) .

هو إله جبار يفكر فى إهلاك اليهود ، يستأصلهم ، لأنهم عبدوا العجل الذهبى ، ويضطر موسى - عليه السلام - إلى مراجعته ، حتى يسيطر على انفعالاته ، فيقول موسى - عليه السلام - لربه : (ارجع عن حُمُوّ غضبك ، واندم على الشر بشعبك) ، (فندم الرب على الشر الذى قال إنه يفعله بشعبه) .

وهو يختبر قومه اختبارًا قاسيًا ، فيطلب إلى إبراهيم تضحية ، يا لها من تضحية ، ويُعلّم إبراهيمُ يهوه - كما يعلّمه موسى - مبادئ الأخلاق السامية ، وينصحه ألا يهدم سدوم وعمورة ، إذا وجد فيهما من الرجال خمسون ، أو أربعون ، أو ثلاثون أو عشرون ، أو عشرة صالحون .

● لم يكن (يهوه) الإله الوحيد الذى يعترف اليهود بوجوده ، أو يعترف هو نفسه بوجوده .. وشاهد ذلك أن كل ما طلبه فى الوصية الأولى من الوصايا العشر هو أن يقوم مقامه فوق مقام سائر الأرباب ، وهو يقر بأنه إله غيور ، ويأمر أتباعه بهدم مذابحهم ، وتكسير أنصابهم ، وإبادتهم ، وقلما كان اليهود قبل أشعياء يفكرون فى أن (يهوه) إله الأسباط جميعًا ، أو حتى إله العبرانيين جميعًا ، فقد كان للمؤابيين إلههم (شمش) ، وكان (نعومى) يظن أنه لا خير من أن يظل (راعوث) على ولائه له ، وكان (بلزبوب) إله (عكرون) ، و (ملكرم) إله عمون .. ذلك أن الانفصالية التى كانت تتملك نفوس أولئك القوم ، من الناحيتين الاقتصادية

والسياسية ، قد أدت بطبيعة الحال إلى ما تستطيع أن تسميه استقلالًا دينيًا .. يقول موسى - عليه السلام - فى أغنيته الشهيرة : (من مثلك بين الآلهة يا رب) ، ويقول سليمان : (إلهنا أعظم من جميع الآلهة) .

ولم يكن جميع اليهود - إلا قلة قليلة - يعدون تموز إلهًا حقًا فحسب ، بل إن عبادته كانت - فى وقت من الأوقات - منتشرة بين اليهود ، حتى لقد شكا حزقيال من أن البكاء حزنًا على تموز كان يسمع فى الهيكل .

لقد كانت الفوارق بين الطوائف ، ونزعة التملك والاستقلال ، من أسباب الحرص على الآلهة (الخاصة) حتى فى زمن (إرميا) .

فلما نشأت الوحدة السياسية فى أيام داود وسليمان - عليهما السلام - وتركزت العبادة فى هيكل أورشليم ، أخذ الدين يردد أصداء التاريخ والسياسة ، وصار (يهوه) إله اليهود الأوحد ، ولم يَخْطُ اليهود نحو التوحيد غير هذه الخطوة ، وهى أن لليهود إلهًا واحدًا يعلو على آلهة غيرهم من البشر ، حتى كان زمن الأنبياء .

لقد جَهَر إليشع فى القرن التاسع ق . م بوجود إله واحد : (هو ذا قد عرفت ، إنه ليس إله فى كل الأرض إلا فى إسرائيل) .

هامش : يعلق ول ديورانت على هذا بقوله : (جدير بنا أن نذكر أن التوحيد - حتى فى أيامنا هذه - إنما هو توحيد نسبى ناقص ، ولن يكون للعالم كله إله واحد حتى تربط الآلات الأرض ، وتؤلف بينها ، وتجعلها وحدة اقتصادية ، وتجمع الأمم كلها فى حكومة واحدة) - « قصة الحضارة مج ١ ، ج ٢ ، ص ٣٤٤ » - وهذا وهم نظرى ، لأن وحدة الاتصال ، ووحدة الاقتصاد ، ووحدة الإعلام أيضًا ، والحكومة العالمية الواحدة ، إنما هى نظم سطحية ، ليس لها إلا تأثير محدود على أعماق الإنسان المغلّفة بطبقات سميكة من التقاليد والعادات والمعتقدات الخاصة ، ثم إن الحكومة العالمية لن تكون إلا حكومة ذات نزعة دينية خاصة ، أو عنصرية ، ولا تزال الصهيونية أو الماسونية تسعى سعيًا حثيثًا من أجل هذه الحكومة العالمية المكيفة تكييفًا عنصريًا رهيبًا ، سواء فى ظل المسيا - ذى الدور المحدود - أو بدونه ، والمسيحية تحلم بعودة السيد المسيح الذى يحكم العالم ألف عام تسود فيه العدالة والسلام ، أو تحلم بحكومة ذات وجهة دينية خاصة ، بتوجيه من الفاتيكان ، أو من

مجلس الكنائس العالمى الذى كان يحلم هو الآخر بسيادة المسيحية أرض أفريقيا كلها قبل سنة ٢٠٠٠ ؟!

● بقيت عبادة (يهوه) قرونًا دينًا قوامه الخوف ، لا الحب ، والرهبة ، لا الرغبة ، رغم ما بذله سليمان من جهود ، لكى يجمّل باللون والنغم عبادة هذا الإله الرهيب .

ولقد كان (تابوت العهد) المحتوى على (الوصايا) لا يسمح لأحد أن يمسه ، إذ كان رمزًا لطبيعة المعتقدات اليهودية المؤسسة على كهنوتية مستبدة مقصورة على اللاوين من نسل هرون ، مما يفيد أنها معتقدات مفصّلة تفصيلًا لخدمة هذه الطائفة ، وأن أسرارها لا تنكشف إلا لكهنة هذه الطائفة .

ولما مدّ (عُزّة) الصالح يديه إلى التابوت ليمنعه أن يسقط على الأرض ، وأمسكه لحظة قصيرة ، (حمى غضب الرب على عُزة ، وضربه الرب هناك ، لأجل أنه مد يده إلى التابوت ، فمات هناك ، أمام الله) - صموئيل الثانى صح ٦ ، ى ٧.

إنه إذا تُرك عُزة الصالح يمد يده إلى التابوت ليمنعه من السقوط ، فسيأتى من يمد يده لحجة أخرى ، كالتبرك به ، أو لمعاونة فى حمله ، وتتوالد الحجج وتتنوع ، ثم ينكشف المستور ، فإذا التابوت لا يحوى على شىء ، كما يقول بعض المؤرخين ، ومن ثم يتبين للقوم مدى الضلال الذى ساقهم إليه الكهنة من أجل أن يحصدوا عُشْر كل ما يملك هذا الشعب ، وباكورة إنتاجه ، هذا الشعب الذى كتبت عليه الذلة والمسكنة ، وكراهية الشعوب الأخرى ، وأحاطه الكهنة بتشريعات قاسية ، ضيقت عليه الخناق ، وحرمته من القدرة على أن يحيا حياة سَوِيّة .

● ولما اختلطت اليهودية بالديانات والفلسفات الفارسية والهندية واليونانية والهيلينية نشأ فكر جديد تمثلت قمته فى (فيلون) - ت عام ٤٠ م - الذى تتلمذ على الفلسفة اليونانية والهيلينية فى الإسكندرية ، دون ابتكار حقيقى من عنده ، إذا قيس بالتيارات الفكرية التى نسبت إلى (هرمس) فى النصف الأخير من القرن الثانى بعد الميلاد ، وكانت أبعد أثرًا وأكثر اتساقًا من كتابات فيلون ، وبخاصة فيما يتصل بمحاولتها إنشاء فلسفة دينية لاهوتية مستلهمة من الأفلاطونية ، تجمع بين تيار التأمل فى الإله عن طريق العالم ، وتيار التأمل فيه عن طريق الابتعاد عن العالم - عصر الإسكندر الذهبى ص ٢٥٨ .

كان الله فى كتابات (فيلون) الكائن الجوهرى فى العالم ، كائنًا غير مجسد ، أزليًا سرمديًّا ، يجلّ عن الوصف ، فى وسع العقل أن يدرك وجوده ، لكنه لا يستطيع أن يخلع عليه صفة ما ، لأن كل صفة تعنى التحديد ، والذين يتصورونه فى صورة بشرية إنما يفعلون ذلك لتقريبه من خيال البشر الحسى ، والله موجود فى كل مكان (وهل ثمة مكان يستطيع الإنسان أن يجده وليس الله فيه ؟) .. لكنه ليس كل شيء ، فالمادة أيضًا سرمدية وغير مخلوقة ، لكنها لا تكون لها حياة ، ولا حركة ، ولا صورة ، حتى تنبعث فيها القوة الإلهية .

كان (فيلون) يتأرجح بين الفلسفة واللاهوت ، وبين التجريد والتجسيد ، لهذا كان يفكر فى العقل الإلهى مرة ، كأنه شخص ، وفى ساعة من ساعات نشوته الشعرية يسميه (أول ما ولد الله) ، وابن الله من الحكمة العذراء ، ويقول : إنه عن طريق الكلمة كشف الله عن نفسه للإنسان .

وإذا كانت الروح فى رأيه جزءًا من الله ، فإن فى وسعها أن تسمو عن طريق العقل ، فترى الكلمة رؤيا صوفية ، وإن كانت لا ترى الله نفسه .

وربما كان فى وسعنا - إذا تحررنا من دنس المادة والحس ، وتدربنا على الزهد والتفكير الطويل - أن نصبح فى ساعة من الساعات روحًا خالصة ، وأن نرى الله نفسه فى لحظة من لحظات النشوة .

قصة الحضارة :

يقول ول ديورانت : (ولرأيه هذا سابقات واضحة فى فلسفة هرقليطس ، وأفلاطون ، والرواقيين) - مج ٣ ، ج ٣ ، ص ١٠٤ .

وكان (فيلون) معاصرًا للسيد المسيح ، ويحتمل أنه لم يسمع عنه ، لكنه قد أسهم - على غير علم منه - فى تكوين اللاهوت المسيحى .

ولم يكن أحبار اليهود راضين عن تفسيراته المجازية للكتاب المقدس ، لظنهم أن هذه التفسيرات قد تتخذ حجة لنبذ الطاعة الحرفية للشريعة اليهودية ، وكانوا يرتابون فى عقيدة الكلمة ، ويعدونها ارتدادًا عن عقيدة التوحيد .

وفى هذا يقول الأستاذ العقاد (الله ص ١٥٤) : كان مذهب فيلون مبدأ

ثورة دينية فى بنى إسرائيل ، فتابعه أُناس فى التأويل والتفسير ، وأحجم أُناس عن كل تأويل وتفسير ، مشفقين على التراث القديم ، وانتهى الخلاف إلى انشقاق حاسم بين القرائين ، وهم الملتزمون بالنصوص ، وبين الربانيين الذين يجيزون تفسيرها ، والتوفيق بينها وبين مقررات العلم ، ومذاهب الحكمة ، ولم يحدث ذلك إلا بعد تسعة قرون من عصر فيلون ، أى بعد شيوع الفلسفة الإسلامية ، واستفاضة البحث فى مسألة القضاء والقدر على الخصوص ، لأنها هى المسألة التى استحكم عليها الخلاف بين القرائين القائلين بالقضاء والربانيين القائلين بالاختيار .

لكن آباء الكنيسة المسيحية كانوا يعجبون بورع هذا الرجل اليهودى المنبعث عن تفكير عميق .. وكثيرًا ما كانوا يلجأون إلى آرائه وتعبيراته المجازية ، ليردوا بها على من يتصدون لنقد التوراة العبرية .

ولقد حاول (فيلون) أن يوفق بين اليهودية والفلسفة الهيلينية ، أما من جهة النظر اليهودية فقد أخفق فى مسعاه ، وأما من جهة النظر التاريخية فقد أفلح ، وكانت ثمرة فلاحه هى الإصحاح الأول من إنجيل يوحنا .



الأنبياء

نقل الأستاذ السحار (أضواء على السيرة النبوية ج ٢ ، ص ١٤٦) عن (قاموس الكتاب المقدس) أن (النبوة لفظ يفيد معنى الإخبار عن الله ، وعن الأمور الدينية ، ولا سيما عما سيحدث ، وسمى هرون نبيًّا ، لأنه كان المخبر والمتكلم عن موسى عليه السلام ، نظرًا لفصاحته - خروج ٧ : ١ - أما أنبياء العهد القديم فكانوا ينادون بالشريعة الموسوية ، وينبئون بمجيء المسيح .. ولما قلّت رغبة الكهنة ، وقل اهتمامهم بالتعليم ، فى أيام صموئيل ، أقام مدرسة فى الرامة ، وأطلق على تلامذتها اسم نبى الأنبياء ، فاشتهر من ثم صموئيل بإحياء الشريعة ، وقرن اسمه باسم موسى وهرون عليهما السلام فى مواضع كثيرة من الكتاب المقدس ، وتأسست مدارس أخرى للأنبياء فى بيت إيل ، وأريحا ، والجلجال ، وأماكن أخرى ، وكان رئيس المدرسة النبوية يدعى أبًا ، أو سيدًا ، وكان يعلم فى هذه المدارس تفسير التوراة والموسيقى والشعر ، ولذلك كان الأنبياء شعراء ، وأغلبهم كانوا يرنّمون ويلعبون على آلات الطرب ، وكانت الغاية من هذه المدارس أن يرشح الطلبة فيها لتعليم الشعب ، أما معيشة الأنبياء وبنى الأنبياء فكانت ساذجة للغاية ، وكثير منهم كانوا متنسكين أو طوافين ، يُضافون عند الاتقياء .

ويظهر أن كثيرين من الذين تعلموا فى تلك المدارس لم يعطوا قوة على الإنْباء بما سيأتى ، إنما اختص بهذا من كان الله يختارهم لهذا الأمر ، ويعدهم بتربية فوق العادة لواجبات خطيرة ، على أن بعض الأنبياء الملهمين كان يختصهم الله بوحيه ، وإن لم يسبق لهم التعلم ، أو دخول تلك المدارس ، مثل عاموس الراعى ، وجانى الجميز .

والنبوة كانت على أنواع مختلفة ، كالأحلام والرؤى والتبليغ ، وأحيانًا كثيرة كان الأنبياء يرون الأمور المستقبلة بدون تمييز أزمنتها ، فكانت تقترن فى رؤاهم الحوادث القريبة العهد مع البعيدة .

ويلاحظ أن ظهور الأنبياء كان فى جو مشحون بعوامل التفكك السياسى ، والاضطراب الاقتصادى ، والانحلال الدينى ، وذلك بعد موت سليمان عليه السلام ، وانقسام الدولة بين يهوذا وإسرائيل .

ولم يكن أولئك الأنبياء من طبقة عاموس وأشعيا الجديرة بالاحترام ، بل كان منهم من يلجأ إلى الحدس والتخمين على طريقة العرافة اليونانية ، وبعضهم كان يشكل نبوءته على قدر الأجر الذى كان يتقاضاه ، وكان منهم متهوسون متعصبون ، يستثيرون المشاعر بالأصوات الموسيقية الغريبة ، أو المشروبات القوية ، أو الرقص المثير ، وقد يغيبون عن الوعى وينطقون بعبارات يحار القوم فى تفسيرها ، فتعد وحيًا تبثه فيهم روح غير روحهم ، وقد سخر أرميا - من أجل هذا - سخرية لاذعة من كل (مجنون ومتنبئ) .. وكان منهم نساك كإيليا ، ومنهم من يعيشون فى مدارس أو أديرة مجاورة للهياكل ، ولكن معظمهم كانت له أملاك خاصة وزوجات .

ومن هذا الحشد الكبير من النساك خرج أنبياء بنى إسرائيل ، وأصبحوا على مر الزمن نَقَدة لعصرهم وشعبهم ، مقدرين التبعة الملقاة على عواتقهم ، وكان منهم سياسيون يسوسون بلادهم فى الخفاء ، (أشد الناس معارضة للكهنة) ، و (ألدهم عداء للتعصب السامى) ، كانوا مزيجًا من العرافين والاشتراكيين ، و (نخطئ إذا عددناهم أنبياء بالمعنى المألوف لهذا اللفظ) - قصة الحضارة مج ١ ج ٢ ص ٣٤٩.

وقد قال (عاموس) عن نفسه : إنه لم يكن نبيًا ، وإنما كان راعيًا ريفيًا ساذجًا ، فلما ترك قطيعه ليشهد بيت (إل) هاله ما شاهد فيه من تعقد الحياة تعقدًا غير طبيعى ، ومن الفروق الواسعة بين الثروات ، ومن منافسة مريرة قاتلة ، وقسوة فى استغلال الضعفاء ، فلما رأى هذا (وقف بالباب) ، وأخذ يصُبّ غضبه على ذوى الثراء المنغمسين فى الترف ، الذين لا يرعون فى الناس عهدًا ولاذمة .

وكان (أشعيا وعاموس) هما اللذان بدآ فى عصر الحروب يمجدان فضائل البساطة والرحمة والتعاون بين الناس والإخاء ، وهى الفضائل التى جعلها عيسى عليه السلام أساسًا جوهريًا لدينه ، وكانا أول من اضطلع بذلك العبء الثقيل ، عبء تحويل رب الجنود إلى إله حب ، وهما اللذان جنّدا (يهوه) ، واستعانا به على نشر المبادئ الإنسانية .

● ويؤخذ على أسفار (العهد القديم) أنها لم تشر إلى غير أنبياء بنى إسرائيل ، فسكتوا عن كل نبوءة ظهرت فى بلاد العرب ، سكتوا عن إسماعيل ، كما سكتوا عن صالح وهود ، ولم يذكروا شعيبًا الذى صاهره موسى عليه السلام ، وتعلم على يديه أكثر من عشر سنوات .

كما يؤخذ على هذه الأسفار أنها قست على الأنبياء من قبل موسى عليه السلام ، مثل نوح وإبراهيم ولوط وعلى الأنبياء من بعد موسى مثل داود وسليمان ، فذكرت خطايا لا يمكن غفرانها لعامة الناس ، ومع أن هذا (التجريم) قد حدث بأيدى كُتَّاب هذه الأسفار ، فانسياقًا مع دعوى أنها وحى أوحى به ، وتعصبًا أعمى لكل ما أقره (الحاخامات) السابقون ، وجدت هذه الدعاوى الأثيمة من يحاجّ ويدافع عنها .

يقول الدكتور جويلبود : (إن هذه الخطايا سجلت بأيدى فاعليها وبرضاهم وموافقتهم ، وحفظها أبناؤهم وذراريهم من بعدهم ، فلم كان ذلك ؟ إن شيئًا من هذا لم يسجل على ملوك مصر وبابل ، وتكاد سيرتهم أن تبدو كاملة نقية من العيوب ، وقد محيت عن تلك الصور كل وصمة ، وجُليت فيها كل زينة .. ولكن من يا ترى من ذوى العقل السليم بعد هذا يود أن يتبع مثال رمسيس أو نبوخذ نصر ، كما يود المسيحيون أن يدرسوا حياة إبراهيم ويعقوب وداود ؟ إن العلة غير بعيدة المنال ، فإن أبطال « العهد القديم » أُناس حقيقيون ، لهم حس كحسنا ، وشعور كشعورنا ، وسيرتهم صادقة الخبر ، وعيونهم سافرة للنظر ، فمن هدف هذه السيرة الأمينة يستطيع القارئ أن يبصر النذير ، ويتقى مثل هذه السقطة ، ويغنم من هذا شجاعة وإلهامًا من قدوة الإيمان المنتصر فى تلك السير) .

ألم يخش جويلبود وأمثاله اتخاذ هذه الأخطاء الجسام مدعاة إلى الانطلاق فى مجال الخطيئة ؟!

كيف يخطئ الأنبياء الذين اختارهم الله لتبليغ رسالة السماء إلى الأرض ، ويرجى من العامة أن يتخذوا من هذه الأخطاء سبيلًا إلى الهداية ؟!

* * *

التلمود

التلمود ليس موسوعة فى التاريخ ، والدين ، والشعائر ، والطب ، والأقاصيص الشعبية ، فحسب ، بل هو فوق ذلك رسالة فى الزراعة ، وفلاحة البساتين ، والصناعة ، والمهن ، والتجارة ، وشئون المال ، والضرائب ، والرق ، والميراث ، ونظام الأسرة ، وتربية الأبناء ، وشئون المرأة ، والطهارة ، والمحاكمات القضائية ، والقوانين الجنائية والعقوبات .

يخيل للمرء - وهو يقرأ فى هذا (الكتاب المقدس) المقدم على (العهد القديم) - أنه كتاب مبسط فى الطب المنزلى أكثر مما هو فى الشرائع الدينية ، ولقد تسرب إليه كثير من الطب الشعبى .

وإنا لنجد فى (الجمارا) البابلية وصفًا جيدًا للمرىء ، والحنجرة ، والقصبة الهوائية ، والرئتين ، والأغشية السحائية ، وأعضاء التناسل .. وقد وصفت فيه أمراض الرئتين ، وتليف الكبد ، وغيرها من الأمراض وصفًا دقيقًا .

لقد كان أحبار اليهود خبراء فى التغذية الصحية ، وتبدأ القواعد الحكمية للتغذية عندهم بالأسنان ، فهذه فى رأيهم يجب ألا تخلع ، مهما اشتدت آلامها ، لأن (الإنسان إذا أجاد مضغ الطعام بأسنانه وجدت قدماه القوة) ، وهم يمتدحون الخضر والفاكهة ، ماعدا البلح ، ويوصون بأكلها ، أما اللحم فمن مواد الترف التى يجب ألا يتناولها سوى المتطهرين .

ويجب أن يذبح الحيوان بحيث تقل آلامه إلى أقصى حد ، وبحيث يخرج الدم من اللحم ، لأن أكل اللحم بما فيه من الدم رجس .

ويجب ألا يجمع فى الوجبة الواحدة بين اللحم واللبن ، أو بين الأطعمة التى يدخل فيها هذان الصنفان ، بل يجب ألا يوضعا قريبين أحدهما من الآخر فى المطبخ .. ولحم الخنزير محرم ممقوت ، ولا يصح أكل البيض أو البصل أو الثوم ، إذا كان قد ترك بالليل منزوع القشر .

ويجب عدم تناول الطعام فى غير أوقاته المحددة ، (لا تنقر طول النهار كالدجاج) .

وهو يدعو إلى التمتع بطيبات الحياة ، إذا لم يكن فيها محرم .

● لقد جمع التلمود أفكارًا وخبرات ألف عام ووضعها فى مجموعة مترابطة متناسقة ، إنه عمل لا يقوى عليه مائة حبر من الأحبار الصابرين المتفرغين .

وما من شك فى أن كثيرًا من المقالات قد وضعت فى غير موضعها من الكتاب ، وأن عددًا من الفصول قد وضع فى غير المقالات التى يجب أن يوضع فيها ، وأن موضوعات تبدأ ثم تترك ، ثم تبدأ من جديد ، على غير قاعدة موضوعة ، ذلك لأن (الكتاب ليس ثمرة تفكير ، بل هو التفكير نفسه ، فكل الآراء المختلفة قد دونت فيه ، وكثيرًا ما تترك النقط المتعارضة دون أن تحل أو تفسر) - قصة الحضارة مج ٤ ، ج ٣ ص ٣٦ - وهذا يرجع إلى أن الكتاب لم يخضع لخطّة فى تأليفه ، وترك للزمن القيام على هذا التأليف ، فأضاف الأحبار فى أجيال مختلفة ما اكتسبوه من أفكار ، دون الخضوع لمراجعة ما سبق تدوينه ، وهذا بعينه ما حدث فى أسفار التوراة ، إذ كانت ظروف التدوين غير مستقرة ، سواء فى مرحلة الأسر الكبيرة ، أو فى مرحلة الصراع مع السلطة الرومانية .

إن كثيرًا من النصوص اختطفت من أفواه الأحبار والرواة ، ومن ثم يجب أن نعفو عما نجده من جدل ، وسفسطة ، وأقاصيص مكذوبة ، وأساطير ، وتنجيم ، وحديث عن الجن والشياطين ، وخرافات ، وخوارق للعادات ، وأسرار الأعداد ، وأحلام وحى ، ونقاش لا آخر له يتوج نسيجًا مهلهلًا من الخيالات والأوهام ، والغرور الذى يُعَزِّيهم ، ويأسو جراحهم ، ويخفف آلام آمالهم الضائعة .

انظر مثلًا إلى قول أحد أحبارهم أن موسى دخل متخفيًا إلى الحجرة التى يلقى فيها (عقيبا) دروسه ، وجلس فى الصف الأخير ، ودهش من كثرة القوانين التى استنبطها المعلم الكبير من الشريعة الموسوية ، والتى لم يحلم بها قط كاتبها .

لقد كان التلمود على حد قول هينى Heine وطنًا متنقلًا لليهود ، يحملونه معهم أينما ساروا ، ولهذا كان ملجأ وسلوى ، وسجنًا للروح اليهودية .

● ولما كثرت قرارات الأحبار وتضاعفت أصبحت مهمة استظهارها شاقة غير معقولة ، ولذلك حاول (هَلّل) و (عقيبا) و (مائير) مرارًا عدة أن يصنفوها ، ويستعينوا على استظهارها ببعض الأساليب والرموز ، لكن هذه التصانيف والرموز والحيل لم يحظ شيء منها بالقبول من جمهرة اليهود ، ونقص عدد من يحفظون الشريعة كلها عن ظهر قلب نقصًا مروعًا ، ومما زاد الطين بلة أن تشتت اليهود قد نشر هذه القلة فى أقطار نائية .

وحوالى سنة ١٨٩م تابع الحبر يهوذا هانسيا Hansia- فى قرية صبورة ، على بحيرة طبرية - عَملَ هلل وعقيبا ومائير ، وعدله ، وأعاد ترتيب الشريعة الشفوية بأكملها ، ثم دونها ، وزاد عليها من عنده ، فكانت (مشنا الحبر يهوذا) ، وانتشرت هذه بين اليهود انتشارًا أصبحت معه بعد حين الصورة المعتمدة لشريعة اليهود الشفوية .

وقد فعل المعلمون الجدد بمشنا يهوذا ما فعله (التنائيم) - معلمو الشريعة - بالعهد القديم ، وتناقشوا فى النص ، وحللوه ، وفسروه ، وعدّلوه ، لكى يطبقوه على المشاكل الجديدة ، وعلى ظروف الزمان والمكان .

ولما قارب القرن الرابع على الانتهاء نسقت مدارس فلسطين أفكارها ، وصاغتها فى الصورة المعروفة بالجمارا الفلسطينية .

وشرع الكوهن (رب آشى) ، رئيس جامعة سورا ، حوالى ذلك الوقت فى تقنين الجمارا البابلية ، وظل يواصل العمل فى التقنين جيلًا من الزمان ، وأتمه ربينا الثانى بار (ابن) شموئيل ، وهو أيضًا من جامعة سورا ، بُعد مائة عام من ذلك الوقت سنة ٤٩٩ م .

والجمارا البابلية أطول من المشنا إحدى عشرة مرة ، لهذا استغرق العمل فيها هذا الزمن الطويل .

والمشنا فى التلمود البابلى هى بعينها مشنا التلمود الفلسطينى ، غير أن الجمارا أو الشروح فى التلمود البابلى أربعة أمثالها فى التلمود الفلسطينى .

والتلمود - أو بعبارة أدق ، جزؤه الذى يبحث فى الشريعة (الهلكا) - هو

أيضًا كلمات الله الأزلية ، وهو صياغة للقوانين التى أوحاها الله إلى موسى عليه السلام شفويًا ، ثم علمها موسى لخلفائه ، ولهذا ، فإن ما فيها من الأوامر والنواهى واجبة الطاعة ، تستوى فى هذا مع كل ما جاء فى الكتاب المقدس .

ويلاحظ (أن أى مجمع يهودى لم يقر هذا الرأى الخاص بالتلمود ، واليهودية الحديثة بعد إصلاحها ترفضه) - قصة الحضارة مج ٤ ، ج ٣ ، ص ١٧ .

ومن أحبار اليهود من يجعلون المشنا مرجعًا أقوى حجة من الكتاب المقدس ، لأنه صورة من الشريعة معدلة ، جاءت متأخرة عنها ، وكانت بعض قرارات الأحبار تتعارض تعارضًا صريحًا مع قوانين أسفار موسى الخمسة ، أو تفسيرها تفسيرًا يبيح مخالفتها ، وكان يهود ألمانيا وفرنسا فى العصور الوسطى يدرسون التلمود أكثر مما يدرسون الكتاب المقدس نفسه .

● والله فى التلمود إله متصف صراحة بصفات البشر ، فهو يحب ويبغض ، ويغضب ويضحك ويبكى ، ويحس بوخز الضمير ، ويلبس التمائم ، ويجلس على عرش تحيط به طائفة من الملائكة المختلفى الدرجات ، يقومون على خدمته ، ويدرس التوراة ثلاث مرات كل يوم .

ويعترف رجال الدين أن هذه الصفات البشرية قائمة على الافتراض ، إلى حد ما ، ويقولون : (إننا نستعير له صفات من خلقه ، نصفه بها ، لنيسّر بذلك فهمه) .

وقد خلق الله كل شىء لغرض إلهى طيب ، (فقد خلق القوقعة لمداواة الجرب ، والزجاجة لمداواة لسعة الزنبور ، والبعوضة لمداواة عضة الأفعى ، والأفعى لعلاج الاحتقان) .

وقالوا : إن الخطيئة فى فطرة الإنسان ، لكن ارتكابها ليس موروثًا ، وقد قبل أحبار اليهود عقيدة سقوط الإنسان ، لكنهم لم يقبلوا عقيدة الخطيئة الأولى ، ولا الكفارة الإلهية ، فالإنسان فى رأيهم لا يعاقب إلا على ما ارتكبه من الذنوب .

وصوروا النار على أنها جهنم Gehinnam ، أو شاول ، وكان وادى هنم كومة من الأقذار فى خارج أورشليم ، تظل النار متقدة فيه لمنع انتشار الأوبئة ، أما شاول فقد كان فى رأيهم مكانًا مظلمًا تحت الأرض ، يذهب إليه جميع الأموات .

أما السماء فكانوا يسمونها جنة عدن ، وكانوا يصورونها فى صورة حديقة تحتوى على جميع المسرات الجسمية والروحية ، فخمرها عصرت من كروم احتفظ بها من الأيام الستة التى خلق فيها العالم ، والهواء فيها معطر ، والله نفسه يجتمع بالناجين من العذاب فى وليمة أعظم ما يسرّ أصحابها أن يروا وجهه .

بيد أن بعض الأحبار يعترفون بأن أحدًا ما لا يعرف قط ما وراء القبر - قصة الحضارة مج ٤ ج ٣ ص ٢٠ ، ٢١ .

وينسب وليم باركلى (سفر الرؤيا ص ١٧٢) كَوْن الآباء فى اليهودية اثنى عشر ، والرسل اثنى عشر ، يرجع إلى فكر بابلى يقول : إن هناك ٢٤ ملاكًا يحيطون بعرش الله ، وبناء على هذا (الوهم) نرى فى (أورشليم السماوية) أسماء آباء الأسباط المكتوبة على البوابات الاثنتى عشرة ، وأسماء الرسل على أحجار الأساس ، والآباء والرسل هم معًا مؤسسو الكنيسة .

● وكان أهم ما ثار حوله الجدل بين الفريسيين والصدوقيين الفلسطينيين هو : هل هذه الشريعة الشفوية (التلمود) هى الأخرى من عند الله ، فهى لذلك واجبة الطاعة ؟

ولما أن زال الصدوقيون - بعد تشتت اليهود سنة ٧٠ م - وورث رجال الدين تقاليد الفريسيين ورواياتهم ، قبل جميع اليهود المتمسكين بدينهم الشريعة الشفوية ، وآمنوا بأنها أوامر من عند الله ، وأضافوها إلى أسفار موسى الخمسة ، فتكونت من هذه وتلك التوراة ، أو الشريعة الموسوية التى استمسك بها اليهود ، وعاشوا بمقتضاها ، وكانت حقيقة لا مجازًا هى كيانهم ، وقوام حياتهم ، وكما سبق قول هينى هى وطنهم .

إن أحكام الشريعة الواردة فى الأسفار الخمسة أحكام (مسطورة) ، لهذا لم تكن تستطيع الوفاء بجميع حاجات أورشليم ، بعد أن فقدت حريتها ، ولا اليهودية بعد أن فقدت أورشليم ، ولا الشعب اليهودى فى خارج فلسطين .. لم تستطع الوفاء بهذه (الحاجات) ، أو معالجة الظروف المحيطة بها .. ومن ثم كانت مهمة علماء (السنهدرين) قبل التشتت ، والأحبار بعده - هى تفسير الشريعة الموسوية تفسيرًا يهتدى به الجيل الجديد ، والبيئة الجديدة ، ويفيدان منه .

وتوارث المعلمون جيلًا بعد جيل تفاسير هؤلاء العلماء ومناقشاتهم وآراء الأقلية والأغلبية فى موضوعاتها ، على أن هذه الروايات الشفوية لم تدون .

ولعل سبب عدم تدوينها أن هؤلاء العلماء أرادوا أن يجعلوها سرية قابلة للتعديل ، كما هو الشأن اليوم بالنسبة لحدود إسرائيل ، أو لعلهم أرادوا بذلك أن يرغموا الأجيال التالية على استظهارها .

وكان فى وسع الأحبار الذين أخذوا على أنفسهم تفسير الشريعة - إذا اضطرتهم الظروف - أن يستعينوا بمن قدروا على استظهارها ، لكنهم كمن لم يرغبوا فى توسيع دائرة (الاستظهار) حتى لا يكثر الطامعون فى (الكهانة) ، ويتسع الخرق على الراقع .

هامش : كان الأحبار فى القرون الستة الأولى بعد ميلاد المسيح يسمون « التنائيم Tennaim» ، أى « معلمى الشريعة » ، وإذ كانوا هم وحدهم المتضلعين فيها ، فقد كانوا هم المعلمين والقضاة بين يهود فلسطين ، بعد تدمير الهيكل .

أما السنهدرين Sanhedrin فجماعة بمثابة المحكمة العليا ، والمجلس الأعلى للشعب اليهودى القديم ، جمعت بين المهام الدينية ، والمدنية ، تتكون من ٧١ عضوًا ، تحت رئاسة الكاهن الأعظم ، وألغيت بعد تدمير أورشليم سنة ٧٠ م ، ويرجع بعضهم نشأة هذه الجماعة إلى ما جاء فى سفر العدد عن شيوخ إسرائيل الذين خرجوا مع موسى عليه السلام للقاء الرب فى (خيمة الاجتماع) ، لكن المراجع التاريخية ومراجع الكتب الدينية نفسها تخلو من ذكر السنهدرين ، إلا من خلال إشارة عابرة لا تفيد العدد ، ولا وظائف هذه الجماعة .

● وما كاد التلمود يتم حتى أصدر جستنيان قرارًا بتحريمه سنة ٥٥٣ م ، لأنه (خليط من الصغائر ، والخرافات ، والمظالم ، والإهانات ، والسباب ، والكفر ، والتجديف) .

ومع هذا ظل اليهود سبعمائة عام كاملة يقرءون ويدرسون مجلداته العزيزة عليهم بكامل حريتهم .

وحدث فى سنة ١٢٣٩ أن رفع نقولاس دونين Donin - وهو يهودى اعتنق

المسيحية – إلى البابا جريجورى التاسع معروضًا يتهم فيه التلمود بأنه يحتوى على إهانات فاضحة للمسيح والعذراء ، وتحريض على الغش والخداع فى معاملة المسيحيين ، وأضاف أن التلمود يجيز غش المسيحى ، ويحبذ قتله ، مهما بلغ صلاحه ، وأن أحبار اليهود يجيزون النكث بالعهود التى أقسموا على الوفاء بها ، وأن يقتلوا كل مسيحى يدرس الشريعة اليهودية .. فما كان من جريجورى إلا أن أمر الرهبان الدومنيك والفرنسيس بفحص كل ما يعثرون عليه من نسخ التلمود ، فإذا كان فيها ما ذكره دونين أحرقوها .

وقد أمر لويس التاسع بمحاكمة علنية للتلمود ، دامت ثلاثة أيام ، وصدر الحكم بإحراق جميع نسخ التلمود سنة ١٢٤٠ ، لكن كبير الأساقفة شفع لليهود ، وبعد موته أمر الملك بمصادرة جميع نسخ التلمود ، فجيء بها إلى باريس محملة على أربع وعشرين عربة ، وألقيت فى النار سنة ١٢٤٢ ، ثم صدر أمر بابوى سنة ١٢٤٨ يحرم تملك التلمود فى فرنسا .

● **يقول رينان** : (صارت الشريعة أضيق رداء شد على جسم الحياة الإنسانية) ، فقد جعلت الطعام والدواء والشئون الصحية الفردية ، وشئون الحيض والولادة ، والشئون الصحية العامة ، والانحراف الجنسى ، والشهوات البهيمية – من موضوعات الفروض والهداية الإلهية ، وفيها تشهد كيف أخذ الطبيب يفترق افتراقًا بطيئًا عن الكاهن ، ليصبح فيما بعد ألد أعدائه .

لقد صار الدين يساوى القومية ، بحيث إذا ما فكر اليهودى فى النجاة كان تفكيره فى نجاة الشعب ، لا فى نجاة الفرد .

ويقولون : (إن من يمشى أربع أذرع فى فلسطين يعيش بلا ريب إلى أبد الآبدين ، ومن يعش فى فلسطين يُطهَّر من الذنوب) .

وزعموا أن (حديث من يسكنون فلسطين فى حد ذاته توراة) .

وأهم قِسْم فى الصلوات اليومية ، وهو (الشمونة عسرا) ، أى (الفقرات الثمانى عشرة) – يحوى دعاء بمجيء ابن داود ، الملك المسيح ، الذى يجعل اليهود – كما كانوا – أمة متحدة ، حرة ، يعبدون الله فى هيكلهم بشعائرهم وترانيمهم .

صار كل بيت فى اليهود كنيسا ، وكل مدرسة معبدًا ، وكل أب كوهنا ،

فصلوات الكنيس وطقوسه كان لها مثيلات موجزة فى البيت ، وكان الصوم والأعياد الدينية يحتفل بها فيه احتفالات تعليمية ، تربط الماضى بالحاضر ، والأحياء بالأموات وبمن لم يولدوا بعد .

وكان من عادة الأب مساء يوم الجمعة – أى ليلة السبت من كل أسبوع – أن يجمع زوجته وأولاده وخدمه ويباركهم فردًا فردًا ، ويؤمهم فى الصلاة ، وفى القراءة من الكتب الدينية ، والأغانى المقدسة ، وكانت تعلق على باب كل حجرة كبيرة من حجرات البيت أنبوبة محتوية على ملف من الرق كتبت فيه فقرتان من سفر تثنية (صح ٦ ى ٩ وصح ١١ ى ٢١/١٣) تذكر اليهودى أن إلهه (واحد ، يجب أن يحبه من كل قلبه وروحه وبكل قوته) .

وكان يجاء بالولد إلى الكنيس من سن الرابعة ، وما بعدها ، حتى ينطبع الدين فى نفسه .



تطبيق الشريعة

كانت شريعة إسرائيل كلها هى الشريعة الدينية وحدها ، وكان الكهنة هم القضاة ، والهياكل هى المحاكم ، وكان يحكم بالإعدام على من لا يخضعون لأحكام الكهنة .

وكانت هناك حالات خاصة يترك الحكم فيها لله ، وذلك بأن يشرب المتهم ماءً سامًّا إذا كانت جريمته مشكوكًا فيها .

ولم تكن لديهم أداة لتنفيذ القانون سوى الأداة الدينية وحدها .
وكانت بعض الجرائم الصغيرة يكفر عنها بالاعتراف والفداء .

أما جرائم القتل ، وخطف الآدميين ، وعبادة الأوثان ، والزنا ، وضرب أحد الوالدين ، أو سبهما ، وسرقة العبيد ، أو مضاجعة بهيمة - فيحكم فيها بالإعدام بأمر « يهوه » ، وأما قتل الخادم فلا يعاقب عليه بالإعدام ، وكان الإعدام عقابًا على السحر : (لا تدع ساحرة تعيش) .

وكان « يهوه » يرضى أن يقوم الأفراد أنفسهم بتنفيذ القانون فى حالة القتل : (ولى الدم يقتل القاتل ، حين يصادفه يقتله) ، على أنهم كانوا يفردون بعض المدن ، يستطيع المجرم أن يفر إليها ، فإذا فعل كان على ولى الدم أن يؤجل ثأره .

إن المبدأ الذى كان يقوم عليه العقاب هو قانون القصاص : (وإن حصلت أذية تُعطِى نفسًا بنفس ، وعينًا بعين ، وسِنًّا بسنّ ، ويدًا بيدٍ ، ورجلًا برجل ، وكيًّا بكيٍّ ، وجرحًا بجرح ، ورَضًّا برضٍّ) .

ولا شك فى أن هذه المبادئ كانت مُثُلًا عليا لم تتحقق كلها على الوجه الأكمل - قصة الحضارة مج ١ ج ٢ ص ٣٨٢/٣٨٣ .

إن هذا الجزء من القانون لا يفضُل قانون حمورابى ، وإن كان قد كتب بعده ألف وخمسمائة سنة على الأقل .

أما من حيث تنظيم القضاء نفسه ، فإن فيه تخلُّفًا كثيرًا ، لأنه يعود بهذا التنظيم إلى السيطرة الكهنوتية البدائية .

ومن واجبنا أن نذكر أن الوصايا العشر كانت على الدوام قانونًا لا أكثر ، بل إنه يذكر أنها كانت (طوبى كهنوتية ، ولم تكن وصفًا صادقًا للحياة اليهودية ، وكانت ككل القوانين تعظم فى عيون أصحابها حين يخرقونها ، ويمتدحونها كلما اعتدوا عليها، لكن أثرها فى سلوك أصحابها لم يكن يقل عن أثر معظم الشرائع القضائية أو الأخلاقية ، بل شكلت دولة روحية لا تراها العين ، ولا تلمسها اليد وضمّت شملهم رغم تشتتهم ، وأبقت لهم كبرياءهم رغم هزائمهم) - المصدر السابق .

● وكانت الكتب العبرانية ، غير المعترف بصحتها - ككتاب الأعياد - تنشر بين الناس أقوالًا (خفية) عن خلق العالم ، وجعلت أسماء « يهوه » التى لا يصح النطق بها ذات قوى (خفية) ، وكانت حروفه الأربعة تهمس فى الآذان على أن لها معنى (خفيًا) ، وتأثيرًا معجزًا .

وكان (عقيبا) يقول : إن أداة الله فى خلق العالم هى التوراة ، أو أسفار موسى الخمسة ، وإن لكل كلمة ولكل حرف من هذه الأسفار المقدسة معنى (خفيًا) ، وقوة (خفية) .

وكان بعض الجاونيم البابليين يعزون إلى الحروف العبرية ، وإلى أسماء الملائكة ، أمثال هذه القوى (الخفية) ، فمن عرف هذه الأسماء استطاع أن يسيطر على جميع قوى الطبيعة .

وكان العلماء يعبثون بضروب السحر الأسود والأبيض ، أى القوى العجيبة التى يحصل عليها بعض الناس عن طريق اتصال الروح بالملائكة أو الشياطين .

وكان استحضار الأرواح ، ومعرفة الحظ بفتح الكتاب المقدس ، والتعاويذ ، والتمائم ، والرقى ، ومعرفة الغيب ، والقرعة - كل هذه (الشعوذات) كانت ذات شأن فى الحياة اليهودية .

وقد شملت كتب اليهود عجائب التنجيم ، إذ كانت للنجوم فى هذه الكتب حروفًا هجائية ، وكتابات فى السماء (خفية) ، لا يستطيع قراءتها إلا المطلعون على أسرارها .

الشعائر

كانت الشعائر أولًا هى قانون العبادة ، ولما أن حلت المعابد اليهودية محل الهيكل استبدلت بالأضاحى الحيوانية القرابين والصلوات .

ولم يكونوا يجيزون وضع صورة لله أو للآدميين فى المعابد ، كما لم يكونوا يجيزون وضعها فى الهيكل ، ذلك لأنهم كانوا يتجنبون كل ما يشتم منه عبادة الأوثان ، وكذلك كانت الموسيقى الآلية المباحة فى الهيكل محرمة فى المعابد .

وتعد الصلاة تجربة دينية يمارسها اليهودى المتدين كل يوم ، بل يكاد يمارسها فى كل ساعة ، لأنه يمكن اتقاء الخطيئة بالصلاة والتضحية .

ولم يكونوا يطعمون طعامًا دون أن يتلوا دعاء قصيرًا قبله ، وصلاة الشكر فى نهايته .

وكان أحبار اليهود يحاجّون بأن (الله لا يستجيب لصلاة الإنسان إلا إذا قام بها فى الكنيس) .

وأهم ما كانت تشتمل عليه الطقوس الدينية العامة هو (الشمونة عسرا) ، و (الشمع يسرائيل) ، وتلاوة من أسفار موسى الخمسة ، ومن سفر الأنبياء ، ومزامير داود ، وعظة تشتمل على تفسير فقرات من الكتاب المقدس ، وعلى قديش Kaddish (أدعية حمد وبركة للأحياء والأموات) ، ثم دعاء ختامى .

كانت الصلوات عند اليهود (الأتقياء) عملًا شديد التعقيد ، لا تؤدى على الوجه الصحيح إلا إذا غطى المصلى رأسه ، دليلًا على الخشوع ، وربط على ذراعيه وجبهته عُلَبًا صغيرة ، تحتوى فقرات من سفر الخروج (صح ١٣ ى ١/١٦) ، وتثنية الاشتراع (صح ٦ ى ٩/٤ وصح ١١ ى ٢١/١٣) ، وثبّت فى أطراف ثيابه أهدابًا نقشت عليها أهم وصايا الرب .

وكان رجال الدين يفسرون هذه الإجراءات الشكلية بأنها لابد منها لتذكر

اليهودى بوحدانية الله ، ووجوده ، وشرائعه ، أما السذج من اليهود فقد أصبحوا يحسبونها تمائم سحرية ذات قوى خارقة .

وكانت الصلاة تختم بقراءة من ملف الشريعة الموضوع فى تابوت صغير فوق المذبح .

ولم يكن اليهود فى المنفى يوافقون على إدخال الموسيقى فى الشعائر الدينية ، ويرون أنها قلما تتفق مع حزنهم على الوطن الضائع .

ثم عادت الموسيقى إلى الكنيس عن طريق الشعر .. كان مرتل القداس ينشد القصائد المقدسة فى الصلوات التى تقام فى المعابد ، كما كانت فرق المرتلين تنشد (تلاوة) الكتاب المقدس والأدعية بنغمات بسيطة موضوعة للترانيم المسيحية .

● وبدأت التضحية عند الساميين - كما بدأت عند الآريين - بالضحايا البشرية ، ثم حل الحيوان محل الإنسان ، فصار يضحى (بأولى ثمرات القطعان) ، وباكورة الطعام الذى تنتجه الحقول ، ثم انتهى الأمر أخيرًا بالاكتفاء بالتسبيح ، والثناء على الله .

وكان الاعتقاد السائد - فى أول الأمر - ألا يؤكل لحم حيوان إلا إذا ذبحه كاهن وباركه ، وعُرض وقتًا ما على الإله .

والقول فى التضحية يسوق إلى القول فى الختان الذى صار وسيلة تمييز للشخصية اليهودية ، مع أن الختان سبقت إليه شعوب كثيرة ، قبل أن يكون لليهود وجود .

روى هيرودوت (أبو التاريخ) أنه سأل الفينيقيين والسوريين عن عادة الختان ، فقالوا : (إنهم أخذوه من المصريين وإن المصريين كانوا يتحرون به النظافة والطهارة) .

ومازال يسمى فى مصر إلى الآن باسم (الطهارة) .

ويقول بريستيد (فجر الضمير ص ٣٧٩) : إن نشأة موسى فى مصر ، وتسميته باسم مصرى ، جعلاه يحض مواطنيه على الأخذ بشعيرة الختان ، وهى عادة مصرية قديمة جدًا ، كانت مراعاتها عامة فى أيامه بين سكان وادى النيل ، ويرجع عهدها إلى ما لا يقل عن ثلاثة آلاف سنة أو تزيد قبل عصره .

وإن الأجسام المصرية التى استخرجت من أقدام جبانات عصر ما قبل التاريخ ، قبل ٤٠٠٠ ق . م - تكشف عما يدل على الختان .

وقد مثلت عملية الختان - يقوم بها جراح مصرى - على جدران قبر فى جبانة منف ، يرجع عهده إلى القرن السابع والعشرين أو الثامن والعشرين ق . م .

ومع هذا يذكر الأستاذ العقاد (أبو الأنبياء : ص ٢٠٩) أن حقيقة الختان (اختصار لعادة الضحية البشرية ، نشأ مع تقدم الإنسان فى الحضارة والمدنية .. وانتقل الختان من اعتباره علامة تسليم لإله الأعداء إلى اعتباره علامة تسليم للإله الذى يعبده أبناء القبيلة ، وعندئذ وجب على النساء ، كما وجب على الرجال) .

وهذا التفسير خاضع للمفاهيم التوراتية التى جعلت من الختان علامة الشعب المختار ، وعهدًا بين الشعب وربه ، مع أنه حقيقة طبيعية ، نشأت عن العلاقة الجنسية ، وعن المقارنة بين أعضاء الذكورة عند سائر الحيوانات ، وعما تحدثه الغُلفة من أمراض .

وجاء الكتاب المقدس (تكوين صح ١٧ ى ٩/١٤) فأوجب إجراء عملية الختان للذكر فى اليوم الثامن بعد مولده ، وكان هذا الختان يعد قربانًا ليهوه ، وعهدًا بينه وبين عباده .. ولا ضير فى أن تُؤْثر الشريعة عادة قديمة فتوجب الأخذ بها لفائدتها ، وبخاصة أن هذه العادة التى انتشرت بين المصريين والأحباش والفينيقيين والسوريين والعرب - كانت ضرورة صحية ، فى جو يساعد على النضوج والتوتر الجنسى المبكر ، إلى جوار عامل النظافة أو (الطهارة) .

وكان أن ألزم أحبار اليهود بنى دينهم ألا يُبقوا لديهم عبدًا أكثر من اثنى عشر شهرًا دون ختان .

ويمكن القول بأنهم أرادوا فرض هذه الشعيرة على كل من يدين لهم بالولاء ، وقصة آل شكيم دليل على هذا .. لكن ألا يمكن الطعن فى هذه القصة على أساس أن منطقة آل شكيم من أرض كنعان ذات العلاقة القديمة بمصر وغيرها ، من فينيقيا وسوريا ، التى انتشرت فيها هذه العادة من زمن قديم ؟

يقول إسرائيل ولفنسون ، أستاذ اللغات السامية بكلية دار العلوم سنة ١٩٢٧:

(لا شك فى أن عادة الختان لم تسر من اليهود إلى العرب ، لأنها كانت منتشرة عند قبائل مختلفة فى الجزيرة العربية منذ عصور غابرة) .

ويلاحظ أن الحديث عن طلب الختان اقتصر على آل شكيم ، ولم يتناول أى شعب من الشعوب التى اجتاحها يشوع ، وفرض عليها الوجود اليهودى ، مما يذهب بالظن إلى أن الأمر كان مجرد (تعليل) لإمكان سيطرة رجلين (ولدى يعقوب) على قبيلة ، أو على عدد كبير من الرجال ، وما أكثر المزاعم (التوراتية) !!

على أى حال ، فقد صار الختان شعيرة يهودية ، لم يلتزم بها بولس ، رسول المسيحية (الثانية) ، وطورها سفر أرميا ، فاستعمل لفظ الختان للدلالة على فطام النفس عن الشهوات ، وإغلاق منافذ الشرور .

● وكان الحيض والولادة - كالخطيئة - يدنسان المرأة ويتطلبان تطهيرًا ذا مراسيم وتقاليد ، وتضحية وصلاة ، على يد الكهنة .

ولم يكن أحد غير الكهنة يستطيع أن يقرب القرابين بالطريقة الصحيحة ، أو يفسر الطقوس أو الأسرار الدينية تفسيرًا آمنًا من الخطأ .

وكان هؤلاء طبقة مغلقة ، لا يستطيع أحد أن ينتمى إليها إلا أبناء (لاوى) ، ولم يكن من حقهم أن يرثوا مالًا ، ولكنهم كانوا معفين من الضرائب ، ومن فرضة الرءوس ، وسائر الأتاوات على اختلاف أنواعها ، لأنهم مقرروها ، وكانوا يأخذون العشور على نتاج الضأن ، وينتفعون بما يبقى فى الهيكل من القرابين التى لم يستنفدها الإله ، (أو الآلهة) .

ونمت ثروة الكهنة - بعد نفى اليهود - بنمو المجتمع اليهودى الجديد .. وإذ كانت هذه الثروة (المقدسة) قد أحسن القيام عليها ، فقد جعلت كهنة الهيكل الثانى فى دمشق ، كما كان أمثالهم فى طيبة وبابل - أقوى من الملوك أنفسهم .

● على أن سلطان الكهنة ، وانتشار التربية الدينية ، لم يكفيا لتحرير عقول العبرانيين من الخرافات والأوهام ، ومن عبادة الأوثان ، بل ظلت قُلل التلال ، والحراج ، مأوى للآلهة الأجنبية ، ومشهدًا للطقوس الخفية ، وظلت أقلية كبيرة من الشعب تسجد للحجارة (المقدسة) ، أو تعبد بعلاً وعشتروت ، أو تتنبأ بالغيب على الطريقة البابلية ، أو تقيم الأنصاب وتحرق لها البخور ، أو تركع أمام الحية النحاسية أو العجل الذهبى ، أو تملأ الهيكل بضجيج الحفلات الوثنية ، أو ترغم أطفالها على أن (يجوزوا فى النار) من قبيل التضحية .

الأعياد

كانت لهم غير العطلة الأسبوعية (السبت) أعياد كثيرة ، منها مراسم كنعانية قديمة للزرع والحصاد ، ومنها أعياد دورية للشمس والقمر .. **ومن أهم أعيادهم :**

١ – عيد الفصح اليهودى الذى يبدأ فى الرابع عشر من نيسان (أبريل) ، ويستمر ثمانية أيام ، يحيون فيها ذكرى فرار اليهود من مصر .. وكانوا فى (الأيام الأُوَلِ) من العهد القديم يسمونه عيد الخبز الفطير ، لأن اليهود قد فروا ومعهم العجين الذى يصنعون منه خبزهم دون أن يختمر .

وفى اليوم الأول من أيام عيد الفصح كانوا يذبحون حملًا أو جديًا ، يأكلونه ويرشون دمه على الأبواب ، إشارة إلى أن هذا الدم هو نصيب الإله ، ثم ربط الكهنة هذه العادة بعادة قتل « يهوه » لأبكار المصريين من الأبناء .

٢ – عيد العنصرة ، وموعده بعد سبعة أيام من عيد الفصح ، يحتفل فيه اليهود بحصاد القمح ، ويسمى شباءوث ، أو شيوعوث ، وفيه تجلى الله لموسى على الجبل فى سيناء .

٣ – وفى اليوم الأول من تشرين الأول (أكتوبر) ، وهو الشهر السابع من السنة اليهودية الدينية ، والشهر الأول من السنة المدنية – يحتفل اليهود بعيد رأس السنة ، وبهلال الشهر ، إذ ينفخون فى القرن (الشفار ، أو الصفارة) ، إحياء لذكرى نزول التوراة ، ودعوة الناس إلى التوبة من الذنوب ، واستعجالًا لذلك اليوم السعيد .. فيه يدعى جميع اليهود فى العالم ليعبدوا الله فى أورشليم .. ومن مساء رأس السنة إلى اليوم العاشر من تشرين أيام توبة وتكفير عن الذنوب .. فإذا جاء اليوم العاشر المسمى هاكريم (يوم الغفران) لم يكن يجوز لهم فيه أن يأكلوا أو يشربوا ، أو يحتذوا نعالًا ، أو يقوموا بعمل ، أو يستحموا ، أو يقربوا النساء ، من مطلع الشمس إلى مغربها ، بل كانوا يقضون النهار كله فى الكنيس يصلون ، ويعترفون بذنوبهم ، ويستغفرون لها ، بما فيها عبادة العجل الذهبى نفسه .

٤ – وفى اليوم الخامس من تشرين يحل عيد سوكوت ، أو عيد المظلات ، وكان المفروض أن يقضى اليهود هذا العيد فى أخصاص ، إحياء لذكرى الخيام التى يقال إن آباءهم الأقدمين قد ناموا فيها خلال الأربعين يومًا التى قضوها فى البيداء ، ولما وجدوا صعوبة فى الاحتفال بعيد الخيام هذا فسروا الخيمة بكل ما يرمز للمسكن .

٥ – وفى اليوم الخامس والعشرين من الشهر التاسع (كسلو) ديسمبر ، والسبعة الأيام التالية لهذا اليوم يقع عيد (حَنُّكة) ، أو التكريس ، الذى يذكرهم بتطهير الهيكل سنة ١٦٥ ق . م ، بعد أن دنسه أنطيوخوس إيفانيز .

٦ – وفى الرابع عشر من آذار (مارس) ، يحتفل اليهود بعيد بوريم ، الذى أنجى فيه موردوخ وأستر الشعب من مكر الوزير الفارسى هامان : يقول ربرابا Rubraba : (إن على هذا الإنسان أن يشرب فى ذلك اليوم حتى لا يستطيع التمييز بين قولهم : « ملعون هامان ، وملعون موردوخ ») .



موسى بن ميمون

من خلال هذا السرد الموجز عن الكيان اليهودى (وجودًا وتشريعًا) ، اكتفاء بما أوردته فى كتابىّ (اليهود تاريخًا وعقيدة) ، و (دراسة فى التوراة والإنجيل) - أتحدث عن محاولتين يهوديتين بارزتين لتقويم ما أفسده كتّاب (العهد القديم) ، وهما محاولتان تكشفان عن الطبيعة اليهودية التى تستعين بكل الوسائل للحصول على أكثر الثمار ، دون احتفال برؤية الآخرين ، أو بما يملك الآخرون .

● كان لليهود - خلال العصور الوسطى (٥٦٥ - ١٣٠٠) - شريعة ، ولم تكن لهم دولة ، كان لهم وجود ، ولم يكن لهم وطن ، ذلك أن أورشليم ظلت إلى سنة ٦١٤م مدينة مسيحية ، وإلى سنة ٦٢٩ م مدينة فارسية ، وإلى سنة ٦٣٧م مدينة مسيحية ، ثم ظلت من ذلك الوقت إلى سنة ١٠٩٩م حاضرة إسلامية ، وفى ذلك العام حاصرها الصليبيون ، وانضم اليهود إلى المسلمين فى الدفاع عنها ، فلما سقطت فى أيدى الصليبيين سيق من بقى فيها حيًا من اليهود إلى إحدى بيعِهِمْ ، وأحرقوا عن آخرهم .

ولما استولى صلاح الدين الأيوبى على المدينة سنة ١١٨٧ أعقب ذلك ازدياد سريع فى عدد اليهود ، واستقبل السلطان العادل ، أخو صلاح الدين ، ثلاثمائة من أحبارهم الذين فروا من انجلترا وفرنسا سنة ١٢١١ استقبالاً حسنًا ، لكن ابن نَحْمان لم يجد فيها - بعد خمسين عامًا من ذلك الوقت - إلا حفنة صغيرة من اليهود ، ذلك أن سكان بيت المقدس كانوا قد أصبحوا كلهم مسلمين - قصة الحضارة مج ٤ ج ٣ ص ٤٠ .

● لقد عومل اليهود فى ظل الدولة الإسلامية معاملة طيبة ، وبخاصة فى كل من العراق ومصر ، وكان اليهود قد نزحوا إليهما بأعداد وفيرة خلال عهود الاضطهاد اليونانى والرومانى ، الوثنى والمسيحى ، ولما فتح عمرو بن العاص مصر سنة ٦٤١ كتب إلى الخليفة عمر يقول : إن فى الإسكندرية أربعة آلاف من اليهود .

ولما اتسعت مدينة القاهرة ازداد عدد من فيها من اليهود ، أصحاب العقيدة القديمة والقرائين .

وكان يهود مصر يستمتعون بالحكم الذاتي في شئونهم الداخلية بزعامة النجيد ، أو أمير اليهود ، كما كان الحال في عاصمة الخلافة ، بغداد ، وازدادت ثروتهم من الأعمال التجارية ، وارتفعوا إلى المناصب العالية : أطباء وعلماء ومستشارين للحكام وسفراء .

● وقد نبغ من علمائهم ذوى الأثر في الفكر اليهودى الحبر سَعْديا بن يوسف (٨٩٢/ ٩٤٢) الذى ولد بإحدى قرى الفيوم ، وشب في مصر وتزوج بها ، ثم هاجر إلى فلسطين سنة ٩١٥ .

كان يؤمن بالشريعة المكتوبة وغير المكتوبة ، بالإضافة إلى أنه كان يؤمن بالعقل ، ويطالب بألا يؤخذ بحرفية النص المتعارض مع العقول الناضجة ، كما يجب أن تؤخذ أوصاف الله الجسمانية على أساس مجازى .

ويرى أنه ليس من العقل في شيء أن يظن أن الله العاقل المدبر يعجز عن أن يثيب على الفضيلة ، لكن الفضيلة - كما هو واضح - لا يثاب عليها دائمًا في هذه الحياة ، ومن ثم لابد أن تكون هناك حياة أخرى تعوض ما يبدو في هذه الحياة الدنيا من ظلم ظاهرى .. ولعل آلام الصالحين في هذه الدنيا ليست إلا عقابًا لبعض ما ارتكبوه من ذنوب ، حتى يدخلوا الجنة من فورهم بعد موتهم ، كما أن ما يظفر به الأشرار من نعم إنما هو مثوبة على أعمالهم الصالحة العارضة .

الناس كلهم ، حتى الذين يقومون بالأعمال الصالحة في هذا العالم ، وينالون فيه أعظم الخير والسعادة يحسون في أعماقهم أن ثمة حالًا خيرًا من حالهم هذه ، وكيف يجوز لله الذى اقتضت حكمته العظيمة خلق هذا العالم العجيب أن يبعث هذه الآمال في النفس ، إذا لم يشأ أن تتحقق ؟

لقد تأثر سعديا - إلى حد كبير - بفقهاء الإسلام ، وسار على نهجهم في الشرح والإيضاح ، بل إنه استعار منهم أساليب الجدل والحوار .
يقول ابن ميمون : (لولا سعديا لكادت التوراة أن تختفى من الوجود) - قصة الحضارة مج ٤ ج ٣ ص ٤٤ .

وبين كل من سعديا وابن ميمون ظهر فلاسفة يهود ، نهلوا من الينابيع العربية الإسلامية ، وألفوا بالعربية .. منهم :

داود بن مروان الرقى (ت ٩٣٧ م) ، صاحب (كتاب الاثنتى عشرة مقالة) وقد اتبع فيها طريقة المتكلمين الإسلاميين فى البرهنة على وجود الله وعلى كمال صفاته .

وإسحق إسرائيل الذى ولد فى مصر ، منتصف القرن التاسع الميلادى ، ثم رحل إلى القيروان ، وعمل طبيبًا لأبى محمد عبدالله المهدى ، مؤسس الدولة الفاطمية فى شمال أفريقيا ، وله (كتاب العناصر) تفسيرًا وعرضًا لكتاب الطبيعة لأرسطو ، كما أن له كتاب (بستان الحكمة) ، و (كتاب الحكمة) ، و (كتاب المدخل إلى المنطق) .

وكان سليمان بن جبيرول مؤلف كتاب (ينبوع الحياة) من أشهر فلاسفة اليهود ، وكتابه هذا محاورة فلسفية تبين أن المادة والصورة أساس الوجود ، ومصدر الحياة فى كل مخلوق ، ومن هنا لقب بأفلاطون اليهودى ، لأنه نحا نحو الأفلاطونية الحديثة .

أما يحيى ين يوسف بن فقودة (ت ١٠٥٠م) الذى عاش فى بلنسية مع ابن جبيرول ، فقد عرف بكتابه (واجبات القلوب) الذى شرح فيه أسس التدين والسلوك ، متبعًا منهجًا صوفيًا .

وأما يهوذا الليفى فمكانته فى الفلسفة اليهودية توازى مكانة الغزالى فى الإسلام ، وفى كتابه (الحجة والدليل) انتقد المتكلمين انتقادًا شديدًا ، بسبب انتصارهم للفلسفة .

وجاء إبراهيم بن داود (ت ١١٨٠م) ليقتفى أثر ابن رشد فى الانتصار للفلسفة ، وفى كتابه (العقيدة الرفيعة) لخص تعاليم الفارابى وابن سينا ، مستعينًا بكتابى أرسطو فى الطبيعة وما بعد الطبيعة ، وأثبت أن النظريات كانت على وفاق تام مع تعاليم اليهودية .

● أما أعظم رجال اليهود فكان **موسى بن ميمون** (١١٣٥ / ١٢٠٤) .. ولد

بقرطبة لأب من كبار العلماء ، هو الطبيب والقاضى **ميمون بن يوسف** .

ولما بلغ موسى صار من الأقوال اليهودية المأثورة (لم يظهر رجل كموسى من أيام موسى إلا موسى) .

تلقى العلم على يد ثلاثة من العلماء المسلمين ، هم أحد تلاميذ أبى بكر بن الصائغ ، وابن الأفلح ، وابن رشد ، وإن كان ابن ميمون لا يذكر ابن رشد بين شيوخه ، على أنه يقول فى رسالة كتبها سنة ١١٩١م إنه حصل على كل مؤلفات ابن رشد ، فيما عدا كتاب (الحس والمحسوس) ، وبما أنه توفى عام ١٢٠٤م فقد أتيحت له الفرصة لقراءة ابن رشد والاستفادة منه [١] .

وبسبب من الاضطرابات الأسبانية غادر أسبانيا سنة ١١٥٩ هو وزوجته وأولاده إلى فاس ، حيث أقاموا تسع سنين ، مدعين أنهم مسلمون ، ثم سافروا إلى فلسطين ، ثم إلى الإسكندرية ، ثم إلى مصر القديمة ، حيث دفن موسى .

ولقد عرف المصريون فضله ، فاختير طبيبًا خاصًا لنور الدين ، أكبر أبناء صلاح الدين ، وللقاضى الفاضل وزير صلاح الدين ، واستخدم نفوذه فى بلاط السلطان لحماية اليهود فى مصر .

ولما فتح صلاح الدين فلسطين أقنعه ابن ميمون بأن يسمح لليهود بالإقامة فيها من جديد .

وفى سنة ١١٧٧م عين ابن ميمون نجيدا أو زعيمًا لليهود بمصر .

ومن آرائه : (يجب على جميع بنى إسرائيل أن يتبعوا كل ما ورد فى التلمود البابلى ، وعلينا أن نرغم اليهود فى جميع أنحاء الأرض - على أن يستمسكوا بالعادات والأساليب التى قررها حكماء التلمود) .

(من رأيى أن جميع أفراد العشيرة اليهودية التى بلغت من القِحة والجرأة ما جعلها تخالف أمرًا من أوامر الله - يجب أن يعدموا) .

---

(١) ذكر الدكتور إبراهيم هنداوى أنه تأثر بابن رشد تأثرًا كبيرًا ، إذ كانت مؤلفات ابن رشد موضع اهتمام ودراسات فلاسفة اليهود جميعًا ، وقد التقى ابن ميمون بابن رشد فى مدينة (المرية) بجنوب الأندلس - الأثر العربى فى الفكر اليهودى ص ١٥٤ .

(إن القسوة على من يُضلون الناس ، سعيًا وراء الزهو والخيلاء ، إنما هى رحمة بالعالم) .

وارتضى - دون عناء - عقوبة الإعدام التى يفرضها الكتاب المقدس جزاء للسحر ، والقتل ، ومضاجعة المحارم ، وعبادة الأوثان ، والسرقة بالإكراه ، وخطف الأشخاص ، وعصيان الآباء ، وخرق حرمة السبت .

وأيد فى شيخوخته قول أحبار اليهود : إن (اللقيط العالم بالشريعة يسبق الكوهن الأكبر الجاهل) .

وهو ينصح العالم بأن يخصص من وقته ثلاث ساعات كل يوم لكسب العيش ، وتسعًا لدراسة التوراة .

ولم يفقد إيمانه بأن المسيح الحق سيأتى ويعيد إسرائيل إلى صهيون ، ويقود العالم كله إلى الدين الحق ، وإلى الرخاء ، والأخوة ، والسلام : (تفنى جميع الأمم ، أما اليهود فباقون إلى أبد الدهر) .

وهو يمضى فى قضية حرية الاختيار والإرادة الإنسانية على طريق المعتزلة ، إذ يقرر أن الله أباح للإنسان الإرادة الحرة التى تجعل منه إنسانًا بحق ، وقد يختار الإنسان الشر أحيانًا ، والله يعلم مقدمًا بهذا الاختيار ، لكن ليس هو الذى يقرره ويحتمه - قصة الحضارة مج ٤ ج ٣ ص ١١٩ / ١٢٨ .

● **يقول الشيخ مصطفى عبد الرازق** : إن موسى بن ميمون يجب أن يعتبر من الفلاسفة المسلمين ، وسرد الأدلة على ذلك .

ألّفت كتب خاصة بالاحتفال بذكرى مرور ثمانمائة عام على ميلاده سنة ١٩٣٥م فى أنحاء العالم ، ومن جملة تلك الكتب : (موسى بن ميمون .. حياته ومصنفاته) لإسرائيل ولفنسون باللغة العربية ، قدم له الشيخ مصطفى عبد الرازق .

وأهم مؤلفاته كتاب (دلالة الحائرين) ٧٤١ صفحة غير الفهارس ، يتكون من ثلاثة أجزاء : الجزء الأول فى الإلهيات ، والجزء الثانى فى إثبات وجود الله وتنزيهه عن السلبيات ، والجزء الثالث فى قصة الخلق وقصة الأمر ، وفيه عرض لما فى الشريعة اليهودية ، ودفاع عنها .

حققهُ د. حسين آثاى (التركى) ، ونشرته مكتبة الثقافة الدينية بالقاهرة بلا تاريخ .

يبدأ قوله على الطريقة الإسلامية ، لكنه يغير من الشعار الإسلامى ، ويقول : (بسم الله رب العالم ، بسم الله إله العالم) .

ومع أنه تتلمذ على أيدى عرب مسلمين ، وعاش فى بيئة عربية إسلامية ، فهو كثير الأخطاء اللغوية والنحوية ، مما يتبين فى بعض النصوص التى أوردها .

كما يلاحظ أنه درس (العهد القديم) دراسة تصل إلى مستوى حفظ النصوص ، بحيث لا يشق عليه الاستعانة بجمل كثيرة منه ، وإن كان يعتسف لها مواضع أخرى .

وكما قلت : إن الكتاب كأنما وضع للدفاع عن مواضع الضعف الكثيرة التى ساقها نقّاد عصر النهضة ، ومرحلة التنوير بخاصة ، وهو أشبه بالمحامى الذى خانته الأدلة فاستعان بجهارة الصوت وحشو الكلام .

وقد بدأ دفاعه بالحديث عن القواعد الأساسية لصحة الدفاع ، أو لخفاء الحجة على من لا يحسنون الاستماع ، أو لا يجيدون الفهم ، فقال :

(لا تظن أن تلك الأسرار العظيمة معلومة إلى غايتها ونهايتها إلى أحد منا ، لا ، بل تارة يلوح لنا الحق ، حتى نظنه نهارًا ، ثم تخفيه المواد ، والعادات ، والعوائق ، حتى نعود فى ليل مبهم قريب مما كنا أولًا ، فنكون كمن يبرق عليه البرق مرة بعد مرة ، وهو فى ليلة شديدة الظلام) ص ٧ .

(فمنا من يبرق له البرق المرة بعد المرة ، حتى كأنه فى ضوء دائمًا لا يبرح ، فيصير الليل عنده كالنهار ، وهذه هى درجة عظيم النبيين الذى قيل له : « وأنت فقف هاهنا عندى » التثنية - ٥/٣١ - وقيل له : « فإن أديم وجهه قد صار مُشِعًّا ...إلخ » - الخروج ٢٩/٣٤) ص ٨ .

(ومنهم من بَرَق له مرة واحدة فى ليلته كلها ، وهى درجة من قيل فيهم : « تنبئوا ، إلا أنهم لم يستمروا » - العدد ٢٥/١١) ص ٨ .

(ومنهم من يكون بين البرق والبرق فترات كثيرة وقليلة ، وثم من لا ينتهى

لدرجة يضىء ظلامه ببرق ، بل بجسم صقيل أو نحوه من الحجارة وغيرها التى تضىء فى ظلمات الليل ، ولو ذلك الضوء اليسير أيضًا الذى يشرق علينا ليس هو دائمًا ، بل « يلوح ويخفى ، كأنه بريق سيف متقلب » - التكوين ٢٤/٣ - وبحسب هذه الأحوال تختلف درجات الكاملين) ص ٨ .

(أما الذين لم يروا ضوءًا يومًا قط ، بل هم فى ليلتهم يخبطون ، وهم الذين قيل فيهم : إنهم لا يعلمون ، ولا يفهمون ، سيكونون فى الظلمة » - المزمور ٥/٨١ - وخفى عنهم الحق جملة ، مع شدة ظهوره ، كما قيل فيهم : « إنهم لا يرون النور الذى يلمع فى السماء » - أيوب ٢١/٣٧ - وهم جمهور العامة ، فلا مدخل لذكرهم هنا فى هذه المقالة) ص ٨ .

الكتاب مجموعة مقالات كتبها إلى التلميذ العزيز الرَّبى يوسف ، صائك الصخرة ، ابن الربى يهوذا .

ونجده ظاهر التأثر بالفكر الإسلامى ، واقعًا تحت الرغبة فى أن يكون متميزًا ، فأخذ التميز صورًا شكلية ، ثم هو يصطاد عبارات من التوراة غير كاملة النمو ، يعبر بها عن معان رائجة فى التراث الإسلامى .

● ثم هو يبين أسباب التناقض أو التضاد الموجود فى كتاب من الكتب ، أو فى تأليف من التآليف ، متمثلة فى سبعة أسباب :

السبب الأول : هو أن يكون المؤلف جمع أقاويل الناس ، ولهم آراء مختلفة ، وحذف السند ، ولم ينسب كل قول لقائله ، فيوجد فى ذلك التأليف تناقض أو تضاد ، لكون إحدى القضيتين مذهب شخص ، والقضية الأخرى مذهب شخص آخر .

السبب الثانى : كون صاحب هذا الكتاب كان له رأى ما ، ثم رجع عنه ، ودونت أقاويله الأولى والثانية .

السبب الثالث : كون تلك الأقاويل ليست كلها على ظاهرها ، بل يكون بعضها على ظاهره ، وبعضها مثلًا ، فيكون له باطن ، أو تكون القضيتان جميعًا المتناقضات الظاهر أمثالًا ، فإذا حملت على ظواهرها كانت متناقضة أو متضادة .

السبب الرابع : أن تكون شريطةٌ ما لم يصرح بها فى موضعها لضرورة ما ، أو

يكون الموضوعان مختلفين ، ولم يبين أحدهما فى موضعه ، فيظهر تناقض فى القول ، وليس ثم تناقض .

السبب الخامس : ضرورة التعليم والتفهيم ، وذلك أن يكون معنى ما غامض ، عسر التصور ، يلتجئ لذكره ، أو لاتخاذه مقدمة فى تبيين معنى سهل التصور ، ينبغى أن يقدم فى التعليم على ذلك الأول ، لكون البدأة أبدًا بالأسهل ، فيلتجئ المعلم أن يتسامح فى تفهيم ذلك المعنى الأول على أى وجه اتفق ، وبجليل النظر ، ولا يأخذ فى تحرير حقيقته ، بل يترك بحسب خيال السامع ، حتى يفهم ما يراد به الآن فهمه ، وبعد ذلك يحرر ذلك المعنى الغامض ، وتبين حقيقته فى الموضع اللائق به .

السبب السادس : خفاء التناقض ، وكونه لا يتبين إلا بعد مقدمات كثيرة ، وكلما احتيج إلى إظهاره إلى مقدمات أكثر كان أخفى ، فيمر ذلك على المؤلف ، ويظن أن القضيتين الأوليين لا تناقض بينهما ، فإذا أخذت كل قضية منهما ، وأضيف إليها مقدمة صادقة ، وينتج ما يلزم ، ينتهى الأمر بعد عدة مقاييس إلى تناقض بين النتيجتين الأخيرتين ، أو تضاد ، ومثل هذا هو الذى يمر على العلماء المؤلفين .. أما أن تكون القضيتان الأوليان ظاهرتى التناقض ، غير أنه نسى الأولى عند تدوينه الأخرى فى موضع آخر من التأليف ، فإن هذا انحطاط عظيم جدًا ، ولا يعد هذا فى عداد من تعتبر أقاويله .

السبب السابع : ضرورة الكلام فى أمور غامضة جدًا ، ينبغى إخفاء بعض معانيها ، وإظهار بعض ، فقد تدعو الضرورة - بحسب قولة ما - ليجرى الكلام فيها على تقرير مقدمة ما ، وتدعو الضرورة فى موضع آخر ليجرى الكلام فيها على تقرير مقدمة متناقضة لتلك ، وينبغى أن لا يشعر الجمهور بوجه ، بموضع التناقض بينهما ، وقد يتحيّل المؤلف فى إخفاء ذلك بكل وجه) ص ١٨، ١٩ .

● ثم يسعى إلى تطبيق هذا على ما جاء فى المشنه والعهود وبقية أسفار التلمود ، والكتب النبوية كلها ، وفى كتب الفلاسفة المحققين .. ومن ذلك :

١ - صورة ومثال : (قد ظن الناس أن الصورة فى اللسان العبرانى يدل على شكل الشيء وتخطيطه ، فودَّى ذلك إلى التجسيم المحض ، لقوله : « لنصنع الإنسان على صورتنا كمثالنا » ، وظنوا أن الله على صورة إنسان ، أعنى شكله وتخطيطه ،

فلزمهم التجسيم المحض ، فاعتقدوه ، ورأوا أنهم إن فارقوا هذا الاعتقاد كذبوا النص .. فأقول : إن الصورة المشهورة عند الجمهور التي هي شكل الشيء وتخطيطه ، اسمها الخصيص بها في اللسان العبراني صفة ، قال : حسن الهيئة ، جميل المنظر ، ما هي ماهيته ، هيئة أبناء الملوك ، وقيل في الصورة الصناعية : «ويسويه بالمِنْحَت ، يرسمه بالبركار » - أشعيا ١٣/٤٤ - وهذه اسمية لم توقع على الإله تعالى قط ، وحاشا وكلا) ص ٢٢ .

(أما الصورة فهو يقع على الصورة الطبيعية ، أعني على المعنى الذي به تجوهر الشيء ، وصار ما هو ، وهو حقيقته ، من حيث هو ذلك الموجود الذي ذلك المعنى في الإنسان هو الذي عنه يكون الإدراك الإنساني ، ومن أجل هذا الإدراك العقلي قيل فيه : « على صورة الله خلقه » - تكوين ٢٧/١ - ولذلك قيل : « تحتقر خيالهم » - المزمور ٢٠/٧٢ - لأن الاحتقار لاحق للنفس التي هي الصورة النوعية ، لا لأشكال الأعضاء وتخطيطها ، وكذلك أقول : إن العلة في تسمية الأصنام صُورًا كون المطلوب منها معناه المظنون به ، لا شكلها وتخطيطها) ص ٢٣ .

٢ - (اعترضني رجل عُلومي - مثقف - منذ سنين اعتراضًا غريبًا .. قال المعترض : يبدو من النص « وكنتم كآلهة تعرفون الخير والشر » - تكوين ٥/٣ - أن القصد الأول بالإنسان أن يكون كسائر الحيوان لا عقل له ، ولا فكرة ، ولا يفرق بين الخير والشر ، فلما عصى أوجبت له معصيته هذا الكمال العظيم الخصيص بالإنسان ، وهو أن يكون له هذا التميز الموجود فينا ، الذي هو أشرف المعاني الموجودة لنا ، وبه نتجوهر ، فهذا هو العجب أن يكون عقابه على معصيته إعطاؤه كمالًا لم يكن له وهو العقل) .

(تثبت وتأمل ، فليس الأمر كما ظننت بأول خاطر ، بل كما يبين عند التأمل لهذا الكلام ، وذلك أن العقل الذي أفاضه الله على الإنسان ، وهو كماله الأخير ، هو الذي حصل لآدم قبل معصيته ، وبه قيل فيه : إنه « في صورة الله وعلى شاكلته » ، من أجله كان مخاطبًا ، ووُصِّي ، كما قال : « أمر الرب الإله ... إلخ » - تكوين ١٦/٢ - ولا تكون الوصية للبهائم ، ولا لمن لا عقل له ، وبالعقل يفرق بين الحق والباطل ، وهذا كان موجودًا فيه على كماله وتمامه) - ص ٢٥/٢٤ .

(فلما عصى ومال نحو شهواته الخيالية ، ولذات حواسه الجسمانية ، كما قال : « إن الشجرة طيبة للمأكل ، وشهية للعيون - تكوين ٣/٦ - عوقب بأن سُلب ذلك الإدراك العقلى ، ولذلك عصى الأمر الذى من أجل عقله وصّى به ، وحصل له إدراك المشهورات ، وغرق فى الاستقباح والاستحسان ، فحينئذ علم قدر ما فاته ، وما تعرى عنه ، وفى أى حالة صار ، ولذلك قال : « وتصيران كآلهة عارفى الخير والشر » - تكوين ٣/٥ - ولم يقل عارفى الحق والباطل ، أو مدركى الحق والباطل .. وتأمل قوله : « فانفتحت أعينهما ، فعلما أنهما عريانان » - تكوين ٣/٧ - لم يقل انفتحت أعين اثنيهما ، ورأوا ، لأن الذى رأى قبل هو الذى رأى بعد ، لم تكن غشاوة على البصر انجلت ، بل صارت له حالة أخرى يستقبح بها ما لم يكن يستقبحه قبل) ص ٢٦ .

(وبين وقال : « فأخرجه الرب الإله من جنة عدن ليحرث الأرض » - تكوين ٣/٢٣ - وساواه بالبهائم فى أغذيته ، وأكثر حالاته ، كما قال : « وتأكل عشب الصحراء » - تكوين ٤/١٢ - وقال مبينًا لهذه القصة : « كان الإنسان فى كرامة ، فلم يفهم ، فماثل البهائم ، وتشبه بها » - المزمور ٤٨/١٣ - فسبحان ذى المشيّة التى لا تدرك غايتها وحكمتها) ص ٢٧ .

٣ - رأى ونظر : (قال : « وقلبى رأى كثيرًا من الحكمة والعلم » - الجامعة ١/١٦ - وهذا إدراك عقلى ، لا رؤية عين ، وبحسب هذه الاستعارة هو كل لفظ الرؤية جاء فى الله تعالى ، مثل قوله : « رأيت الرب » - الملوك الثالث ٢٢/١٩ - « يُرى له الرب » - تكوين ١٨/١ - « ورأى الله ذلك أنه حسن » - تكوين ١/١٠ - « أرنى مجدك » - الخروج ٣٣/١٨ - « فرأوا إله إسرائيل » - الخروج ٢٤/١٠ - كل ذلك إدراك عقلى ، لا رؤية عين بوجه ، إذ لا تدرك الأعين إلا جسمًا ، وفى جهة ، وبعض أعراضه أيضًا ، أعنى ألوان الجسم وشكله ونحوها .

وعلى هذه الاستعارة كل لفظة النظر جاءت فى الله تعالى : «إن ينظر إلى الله » - الخروج ٢/٦ - « وصورة الرب يعاين » - العدد ١٢/٨ - « ولست تطيق النظر إلى الإصر » - حبقوق ١/١٣ ص ٢٩ .

وعن هذا المعنى قيل : « فستر موسى وجهه ، إذ يخاف أن ينظر إلى الله » - الخروج

٦/٣ – مضافًا إلى ما يدل عليه الظاهر من خوفه من نظر النور المتجلى ، لا أن الإله تدركه الأعين) – ص ٣٠ .

(ولما كنا معشر الآدميين فى أسفل السافلين بالموضع ، وبمرتبة الوجود ، بالإضافة للمحيط ، وكان هو فى أعلى عليين على حقيقة وجود وجلالة وعظمة ، لا علو مكان ، وشاء تعالى إيصال علم منه ، وإفاضة وحى على بعضنا ، فعبر بنزول الوحى على النبى ، أو بحلول سكينة فى موضع بالنزول وعبر بارتفاع تلك حالة النبوة عن الشخص ، أو إزالة السكينة من الموضع بالرفع ، فكل نزلة ورفعة تجدها منسوبة للبارى تعالى إنما المراد بها هذا المعنى) ص ٣٧ .

(وقولهم : عبرت عنها التوراة بلسان بنى آدم ، معنى ذلك أن كل ما يمكن الناس أجمع فهمه وتصوره بأول فكرة هو الذى أُوجبه لله تعالى ، فلذلك وُصف بأوصاف تدل على الجسمانية ، ليدل عليه أنه تعالى موجود ، إذ لا يدرك الجمهور بأول وهلة وجودًا إلا للجسم خاصة ، وما ليس بجسم أو موجود فى جسم فليس هو موجودًا عندهم ، وكذلك كل ما هو كمال عندنا نُسب له تعالى ليدل عليه أنه كمال بأنحاء الكمالات كلها ، ولا يشوبه نقص أصلًا ، فكل ما يدرك الجمهور بأنه نقص أو عدم فلا يوصف به ، ولذلك لا يوصف بأكل ولا بشرب ولا بنوم ولا بمرض ولا بظلم ولا بما يشبه ذلك ، وكل ما يظن الجمهور أنه كمال وُصف به ، وإن كان ذلك إنما هو كمال بالإضافة إلينا ، أما إليه تعالى فتلك التى نظنها كلها كمالات هى غاية النقص ، لكن لو تخيلوا عدم ذلك الكمال الإنسانى منه تعالى لكان عندهم نقصًا فى حقه) ص ٥٨ .

● (قال الإسكندر الأفروديسى : إن أسباب الاختلاف فى الأمور ثلاثة :

أحدها : حب الرياسة والغلبة الصادان للإنسان عن إدراك الحق على ما هو عليه .

والثانى : لطافة الأمر المدرك فى نفسه وغموضه وصعوبة إدراكه .

والثالث : جهل المدرِك وقصوره عن إدراك ما يمكن إدراكه .

هكذا ذكر الإسكندر .. وفى آزمنتنا سبب رابع لم يذكره ، لأنه لم يكن عندهم ، وهو الإلف والتربية ، لأن للإنسان بطبيعته محبة ما ألفه ، والميل نحوه ،

حتى أنك ترى أهل البادية على ما هم عليه من الشعث ، وعدم اللذات ، وضيقة الأقوات ، يكرهون المدن ، ولا يستلذون بلذاتها ، ويؤثرون الحالات السيئة المعتادة على الحالات الصالحة غير المعتادة ، فلا تستريح أنفسهم لسكن القصور ، ولا للباس الحرير ، ولا للتنعم بالحمام والأدهان والأطباب ، كذلك يحدث للإنسان فى الآراء التى ألفها ، ورُبى عليها من المحبة والحماية لها والاستيحاش مما سواها .

وبحسب هذا السبب أيضًا يعمى الإنسان عن إدراك الحقائق ، ويميل نحو معتاداته ، كما اعترى الجمهور فى التجسيم ، وفى أمور كثيرة إلهية) ص ٦٨/٦٩ .

(إنك إذا نظرت بعينيك أدركت ما فى قوة بصرك أن تدرك ، فإذا استكرهتَ عينك ، وحدقت بالنظر وتكلفتَ أن تنظر على بعد عظيم أطول مما فى قوتك أن تنظر ببعده ، أو تأملت خيطًا دقيقًا جدًا ، أو نقشًا دقيقًا ، ليس فى قوتك إدراكه ، فاستكرهت نظرك على تحقيقه ، فليس يضعف بصرك عن ذلك الذى لا تقدر عليه فقط ، بل ويضعف أيضًا عن ما فى قوتك أن تدركه ، ويكلّ نظرك ، ولا تبصر ما كنت قادرًا على إدراكه قبل التحديق والتكلف .

وكذلك يجد كل ناظر فى علم ما حاله فى حال التفكر ، فإنه إن أنعم فى التفكر وتكلف كل خاطرة يتبلد ولا يفهم حينئذ) ص ٧٠ .

● هذا كله جميل ، يدل على تفهم جيد لأساليب (المعتزلة) فى تنزيه الله سبحانه ، لكن ابن ميمون يقفز فوق النصوص (الإسرائيلية) ، ويختار نبذًا أو جملًا مبتسرة ، لا نصوصًا كاملة ، ولأنى تناولت هذه (النصوص) المتجاوزة فى كتابى (دراسة فى التوراة والإنجيل) فإنى أحيل القارئ الكريم عليه ، لأن الهدف من هذه الدراسة ليس إعادة مناقشة ما جاء فى (العهد القديم) ، بل التعرف على الوسائل اليهودية فى معايشة الأمميين ، والتفاعل مع حضارات الآخرين .

●● ثم يتحدث عما هو من (الإلهيات) ، معتذرًا عن عدم البدء بها ، لأسباب مانعة ، مع أنه فيما سبق عرضه - كان يتناول (الإلهيات) ، ولعل عذره فى ذلك أنه كان يكتب (مقالات) ، والمقالات عرضة للتكرار ، وعرضة للتقديم والتأخير ، والأسباب المانعة هى :

١ - صعوبة الأمر فى نفسه ولطفه وغموضه .

٢ - قصور أذهان الناس كلهم فى ابتدائهم ، وذلك أن الإنسان لم يعط كماله الأخير أولًا ، بل الكمال فيه بالقوة ، وهو فى ابتدائه عادم ذلك الفعل ، وما كل شخص له أمر ما بالقوة يلزم ضرورة أن يخرج ذلك إلى الفعل ، بل قد يبقى على نقصه ، إما لموانع ، أو لقلة ارتياض بما يخرج تلك القوة إلى الفعل .

٣ - طول التوطئات ، لأن للإنسان بطبعه تشوقًا لطلب الغايات ، وكثيرًا ما يملّ أو يرفض التوطئات ، واعلم أنه لو حصلت غاية ما دون التوطئات المتقدمة لها لما كانت تلك توطئات ، بل كانت تكون شواغل وفضولًا محضًا .

فلا بد ضرورة لمن أراد الكمال الإنسانى من الارتياض أولًا فى صناعة المنطق ، ثم فى الرياضيات ، على ترتيب ، ثم فى الطبيعيات ، وبعد ذلك فى الإلهيات .. وقد نجد كثيرين تقف أذهانهم عند بعض هذه العلوم ، وحتى إن لم تنْبُ أذهانهم قد يقطع بها الموت ، وهم فى بعض التوطئات ، فلو كنا لا نُعطَى رأيًا على جهة التقليد بوجه ، ولا نرشد نحو شىء بمثال ، ألا نلزم بالتصور الكامل بالحدود الذاتية ، والتصديق فيما يراد التصديق به بالبرهان ، وذلك لا يمكن إلا بعد هذه التوطئات الطويلة - لكان ذلك يكون داعيًا لموت الناس كافة ، وهم لا يعلمون .

وقد بين سليمان أن الحاجة للتوطئات ضرورية ، وأنه لا يمكن الوصول إلى الحكمة الحقيقية إلا بعد الارتياض ، قال : « إذا كَلَّ الحديد ، ولم يشحذ حده ، تزايد التعب ، والحكمة أنفع للنجاح » - الجامعة ١٥/١٥ - وقال : « اسمع المشورة ، واقبل التأديب ، لكى تصير حكيمًا فى أواخرك » - الأمثال ١٩/ ٢٠ - ص ٧٧/٧٤ .

● ثم يأخذ فى الدفاع عن (بعض) ما نسب إلى الله فى (العهد القديم) ، بما لا يتناسب مع كمال الله سبحانه :

١ - حرب الإبادة ، لماذا ؟

(لما أُمر فى سبعة شعوب بالإبادة ، وقال : « فلا تستبق منها نسمة » - التثنية ١٦/٢٠ - أَتبع ذلك على الأثر بقوله : « كى لا يعلّموكم أن تصنعوا مثل رجاساتهم النى صنعوها لآلهتهم ، فتخطئوا إلى الرب إلهكم » - التثنية ١٨/٢٠ - يقول : لا تظن أن هذه قساوة ، أو طلب ثأر ، بل هو فعل يقتضيه الرأى الإنسانى أن يزال كل من يحيد عن طريق الحق ، وتنحى العوائق كلها التى تعوق عن الكمال الذى هو إدراكه تعالى) - ص ١٣٠ .

لو أن الهدف (هو إدراكه تعالى) ، فما كان ينبغى قتل الأطفال والحيوانات .. ثم إذا كان الهدف (إدراكه تعالى) فلم كان غزو هذه الشعوب السبعة ، وإبادة كل نسمة حية بها ، أهى الأرض التى أريد احتلالها ؟ وإذا كان الهدف (أن يزال كل من يحيد عن طريق الحق) ، فلماذا لم يعاقب صانعو (العجل) وعبدته ، ومن قالوا : « اجعل لنا إلهًا ، كما لهم آلهة » ، وكان أن عبدوا كل ما كانت تعبده الشعوب التى مروا بها ، من أشجار وأحجار وحيوانات وزواحف ؟

٢ - يفتقد ذنوب الآباء فى الأبناء :

(واعلم أن قوله : « يفتقد ذنوب الآباء فى البنين » - الخروج ٧/٣٤ - إنما ذلك فى ذنب عبادة الوثن خاصة ، لا فى ذنب آخر .. دليل ذلك فى الأوامر العشرة « فى الثالث والرابع من مبغضى » - الخروج ٥/٢٠ - ولا يتسمى مبغوضًا إلا عابد الوثن ، « كل النجاسات التى يكرهها الرب » - التثنية ٣١/١٢ - وإنما اقتصر على الرابع ، لأنه غاية ما يمكن الإنسان أن يرى من نسله الجيل الرابع ، فإذا قُتل أهل المدينة ، العابدو الوثن ، فيقتل ذلك الشخص المشرك ونسل نسل نسله الذى هو الولد الرابع ، فكأنه يصف أن من جملة أموره تعالى ، من جملة أفعاله بلا شك أن يقتل نسل عابدى الوثن ، وإن كانوا أصاغر فى غمار والديهم ، وأجدادهم ، وهذا الأمر وجدناه مطردًا فى التوراة فى كل موضع ، كما أمر فى : « واحرق بالنار تلك المدينة وجميع سلبها » - التثنية ١٦/١٢ - كل هذا لتعفية ذلك الأثر الموجب للفساد العظيم ، كما بينا) ص ١٣١ .

ألم يكن ثمة وسيلة لجعل عبدة الأوثان يكفون عن عبادتها ، ويؤمنون برب إسرائيل ؟ ألم يكن هناك أمل فى أن يجد الأبناء والأحفاد طريقًا غير الذى سلكه الآباء والأجداد ؟ أليس هذا الفهم يزكى قول المسيحيين (البولسيين) عن خطيئة آدم قبل مجىء المسيح ؟

٣ - واستراح فى اليوم السابع ؟

(أما الحكماء وغيرهم من المفسرين فجعلوه من معنى الراحة ، وجعلوه فعلًا متعديًا ، قالوا الحكماء عليهم السلام : وليسترح عالمه فى اليوم السابع ، يعنى انقطع الإبداع فيه ، ويمكن أن يكون من المعتلة الفاء أو المعتلة اللام ، ويكون معناه أقر أو أَمَرَّ

الوجود على ما هو عليه فى اليوم السابع ، يقول : إن فى كل يوم من الستة كانت تحدث حوادث خارجا عن هذه الطبيعة المستقرة الموجودة الآن فى الوجود بجملته ، وفى اليوم السابع استمر الأمر واستقر على ما هو عليه الآن .. فيكون معناه استكمال إرادته ، ونفاذ مشيئته) ص ١٦٦ ، ١٦٧ .

التفسير جميل ، ممتلأ فى الجملة الأخيرة ، لكن كيف يأتى لفظ (استراح) من فعل معتل الفاء أو اللام ؟ .

●● وحتى يخرج من عباءة الفلسفة الإسلامية ، ويبين أنه متفرد فى منهجه ، أصيل لا تابع - يخرج عن سياق ما هو بصدده ، على طريقة (يكاد المريب يقول : خذونى) ، فيتهم الفلسفة الإسلامية بعدم الأصالة ناسيًا تواصل الحضارات ، وتوارث الاجتهادات ، فيقول :

(أما هذا النزر اليسير الذى تجده من الكلام فى معنى التوحيد ، وما يتعلق بهذا المعنى لبعض الجاءونيين - الرؤساء اليهود - وعند القرائين ، فهى أمور أخذوها عن المتكلمين من الإسلام ، وهى نزرة جدًا ، بالإضافة إلى ما ألّفته (فرق) الإسلام فى ذلك .

أما الأندلسيون من أهل ملتنا كلهم يتمسكون بأقاويل الفلاسفة ، ويميلون لآرائهم ما لا تناقض قاعدة شريعة ، ولا تجدهم بوجه يسلكون فى شيء من مسالك المتكلمين (؟!)

واعلم أن كل ما قالته (فرق) الإسلام فى تلك المعانى ، المعتزلة منهم والأشعرية ، هى كلها آراء مبنية على مقدمات ، تلك المقدمات مأخوذة من كتب اليونانيين ، والسريانيين ، الذين راموا مخالفة آراء الفلاسفة ، ودحض أقاويلهم .

لما جاءت ملة الإسلام ، ونقلت إليهم كتب الفلاسفة ، نقلت إليهم أيضًا تلك الردود التى ألفت على كتب الفلاسفة ، فوجدوا كلام يحيى النحوى ، وابن عدى ، وغيرهما ، فى هذه المعانى ، فتمسكوا به ، وظفروا بمطلب عظيم ، بحسب رأيهم ، واختاروا أيضًا من آراء الفلاسفة المتقدمين كل ما رآه المختار أنه نافع له ، وإن كان الفلاسفة المتأخرون قد برهنوا بطلانه ، كالجزء والخلاء ورأوا أن هذه أمور مشتركة ، ومقدمات يضطر إليها كل صاحب شريعة ، ثم اتسع الكلام ، وانحطوا إلى طرق أخرى عجيبة ، ما ألمّ بها قط المتكلمون ، من يونان وغيرهم ، لأن أولئك كانوا على قرب من الفلاسفة) ص ١٨٠/١٨١ .

● ثم يتناول قضية (حدوث العالم) ، وهى قضية طال فيها الجدل بين المؤمنين والزنادقة الدهريين ، فقال :

إثبات حدوث العالم أولًا ، وصولًا إلى وجود المحدِث (طريق كل متكلم من الإسلام ، وكذلك المحاكون لهم من ملتنا) .

(فلما تأملت هذه الطريقة نفرت نفسى منها نفورًا عظيمًا جدًا ، وحق لها أن تنفر ، لأن كل ما يزعم أنه برهان على حدوث العالم تلحقه شكوك ، وليس ذلك برهانًا قطعيًا إلا عند من لا يعلم الفرق بين البرهان ، وبين الجدل ، وبين المغالطة) .

(ويكفيك من هذه المسألة أن فلاسفة الأعصار مختلفون فيها منذ ثلاثة آلاف سنة) .

و (الوجه الصحيح عندى ، وهو الطريق البرهانى الذى لا ريب فيه ، أن يثبت وجود الإله ووحدانيته ونفى الجسمانية بطرق الفلاسفة التى تلك الطرق مبنية على قدم العالم ، ليس لأننى أعتقد قدم العالم ، أو أسلّم لهم ذلك ، بل لأن بتلك الطريق يصح البرهان ، ويجعل اليقين التام بهذه الثلاثة أشياء ، أعنى بوجود الإله ، وبأنه واحد ، وأنه غير جسم ، من غير التفات إلى بتّ الحكم فى العالم هل هو قديم أو محدث) (؟!)

(وذلك أنى أقول : العالم لا يخلو من أن يكون قديمًا أو محدثًا ، فإن كان محدثًا فله محدِث بلا شك ، وهذا معقول أول ، إن الحادث لا يحدث نفسه ، بل محدِثه غيره ، فمحدِث العالم هو الإله .. وإن كان العالم قديمًا فيلزم ضرورة ، بدليل كذا ، ودليل كذا ، أن ثم موجودًا غير أجسام العالم كلها ، ليس هو جسمًا ولا قوة فى جسم ، وهو واحد سرمدى ، لا علة له ،ولا يمكن تغيره ، فهو الإله .. فقد تبين لك أن دلائل وجود الإله ووحدانيته وكونه غير جسم - إنما ينبغى أن تؤخذ على وضع القديم ، فيحصل البرهان كاملًا ، كان العالم قديمًا أو محدثًا) ص ١٨٣/ ١٨٤.

منطق عجيب ، ينفى ويثبت ، دون أن يخرج عن الطريق الذى سبقه إليه الآخرون ، بل إنه وقف عند (قدم العالم) دون أن يبين حدود هذا القدم ، أهو أزلى كما أن الله أزلى ، فيكون غير مخلوق ، أم الله يسبقه وجودًا ، وأنه خالقه ، فيكون محدثًا ؟! وهذه بدهية لا تحتاج أن يرفع عقيرته ضد غيره ممن بدءوا البرهان بحدوث

العالم الذى لا يزال فى تغير مستمر ، لكنه شاء أن يناطح ظله ، شنشنة من لا يملك إلا ما يُلقَى إليه .

●● ثم كأنما أحس بتورطه فيما لم يحسن الإعداد له ، فقال :

(أعلم أن مقالتى هذه ما كان قصدى بها أن أؤلف شيئًا فى العلم الطبيعى ، أو ألخص معانى العلم الإلهى على بعض مذاهب ، أو أبرهن ما تبرهن منها ، ولا كان قصدى فيها أن ألخص وأقتضب هيئة الأفلاك ، ولا أن أخبر بعددها ، إذ الكتب المؤلفة فى جميع ذلك كافية ، وإن لم تكن كفاية فى غرض من الأغراض ، فليس الذى أقوله أنا فى ذلك الغرض أحسن من كل ما قيل ، وإنما كان الغرض بهذه المقالة ما قد أعلمتك به فى صدرها وهو تبيين مشكلات الشريعة ، وإظهار حقائق بواطنها التى هى أعلى من أفهام الجمهور) ص ٢٧٨ .

ومع هذا يمضى فى نفس الطريق الذى أشبع الآخرون القول فيه ، وبخاصة المفكرون الإسلاميون من أهل السنة ، ومن المعتزلة معًا ، فيقول :

عن الملائكة : (ليس القصد بهذه النصوص كلها ما يظنه الجهال بأن ثم كلامًا له تعالى ، أو فكرة أو روية ، أو مشورة واستعانة برأى الغير ، وكيف يستعين الخالق بما خلق ؟ بل هذا كله تصريح بأن - ولو جزئيات الوُجود ، حتى خلق الأعضاء من الحيوان على ما هى عليه - كل ذلك بواسطة ملائكة ، لأن القوى كلها ملائكة ، وما أشد عمى الجهل ، وما أضره ، لو قلت لرجل من الذين يزعمون أنهم حكماء إسرائيل : إن الإله يبعث ملكًا يدخل فى بطن المرأة ، ويصور ثَمَّ الجنين ، لأعجبه ذلك وقبله ، ويرى هذا عظمة وقدرة فى حق الله ، وحكمة منه تعالى ، مع اعتقاده أيضًا أن الملاك جسم ، نار محرقة ، مقداره قدر ثلث العالم بأسره ، ويرى كله ممكنًا فى حق الله) .

(أما إذا قلت له : إن الله جعل فى المنىّ قوة ، وصورة ، تشكل هذه الأعضاء وتخططها ، وهى الملاك ، أو أن الصور كلها من فعل العقل الفعال ، وهو الملاك ، وهو صاحب العالم الذى يذكره الحكماء دائمًا - نَفَر من ذلك ، لأنه لا يفهم معنى هذه العظمة والضرورة الحقيقية ، وهى إيجاد القوى الفاعلة فى الشىء التى لا تدرك بحاسة ، قد صرحوا الحكماء - عليهم السلام - لمن هو حكيم ، أن كل قوة من القوى البدنية ملك ، ناهيك القوى المبثوثة فى العالم ، وأن كل قوة لها فعل ما واحد مخصوص ، ولا يكون لها فعلان .. وهذه هى حال جميع القوى ، ومما يؤكد عندك

كون القوى الشخصية الطبيعية والنفسانية تتسمى ملائكة) ص ١٨٨ .

وهو فى هذا أخذ بالمنطق الحكيم المرتبط بالقوانين الطبيعية ، والنواميس التى قام عليها الكون ، بمشيئة الله ، وبحكمته ، كما أنه عالج مفهوم المعجزات وفق النواميس (الكونية) مما يفيد أن الرجل كان يتمتع بحظ من الفكر المستنير ، فيقول :

عن المعجزات : (إن الحكماء • عليهم السلام - قد قالوا فى المعجزات كلامًا غريبًا جدًا ، تجده منصوصًا فى « براشيت ربه » وفى « مدرش الجامعة » ، وذلك المعنى هو أنهم يرون أن المعجزات هى مما فى الطبع أيضًا ، على جهة ما ، وذلك أنهم قالوا : إنه عندما خلق الله هذا الوجود ، وطبعه على هذه الطبائع ، جعل فى تلك الطبائع أن يحدث فيها كل ما حدث من المعجزات فى وقت حدوثها ، وآية النبى أن أَعْلمه الله بالوقت الذى يدعى فيه ما يدعى ، فينفعل ذلك الشىء كما جُعل فى طبعه فى أصل ما طبع) ص ٣٧١ .

وهذا ما قال به بعض فلاسفة المسلمين من أن ثمة قوانين طبيعية نجهلها ، وتتحقق المعجزات والكرامات عن طريقها .

● ثم ينحو منحى صوفيًا ، فيذكر أن (التفكير فى الإثم أسوأ من الإثم) .

(ولى فى بيان ذلك تفسير مستغرب جدًا ، وذلك أن الإنسان إذا أتى معصية فهو إنما عصى من حيث الأعراض التابعة لمادته ، أعنى أنه عصى ببهيميته .

أما الفكرة فهى من خواص الإنسان التابعة لصورته ، فإذا أجال فكرته فى المعصية ، فقد عصى بأشرف جزأيه ، وليس إثم مَنْ تعدى واستخدم عبدًا جاهلًا ، كإثم من استخدم حرًا فاضلًا ، فإن هذه الصورة الإنسانية ، وجميع خواصها التابعة لها ، لا ينبغى أن تصرّف إلا فيما أهّلت له للاتصال بالأعلى ، لا للانحطاط للدرك الأسفل .. فلا ينبغى أن تصرّف هذه النعمة التى وهبت لنا للكمال ، لنتعلّم ونعلّم فى أنقص النقائص ، وفى العار التام ، حتى يُقال كل ما تقوله الأمم الجهلة الفاسقون فى أشعارهم وأخبارهم اللائقة بهم ، لا بمن قيل لهم : « وأنتم تكونون لى مملكة أحبار وشعبًا مقدسًا » - الخروج ١٩/٦) ص ٤٨٨ .

ومن العبارات الصوفية الرائعة قوله : (سبحان من إذا لاحظت العقول ذاته عاد إدراكها تقصيرًا ، وإذا لحظت لزوم أفعاله عن إرادته عاد علمها جهلًا ، وإذا رامت

الألسن تعظيمه بأوصاف عادت كل بلاغة عيًا وتقصيرًا) ص ١٤٠ .

تعبير لا يتساوى مع أسلوبه العام ، مما قد يوحى بالوقوع فى إسار (النفّرى) بخاصة .

● ثم تغلب عليه نزعة (الشعب المختار) فيرى أن (العبرية لغة مقدسة) ، (ذلك أن هذه اللغة المقدسة لم يوضع فيها اسم بوجه لآلة النكاح ، لا من الرجال ولا من النساء ، ولا لنفس الفعل الموجب للتناسل ، ولا للمنى ، ولا للبول ، ولا للغائط ، هذه الأشياء كلها لم يوضع لها مثال أول بوجه فى اللغة العبرانية) ص ٤٨٩.

وفاته أن اللغة ليست وضعية ، وإنما هى حاجة اجتماعية ، وثمة فرق بين اللغة العبرية وقاموس (الكتاب المقدس) ، فالكتاب المقدس ليس معجمًا شاملًا لألفاظ اللغة ، وإنما اتخذ من اللغة ما يعبر عن معانيه ، وقد يستعين بالمجاز والكناية ، وما أظن (التلمود) قد خلا من هذه الألفاظ ، وهو سجل حافل بكل (التجاوزات) وبخاصة فى سفر (طهاروت) !!

● ثم يتناول العلاقة بين العبد وربه ، ومكانة الإنسان فى العالم ، فيحمل حملة ضارية على الرازى الفيلسوف ، لأنه تحدث عن كثرة الشرور ، وهو ما يلهج به كثير من الشعراء والأدباء بسبب أنهم يعبرون عن انفعالاتهم ، لا عن رؤية كونية ، كما هو واجب الفيلسوف ، فيقول :

(للرازى كتاب مشهور ، وَسَمه بالإلهيات ، ضمنه من هذياناته وجهالاته عظائم ، ومن جملتها غرض ارتكبه ، وهو « أن الشر فى الوجود أكثر من الخير ، وأنك إذا قايست بين راحة الإنسان ولذاته فى مدة حياته ، مع ما يصيبه من الآلام والأوجاع الصعبة ، والعاهات ، والزمانات ، والأنكاد والأحزان ، والنكبات ، فتجد أن وجوده - يعنى الإنسان - نقمة وشر عظيم » طلب به ، وأخذ أن يصحح هذا الرأى باستقراء هذه البلايا ، ليقاوم كل ما يزعم أهل الحق من إفضال الإله ، وجوده البيّن ، وكونه تعالى الخير المحض ، وكل ما يصدر عنه خير محض بلا شك) .

(وسبب هذا الغلط كله كون هذا الجاهل وأمثاله من الجمهور لا يعتبر الوجود إلا بشخص إنسان لا غيره ، ويتخيل كل جاهل أن الوجود كله من أجل شخصه ، وكأن ليس ثم وجود إلا هو فقط ، فإن جاءه الأمر بخلاف ما يريد قطع قطعًا أن الوجود كله شر ، فلو اعتبر الإنسان الوجود وتصوره ، وعلم نزارة حظه منه ، لتبين له

الحق واتضح ، لأن هذا الهذيان الطويل الذى يهذيه الناس فى كثرة شرور العالم ليس يقولون إن ذلك فى حق الملائكة ، ولا فى حق الأفلاك والكواكب ، ولا فى حق الاسطقسات وما تركب منها من معدن أو نبات ، ولا فى حق أنواع الحيوان أيضًا ، وإنما تمر فكرتهم كلها لبعض أشخاص نوع الإنسان) ص ٤٩٦ .

(ومعظم الشرور الواقعة بأشخاص هى منها ، أعنى من أشخاص الإنسان الناقصين ، ومن نقائصنا نصيح ونستغيث ، ومن شرور نفعلها بأنفسنا باختيارنا نتألم ، وننسب ذلك لله ، تعالى عن ذلك .. وبين سليمان ذلك ، وقال : « سَفِه الإنسان ، يُفسد طريقه ، وقلبه يحنق على الرب » - الأمثال ٣/١٩ .

وبيان ذلك أن كل شر يصيب الإنسان يرجع إلى أحد ثلاثة أنواع :

١ - ما يصيب الإنسان من جهة طبيعة الكون والفساد ، أعنى من حيث هو ذو مادة ، فإن من أجل هذا تصيب بعض الأشخاص عاهات وزمانات فى أصل الجبلة ، أو طارئة من تغيرات تقع فى العناصر ، كفساد الهواء أو الصواعق والخسوف .

٢ - ما يصيب الناس من بعضهم لبعض ، كتسلط بعضهم على بعض ، وهذه الشرور أكثر من شرور النوع الأول ، وأسباب ذلك كثيرة ومعلومة .. وهذا النوع من الشر يعم خلقًا كثيرًا فى الحروب العظيمة .

٣ - هو ما يصيب الشخص منا من فعله بنفسه ، وهذا هو الأكثر .. ومن شرور هذا النوع يصيح الناس كلهم .. وعن هذا النوع قيل : « فإن الرزية لا تبرز من التراب ، ولا المشقة تنبت من الأرض » - أيوب ٦/٥) ص ٤٩٨ - ٥٠٠ .

● ويستطرد أنه يجب (أن لا يُعتقد فى الموجودات كلها أنها من أجل وجود الإنسان » بل تكون أيضًا سائر الموجودات كلها مقصودة لذاتها ، لا من أجل شيء آخر ، وفى ذلك قوله : « كل من يدعى باسمى فإنى لمجدى خلقته وجبلته وصنعته » - أشعيا ٨/٤٣ - يقول : إن كل ما ينسب إلىّ فعله إنما فعلته من أجل إرادتى لا غير » - ص ٥٠٨ ، ٥٠٩ .

وهذا لا يتعارض مع كون الله سبحانه جعل الإنسان خليفة فى الأرض ، وسخر له كثيرًا من المخلوقات ، وفضله على كثير ممن خلق ، ذلك لأن الكون أوسع ملايين المرات من الأرض ، ومن المجموعة الكوكبية التى تدور حول الشمس ، ثم إن الخلافة والتسخير مرتبطان بمنحة (العقل) ، وبما أوتى الإنسان من القدرة على

كسب المعرفة ، لكن كل ذلك فى إطار الالتزام بالتعاليم الإلهية ، وبقانون الثواب والعقاب ، ومن هنا لا تكون للإنسان الحرية المطلقة ، كما جاء فى قوله :

(قاعدة شريعة سيدنا موسى - عليه السلام - وكل من تبعها ، هى أن الإنسان ذو استطاعة مطلقة ، أعنى أنه - بطبيعته وباختياره وإرادته - يفعل كل ما للإنسان أن يفعله ، دون أن يُخلق له شيء مستجد بوجه ، وكذلك جميع أنواع الحيوان تتحرك بإرادتها ، وهكذا شاء ، أعنى أن من مشيئته القديمة فى الأزل أن يكون الحيوان كله يتحرك بإرادته ، وأن يكون الإنسان ذا استطاعة على كل ما يريده أو يختاره ، مما يستطيع عليه) ص ٥٢٥ .

وهذا كلام لا يؤخذ على ظاهره ، لأن (إرادة) الفرد مرهونة بإرادة الجماعة ، ولأن (استطاعة) الفرد فى إطار كثير من المعوقات ، من داخله ومن خارجه ، وهى متضمَّنة فى التشريع السماوى ، وفى السلام الاجتماعى ، وقبل ذلك كله فى القصور الذاتى ، وهذا كله يتمثل فى (العدل الإلهى) ، كما قال :

(كذلك من جملة قواعد شريعة سيدنا موسى - عليه السلام - أنه تعالى لا يجوز عليه الجور بوجه من الوجوه ، وأن كل ما ينزل بالإنسان من البلايا ، أو يصلهم من النعم ، الشخص الواحد أو الجماعة ، كل ذلك على جهة الاستحقاق بالحكم العدل الذى لا جور فيه أصلًا ، ولو ضربت الشخص شوكة فى يده ، وأزالها لحينه ، لكان ذلك عقابًا له ، ولو نال أيسر لذة ، لكان ذلك جزاء له ، وكل هذا باستحقاق ، وهو قوله تعالى : « كل طرقه حكمة ... إلخ » - التثنية ٤/٣٢ لكنا نجهل وجوه الاستحقاق) ص ٥٢٦ .

هذا هو معيار (حرية) الإنسان ، فلم يترك له الحبل على الغارب ، فإذا قلنا لشخص : (أنت حر فى دولة ديمقراطية محكومة بدستور) فإنه فى مقابل ما اكتسب من حقوق مطالب بواجبات ، وقبل أن تطالب بالحقوق أدّ ما عليك من الواجبات .. إنك لا تحصل على الأجر قبل أن تقوم بالعمل المطلوب منك ، والأرض لا تؤتيك ثمارها قبل أن تكد وتشقى فى الحرث والبذر والرى ، والتعهد بالرعاية أيامًا وشهورًا ، حتى يتحقق الحصاد .

والحديث عن العدل الإلهى حديث عن سر من أسرار الخالق الذى (لا يُسأل عما يفعل) .. إنه خلق العالم لحكمة سبقت الخلق ، ويرعى العالم وفق مشيئة كلية ،

تحرك الجزء فى إطار الكل ، ولهذا يشق على الإنسان أن يحكم على صحة الشىء أو خطئه إلا فى إطار ما أخبر الله به .. ولهذا كثرت الاضطرابات والاختلافات الفلسفية منذ جال فكر الإنسان فيما حوله ، ولم يصح للفلسفة مجال إلا بعدما خرجت من عالم الغيب (الميتافيزيقا) إلى المشاهدة (الفيزيقا) .. ولهذا لا يجمل بعاقل أن يقيد العدالة الإلهية بالفروق الفردية بين البشر ، لأن هذه الفروق محكومة بالحكمة الإلهية ، وبالإرادة الإلهية ، ومن الإفراط فى الحمق أن نتطاول إلى (محاكمة) الخالق ، جل شأنه ، أو الاعتراض على ما قدر وقضى ، ذلك لأن هذا الموقف (الإلحادى) لن يغير من الأمر شيئًا ، إنما يعبر عن غرور وجهل وفسولة .. لماذا لا نحاكم أنفسنا على ما نقتل كل حين من الحشرات والجراثيم والميكروبات ، وعلى ما نقتل ونأكل من حيوان البر والبحر ، وعلى ما نحصد من نبات ، وما نحرق من أحراج وغابات ؟

إننا نعمل فى إطار حماية أنفسنا على حساب غيرنا ، كذلك تفعل بقية الكائنات .. لماذا ؟

حسبنا أن نعرف أنها سنة الخلق ، وناموس الوجود ، وإرادة الخالق ، الإرادة التى تقضى بحركة الوجود (الذاتية) ، وباستمرار هذه الحركة (حتى يرث الله الأرض ومن عليها) .

ولعل هذا يفسر قول ابن ميمون :

(لا تكون العناية الإلهية بأشخاص نوع الإنسان كلها على السواء ، بل تتفاضل العناية بهم ، كتفاضل كمالهم الإنسانى ، وبحسب هذا النظر يلزم ضرورة أن تكون عنايته تعالى بالأنبياء عظيمة جدًا ، وعلى حسب مراتبهم فى النبوّة ، وتكون عنايته بالفضلاء والصالحين على حسب فضلهم وصلاحهم ، إذ ذلك القدر من فيض العقل الإلهى هو الذى أنطق الأولياء ، وسدد أفعال الصالحين ، وكمّل علوم الفضلاء بما علموه) ص ٥٣٢ .

(وأما الجاهلون العصاة ، فبحسب ما عدموا من ذلك الفيض هان أمرهم ، وانتسقوا فى نظام سائر أشخاص أنواع الحيوان ، فماثل البهائم ، وتشبه بها - المزمور ١٣/٤٨ - ولذلك سهل قتلهم ، بل أمر به للمنافع ، وهذا الغرض هو قاعدة الشريعة ، وعليه مبناها) ص ٥٣٣ .

إنها قاعدة (الإبادة) لكل ما ليس بيهودى ، لأن من ليس يهوديًّا لا دين له ، ولا دية ، وإذا وقع فى بئر وجب طمّه فوقه ،وإذا تمكن منه قتله ، هكذا تقول تعاليم (التلمود) وإلا أثم من لم يفعل ذلك ، بل من حق اليهودى أن يزنى بأى امرأة غير يهودية ، دون نظر إلى ثمرة هذا الزنى ، وحظها من الشعب المختار !!

(إن سلامة بعض أشخاص الناس من الآفات ، ووقوع بعضهم فيها ، ليس ذلك بحسب قواهم البدنية ، واستعداداتهم الطبيعية ، هو قوله : « لأنه لا يَغْلِب الإنسان بقوته » - الملوك الأول ٩/٢ - بل ذلك بحسب الكمال والنقص ، أعنى قربهم من الله أو بعدهم) ص ٥٣٣ .

(**قال أبو نصر الفارابى** : وأما الذين لهم قدرة أن ينقلوا أنفسهم من خلق إلى خلق ، فأولئك هم الذين قال أفلاطون فيهم : إن عناية الله بهم أكثر) ص ٥٣٤ .

وهذا القول مجرد سباحة فى وجه التيار ، أو هو خوض فى مياه عميقة لا يؤمن معها الغرق ، وما دام (لا يغلب الإنسان بقوته) فإن الحقيقة تظل منوطة بالخبر السماوى ، أو بما تدركه الحواس ، بل إن إدراك الحواس كثيرًا ما يزيف بنوع من القصور ، أو بقدر من المؤثرات .

● ومن القصور أن هذا (النجيد) اليهودى لم يقف عند علامات الاستفهام التى رفعها النقاد حول (تاريخ العالم) ، و (سلسلة الأنساب) ، و (تشويه صورة الأنبياء) ، و (الشعب المختار) ، و (الرب الغيور) ، و (تشريعات النجاسات والطهارات) ، و (حقوق الكهنة) ، وغيرها كثير .. حتى إذا حام حول بعض أحكام الشريعة كان كما يُقال عن (حَشوة الطائر) ، وقد يقف وقفة فلا يستطيع التوفيق بين منطقه ومنطق التشريع ، كقوله : (الحكماء - عليهم السلام -) يحمدون جدًا خُلق الشخص الذى يقرب أقرباءه ، ويتزوج بنت أخته) - ص ٦٤٩ - ثم ينسى هذا (الخلق الحميد) فى الجزء الخاص بالفرائض ، فيقول :

(فأما وجود الإنسان مع أخواته وخالاته وعماته ، وزوجة عمه ، وتربيته معهن ، فذلك بين الأكثرية ، وهؤلاء هن جملة العورات من الأقارب ، فاعتبرهن ، فهذا أحد المعانى التى من أجلها حرّم الأقارب .

وأما المعنى الثانى ، فهو عندى مراعاة الحياء ، وذلك أن وقوع هذا الفعل بين الأصل والفرع قحة عظيمة جدًا أعنى نكاح الأم أو البنت ، فحرم على الأصل والفرع أن ينكح أحدهما الآخر .

فلما حرمت الأخت ، حرمت أيضًا أخت الزوجة ، وزوجة الأخ ، لأن ذلك اجتماع شخصين بأصل وفرع فى نكاح شخص ثالث .. حُرم أيضًا نكاح الخالة ، لأنها مقام الأم ، والعمة لأنها مقام الأب .

وكما لم تحرم بنت العم ، ولا بنت العمة ، كذاك لم تحرم لا بنت الأخ ولا بنت الأخت قياسًا سواء) ص ٦٩٩، ٧٠٠ .

يلاحظ على هذا (المقتبس) أن (النجيد) اتسع الخرق عليه ، أو أنه أراد أن يعالج العين فطمسها ، إنه يخالف التشريع اليهودى الذى يوجب زواج الأخ من أرملة أخيه ، حماية لها وصونًا لأبناء أخيه ، ويقيم قاعدة التحريم على أساس (الإلف والحياء) ، لا على أساس (اضطراب العلاقات الأسرية) ، ومن ثم يدعو إلى زواج بنت الأخت ، وبنت الأخ ، قياسًا على زواج بنت العم وبنت العمة ، مع أنه يحرم زواج الخالة لأنها فى مقام الأم ، والعمة لأنها فى مقام الأب ، والمنطق الذى أخذ به يقتضى تحريم كل من بنت الخالة وبنت العمة ، لأنهما بمثابة الأخت .

وهذا المنطق (المضطرب) صاحَبَ (النجيد) فى كثير مما طرق من أبواب ، ولعل هذا يرجع إلى خضوعه لثقافة هو (بطبيعته اليهودية) متمرد عليها ، ساخط على أصحابها ، ثم هو حمّل نفسه عبئًا أكبر من طاقته ، فليس من اليسير على شخص ، مهما كانت قدرته ، أن يعالج أخطاء توالدت وتنامت خلال أكثر من ألفى عام ، وهذه الأخطاء ثمرة سلسلة من الاضطرابات النفسية ، والصراعات السياسية والعسكرية ، من أجل قيام كيان يهودى على أرض غير يهودية ، حتى ذاق هذا الشعب الأسير الطريد المريد أقسى المعاناة ، مما أكسبه ألوانًا من المقت الأسود ، ومن الرغبة الجامحة فى الانتقام من كل شىء ، ومن الجرأة حتى على (الله) ، قتلوا الأنبياء ، وأبادوا شعوبًا ، وتحدوا إمبراطوريات ، وخربوا اقتصاد دول آوتهم ، وكفلت لهم حرية العمل وحرية الانتقال ، وساحوا من أقصى الأرض إلى أقصى الأرض ، لا من أجل الحصول على مكان آمن ورزق موفور ، بل لأنهم (أبناء الرب) ، ومن حقهم أن يكونوا سادة الدنيا ، وفى سبيل الحصول على السيادة العالمية وجب أن يملكوا المعرفة والإعلام ووسائل الاتصال وأخطر الأسلحة ، وأن يتحالفوا مع الأقوياء حتى يمتصوا قوتهم ، وينشروا بينهم الموبقات ، فلا تبقى منهم إلا الهياكل التى يستغلونها فى إقامة الطقوس ، وفى إعادة تشكيل الحياة .

سبينوزا

نبى الحلولية كما يقول الشاعر الألمانى هاينى

باروخ سبينوزا (١٦٣٢ / ١٦٧٧) ابن لأسرة يهودية رحل أجدادها من البرتغال ، وأقاموا فى هولندا ، ولد فى أمستردام التى كانت موطنًا لطائفة يهودية كبيرة وجدت فى هولندا مكانًا آمنًا لعبادتها ، إذ كانت هولندا أثناء عصر الإصلاح الدينى فى حرب ضد الطغيان فى أسبانيا .

ولقد طرد سبينوزا من الكنيس اليهودى ، وصبت على رأسه كل لعنات الكتاب المقدس ، بعد أن درس اللاتينية واطلع على كتابات أولئك المفكرين الذين أحدثوا حركة إحياء العلم ، وعملوا على تشجيع الدراسات التجريبية والاشتغال بالفلسفة المتحررة من القيود الدينية .

ونتيجة إحساسه بالاضطهاد آثر العزلة فى إحدى الضواحى ، مكبًا على دراساته ، مكتفيًا بكسب قوته عن طريق جلاء العدسات الطبية ، رافضًا عروضًا للعمل فى بعض الجامعات .

ولعل كتابه (رسالة فى الألوهية والسياسة) ، بالإضافة إلى (الأخلاق) من أهم إنجازات الفكر اليهودى بعدما صنع ابن ميمون ، وإذا كان ابن ميمون قيد نفسه بالدفاع عن (النص) ، فإن سبينوزا ألزم نفسه بحرفية النص .

● أخذ سبينوزا فى (رسالة فى الألوهية والسياسة) مأخذ ابن ميمون ، فى الدفاع عما جاء فى (الكتاب المقدس) عن الله تجسيدًا وتشبيهًا ، فقال :

(ليس هناك ما يدعو إلى الدهشة ، إذا وجدنا الكتب المقدسة تتحدث عن الله ألفاظ لا تليق به ، فتنسب إليه يدين وقدمين وعينين وأذنين ، كما تنسب إليه حركات فى المكان ، وانفعالات نفسية كالغيرة والرحمة ... إلخ ، وكذلك تصفه كقاض يستوى فى السماوات على عرش ملكى والمسيح على يمينه) .

(والواقع أن الكتاب يتحدث على مستوى فهم العامة الذين يهدف الكتاب إلى أن يجعلهم مطيعين ، لا متفقهين .. على أن عامة اللاهوتيين - عندما أدركوا بالنور الطبيعي أن صفة معينة من هذه الصفات التى تعطى لله لا تتفق مع الطبيعة الإلهية - طالبوا بالالتجاء إلى التفسير المجازى .. ولكن لو كان من الواجب تفسير جميع النصوص من هذا النوع تفسيرًا مجازيًا ، لوجب أن نسلم بأن النص لم يكتب للعامة والجهلة ، بل كان موجهًا إلى أكثر الناس خبرة ومعرفة ، وإلى الفلاسفة بوجه خاص) .

(والواقع أنه لو كان التسليم بروح تقية صافية بالمعتقدات التى ذكرناها - بدافع من التقوى وصفاء النفس كفرًا ؛ لحرص الأنبياء أشد الحرص على تجنب مثل هذه العبارات ، وذلك على الأقل لضعف ذهن العامة ، ولعبروا عن الصفات الإلهية - على النحو الذى ينبغى على كل فرد إدراكها عليه - بوضوح وصراحة) ص ٣٥٣ .

العبارة تشكك فى صحة (قداسة) الكتاب المقدس ، بطريق (المفهوم) ، لا (المنطوق) ، لأنه ينسب الكتاب إلى (الأنبياء) ، أو الكهنة ، أو الحكماء ، كما يدور فى ألسنة علماء اليهود .. ثم هو يشير إلى عدم الاقتناع (بالواسطة) بين الكتاب وعامة الناس ، ما دام فى حاجة إلى أن يتولى (أكثر الناس خبرة ومعرفة ، والفلاسفة بوجه خاص) تفسير مجازاته ، وتقريبه من الناس ، بمعنى أن من يقرأ الكتاب من العامة ، دون (واسطة) ، سيقع فى شباك (التشبيه) والكفر ، مع أن المفروض أن الكتاب موجه إلى العامة ، حتى يجعلهم (مطيعين لا متفقهين) .

(إن غرض الكتاب الوحيد هو تعليم الطاعة ، وهو أمر لا يمكن أن يعارض فيه أحد ، فمن ذا الذى لا يرى حقيقة أن العهدين : القديم والجديد ، لا يعطيان إلا درسًا فى الطاعة ، فإن الغاية التى يرميان إليها هى جعل الناس يطيعون عن رضى ؟) ص ٣٥٦ .

لكن الأستاذ المترجم ، الدكتور حسن حنفى ، فى مقدمته للكتاب ، قال :

(نسب الكتاب إلى الله اليد والعين والأذن ، ووصفه كقاض يقطن فى السماء ، ويستوى على عرش ملكى والمسيح على يمينه ، كل ذلك طبقًا لعقلية العامة ، فالكتاب لا يهدف إلى إعطاء العلم ، بل يدعو للطاعة ، ولا يجوز الالتجاء إلى التفسير المجازى ،

كما يفعل اللاهوتيون ، بل يجب أن يؤمن الجمهور إيمانًا حرفيًا بالصورة الذهنية ، وإلا فسر كل ما يتعارض مع الكتاب تفسيرًا مجازيًا ، وكأن الوحى لم يرسل للجمهور العريض ، بل للخاصة وحدهم) ص ٧٨ .

ولكن ، كيف تتأتى الصورة الذهنية مع (الإيمان الحرفى) إلا مصحوبة بالتجسيد والتشبيه ، والتجسيد والتشبيه فى مقدمة ما يخالف التنزيه الواجب لله سبحانه ؟ ثم إن عبارة (وإلا فسر كل ما يتعارض مع الكتاب تفسيرًا مجازيًا) تحتاج إلى تفسير ، لأن صحة العبارة (ما يتعارض مع التنزيه) .

ويمضى المترجم فى هذا الإطار ، فيقول :

(الإيمان يتطلب عملًا صادقًا أكثر مما يتطلب عقائد صحيحة ، ولا يهم مطلقًا أن تكون العقائد باطلة ، لو كانت تؤدى إلى العدل والإحسان ، يكفى ألا يعرف من يؤمن بها أنها باطلة ، ولا يرجع خطأ الناس فى الكتاب لجهلهم به ، بل لعصيانهم له ، ويرجع تصورهم الصحيح له لطاعتهم إياه) ص ٧٩، ٨٠ .

خلط شاذ ، يقوم على القول الشائع (إنما الأعمال بالنيات) ، و(ربنا رب قلوب) ، ولا أدرى كيف تكون الطاعة والإحسان دون وازع ، أو دون دافع صحيح ؟ أهو لون من المروق الصوفى الذى يزعم أن الوصول إلى الله يسقط الواجبات العبادية ، فيأتى من يقول إن الأعمال الصالحة تسقط الواجبات العقائدية ؟!

ولو سلمنا أن (مقياس الإيمان صدقه لا حقيقته) - ص ٨١ - فهل هذا الإيمان الصادق - إذا كان وثنيًا أو طوطميا - يكون أفضل ؟!

وإذا لم يصح الإيمان ، ألا يسهل الانحراف به ؟ أليس الإلحاد وسيلة إلى كثير من الموبقات ؟ ألا تستوجب الوثنية ما يسمى طاعة وإحسانًا وعدلًا ؟ أليست الطاعة والإحسان والعدل ذات مقاييس نسبية ، ولا تصح هذه المقاييس إلا عن طريق المعرفة الصحيحة لله ، والمعرفة الصحيحة لتشريعاته ؟ أليس من الواجب أن نقول مع ديكارت : (ينبغى - قبل كل شىء - أن نتمسك بقاعدة تعصمنا من الزلل ، وهى أن ما أوحاه الله هو اليقين الذى لا يَعدِلُه يقين أى شىء آخر) ؟ كثيرًا ما تزين الخرافة والوهم ألوانًا من الموبقات ، وكثيرًا ما تتحول الأساطير إلى ديانات ، وما أكثر الأساطير التى أضافها كتّاب (الكتاب المقدس) ، فصنعوا تشريعات باطلة ،

وبخاصة فيما هو من (الطهارة والنجاسة) ، ومن حقوق الكهنة ، ومن الطقوس الواجبة ، والعامة (يصدقون) ويستجيبون ، ويدخل كل هذا العبث فى وجدانهم مدخل الإحسان والعدل !!

ألم يقل سبينوزا : إن الخوف (هو السبب فى وجود الخرافة ، وفى الإبقاء عليها وتقويتها) - ص ١١٢ - وضرب مثلًا بالإسكندر الأكبر الفاتح الذى أخذ (فى استشارة العرافين ، والاستسلام للخرافة ، بعد أن أصبح يخاف على مصيره ، وهو على أبواب سوس ؟) - ص ١١٢ - فما ظنه بالعامة إذا وقعوا تحت يد هذا القائد الكبير ، وقد سيطرت عليه الخرافة ، ألا تتبدل الألوان ، وتختلط الحواس ، ويأخذ العدل والإحسان أبشع صور الاستبداد والطغيان ، أو الذلة والنفاق ، وشتى الرذائل ؟ ذلك لأن (الخرافة لا تعتمد إلا على التمنى والحقد والغضب والخداع ، لأنها لا تقوم على العقل ، بل تقوم على الانفعال وحده ، وعلى أقوى الانفعالات كلها) .

(إن الخرافة هى أكثر الوسـائل فاعلية لحكم العامة ، ولذلك كان من السـهل - باسم الدين - دفع العامة تارة إلى عبادة الملوك كأنهم آلهة ، ودفعهم تارة أخرى إلى كراهيتهم ومعاملتهم وكأنهم طامة كبرى على الجنس البشرى ، وتجنبًا لهذا الشر اتجهت العناية - بحرص شديد - إلى تجميل الدين ، حقًا كان أو باطلًا ، بالشعائر والمراسم التى تزيد من أهميته ، وتضمن له احترامًا دائمًا من المؤمنين) ص ١١٣ .

أليس خضوع هؤلاء (المؤمنين) لشعوذة الشعائر والمراسم يخرج بصدق الإيمان إلى مزيد من الخوف والخرافة وتشويه إنسانية الإنسان ؟!

● ويمضى سبينوزا فى هذا الخلط ، فيقول : (ولم أجد فيما يعلنه الكتاب صراحة شيئًا يخالف العقل ، أو يناقضه ، ووجدت أن التعاليم التى أتى بها الأنبياء سهلة للغاية ، يسهل على الجميع إدراكها ، وكل ما فى الأمر أن هذه التعاليم قد عرضت بأسلوب شاعرى ، واستندت إلى أقدر الحجج على حضّ عامة الناس على طاعة الله ، وبناء على ذلك ، فقد اقتنعت اقتناعًا جازمًا بأن الكتاب يترك للعقل حريته الكاملة ، وبأنه لا يشترك مع الفلسفة فى شىء ، بل إن لكل منهما ميدانه الخاص) ص ١١٨ .

هذا كلام (يهودى) يظهر خلاف ما يبطن ، لأنه نفى أن يكون هذا الكتاب

من وحى الله ، وهو يتناوله بالنقد التاريخى ، وأعلن أنه كتب على مدى أكثر من ألف عام ، ثم لم يقف عند تشريعات الكهنة التى وردت فى سفرى (عدد) و (تثنية) بخاصة ، ولو أنه فعل لأخذه العجب حتى صفق بقدميه ، وما أظنه إلا فعل حين كان يخلو بنفسه ، أو مع شياطين اليهود الذين لبسوا ثوب المسيحية ، ليكيدوا للإنسانية جميعًا ، هذا مع وجوب ألا ننسى تأثير طرده من (الكنيس) اليهودى ، حتى اضطر إلى (الانعزال) فى إحدى ضواحى أمستردام ، ولهذا نجده يتردد بين الإثبات والنفى ، بين الإشادة بما جاء فى (العهد القديم) وبين نقضه .

إنه ينقضّ على (الحقيقة) الدينية ليهدم رسالة الأنبياء جميعًا ، فيقول : (لما كان الناس مختلفين فى تكوينهم الذهنى ، فيؤمن أحدهم بمعتقدات لا يؤمن بها الآخر ، ويحترم أحدهم ما يثير ضحك الآخر ، فقد انتهيت بالضرورة إلى أنه ينبغى أن تترك لكل فرد حرية الحكم ، وحقه فى تفسير الإيمان كما يفهمه ، وأن تكون الأعمال وحدها مقياس إيمان كل فرد باتفاقها أو اختلافها مع التقوى ، وهكذا يستطيع الجميع إطاعة الله بحرية ورضى ، ولا يحرصون جميعًا إلا على العدل والإحسان) ص ١١٩ .

مرة أخرى نسأل : ما حدود (العدل والإحسان ؟) أهو (أحب جارك) ، كما تكرر فى أكثر من موضع ؟ وما مفهوم هذا الحب ؟ وكيف نحمى هذا الحب من الموبقات ؟ أليس هو اليقين بالله وبتعليماته التى لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، وليست من صنع الكهنة وخريجى (الأسر البابلى) الذى ملأهم طول الأسر حقدًا ونقمة على الإنسانية جميعًا ، فاستبدوا بالشعب المختار ، وفرضوا عليه فروضًا مستمدة من حروب (يوشع) الذى كان يقضى على كل نسمة حية ، وكل نبتة ناجمة ، وكل جدار قائم ، ما دام قادرًا على فرض سلطانه ؟!

ويتناسى الفيلسوف اليهودى - أستاذ حركة التنوير - كل ما قاله ، ويعلن (أنه يستحيل تخليص نفوس العامة من الخرافة ، ومن الخوف ، فالعناد شيمتهم ، إذ لا يحكمهم العقل ، بل يسيرهم الانفعال فى إصدار المدح أو اللوم) ص ١٢٠ .

وكأنه أحس بما أصابه من الاضطراب الفكرى ، بسبب خضوعه لمفهوم (الجيتو) و (التقية) ، فقال : (أعتقد أن الفلاسفة يعرفون بالتفصيل أهم ما فى هذا

الموضوع ، أما غير الفلاسفة فإنى أنصحهم ألا يقرءوا رسالتى هذه ، لأنى لا أرى سببًا يجعلنى آمل أن يحظى الكتاب بقبولهم) .. كما (لا أدعو العامة أو من يسيرون على هوى انفعالاتهم إلى قراءة هذا الكتاب) ص ١٢٠ .

ثم يدرك أن هذه الأفكار قد يدينها من بيدهم السلطان من رجال الدين ، فتملق رجال الحكم بقوله :

(إنى أضع عن طيب خاطر كل ما كتبت أمام السلطات العليا فى وطنى ، لكى تفحص وتصدر حكمها عليه ، فإذا رأت أنى قلت شيئًا مناقضًا لقوانين وطنى ، أو للمصلحة العامة ، فإنى أسحب ما قلته) ص ١٢١ .

● وحتى لا يقع تحت طائلة هؤلاء وهؤلاء لبس ثوب الواعظ ، أو كاهن القرية الذى يتطلع إلى جيوب القوم قبل أن ينظر إلى ما فى رءوسهم ، ومن ثم يستخدم ألفاظًا عامة أو غائمة ، فيقول :

(إن الإيمان هو أن ننسب إلى الله بالفكر خصائص يؤدى الجهل بها إلى ضياع الطاعة ، على حين أن وجود الطاعة يستتبع وجود هذه الخصائص بالضرورة) ص ٣٥٧.

(يجلب الإيمان الخلاص ، لا بنفسه ، بل لأنه يتضمن الخضوع ، أو كما قال يعقوب - ٢/١٧ : « الإيمان دون الأعمال مائت » .

وقال فى الرسالة الأولى - ٤ : ٧/٨ - « فكل من يحب - جاره - فهو مولود من الله ، وعارف به ، ومن لا يحب فإنه لا يعرف الله ، لأن الله محبة) ص ٣٥٨.

(مبدأ واحد ، هو أن هناك موجودًا أسمى يحب العدل والإحسان ، يلزم الجميع طاعته ، حتى يتم لهم الخلاص ، ويتعين عليهم عبادته بممارسة العدل والإحسان نحو الجار ، وابتداء من هذا المبدأ نستطيع بسهولة أن نحدد باقى المبادئ ، وهى :

١ - يوجد إله ، أى موجود أسمى ، خيّر ورحيم على نحو مطلق .
٢ - الله واحد لا شريك له .
٣ - الله حاضر فى كل مكان ، ويرى كل شىء .
٤ - الله الحق والقدرة المطلقة على كل شىء .

٥ - عبادة الله وطاعته لا تكون إلا فى العدل والإحسان : أى فى حب الجار .

٦ - لا يتم الخلاص إلا لمن يطبّقون هذه القاعدة فى الحياة : أى لمن يطيعون الله ، على حين يهلك من يعيشون تحت سيطرة اللذات ، ولو لم يعتقد الناس بذلك اعتقادًا جازمًا لما كان هناك ما يدعوهم إلى إيثار طاعة الله على السعى وراء اللذات .

٧ - وأخيرًا يغفر الله للتائبين خطاياهم ، وكل بنى آدم خطاءون ، فهذا أمر لو لم يسلم به ليئس الجميع من خلاصهم ، ولما وجدوا سببًا للإيمان بالرحمة الإلهية) ص ٣٥٨ - ٣٦١ .

وأخيرًا (لا يمكن أن يقدم أحد الإحسان إلى الجار ، تنفيذًا للأمر الإلهى ، إلا إذا كان سلوكه فى مجال الدين والتقوى متفقًا مع المصلحة العامة ، على أنه لا يمكن لأحد أن يعرف المصلحة العامة إلا بناء على قرارات السلطة الحاكمة ، التى هى وحدها المسئولة عن تصريف الشئون العامة ، وإذن فلا يستطيع أحد أن يمارس الإيمان الصادق ، أو أن يطيع الله إلا إذا أطاع قرارات السلطة الحاكمة) ص ٤٣٦ .

وبهذا يكون اليهودى الفيلسوف قد أدان التاريخ اليهودى كله ، الذى قام على خلاف مع السلطة الحاكمة ، وكان على الواعظ الحكيم أن يكشف عن وجه السلطة الحاكمة ، حتى نتعرف على دورها فى العلاقة بين العبد وربه ، أتراه كان يعنى بالسلطة الحاكمة سلطة الكنيس الذى أدانه بالإلحاد ، وطرده من رحمته ورعايته ، أم كان يعنى السلطة المدنية التى لم تسمح لقبول اللاجئين اليهود إلا بسبب عدائها للسلطة الحاكمة فى شبه جزيرة أيبريا (أسبانيا والبرتغال) ؟

وإذا كان (الإيمان) هو سبيل الطاعة ، وهو سبيل الخلاص ، فإن السلطة تتمثل فى (الإيمان) ، وهو (ذاتى) ، وبالطاعة للقيم الدينية تصبح ثمرة الإيمان (اجتماعية) ، سواء رضيت السلطة المدنية أو لم ترض .

ومع هذا ، كما حدث مع ابن ميمون ، فإن سبينوزا يتألق - من وحى زاده الثقافى ، أو حين يتخلص من ربقة الظلال الكثيفة من حوله - فيقول :

(اليقين الذى يقضى بالفعل على كل شك يتوقف على معرفة الله وحدها ، لأن الشىء لا يمكن له أن يوجد أو يتصور ، بدون الله ، ولأن فى إمكاننا أن نشك فى أن كل شىء طالما ليست لدينا عن الله فكرة واضحة ومتميزة ، وينتج عن ذلك

أن خيرنا الأقصى وكمالنا يعتمدان على معرفة الله وحدها ... إلخ ، فضلًا عن ذلك ، فلما كان يستحيل وجود شيء أو تصوره بدون الله ، فمن المؤكد أن كل موجودات الطبيعة تحتوى على فكرة الله ، ونعبر عنها حسب درجتها فى الماهية والكمال ، ومن ذلك يتضح أنه كلما ازدادت معرفتنا بالأشياء فى الطبيعة كانت المعرفة التى نحصل عليها بالله أعظم وأكمل) .

(فالقانون الإلهى يتلخص كله فى قضية واحدة ، هى حب الله ، باعتباره خيرًا (أقصى) وذلك - كما قلنا - لا خوفًا من عذاب أو عقاب ، أو طمعًا فى شيء آخر نرغب فى الاستمتاع به .. وبعبارة أخرى فإن معرفة الله وحبه هى الغاية القصوى التى ينبغى أن تتجه إليها جميع أفعالنا) ص ١٩٤ ، ١٩٥ .

●● ثم يتحدث سبينوزا عن النبوة أو الوحى ، فيقول : إنها (المعرفة اليقينية التى يوحى الله بها إلى البشر عن شيء ما ، والنبى هو مفسر ما يوحى الله به لأمثاله من الناس الذين لا يقدرون على الحصول على معرفة يقينية به - أى بالوحى - ولا يملكون إلا إدراكه بالإيمان وحده) .

(وينتج عن هذا التعريف أن النبوة تتطابق ، تمامًا مع المعرفة الفطرية ، لأن ما نعرفه بالنور الفطرى يعتمد على معرفة الله وحدها ، وعلى أوامره الأزلية) ص ١٢٣ .

إذ إن (كل موجود يوجد فى الله ، ولا يستطيع موجود أن يوجد أو يدرك بدون الله) - هـ ص ١٢٤ .

وهذا قول أقرب إلى قول الصوفية ، أو إلى قول القرآن الكريم : « وإن من شيء إلا يسبح بحمده » ، أو إلى قول العلماء : إن التجارب أثبتت قدرة النبات على التأثر بالموسيقى ، وعلى التعبير عن تأثره ، ففى (كل موجود) قدرة على الإدراك ، وإذا تحقق الإدراك فبأمر من الله وإرادته حقًا ، لكن كم من الناس الذين آتاهم الله القدرة على الإدراك ضلوا وكفروا بالله ، بل واستغلوا (النور الفطرى : العقل) فى إضلال الآخرين .

ومن ثم فمن التجاوز أن نقول : (إن للمعرفة الفطرية نفس الحق الذى يكون لأية معرفة أخرى فى أن تسمى معرفة إلهية ، لأنها أثر من آثار الطبيعة الإلهية ، بقدر ما نشارك فيها ، وأثر أيضًا من آثار الأوامر الإلهية) ص ١٢٤ .

بهذا المنطق نلغى أهمية (الوحى) الذى قال فيه مترجم الكتاب : (يمكن أن يُقال : إن الوحى ضرورى للمعرفة الإنسانية ، لأنه يعطى تصورًا شاملًا للكون وللإنسان فى العالم ، وليس وجهة نظر فردية ترى جانبًا واحدًا من الواقع ، كما هو الحال فى المعرفة الإنسانية ، كما يمكن أن يقال أيضًا : إن الوحى يعتبر بمثابة نقطة بدء يقينية يبدأ منها الفكر حتى يضمن أكبر قدر ممكن من الصواب ، وأقل قدر ممكن من اليقين ، خاصة وأن الفكر البشرى يحتاج إلى أوليات ، أو يعتمد - من أجل الوصول إلى أكبر قدر ممكن من اليقين - على بديهيات ، ثالثًا : يمكن أن يُقال أيضًا : إن الوحى ضرورى ، لأنه يعطى الحقيقة النظرية ، ويطلب منه تطبيقها والاستفادة منها فى حياته العملية ، وبذلك يكون الوحى قد قطع نصف الشوط ، وهو النظر ، وترك النصف الآخر للإنسان وهو العمل) - هـ ص ٦٢ .

أربع عبارات لبيان أن (الوحى هداية إلى الحق وإلى صراط مستقيم) ، لكنها القدرة على الكلام يلجأ إليها الفلاسفة ، أو المتفلسفة للإيهام بأنهم يملكون ما لا يملك الآخرون .

وبمنطق أن (المعرفة الفطرية هى معرفة إلهية) لا تكون ثمة خطيئة ، مع أن الخطيئة متوارثة فى المفهوم المسيحى ، ومن أجلها جاء السيد المسيح ليحمل آصارها .

ثم إن الخطايا - فردية وجماعية ، وعلى جميع المستويات - تملأ الساحة البشرية ، فهل هى من آثار الطبيعة الإلهية ، وأثر أيضًا من آثار الأوامر الإلهية ؟

إن (النور الإلهى الفطرى) قد يدرك أو يستشعر وجود الله ، وبخاصة فى الملمات ، ولكن كيف السبيل إلى الأوامر الإلهية ؟ وكيف تكون الطاعة بدون الأوامر الإلهية ؟

إنه لابد من (الوحى) ، ولابد من الرسول الذى يبلغ هذا الوحى ويبينه ، قولًا وعملًا .

وإذا كانت (المعرفة الفطرية لا تقل مطلقًا عن المعرفة النبوية ، من حيث يقينها الذى تتميز به ، ومن حيث مصدرها الذى تصدر عنه - وهو الله - إلا إذا شئنا أن نظن ، أو بالأحرى أن نحلم ونتخيل أن للأنبياء بدنًا إنسانيًا ، وليست لهم روح إنسانية ، بحيث تختلف إحساساتهم ومشاعرهم فى طبيعتها عن إحساساتنا ومشاعرنا) ص ١٢٤ .

ففيم كان أنبياء وغير أنبياء ، ملوك وسوقة ، قادة وتابعون ، ومن أين كانت كتب مقدسة وأخرى غير مقدسة ، وفيم كان تأليف (رسالة فى اللاهوت والسياسة) من البداية ، وموضوعها ما ورد فى كتب أنبياء بنى إسرائيل ؟

أليس من الحمق أن يقول قائل : (يستطيع كل فرد أن يدرك تعاليم المعرفة الفطرية - أى الإلهية - ويفهمها ، بنفس اليقين ، دون الاعتماد على الإيمان وحده) ؟! ص ١٢٥ .

ولماذا التعميم (كل فرد) ؟! ألا يتعارض هذا (اليقين) بالمعرفة الإلهية ، مع (عدم الإيمان) ؟ وأيهما أسبق : المعرفة الإلهية أم الإيمان ؟ ألا ينطوى هذا كله فى أذيال قول الفيلسوف التنويرى : (كيف يمكننا الحديث عما يتعدى حدود ذهننا ، دون الرجوع إلى ما نقله الأنبياء لنا شفاهًا أو كتابة) ؟! ص ١٢٥ .

إن هناك ما (يتعدى حدود ذهننا)، ولابد من الاستعانة بما جاء به الأنبياء ، كما نقل عن ديكارت ، وبهذا ينهار كل البناء الذى بناه سبينوزا ، ويصبح قوله : (من ذاق اليقين العقلى الكامل يعرف تمامًا ماذا أقصد) - ص ١٢٥ - مجرد ذرّ رماد فى الهواء ، أو ذر رماد هذا البناء .

●● ثم يتناول بعض الأحداث (التوراتية) بالنقد ، أو بالتفسير (العلمى) ، وفق إمكانيات عصره ، فيقول عن توقف غروب الشمس حتى ينتهى يشوع من معركته ، ويحرز الانتصار :

(الأفضل أن أقول صَراحة : إن يشوع قد جهل علة بقاء الضوء ، وأنه اعتقد مع جمهور الحاضرين بدوران الشمس حول الأرض ، وبأنها توقفت فى هذا اليوم بعض الوقت ، ولم يلحظ أن كمية الثلج الضخمة التى كانت عندئذ معلقة فى الهواء - يشوع ١٠/١١ - أو أية علة أخرى مشابهة ، لا نود أن نبحث عنها - قد تكون هى السبب فى حدوث انعكاس غير عادى للضوء) ص ١٥٧ .

وهناك من يزعم أن الشمس غابت لفترة ، ثم طلعت ، بسبب من علة (الكسوف) ، وكل هذا تخلص من فكرة أن المعجزة خرق للعادة ، وأن أسبابها لا تتجاوز إرادة الله ، خارج الناموس الطبيعى .

ويزيد سبينوزا رأيه فى المعجزة وضوحًا بقوله :

(يروى الناس فى أخبارهم وفى قصصهم آراءهم الخاصة أكثر مما يروون الحوادث التى وقعت بالفعل ، وتروى الحادثة الواحدة على يد شخصين مختلفى الآراء بطريقتين مختلفتين كل الاختلاف ، حتى ليبدو أنهما يتحدثان عن واقعتين مختلفتين ، وأخيرًا ، فمن السهل للوصول إلى الغاية - فى كثير من الأحيان - إرجاع الروايات إلى مصادرها فى أفكار الراوى أو المؤرخ) ص ٢٣٤ .

(فإذا شئنا أن نعرف من روايات الكتاب - المقدس - كيف حدثت الأمور بالفعل ، فمن الضرورى أن نعرف آراء الرواة الأول ، وأول من دونوا الرواية ، ثم نميز بين هذه الأفكار وبين التصور الحسى الذى كان يمكن أن يتكون لدى الواقعة موضوع الرواية ، وإلا فإننا سنخلط بين المعجزة نفسها ، كما حدثت بالفعل ، وبين أفكار رواتها وأحكامهم ، كذلك يجب علينا أن نعرف أفكار الراوى ، لا لكى نتجنب هذا الخلط فحسب ، بل لكى لا نخلط أيضًا بين الأشياء التى حدثت بالفعل وبين الأشياء الخيالية التى لم تكن إلا رؤى نبوية) ص ٢٣٥ .

(وأخيرًا ، فلكى نعرف الحوادث المعجزة ، كما وقعت بالفعل ، علينا أن نتعرف على الأساليب الخطابية ، والصور البلاغية التى يستعملها العبرانيون ، فإن لم ننتبه إليها فسنرى فى الكتاب كثيرًا من المعجزات المختلفة التى لم يفكر من قاموا بتدوينها فى روايتها أبدًا ، ومن ثم نجهل تمامًا الوقائع والمعجزات كما حدثت بالفعل) ص ٢٣٦ .

(ويذهب الفيلسوف - الحكيم - بدوره فى « الجامعة ١/ ١٠» بوضوح تام إلى أنه لا جديد يحدث فى الطبيعة ، ويشرح فى الآيتين ١١ و ١٢ هذه العبارة ، بأن يضيف أن شيئًا يبدو جديدًا يحدث بالفعل ، فى بعض الأحيان ، ولكن هذه الجِدة ليست حقيقة ، فقد حدثت نفس الحالة فى قرون ماضية ، لا نتذكرها الآن .. ويقول بعد ذلك - ٣/١١ - إن الله قد نظم كل شىء بإتقان فى الزمن القديم .. ويقول فى الآية ١٤ : إنه يعلم أن كل ما يفعل الله يظل إلى الأبد ، دون أن يضاف إليه أو ينقص منه شىء) ص ٢٣٨ .

(كل ذلك يدل بوضوح تام على أن الطبيعة تسير وفقًا لنظام ثابت لا يتغير ،

وعلى أن الله ظل كما هو فى جميع العصور التى نعرفها والتى لا نعرفها ، وأن قوانين الطبيعة كاملة وخصبة إلى حد لا يمكن معه إضافة شىء إليها ، أو إنقاص شىء منها) .

(وأخيرًا ، فالمعجزات لا تبدو شيئًا جديدًا إلا لجهل الناس بأن الكتاب يعلمنا ذلك صراحة) ص ٢٣٩ .

إذا وقفنا مع سبينوزا عند ضرورة الرجوع إلى الراوى الأول ، الذى بليت عظامه منذ أكثر من ألفى عام ، وإذا عرفنا أن الحادثة تختلف فى لسانى راويين مشاهدين ، بل فى شهادة واحد مرتين ، وإذا كان هناك خصائص لغوية عبرية أو كنعانية لا علم لنا بها ، ومن ثم (نجهل تمامًا الوقائع والمعجزات كما حدثت بالفعل) - إذا كان الأمر كذلك فلنا الحق فى عدم تصديق أو تكذيب ما جاء فى (الكتاب المقدس) ، وهذه حيلة لطيفة للخروج من هذا المأزق .

أما إذا وقفنا عند ما جاء على لسان حكيم « الجامعة » : (ما كان فهو يكون ، والذى صنع فهو الذى يصنع ، فليس تحت الشمس جديد) فقد نراه لا يتعدى ما جاء على ألسنة شعراء الجاهلية العربية ، وما تكرر فى ألسنة الشعراء والأدباء من بعد ، قدماء ومحدثين ، فى حالة يأس أو توتر وإحباط .. وبهذا نصل إلى أنه (لا معجزات) ، على أساس من خرق الطبيعة ، وما أحرانا أن نمعن النظر فى قول الإمام الغزالى :

(إن الأسباب والمسببات تحدث معًا ، ولا تزيد علاقتها بعضها ببعض على علاقة المصاحبة والتوافق فى الأوقات ، وإلا لزم أن تكون المادة ألوفًا من المادات ، كل منها مستقل بخصائصه ومؤثراته وعلاقته بالمواد الأخرى ، ولا يقول بذلك عقل سليم .

فإذا كان العقل لا يعلل الأسباب الطبيعية فمن الشطط أن يتعجل بإنكار المعجزات والجزم باستحالتها .

ومتى ناقشناها فلتكن مناقشتنا لها كمناقشة الأسباب : هل هى لازمة لتفسير هذه المسألة ؟ وكما نقول : هل هذا السبب لازم ؟ نقول أيضًا : هل هذه المعجزة لازمة للفهم والتفسير ؟ وبهذا القسطاس يجب أن توزن الحوادث ، ويدرس تاريخ الأديان وغير الأديان) - عبقرية المسيح ص ١٩٦ .

(إن معجزة السيد المسيح الكبرى هى : رجل ينشأ فى بيت نجار ، فى قرية خاملة ، بين شعب مقهور ، يفتح بالكلمة دولًا تضيع فى أطوائها دولة الرومان ، ولا ينقضى عليه من الزمن فى إنجاز هذه الفتوح ما قضاه الجبابرة فى ضم إقليم واحد ، وقد يخضع إلى حين ، ثم يتمرد عليه ويخلع النير ، ولا يخضع كما خضع الناس للكلمة بالقلوب والأجسام) العقاد / المصدر السابق ص ١٩٧ .

• يمضى سبيوزا فى بيان فهمه للمعجزة فيقول :

(إنه لا فرق بين قولنا : إن الله يريد شيئًا ما ، وقولنا : إنه يتصور شيئًا ما ، فإن نفس الضرورة التى تجعل الله - وفقًا لطبيعته وكماله - يتصور شيئًا ما على ما هو عليه ، تجعله أيضًا يريده على ما هو عليه .. وإذن ، فلما كان أى شىء لا يكون حقيقيًا بالضرورة إلا بأمر الله ، يترتب على ذلك بوضوح تام أن القوانين العامة للطبيعة ليست إلا مجرد أوامر إلهية تصدر عن ضرورة الطبيعة الإلهية وكمالها .. فلو حدث شىء فى الطبيعة يناقض قوانينها العامة كان هذا الشىء مناقضًا أيضًا لأمر الله وعقله وطبيعته ، وإلا فإن المرء لو سلم بأن الله يفعل ما يناقض قوانين الطبيعة ، لاضطر إلى أن يسلم بأنه يفعل ما يناقض طبيعته ، وهذا ممتنع كل الامتناع) ص ٢٢٢، ٢٢٣ .

(إن كل ما يحدث يحدث حقيقة بإرادة الله وبأمره الأزلى ، أى أنه لا يحدث شىء - كما بينا من قبل - إلا وفقًا لقوانين وقواعد تتضمن ضرورة أزلية ، فالطبيعة إذن تسير دائمًا وفقًا لقوانين وقواعد تنطوى على ضرورة وحقيقة أزليتين ، وإن لم نكن نعرفها كلها ، وبالتالى فهى تتبع نظامًا ثابتًا لا يتغير) ص ٢٣٣ .

(وإذن فالمعجزات - إذا عرفناها بأنها أعمال مناقضة لنظام الطبيعة - يستحيل أن تكون وسيلة لإثبات وجود الله ، بل إنها - على العكس من ذلك تجعلنا نشك فى وجوده ، على حين أننا نستطيع أن نكون على يقين منه دون معجزات ، أى عندما نعلم أن كل شىء فى الطبيعة يتبع نظامًا ثابتًا لا يتغير) ص ٢٢٥ .

(ولكن ، لما كان كل ما يحدث بالعلل الطبيعية يحدث أيضًا بإرادة الله وقدرته وحدها ، تحتم علينا أن نخلص من ذلك إلى القول بأن المعجزة - سواء أكانت لها علل طبيعية أم لم تكن - عمل يتجاوز حدود الفهم الإنسانى) .

(إننا لا نستطيع على الإطلاق أن نستنتج من المعجزات وجود الله ، لأن المعجزة

عمل محدود ، لا يدل إلا على قدرة محدودة ، فمن المؤكد إذن أننا لا نستطيع أن نستنتج من مثل هذا المعلول وجود علة لا حدود لقوتها) ص ٢٢٦، ٢٢٧.

وما أظن سبينوزا قد بعد كثيرًا عما رآه الإمام الغزالى .

●● ويقول عن (طوفان نوح) : (أوحى إلى نوح - بطريقة على مستوى فهمه - بأن الله سيهلك الجنس البشرى ، والواقع أن نوحًا كان يعتقد أن العالم كله باستثناء فلسطين لم يكن مسكونًا .. ولم يجهل الأنبياء مثل هذه الأشياء فحسب ، بل جهلوا أيضًا أشياء أخرى أكثر أهمية ، ولا ينقص جهلهم هذا من تقواهم شيئًا ، لأنهم لم يقولوا شيئًا خاصًا يتعلق بصفات الله ، بل كانت آراؤهم عنه هى بعينها الآراء المتداولة ، وكان الوحى الذى هبط عليهم متناسبًا مع آرائهم) ص ١٥٨ .

(كانت آراؤهم عنه هى بعينها الآراء المتداولة) ، و (كان الوحى الذى هبط عليهم متناسبًا مع آرائهم) ، مثل هذا التعبير - إذا صحت الترجمة - يطعن فى أُمية الأنبياء ، وفى الدور الذى قاموا به ، بل يطعن فى أهمية الوحى .

ولم يكتف الفيلسوف اليهودى بنفى دور الأنبياء ، أو التقليل من شأنه ، مع أنه كرس رسالته لدراسة هذا الدور ، بل نجده ينفى أصالة دور إبراهيم ، بحجة أنه كان تابعًا لملكى صادق حاخام أو ملك أورشليم .. يقول :

(جاء فى الكتاب - التكوين ٥/٢٦ - أن إبراهيم قد عبد الله ، وعمل بوصاياه ونظمه وقوانينه ، ولا شك أن المقصود هو أن هذه الشعائر كانت النظم والوصايا والقوانين التى وضعها الملك ملكى صادق) ص ١٧٨ .

وهذا يخالف ما هدف إليه كتّاب (العهد القديم) من الحرص على تسجيل تاريخ (الآباء) إلى آدم ، والوقوف طويلًا عند إبراهيم ، جد يعقوب مؤسس الكيان الإسرائيلى اليهودى ، ثم إذا كان الحديث عن ملكى صادق وإبراهيم انتهى إلى مثل هذه العبارة ، مع كثرة التناقضات الواردة فى (الكتاب المقدس) ، لأنه كتب بأيد مختلفة ، وفى أزمنة مختلفة - فإن إبراهيم هو الذى حدّ حدود الأرض (اليهودية) وهو الذى قاتل الملوك الخمسة ، أو السبعة ، وهو الذى أصر على شراء أرض (المكفيلة) ليدفن فيها زوجته ، بالرغم من أن صاحبها أراد إهداءها له ، لكنه أصر لتمتد من حولها أرض إسرائيل ، على حساب أبناء (الجارية) !!

(ويعاتب ملاخى - ١ : ١٠/١١ - اليهود قائلًا : « من فيكم يغلق الأبواب - أبواب المعبد - أو يوقد نار مذبحى مجانًا ، لأنى لا مسرّة لى بكم ، ولا أرضى تقدمة من أيديكم ، لأنه من مشرق الشمس إلى مغربها اسمى عظيم فى الأمم ، قال رب الجنود » .. ولما كان من غير الممكن فهم هذه الكلمات إلا فى الزمن الحاضر ، وهو الزمن الوحيد المعقول ، وإلا حرّفنا الكلم عن مواضعه ، فإنها تدل بوضوح تام على أن اليهود لم يكونوا فى هذا الوقت أحبّاء الله من باقى الأمم ، بل إن الله كان يكشف عن نفسه بالمعجزات لباقى الشعوب أكثر مما يفعل لليهود الذين استعادوا جزءا من إمبراطوريتهم فى ذلك الوقت دون معجزات ، كما تدل هذه الكلمات على أن لباقى الأمم طقوسًا وشعائر يتقربون بها إلى الله) ص ١٧٨ .

كأن ملاخى لو لم يقل هذا القول لصحت دعوى اليهود ، مع أنها بدهية (تاريخية) لا تحتاج إلى الوقوف عندها ، ولا عبرة بشهادة اليهود ، (لأن العبرانيين لم يهتموا إلا برواية شئونهم الخاصة ، لا برواية شئون غيرهم من الأمم) ص ١٨٠ .

(إن الجميع - يهودًا أو غير يهود - معرضون للخطيئة ، وإنه لا خطيئة دون أمر إلهى وشريعة إلهية ، ومن ذلك يتبين بأقصى قدر من الوضوح أن الشريعة قد أوحيت للجميع على السواء) ص ١٨٥ .

هذا الاستنتاج لا تؤيده أسفار العهد القديم ، إنما هو منطق الثقافة غير التوراتية .

وقوله : (لا خطيئة دون أمر إلهى) يعنى أن الخطيئة هى مخالفة الأمر الإلهى ، لأن الله (لا يأمر بالفحشاء) .

ثم متى كانت لليهود (إمبراطورية) ، ومكان تجمعهم فى أرض كنعان ، أو فلسطين ، لا يكاد يتجاوز شريطًا من الأرض ، يقطعه راكب الحمار من مطلع الشمس إلى مغربها ؟!

أما عن (معجزات الأمم) فدعوى تحتاج إلى كتابة تاريخ جديد على هوى سبينوزا ، لأن الكم الهائل من (المعجزات) لم يدون إلا مرتبطًا باليهودية وبالمسيحية سليلة اليهودية .

●● (يطلق اسم « مقدس » و « إلهى » على كل ما يؤدى إلى التقوى وإلى الدين ، ولا يظل الشىء مقدسًا إلا إذا استمر الناس فى استخدامه على نحو دينى ، فإذا لم

يعودوا أتقياء ضاعت قدسية ما كان مقدسًا من قبل ، فمثلًا أطلق البطريق يعقوب على مكان ما اسم « مسكن الله » ، لأنه عبد الله الذى أوحى إليه فى هذا المكان ، أما الأنبياء فقد أطلقوا على المكان نفسه اسم « مسكن الطغيان » - عاموس ٥/٥ وهوشع ١٠/٥ - لأن الإسرائيليين اعتادوا - تنفيذًا لمشيئة يربعام - على التضحية فيه للأوثان ، وهناك مثل آخر يوضح هذه المسألة تمامًا ، وهو أن الكلمات لا تدل على معان مضبوطة إلا فى الاستعمال : فإذا كانت فى هذا الاستعمال قادرة على أن تحث من يقرءونها على التقوى ، أصبحت هذه الكلمات مقدسة ، وأصبح الكتاب الذى نظمت فيه هذه الكلمات مقدسًا ، أما إذا حدث بعد ذلك أن بطل الاستعمال إلى حد أن الكلمات لا يعود لها أى مدلول ، أو أهمل الكتاب إهمالًا تامًا ، إما لخبث البشر ، أو لأنهم لا يعرفون ماذا يفعلون به ، عندئذ تضيع فائدة الكلمات والكتاب معًا ، ولا تعود لهما أية قداسة) ص ٣٣٩ ، ٣٤٠ .

هذا التعميم أوقع الفيلسوف فى خطأ جسيم ، فشتان بين المكان المقدس والكلمة المقدسة ، فإذا كان المكان يكتسب قداسته من موقف معين ، أو من أحداث ذات صفة دينية ، فإنه لا يخلع تلك القداسة إذا ارتبط بأوامر الله ، إلا إذا وقع فى أيدى الأعداء ، أو هدم بعامل ما ، وقد يفقد قداسته إلى حين ، أما الكلمة فلا تستمد قداستها إلا من الله سبحانه ، وهى لا تفقد هذه القداسة ، وإن تخلى عنها كل المؤمنين بها ، لأنها لا تلبث أن تجد من يؤمنون بها .

ولعل قوله عن (الشريعة) يدل على هذا ، إذ (إن الشريعة تتلخص فى هذه الوصية : حب الله فوق كل شىء ، وحب المرء لجاره كما يحب نفسه ، ونحن واثقون من أن هذه الوصية لا يمكن أن تكون نتيجة للتحريف ، ولم يكتبها قلم متسرع ، أو متهم بالأخطاء ، ولو كان الكتاب قد أعطى تعاليم مختلفة ، لاختلفت تعاليمه أيضًا فى جميع الموضوعات الأخرى ، لأن هذه الوصية أساس الدين كله ، بحيث إن محوها يؤدى إلى هدم البناء كله فى الحال) ص ٣٤٥ .

ويضيف : (إن المعرفة الوحيدة التى طلبها الله من جميع الناس بلا استثناء ، على لسان الأنبياء ، والتى لا يمكن إعفاء أحد منها : هى معرفة العدالة الإلهية والإحسان الإلهى) ص ٣٤٩ .

ولو أن أحدًا أنكر هذه العدالة وهذا الإحسان لظلا إلهيين ، رغم أنف العلمانيين والملحدين ، فإنكار وجود الله لا ينفى وجوده ، وفى عالمنا البشرى شعراء وأدباء وفلاسفة تنكر لهم أبناء عصرهم ، ثم مجدهم أبناء عصر آخر ، لأنهم يملكون القدرة على التمجيد ، كذلك الشأن مع الكلمة المقدسة والمكان المقدس ، وكم عبث أعداء اليهود بالتوراة والتلمود وبأورشليم ، ومع هذا ظلت التوراة والتلمود وأورشليم ، لا لأن هناك من ظل على تقديسها ، بل لأنها هى فى ذاتها اكتسبت القداسة ، بحكم نسبتها إلى المقدس الأعلى ، تبارك وتعالى ، ولأن التاريخ احتفظ لها بهذه القداسة ، واكتسب هو الآخر منها حظًا من القداسة .

يقول الأستاذ المترجم ص ١٤ : (الخرافة والوهم والعجز هى من أسباب الوقوع فى التقديس ، تقديس موجود متعال خارج الطبيعة ، يتدخل فيها كما يشاء ، كما يفعل الحاكم المطلق ، أو الملك الذى يخضع الأهواء والانفعالات ، فاعتبار المقدس خارج العالم عجز عن إدراكه داخل العالم ، وخوف منه ، وإبعاد له ، خاصة إذا أصبح هذا المقدس مرادفًا للسر ، أو هو وقوع فى الوثنية المجردة ، أو الوثنية الحسية) .

(وأشد غرابة من ذلك أن يتميز المؤمنون فى إيمانهم بعقائدهم وشعائرهم وملابسهم وألقابهم ، فيظن الجمهور أن الدين هو المناصب فى المعابد التى يتعيش فيها رجال الدين ، أو يتعيشون عليها ، حتى أصبح الكهنوت غواية الجميع ، اشتاقته أشد القلوب قسوة ، وحتى أصبح الشره والطمع طريق الدعوة إلى الدين وإلى الله ، وتحولت الكنائس إلى مسارح ، وتحول رجال الدين إلى خطباء محترفين ، لا يرومون تعليم الشعب ، بل التكسب منه ، والتعيش عليه) .

ويستطرد الأستاذ المترجم هـ ص ١٢، ٢٢ : (يغالى البعض ، وأكثرهم من اللاهوتيّين المحافظين ، ويدعون أن الله قد حفظ كتابه - المقدس - من التغيير والتبديد ، وأن العناية الإلهية هى الحافظة للنصوص ، ومن ثم فلا داعى هناك لتطبيق قواعد المنهج التاريخي على النصوص الدينية ، وإقامة نقد تاريخى للكتب المقدسة ، ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ﴾ [الحجر : ٩] وهى نظرية لاهويتة صرفة تهرب من النقد ، وتلجأ للسلطة الإلهية ، وهى شبيهة بالصدق الإلهى عند ديكارت ، فيما يتعلق بالمعرفة الإنسانية ، وقد يكون معنى الآية هو حفظ المعنى ، وحفظ تطبيق

المعنى فى الواقع ، لا حفظ النص الحرفى المدوّن ، فذلك ما يعتريه التغيير والتحريف والتبديل ، وهو ما يتهم به القرآن أهل الكتاب ، ويؤيده النقد التاريخى للكتب المقدسة) .

وبهذا خلط الدكتور حنفى بين القرآن والكتب الدينية الأخرى ، ووقوعًا تحت تأثير سبينوزا وغيره من التنويريين ، أو وقوعًا تحت الرغبة الجامحة فى أن يكون على مثالهم ، أو أن يكون صوتهم (أو سوطهم) فى بلاد تكسب الشهرة كل المارقين ، ويجدون العون المادى والإعلامى من جهات لا تفتأ تعمل على النيل من الإسلام والمسلمين .

لقد أخذ القرآن بجريرة التوراة والإنجيل فى نقد سبينوزا ، ولو أنه قرأ نص (الكتاب المقدس) ، العهد القديم والعهد الجديد ، لوجد شهادة النص على نفسه بأنه من عمل الحاخامات والكتبة وأتباع الحواريين ، وثمة كتب كثيرة - يهودية ومسيحية - أعلنت هذا ، منذ عهد النهضة إلى اليوم .. فكونه يطالب (بتطبيق قواعد المنهج التاريخى) على القرآن ، ويزعم أن وعد الله بحفظ القرآن إنما هو (حفظ المعنى) ، ثم يصل إلى نهاية الشوط فيرى أن (النص الحرفى المدوّن يعتريه التغيير والتحريف والتبديل) ، جاهلًا بأن (التغيير والتحريف والتبديل) للنص الحرفى المدون يؤدى إلى تغيير المعنى وتحريفه وتبديله ، وبهذا يقف تلميذ سبينوزا موقفًا يرثى له ، وإن حسبه العلمانيون والاستعماريون فى صحيفة حسناته .

كما خلط الاسبينوزى (الحنفى) بين المقدس حقيقة ، بسبب نسبته إلى الله سبحانه ، والمقدس (خرافة ووهمًا وعجزًا) ، مع أن هذا المقدس (خرافة ووهمًا وعجزًا) رهن باستمرار (الخرافة والوهم والعجز) ، ومن المستحيل استمرار هذا الحال ، لأنه (عَرض) مرتبط بأسباب تَصوّر لا يلبث أن يتلاشى بحكم التطور الثقافى والحضارى ، وتبقى القداسة الأصيلة لأن مردها إلى قيم سامية ومبادئ هى من وحى الله وتنزيله .

* * *

تحت وطأة اليونان والرومان

قالوا : إن اليهود كانوا يلدون كثيرًا ، وظلوا طوال العصور القديمة يتكاثرون ، رغم الحروب والمجاعات ، حتى بلغ عددهم فى الإمبراطورية الرومانية أيام قيصر سبعة ملايين .

وهذه ظاهرة طبيعية ملاحظة فى الإنسان والحيوان والنبات .. التكاثر مرتبط بالضعف وخشية الإبادة : أى أنه وسيلة لحفظ النوع .. الفقراء والضعفاء أكثر قدرة على الإنجاب ، الفئران والقطط والكلاب والأرانب ، الثمار غير الجيدة كثيرة البذور .. لا غرو أن يتكاثر اليهود إبان المحن للمحافظة على البقاء .

ولأن اليهود كانوا رعاة رحّلا ، فحين استقر بهم المقام اشتغلوا بالزراعة ، وهى التطور الطبيعى للرعى ، فلما تهددهم التسلط البابلى والفارسى واليونانى والرومانى ، كان الاشتغال بالتجارة أيسر الوسائل للحفاظ على ثرواتهم مع كثرة ترحّلهم .

جاء فى (مصر القديمة ج ١٤ ، ص ٧٢٠- ٧٥٧) : أن بطليموس الأول فتح فلسطين للمرة الأولى سنة ٣٢٠ ق. م ، ثم فتحها ثانية سنة ٣١٢ ق. م ، ثم فى سنة ٣٠٢ ق. م ، وأخيرًا تم فتحها نهائيًا سنة ٣٠١ ق. م ، وعلى ذلك تم أسر عدد كبير من اليهود سيقوا إلى مصر ، كما حدّث بذلك أريستاس الذى ادعى أن مائة ألف يهودى من الأسرى وصلوا إلى مصر فى عهد بطليموس الأول ، وهذا رقم مبالغ فيه بالنسبة لعدد سكان فلسطين .

ويؤكد المؤرخ اليهودى يوسيفوس أن الإسكندر الأكبر نفسه هو الذى أسكن اليهود فى الإسكندرية ، مع أن الإسكندرية لم تصبح مدينة إلا فى عهد بطليموس الأول .

وقد أخذ عدد السكان اليهود فى المدينة يزداد باطراد ، حتى قيل : إنه فى أول العهد الرومانى كان هناك حيان من خمسة أحياء يسكنهما يهود .. وقد ثبت وجود اليهود فى أماكن مختلفة من الوجه البحرى فى نقوش تدل على ذلك .. وقد أقام

(أونياس الرابع) فى (ليونتوبوليس = تل المقدام حاليًا بمركز ميت غمر) مستعمرة يهودية ، وقد ظلت هذه المستعمرة قائمة حتى بداية العهد الرومانى فى مصر .. وقد دعت كثرة العدد إلى ترجمة كتبهم المقدسة إلى اللغة الإغريقية .

والخلاصة : إنه فى خلال العهد البطلمى أسس اليهود بيوتًا فى كل أنحاء مصر شمالًا وجنوبًا حتى جزيرة الفنتين جنوبى أسوان .. أو كما قال المؤرخ فيلو : من منحدر لوبيا إلى حدود أثيوبيا ، وادعى أن عددهم بلغ المليون .

ولا يوجد فى الأوراق البردية ، ولا فى النقوش أى برهان على وجود مجتمعات يهودية فى العصر البطلمى ، أما فى العصر الرومانى فقد أشارت النقوش إلى مجتمع يهودى كان فى البهنسا ، ويمكن تصور مجتمعات يهودية مع كل معبد أقيم على أرض مصر ، والمعابد اليهودية المعروفة فى مصر هى :

١ - فى الإسكندرية انتشرت عدة معابد ، وأقيم معبد (شديا) قرب الإسكندرية .
٢ - أقيم معبد (كزنفيريس) ، ومعبد (أتريبيس) ، ومعبد (نيتريا) بالوجه البحرى .
٣ - أقيم معبد (كروكو ديلوبوليس) ، ومعبد (ألكستدرونوس) بالفيوم .
٤ - هناك معابد أخرى لم تعرف مواقعها .

وقد برهنت الأوراق البردية الآرامية المعروفة على أنه فى العصر الفارسى وقبله كانت توجد حاميات يهودية فى معاقل الحدود المصرية .

والواقع أن اليهود كانوا يخدمون ويعملون فى كل مكان ، وفى كل فرع من فروع الحياة الحكومية والاقتصادية فى البلاد ، فكانوا يعملون جنودًا ، ورجال شرطة ، وجامعى ضرائب ، وموظفى حكومة ، وكادحين فى الأرض ، وأصحاب حرف ، وتجارًا .

وفى القرن الأول الميلادى كتب يوسيفوس يقول : (لسنا شعبًا تجاريًا) .. ولعله راعى قيامهم بشتى الأعمال ، كما أشار (سليم حسن) منذ قليل .

● وظلت فلسطين تابعة لمصر حتى سنة ١٩٨ ق. م ، حين هزم انتيوخوس الثالث بطليموس الخامس ، وضمها إلى الإمبراطورية السلوقية .

كان اليهود قد ملوا حكم المصريين ، فأعانوا انتيوخوس ، ورحبوا باستيلائه على أورشليم .

لكن أنتيوخوس الرابع لم ير فى فلسطين إلا أنها مصدر إيراد ، وكان حنيئذ يستعد لخوض حروب ضارية تتطلب مزيدًا من الموارد ، فأمر اليهود أن يؤدوا للدولة ثلث محاصيلهم من الحبوب ، ونصف ثمارهم من الفاكهة ، وعين (جيسُن) المعروف بتذلّله وملقه حاخامًا أكبر ، وتجاهل فى هذا التعيين ما جرت به العادة من توارث هذا المنصب الدينى .

كان (جيسُن) يمثل الحزب القائم فى أورشليم ، الذى نادى بفرض الثقافة الهيلينية على البلاد ، وطالب بإقامة النظم اليونانية فى البلاد ، فأصغى أنتيوخوس إلى مطالبه بفرح واستبشار ، لأن اختلاف الطقوس الدينية الشرقية فى بلاد آسيا اليونانية ، وقوة هذه الطقوس ، كانا يقلقان باله ، إذ كان يحلم بتوحيد إمبراطوريته المتعددة الأجناس واللغات ، بإخضاعها كلها لشريعة واحدة ، وعقيدة واحدة .

ولما أبطأ (جيسُن) فى العمل للوصول إلى هذه الغاية ، عين أنتيوخوس بدلًا منه (منلوس) الذى وعده بأكثر مما وعد به سلفه ، ونفحه رشوة كبيرة ، فتوحد (يهوه) و (زيوس) على يدى (منلوس) ، وبيعت آنية المعابد للحصول على المال ، وقربت بعض الجماعات اليهودية القرابين إلى الآلهة الهيلينية ، وافتتحت فى أورشليم مدرسة للرياضة البدنية ، واشترك شباب اليهود والكهنة أنفسهم - وهم عراة - فى الألعاب الرياضية ، وبلغ تحمس بعض الشباب اليهود للهيلينية أن تحملوا جراحات فى أجسامهم ليعالجوا بعض العيوب التى قد تكشف عن أصلهم .

ولما طرد بوبليوس سنة ١٧٥ ق. م أنتيوخوس الرابع من مصر شاع فى أورشليم أنه قتل ، فاغتبط اليهود ، وخلعوا الموظفين المعينين من قبله ، وقتلوا زعماء الحزب الذى كان يدعو إلى الثقافة الهيلينية ، وطهروا الهيكل مما كانوا يرونه منكرًا أو كفرًا .. لكن أنتيوخوس لم يكن قد مات ، بل هزم فقط ، وأيقن أن اليهود كانوا سببًا فى هزيمته ، وأنهم كانوا يأتمرون ليعيدوا بلادهم إلى البطالمة ، فعاد إلى أورشليم ، وذبح آلافًا من اليهود رجالًا ونساء ، ودنس الهيكل ونهبه ، وصادر مذبحه الذهبى وآنيته وكنوزه ، وأعاد إلى (منلوس) سلطته العليا .. وأمر سنة ١٦٧ ق. م أن يثقّف اليهود كلهم

بالثقافة الهيلينية ، وأن يعود الهيكل كما كان ضريحًا مقدسًا لزيوس ، وأن يقام مذبح يونانى فوق المذبح القديم ، وأن يُستبدل بالقرابين القديمة قربان من الخنازير ، ثم حرم تقديس السبت ، والاحتفال بالأعياد اليهودية ، وجعل الختان جريمة عقوبتها الإعدام ، وحرمت جميع مراسم الدين اليهودى فى جميع أنحاء البلاد اليهودية ، وألزم الجميع باتباع المراسم اليونانية ، وعوقب من يخالف هذه الأوامر بالإعدام ، وكان كل من يأبى أن يأكل لحم الخنزير ، أو يوجد عنده كتاب الشريعة يسجن أو يقتل ، وأمر بإحراق هذا الكتاب أنّى وجد ، وأشعل النيران فى أورشليم ، وهدم أسوارها ، وباع سكانها فى أسواق الرقيق ، وجاء بالأجانب يقيمون مقامهم ، وشيد حصنًا جديدًا على جبل صهيون ، وضع فيه حامية من الجند تحكم المدينة باسم الملك .

ولعل أنتيوخوس سعى ليجعل من نفسه إلهًا ، وطلب إلى الناس أن يعبدوه .

● أغلقت جميع الهياكل والمدارس اليهودية ، وأرغم اليهود فى عيد (باخوس) أن يزينوا أنفسهم باللبلاب ، كما يفعل اليونان ، وأن يشتركوا فى المواكب ، وأن ينشدوا الأناشيد تكريمًا لديونيسس ، وصدع الجميع بما أمروا به .

وعثرت شرذمة من الجنود على كهوف أوى إليها آلاف اليهود - رجالا ونساء وأطفالًا ، فلما أمروهم بالخروج أبوا ، ورفضوا أن يُزيلوا ما بداخل الكهوف من الحجارة ، لأن اليوم كان يوم السبت ، فأعمل فيهم الجنود النار والسيف ، فقتل كثيرون ، واحترق الباقون واختنقوا بالدخان .

وكان من اليهود الذين فروا من أورشليم متاثياس Mattathias ، من سبط هرون ، وأبناؤه الخمسة : يوهنان كاديس ، وسيمون ، ويوداس ، والبرر ، ويوناثان .. ولما أقبل أيليز عامل أنتيوخوس إلى مودين Modin التى لجأت إليها هذه الأسرة أمر أهلها أن يجحدوا (الشريعة) ، ويقربوا لزيوس ، فجاء متاثياس ومعه أبناؤه الخمسة ، وقال : (لو أن جميع سكان المملكة أطاعوا أمركم المروق من دين آبائهم لبقيت أنا وأولادى الخمسة مستمسكين بدين آبائنا الأولين) . ولما اقترب أحد اليهود من المذبح ليقرب القربان المطلوب ذبحه متاثياس بيده ، وذبح أيضًا مندوب الملك ، ثم نادى : (من كان يغار على الشريعة ، وأراد أن يؤيد العهد ، فليتبعنى) ، فسار وراءه كثيرون من أبناء القرى ، حتى وصلوا إلى جبل إفرايم ، وانضمت إليهم جماعة من الشبان

الثائرين ، ومن كان باقيًا على قيد الحياة من (المتقين) ، تلك الجماعة التى اعتزلت الحياة العامة ، فى سبيل الله ، وزهدت فى جميع الملذات .

وبعد قليل من هذا الحادث توفى متاثياس ، بعد أن أوصى أتباعه بأن يخلفه ابنه بوداس ، المعروف باسم (مكابى) .

كان بوداس رجل حرب ، أوتى من الشجاعة مثل ما أوتى من التقوى ، وكان من عادته - قبل أن يخوض معركة - أن يصلى كما يصلى الأولياء الصالحون ، حتى إذا خاض غمارها (كان كالأسد فى سورته) ، وكان جيشه الصغير ـــ يعيش فى الجبال ، كما تعيش الوحوش ، ويقتات بالأعشاب) ، ثم ينقض من حين إلى حين ، على إحدى القرى المجاورة ، فيقتل المارقين ، ويهدم مذابح الوثنيين ، و(إذا وجدوا أطفالًا لم يختتنوا أجروا لهم عملية الختان بشجاعة) .

ولما نقلت هذه الأنباء إلى أنتيوخوس ، سير إليهم جيشًا من السوريين اليونان ، ليهدم حصن المكابيين ، فالتقى بهم بوداس فى ممر (إمّوس Emmaus) ، وانتصر عليهم سنة ١٦٦ق. م ، مع أن اليونان كانوا من الجنود المرتزقة المدربين أحسن تدريب ، والمسلحين أحسن تسليح ، بينما كانت فرقة بوداس يعوزها الكثير من العتاد .

وسير أنتيوخوس قوة أخرى أكبر ، بلغ من ثقة قائدها بالنصر أن جاء معه بالنخاسين ليبتاعوا أسراه من اليهود ، ووضع فى المدن لوحات تحدد أثمان الأسرى ، فهزم بوداس هذا الجيش فى (مزباح) هزيمة حاسمة ، سقطت على أثرها أورشليم فى قبضته دون مقاومة ، فلما دخلها أخرج ما كان فيها من مذابح وزينات وثنية ، وطهر الهيكل ودشنه من جديد ، وأعاد الصلوات اليهودية وسط مظاهر الابتهاج .

ولما تقدم ليسياس Lysias نائب الملك بجيش جديد ليسترد أورشليم ، شاع بين الجنود أن أنتيوخوس قد مات ، وكانت شائعة صادقة سنة ١٦٣ ق. م ، فأراد ليسياس أن يكون حرًا فى العمل فى غير هذا الميدان ، وعرض على اليهود أن تكون لهم حريتهم الدينية كاملة ، إذا ما ألقوا السلاح ، فرضى بذلك (المتقون) ، ورفضه (المكابيون) ، وأعلن بوداس أنه لا يأمن على البلاد من الاضطهاد ، إلا إذا نالت استقلالها السياسى والدينى معًا .

وسكر المكابيون بخمرة النصر ، فأخذوا فى اضطهاد أعدائهم ، وانتقموا من الحزب الموالى لليونان .

وفى سنة ١٦٢ ق. م هزم بوداس (نكانور Nicanor) عند (أداسا) ، وقوى نفسه بأن عقد حلفًا مع روما ، لكنه قتل فى نفس السنة ، وهو يحارب جيشًا أقوى من جيشه عند (إلاسا) ، وواصل أخوه يوناثان الحرب بشجاعة ، لكنه قتل هو الآخر عند عكا سنة ١٤٣ ق. م ، ولم يبق من الإخوة الخمسة إلا سيمون الذى استطاع - بمعونة روما - أن ينال من دمتريوس الثانى سنة ١٤٢ ق. م ، اعترافًا باستقلال اليهود ، وعين سيمون - بمرسوم شعبى - حاخامًا أكبر وقائدًا عسكريًا ، وإذْ صار هذان المنصبان وراثيين فى هذه الأسرة ، فقد عُدّ هو مؤسس الأسرة الملكية ، وعُدت أولى سنى حكمه بداية (التاريخ الجديد ، فصدرت عملة تعلن مولد الدولة اليهودية الجديدة) .

●● يصف يوسيفوس (هيرود) الأكبر بقوة البأس ، وعظمة المهارة ، والبراعة فى رمى السهام والحراب ، وبأنه صياد عظيم ، اقتنص فى يوم واحد أربعين وحشًا ، كان محاربًا (لا يستطيع أحد مواجهته) ، وكان يتمتع بشخصية جذابة ، يستطيع أن يتغلب على أعدائه بقوة الحجة ، أو بكثرة الرشا ، وبخاصة أولئك الذين حاولوا أن يشوا به عند أنطونيوس ، أو كليوباترة ، أو أوكتافيان ، وقد خرج من كل الأزمات التى أثيرت بينه وبين الحكومة الثلاثية فى روما أقوى سلطان ، وأوسع ملكًا .

وقد صدم مشاعر الشعب اليهودى بقوله : إن الهيكل الذى شاده زربابل - منذ خمسة قرون - كان ضيقًا ، وإنه يعتزم أن يهدمه ، ويقيم مكانه هيكلًا أوسع منه ، ولم يبال باحتجاج القوم ومخاوفهم ، وحقق رغبته بأن أقام المعبد الذى دمره تيتس فيما بعد .

وقد سوّى على جبل موريا أرضًا تقرب مساحتها من سبعمائة وخمسين قدمًا مربعة ، وأقام على أطرافها أروقة ذات سُقُف من خشب الأرز (ذات نقوش عجيبة) تعتمد على صنوف من العُمد الكورنثية ، كل عمود من كتلة واحدة من الحجر ، تبلغ من الضخامة حدًا يصعب على ثلاثة رجال أن يطوقوها بأذرعهم ، وكان فى البهو الرئيسى مظلات للصيارفة الذين يبدّلون بنقود الأجانب النقود التى تتداول فى

الهيكل ، وكان فى تلك الأروقة مرابط يستطيع المرء أن يشترى منها ما يريد أن يقرّب من الحيوانات ، كما كانت غرف وأروقة للطلاب الذين يتعلمون اللغة العبرية والشريعة ، كما كان مكان للمتسولين الصخابين الذين لا مفر من وجودهم فى كل مكان .

ومن هذا (الهيكل الخارجى) يصعد مجموعة من الدرج إلى فضاء داخلى مسور ، يحرم على غير اليهود أن يدخلوه ، وكان فى هذا الفضاء (بهو النساء) يأوى إليه الطاهرون من الرجال مع نسائهم ، ومن هذا الحرم الثانى يصعد على مجموعة أخرى من الدرج ، ويمر خلال أبواب مصفحة بالفضة والذهب إلى (بهو الكهنة) ، حيث يقوم فى الهواء الطلق (المذبح) الذى تقرّب فيه المحروقات إلى (يهوه) ، وتلى هذا درج أخرى ، يمر بها الصاعد خلال أبواب من البرنز ، يبلغ ارتفاعها خمسًا وسبعين قدمًا ، واتساعها أربعًا وعشرين ، تعلوها كرمة ذهبية ذائعة الصيت ، وتؤدى إلى بناء الهيكل الرئيسى الذى لا تفتح أبوابه إلا للكهنة وحدهم .

وقد شيد هذا البناء كله من الرخام الأبيض ، على هيئة طباق تتدرج فى الصغر كلما علت ، وصفحت واجهته بالذهب ، وقسم داخله قسمين يفصلهما ستار مزركش ، يمتد فى عرض فراغه ، فيه من الألوان الأزرق والأرجوانى والقرمزى ، وأمام هذا الستار كانت الماثلة (الشمعدان) الذهبية ذات الفروع السبعة ، ومذبح البخور والمائدة ، وعليها (خبز التقدمة) غير المختمر الذى يقدمه الكهنة ليهوه .. ومن خلف الستار (قدس الأقداس) .

وكان الهيكل القديم يحتوى على مبخرة ذهبية ، وعلى تابوت العهد ، لكن هذا التابوت (لم يكن يحتوى على شىء قط) ، كما يقول يوسيفوس ، ولم تكن قدم الإنسان تطأ هذا المكان إلا مرة واحدة فى العام ، وذلك فى يوم الكفارة ، حين يدخله الكاهن الأكبر وحده .

وقد استغرق بناء الأجزاء الرئيسية من هذا الصرح التاريخى ثمانية أعوام ، أما أعمال نقشه وتزيينه فقد ظلت قائمة ثمانين عامًا ، ولم تتم إلا قبيل مجىء فيالق تيتس لتهدمه .

● وقد أوصى هيرود قبل وفاته أن تقسم مملكته بين أبنائه الثلاثة الباقين أحياء .. فحكم فيليب الإقليم الشرقى المعروف باسم بنتانيا Bantanea الذى يحتوى على

مدائن بيت سيده ، وكبتولياس ، وجراسا ، وفلدلفيا ، وبصرى .. وحكم هيرود أنتباس بيريا Peraea الأرض الواقعة وراء نهر الأردن ، والجليل فى الشمال ، حيث توجد أزدريلا ، وطبرية ، والناصرة .. وكان نصيب أركلوس سمريتس ، وإيدوميا ، ويهوذا ، وكان فى هذا القسم كثير من المدن والبلدان الشهيرة ، مثل بيت لحم ، وصبرون ، وبير سبع ، وغزة ، وجدارا ، وإمّوس ، ويمينا ، ويافا ، وقيصرية ، وأريحا ، وأورشليم .

وكانت بعض المدن الفلسطينية تغلب عليها الصبغة اليونانية ، وبعضها تغلب عليه الصبغة السورية .

وكان الوثنيون هم الكثرة الغالبة فى المدن الساحلية ، ماعدا يافا ويمينا ، أما فى الداخل فيكاد السكان أن يكونوا جميعًا من اليهود .

وقد ظهر فى عهد هيرود الحبر الربانى (هلل Hillel) الذى يقول مؤرخوه إنه ولد فى بابل سنة ٧٥ ق. م ، من أسرة كريمة أخنى عليها الدهر ، ثم جاء إلى أورشليم بعد أن نضج ، وكان يعول زوجته وأبناءه بالعمل اليدوى ، ويؤدى نصف أجره اليومى للمدرسة التى يتعلم فيها .

وقد وضع ثلاث قواعد لهداية الناس : حب الآخرين ، وحب السلم ، وحب الشريعة وتعلمها والعمل بها .

ومن أقواله : (لا تفعل مع غيرك ما تكرهه لنفسك) .

وكانت تفسيراته للشريعة قائمة على الحرية والتسامح ، وأهم ما فيها أنه يسّر إقراض المال ، والحصول على الطلاق .

ومن نصائحه للشبان الثائرين فى عصره : (لا تخرجوا على الجماعة) .

وقَبِل هيرود على أنه شر لابد منه ، وعين فى عهده رئيسًا للسنْهدرين سنة ٣٠ ق. م حتى توفى سنة ١٠ ق. م ، ثم صار هذا المنصب وراثيًا فى أسرته ، مدى أربعمائة عام ، تعظيمًا لذكراه .

وخص المجلس مكان الشرف الثانى فيه لمنافسه الحبر (شماى) المحافظ ، الذى كان يفسر الشريعة تفسيرًا أدق وأضيق من تفسير هلل ، فلا يجيز الطلاق ، ويطالب بتطبيق التوراة تطبيقًا حرفيًا ، لا يراعى تغير الظروف .

وكان للرجلين تأثير كبير على حركة اليهودية ، بالإضافة إلى كل من الحبرين (عقيبا) و (مائير) ، وقد تعاونوا فى تدوين (المشنا) التى خرجت على يدى الحبر يهوذا هانسيا باسم (مشنا الحبر يهوذا) وكان لها دورها فى المسيرة اليهودية .

● ظل اليهود يكافحون قرونًا طويلة .

ولما مات هيرود الأعظم نبذ الوطنيون نصائح (هلل) السلمية ، وأعلنوا الثورة على خليفته أركلوس ، وعسكروا فى خيام حول المعبد ، فقتل جنود أركلوس منهم ثلاثة آلاف ، كان أكثرهم قد جاءوا إلى أورشليم ليحتفلوا بعيد الفصح سنة ٤ ق. م ، لكن الثوار عادوا إلى التجمع فى عيد العنصرة ، وتعرضوا للقتل مرة أخرى ، وحرقت أروقة الدير ، ونهب الجنود ما فيه من الكنوز ، واستحوذ اليأس على كثير من اليهود فقتلوا أنفسهم ، ثم تألفت عصابات فى الريف ، وهدد أفرادها حياة كل من يؤيد روما ، فزحف (قارس) حاكم سوريّة على فلسطين بعشرين ألفًا ، وهدم مئات من بلدانها ، وصلب ألفين من الثوار ، وباع ثلاثين ألفًا فى الأسواق .

استجاب أغسطس لرجاء زعماء اليهود ، فعزل أركلوس ، وجعل البلاد ولاية رومانية من الدرجة الثانية ، وعين عليها واليًا مسئولًا أمام حاكم سورية .

نعمت البلاد بفترة سلام فى عهد تيبريوس ، فلما جلس كالجيولا على العرش أراد أن يجعل عبادة الإمبراطور دينًا يوحّد بين أجزاء الإمبراطورية المختلفة ، فأمر أن تشمل كل العبادات قربانًا يقرّب لصورته ، وأصدر تعليماته إلى الموظفين فى أورشليم أن يضعوا تمثاله فى الهيكل .

● استمر الصراع بين اليهود والرومان حتى سار تيتوس لحصار أورشليم .

ولما استولى على نصف المدينة عرض على الثوار شروطًا ظنها مقبولة ، فلما رفضوها أضرمت فرق الحراقين النار فى الهيكل ، فلم يلبث هذا الصرح الشامخ - وكان معظمه من الخشب - أن صار رمادًا ، واستبسل المدافعون عنه إلى حد الانتحار ، لكن المنتصرين لم يرحموا أحدًا ، ولم يتركوا بابًا للإفلات .

يقدر يوسيفوس عدد من هلك فى هذا الحصار وما أعقبه من أحداث بمليون ومائة وسبعة وتسعين ألفًا ، أما تاسيتوس فقدرهم بستمائة ألف ، وذلك سنة ٧٠ م .

واستمرت المقاومة فى أنحاء متفرقة حتى سنة ٧٣م ، لكن تدمير الهيكل كان فى واقع الأمر نهاية الدولة اليهودية ، إذ صودرت أملاك الذين اشتركوا فى الفتنة ، وكادت البلاد تخلو من اليهود .

واتخذت اليهودية الصورة التى احتفظت بها (إلى أيامنا هذه) ، صورة دين بلا معبد مركزى ، ولا كهنوت مسيطر ، ولا قرابين ، واختفت طائفة الصدوقيين ، وأصبح الفريسيون والأحبار زعماء شعب يبحث عن نفسه - قصة الحضارة مج ٣ ج٣ ص ١٨٩ .

●● أرخ علماء اليهود زمن الشتات بالوقت الذى دمّر فيه هيرود الهيكل ، وإن كان الشتات بدأ بالأسر البابلى ، قبل ذلك بستة قرون .

وما وافى عام ٧٠م حتى كان آلاف اليهود فى سلوقية على نهر دجلة ، وفى غيرها من مدائن بارثيا ، وكانوا كثيرى العدد فى بلاد العرب ، ومنها عبروا إلى بلاد الحبشة ، وكان لهم فى سوريا وفينيقيا جالية كبيرة فى طرسوس ، وأنطاكية ، وبيريه ، وسلانيك ، وميليتس ، وأفسوس ، وسرديس ، وأزمير ، وكانوا أقل من ذلك فى ديلوس ، وكورنثة ، وسرقوسة ، وأثينا ، وفلباى ، وبيتولى ، وكبوا ، وبمبى ، وروما ، كما كانت جماعات منهم فى قرطاجنة .

(ويمكننا أن نقدر عدد اليهود فى الإمبراطورية الرومانية إجمالًا بنحو سبعة ملايين ، أى نحو ٧٪ من سكانها) .

وفى عام ١٣٠ م أعلن هدريان أنه يعتزم بناء ضريح لجويتر فى مكان الهيكل ، ثم أصدر سنة ١٣١م مرسومًا بتحريم الختان ، وتعليم الشريعة علنًا ، فشبّت ثورة بقيادة (باركوشيبا) ، الذى ادعى أنه المسيح المنتظر ، وبارك أكيبا بن يوسف هذه الثورة ، رغم أنه كان من دعاة السلم ، وظل الثوار ثلاث سنين مستبسلين فى قتال الرومان ، حتى لحقت بهم الهزيمة ، بعد أن نفد الزاد والعتاد ، ودمر الرومان ٩٨٥ مدينة وقرية فى فلسطين ، وذبحوا ٥٨٠ ألف يهودى ، ويُقال : إن الذين ماتوا من الجوع والمرض والحريق كانوا أكثر من ذلك ، وخر (باركوشيبا) صريعًا وكان الذين بيعوا من اليهود فى الأسواق من الكثرة بحيث انخفض ثمن الواحد منهم إلى ثمن حصان .

واشتد هدريان ، فحرم الإسبات ، والاحتفال بالأعياد ، أو إقامة أى طقس يهودى ، وفرضت ضريبة شخصية جديدة أكبر من الضريبة السابقة ، وحرم على اليهود دخول بيت المقدس إلا فى يوم واحد فى العام ، يبكون فيه أمام خرائب الهيكل .

وقامت فى مكان أورشليم مدينة إيليا كابتولينا الوثنية ، وشُيد فيها ضريحان لجوبتر وفينوس وساحات للرياضة ، وملاه ، وحمامات .

وظل اليهود قرونًا يعانون من آثار النكبة التى حلت بهم بعد ثورة باركوشيبا ، وإن كان أنطونيوس بيوس قد خفف من صرامة مراسيم هدريان .

ولم يجد اليهود لهم صديقًا بين الفلاسفة والقديسين ، فابتعدوا عن المناصب العامة ، وعكفوا فى عزلتهم على الدرس والعبادة ، واستمسكوا بأقوال علمائهم ، وأخذوا يتأهبون لكتابتها آخر الأمر فى تلمود بابل وفلسطين .

وهكذا انطوت اليهودية فى ظلمات الخوف والفزع ، بينما كانت وليدتها المسيحية تخرج لفتح العالم وسيادته .

●● أصبح اليهود – من عهد قيصر – عنصرًا قويًا من عناصر السكان فى روما العاصمة ، وقد وفد منهم إليها عدد قليل منذ سنة ١٤٠ ق. م ، ثم توافدت أعداد وفيرة عن طريق الأسر ، وبخاصة بعد حروب بمبى التى شبت سنة ٧٣ ق. م ، ولم يلبث هؤلاء أن تحرروا من الرق بجدهم ، واقتصادهم ، ولتمسكهم الشديد بأوامر دينهم ، مما كان يسبب مضايقات لسادتهم ، فكانوا يؤثرون التخلص منهم ، ولم يحل عام ٥٩ ق. م حتى كان عددهم فى الجمعية قد ازداد إلى حد جعل شيشرون يصف معارضتهم بأنها مجازفة سياسية غير مأمونة العاقبة .. ويمكن القول بوجه عام : إن الحزب الجمهورى كان معاديًا لليهود ، وإن الشعب والأباطرة كانوا متعاطفين معهم .

وقبل أن ينصرم القرن الأول كان عددهم فى العاصمة قد بلغ عشرين ألفًا ، وكانت كثرتهم تسكن على الضفة الغربية من نهر التيبر ، وكانت تعانى من جراء الفيضان الموسمى لهذا النهر .

كانوا يشتغلون بأحواض السفن القريبة من مساكنهم ، ويعملون بالصناعات اليدوية ، وبتجارة السلع المختلفة فى الحوانيت ، أو بالتنقل فى أحياء المدينة والقرى القريبة ، وكان منهم أغنياء ، لكن لم يكن من بينهم إلا عدد قليل من كبار التجار ، فقد كان السوريون واليونان هم المسيطرون على التجارة الدولية .. وكان لهم فى رومه عدد كبير من المعابد ، لكل معبد مدرسته ، وكتبته ، ومجلسه المكون من شيوخهم .

وكانت نزعتهم الانفصالية ، واحتقارهم لعبادة الأوثان ، وتزمتهم الخلقى ، وعاداتهم وطقوسهم الغريبة ، وامتناعهم عن الذهاب إلى دور التمثيل ، أو مشاهدة الألعاب ، وفقرهم وما كان ينتج عنه من قذارة - كان كل ذلك سببًا فى كراهية الآخرين لهم ، وهى الكراهية المألوفة فى تاريخهم الطويل .

وقد انتقلت هذه الأسباب معهم أين حلوا فى أنحاء الإمبراطورية ، أضيف إليها فى العهد المسيحيى موقفهم من الديانة الجديدة ومن شخص الرسول و حتى كانت الإدانة بتعذيبه وصلبه ، وبهذا صار المسيحيون ألد أعدائهم ، ومن هنا يمكن تعليل مقتل هيباشيا الفيلسوفة والعالمة الرياضية ، بصورة وحشية مقززة فى الإسكندرية ، وقد جعل منها (التنويريون) المصريون اليوم شهيدة (التطرف) ، إلى جوار جاليليو وبرونو ، و (فرج فودة) !!

كان والدها (تيون Theon) آخر من سجلت أسماؤهم فى سجل أساتذة متحف الإسكندرية ، ولما عينت أستاذة للفلسفة فى متحف الإسكندرية هرع لسماع محاضراتها عدد كبير من الناس ، من شتى الأقطار النائية ، وهام بعض الطلاب بحبها .

وكان مسيحيو الإسكندرية يبغضونها ، لأنها لم تكن كافرة فاتنة فحسب ، بل كانت كذلك صديقة وفيّة لأرستيز حاكم المدينة الوثنى .

ولما حرض (سيريل Cyril) كبير الأساقفة أتباعه الرهبان على طرد اليهود من الإسكندرية أرسل أرستيز إلى ثيودوسيوس الثانى (٤٠٨ - ٤٥٠) إمبراطور الشرق تقريرًا عن الحادث ، بعيدًا عن النزاهة بعدًا استاء منه عدد من الأساقفة ، ومن رجاله ، وقذف بعض الرهبان الحاكم بالحجارة ، فأمر بالقبض على زعيم الفتنة وتعذيبه ، حتى مات .

واتهم أنصار سيريل هيباشيا بأنها صاحبة السلطان الأكبر على أرستيز ، وأنها هى وحدها التى تحول دون الاتفاق بين الحاكم والبطريق ، وجروها إلى إحدى الكنائس ، وجردوها من ملابسها ، وأخذوا يرجمونها بقطع القرميد ، حتى ماتت ، ثم قطعوا جسمها إربًا ، ودفنوا ما بقى منه فى مرح وحشى شنيع .

وبهذا ذهبت ضحية فتنة دينية سياسية ، مع كثيرين من قومها ، راحوا ضحية هذه الفتنة .

●● وظل اليهود يعملون لحساب القوة المسيطرة ، وإن خانوا مبادئهم ، لأنها خيانة تأخذ شكل (التقية) ، أى الميل مع العاصفة حتى تتشرذم وتموت .

لقد بسط القيصر عليهم حمايته ورعايته نظير هذا الولاء الخادع ، وحذا أغسطس حذوه ، أما تيبريوس فكان معاديًا لكل العقائد الأجنبية ، ومن ثم جند أربعة آلاف منهم ليحاربوا فى سردينية حربًا لا تكاد تختلف عن الانتحار ، ثم أخرج البقية الباقية منهم من رومه سنة ١٩ م ، ثم أدرك بعد اثنى عشر عامًا أن سجانوس قد أضلّه فى هذا الأمر ، فألغى مرسوم نفيهم ، وأمر ألاّ يضارّ اليهود فى ممارسة طقوس دينهم ، وفى اتباع عاداتهم .

وبسط كاليجيولا عليهم حمايته فى رومه ، لكنه اضطهدهم فى غيرها .. ونفى كلوديوس بعضهم على أثر ما أحدثوه فى المدينة من شغب ، لكنه أصدر سنة ٤٢م مرسومًا يؤيد فيه حقوقهم المدنية ، أيًا كان مقامهم فى أنحاء الإمبراطورية .

وفى عام ٤٤ م نفى دومتيان اليهود من رومه إلى وادى إجريا Egeria .. وفى سنة ٤٦ أعادهم نيرفا Nerva إلى روما ، ورد إليهم حقوقهم المدنية ، وسمح لهم أن يستمتعوا بالطمأنينة جيلًا كاملًا .

ولما زار هدريان أورشاليم سنة ١٣٠ وجد المدينة المقدسة لا تزال مخربة ، منذ تيتوس ، قبل ستين عامًا ، يسكنها عدد قليل من اليهود الفقراء والمساكين ، يقيمون فى حظائر وأكواخ من الصخور - فتأثر بما شاهد من آثار الدمار والتخريب ، وجعل يحلم بأن يجعل من صهيون قلعة وثنية .. لهذا أمر أن يعاد بناء أورشليم ، لتكون مستعمرة رومانية ، وأن تسمى إيليا كابتولينا ، وارتكب بعمله هذا خطأً سياسيًا ونفسانيًا ، مع ما عرف عنه من رجاحة الفكر السياسى ، وحكمة الداهية .

وكان أن شبت سنة ١٣٥ ثورة يهودية أقضّت مضجعه ، لكنه تمكن من إخمادها ، دون إيغال فى الدماء .

وجاء أنطونيوس بيوس الذى اشتهر بالتسامح مع أصحاب الديانات غير الرومانية ، فخفف من الإجراءات التى اتخذها هدريان ضد اليهود ، وجرى على سنة أسلافه من التساهل مع المسيحيين ، ولم يكن يضيق صدرًا بالمرح ، وكثيرًا ما كانت تصدر منه النكات اللطيفة .. كان يلعب ويصيد الوحوش والأسماك مع أصدقائه ، ولم يكن أحد يستدل من سلوكه على أنه الإمبراطور .. كان ينشر على الناس إحصاء بجميع الإيرادات والنفقات ، مع أن أحدًا من الأباطرة أو الملوك لم يعرف بهذه الفضيلة ، حتى فى أزهى عصور الديمقراطية تَبْهَت المعالم من خلال الأرقام المزيفة ، إن ضاقت بنود (المصاريف السرية) .. ولم يكن ينقطع عن ذكر قول سبيو : (إنه يفضل الاحتفاظ بحياة مواطن واحد على قتل ألف عدو) .

● وكان قسطنطين - قبل أن يعتنق المسيحية - قد سوى من الوجهة القانونية بين الدين اليهودى وغيره من الأديان التى يدين بها رعايا الإمبراطورية ، أما بعد اعتناقه المسيحية فقد اضطهد اليهود ، وفرض عليهم قيودًا وأعباء جديدة ، وحرم على المسيحيين أن يتصلوا بهم ، ونفى أحبارهم سنة ٣٣٧ ، وجعل زواج اليهودى من مسيحية جريمة عقوبتها الإعدام .

وفرض جالوس ، أخو قسطنطين ، على اليهود من الضرائب الفادحة ما اضطر الكثيرين منهم إلى أن يبيعوا أبناءهم ليفوا بمطالبه منهم .

ومضى اليهود يعانون من السلطة المسيحية أشد مما عانوا من السلطة الوثنية ، حتى كانت العصور الوسطى .

●● ومع هذا كان اليهود فى البلاد التى انتشروا فيها قادرين على إعادة ترتيب البيت ، وتكييفه مع الظروف القاسية التى يمرون بها .. كانوا يعيدون بناء المعابد فى صبر وأناة ، وينظمون شئون حياتهم ، يتجرون ، ويرابون ، ويصلون ، ويحلمون ، ويزدادون ، ويتضاعفون .

كان يطلب إلى كل جالية يهودية فى أى بلد أن تقيم على نفقتها مجتمعة ما لا يقل عن مدرسة ابتدائية ، وأخرى ثانوية يضمهما فى العادة الكنيس ، وكان يشار

على العلماء ألا يقيموا فى بلد يخلو من هاتين المدرستين ، وكانت العبرية لغة العبادة والتعليم .

كان الدين هو محور التعليم اليهودى ، أما الثقافة غير الدينية فكادت فى ذلك الوقت أن تهمل تماماً ، ذلك أن اليهود المشتتين لم يكونوا يستطيعون أن يحفظوا كيانهم ماديًا وروحيًا إلا عن طريق شريعتهم ، وكان الدين هو دراسة الشريعة والعمل بها .. وكان دين آبائهم يزداد قيمة كلما ازداد الهجوم عليه .

كان التلمود والكنيس الدعامتين والملجأين عند المُلِمات ، فالشعب الحائر (المنبوذ) حيث كان ، تقوم حياته على الأمل فى غد أفضل ، ويزيده الشعور بالاضطهاد رغبة فى التفوق ، حتى ينتقم لنفسه ولتاريخه ، ومن ثم كان (الإيمان) هو الملاذ والعون .

لم يكن الكنيس مجرد معبد دينى ، بل كان المركز الاجتماعى للعشيرة اليهودية ، وقد قام بدور كبير خلال مراحل الشتات ، كان ينشر فى كل سبت ما يصدره (بيت الدين) من قرارات ، ويجبى الضرائب ، ويعلن عن الأمتعة المفقودة ، وينظر فى شكاوى الأفراد ، ويذيع أخبار الأملاك ، ليمكن من له حق فى هذه الأملاك أن يتقدم بمستنداته ، ويوزع الصدقات العامة ، ويكون مأوى لأبناء السبيل .. ولهذا كان مبناه متميزًا حتى يسهل على (الغريب) أن يقصده .

وكان بكل كنيس مدرسة ، بالإضافة إلى المدارس الخاصة ، والمعلمين الخصوصيين .

وكان الأولاد يخرجون إلى المدارس مبكرين - قبل طلوع الفجر فى الشتاء - ثم يعودون إلى بيوتهم بعد ساعات لتناول الفطور ، ثم يرجعون إلى المدرسة حتى الساعة الحادية عشرة ، ثم يأتون إلى المنزل للغداء ، ويعودون إلى المدرسة ظهرًا ، ثم يستريحون بين الثانية والثالثة ، ثم يذهبون إلى المدرسة ، ويبقون فيها إلى المساء ، ثم يطلق سراحهم ليتعشوا ويصلواويناموا .

وأول ما كان يدرس التلميذ اللغة العبرية ، وأسفار موسى الخمسة ، فإذا بلغ العاشرة من عمره ، أخذ يدرس « المشنا » ، وفى الثالثة عشرة يدرس الأجزاء الرئيسية من « التلمود » ، ومن شاء أن يكون من العلماء واصل دراسة « المشنا » و « الجمارا »

من الثالثة عشرة إلى العشرين .. وإلى جوار هذا كله كان يتلقى قدرًا من العلوم المختلفة .

وظل يهود العصور الوسطى - وهم فى غمار المشاغل التجارية ، والفقر المذل ، والازدراء القاتل - ينتجون النحويين ، والفقهاء ، والمتصوفة ، والشعراء ، والعلماء ، والفلاسفة ، ولم يضارعهم فى آدابهم الواسعة ، وتراثهم العقلى ، إلا المسلمون ، فيما بين عامى ١١٥٠ و ١٢٠٠ .

وكان مما يسر لهم أسباب هذا النبوغ أنهم يعيشون بين المسلمين ، أو على اتصال بهم ، وأن كثيرين منهم كانوا يعرفون اللغة العربية ، فكان عالم الثقافة الإسلامية الثرى بأجمعه - فى العصور الوسطى - مفتوحًا أمامهم ، يغترفون من بحره الطامى فى العلم والطب والفلسفة وغيرها .

●● وإلى جوار هذا النشاط الدينى التأصيلى التعليمى ، ظهر نشاط آخر يغلب عليه الطابع السياسى ، تمثل فى نشاط رئيس اليهود فى المهجر (الإجزيلارك) الذى اعترف به خلفاء المسلمين فى بابل ، وفارس ، وأرمينية ، والتركستان ، واليمن .. وكان جميع رعايا الخليفة (يقومون واقفين فى حضرته - الإجزيلارك - ويحيونه باحترام) .

كان منصب الإجزيلارك وراثيًا فى أسرة واحدة ، يرجع نسبها إلى داود - كما يزعمون - وكان سلطانه سياسيًا أكثر منه روحيًا ، وأصبح مديرو المجامع العلمية - بعد سنة ٧٦٢ - هم الذين يختارونه ، ويسيطرون عليه .

ولما توفى الإجزيلارك سليمان ، طالب ابن أخيه عَنَن بن داود بحقه فى أن يخلفه فى منصبه ، لكن بعض الزعماء رفضوا مبدأ الوراثة ، ونصبوا حنانيا ، أخا عَنَن الأصغر إجزيلارك ، فما كان من عَنَن إلا أن طعن فى هذا الإجراء ، وفر إلى فلسطين ، وأنشأ فيها كنيسا خاصا به ، وطالب اليهود أينما كانوا أن ينبذوا التلمود ، وألا يطيعوا إلا قوانين أسفار موسى ، وكان هذا العمل من جانبه عودة إلى الوضع الذى كان عليه الصدوقيون .

ولم يكتف عَنَن بهذا ، بل أخذ يعيد النظر فى أسفار موسى الخمسة ، ويشرحها

شرحًا يعدّ خطوة جريئة فى سبيل الدراسة النقدية لنصوص الكتاب المقدس ، واحتج على ما أدخله علماء التلمود من تبديل فى الشريعة الموسويّة ، وما يحاولون فى تفسيرهم وشرحم من توفيق بينها وبين الظروف القائمة فى أيامهم ، وأصر على اتباع ما جاء فى الأسفار الخمسة من أوامر ، وتنفيذها بنصها ، ولذلك سمى أتباعه بالقرائين ، أى المتمسكين بالنصوص .

وامتدح عَنَن عيسى ، وقال : إنه رجل صالح ، لم يرغب فى نبذ شريعة موسى المدونة ، بل كل ما كان يطلب أن ينبذ الناس قوانين الكتبة والفريسيين الشفوية .

ويروى عنه أن عيسى لم يكن يرغب فى وضع دين جديد ، بل كان يرغب فى تطهير الدين اليهودى وتدعيمه .

وقد كثر اليهود القراءون فى فلسطين ، ومصر ، وأسبانيا ، ثم نقص عددهم فى القرن الثانى عشر ، ولم يبق منهم الآن إلا أقلية آخذة فى الانقراض ، فى تركيا ، وجنوب روسيا ، وبلاد العرب .

ونبذ القراءون فى القرن التاسع ما كان ينادى به عَنَن من تفسير حرفى لنصوص الشريعة ، وقالوا : إن ما ورد فى الكتاب المقدس من عبارات أمثال (يد الله) و (جلوس الله) يجب أن تؤخذ بمعناها الحقيقى ، بل إن بعضهم قد غالى فى هذا ، فقدر مقاييس جسم الله ، وطول أطرافه ، ولحيته .

● ثم ظهر يهوذا هاليفى الذى رفض كل تفكير فلسفى ، وقال : إنه من عبث العقل ، لأن الفلسفة تستبدل الجدل بالخشوع والإيمان .

وقد قاوم غزو أفلاطون وأرسطو للدين اليهودى ، وتسرب الآراء الإسلامية إلى الفكر اليهودى ، وهجمات اليهود القرائين المتواصلة على التلمود .. وله كتاب فى الفلسفة (يعد أمتع كتب العصور الوسطى الفلسفية بأجمعها) ، وهو كتاب (الخزرى) سنة ١١٤٠ تقريبًا ، عرض فيه آراءه فى قصة شبيهة بالمسرحيات ، تدور حول اعتناق ملك الخزر للدين اليهودى .

* * *

آفة يهودية

لما كانت أوربا فى عصر النهضة راج فى أقلام مفكريها أن الحضارة اليونانية الرومانية هى منهل الحضارة الأوربية ، متجاهلة فضل الحضارة الإسلامية ، أو مدعية أن الحضارة الإسلامية هى الأخرى بنت الثقافة اليونانية .. وبناء على هذا زعم اليهود أن اليونان استمدوا ديانتهم وحضارتهم من التراث العبرى ، حتى تصبح أوربا مدينة لليهود ، ومن ثم يكون هذا الزعم وسيلة للابتزاز اليهودى الذى لا يألوا جهدًا فى اتخاذ أحقر الوسائل للوصول إلى مطامع لا تكاد تنتهى ، ولقد وصل بهم الزعم الباغى إلى ادعاء أنهم بناة الأهرام ، وبما أن الأهرام تمثل أرقى ما وصلت إليه الحضارة الإنسانية قديمًا ، وبما أن اليونان تتلمذوا على الحضارة المصرية القديمة ، فإن اليهود يمثلون جذور الحضارة العالمية !!

جاء فى الرسالة الحادية والعشرين من (رسائل إخوان الصفاء) أن أحدهم سأل خطيبًا يونانيًا مزهوًا بالفلسفة والعلوم اليونانية : (من أين لكم هذه العلوم والحكمة التى ذكرتها ، وافتخرت بها ، لولا أنكم أخذتم بعضها من آل إسرائيل أيام بطليموس ، وبعضها من علماء أهل مصر ، فنقلتموها إلى بلادكم ، ونسبتموها إلى أنفسكم ؟) .

وزعم يهودى من طليطلة يدعى مثير بن الدبى أن العلوم اليونانية عبرية فى أصلها .

وردد هذا الرأى يهودى آخر من قشتالة يدعى مثير بن سليمان القاضى الذى ترجم كتاب (الأخلاق) لأرسطو من اللاتينية إلى العبرية ، وحاول فى مقدمته أن يثبت أن أرسطو قد استقى كل مفاهيمه الأخلاقية الدينية من التوراة ، فى حين أن أرسطو لم يكن يعرف العبرية ، ولم تترجم التوراة إلى اليونانية إلا بعد وفاته ، ثم إن المبادئ الأخلاقية المشتركة سبقت فى الأدبيات المصرية والبابلية ، وفى الهندية والصينية كذلك .

وفى عصر النهضة الأوربية ساد هذا الاعتقاد الخاطئ ، مما يدل على مرونة الاستراتيجية اليهودية القادرة على الانتقال من عصر إلى عصر تحت ألوان مختلفة ،

وأعلام وشعارات متعددة ، مع الاحتفاظ بالهدف الاستراتيجى الذى لا تحيد عنه .

ذكر فرانسيس هاكيت فى كتابه (هنرى الثامن) أن أحد الوعاظ قال للملك هنرى الثامن : (أنا لا أعارض ما جاء فى هذه الكتب اليونانية ، ولا أقف منها موقف العداء ، ما دامت مستمدة من العبرية) .

وألف زخارى بوجان ، الأستاذ بجامعة أكسفورد ، سنة ١٦٥٨ كتابًا بعنوان (العناصر العبرية فى أدب هوميروس) .

وحاول جوشوا بارنز أن يثبت أن الإلياذة والأوديسة من تأليف الملك سليمان !!

* * *

المنقذ

يقول ول ديورانت (قصة الحضارة مج ٣ ، ج٣ ص ١٨٠) : الراجح أن فكرة الإله المنقذ قد جاءت إلى غربى آسيا من بلاد فارس ، أو بابل ، فالتاريخ كله ، والحياة كلها ، قد صورا فى الديانة الزرادشتية فى صورة صراع بين قوى النور المقدسة وقوى الظلمة الشيطانية ، ثم يأتى فى آخر الأمر (المنقذ) متراس ليحكم بين الناس ، ويقيم حكم العدالة والسلام الدائمين .

وهذا القول مرده إلى ما بقى من مدونات ، لكن الفكر الدينى - على مدى تاريخه الطويل - ارتبط بإرهاصات المنقذ ، فكانت الرسل والأنبياء ، وكان الأدعياء والدجالون .

أما ما ورد فى أسفار العهد القديم ، فهو لبنات تكونت من روايات شفوية ، داخلها حلم الخلاص من هوان الأسر البابلى ، وأعادت صياغتها وغلّفتها ثقافة بابلية فارسية ، وجدت فى (قورش) حلم الخلاص ، حتى إذا عادت إلى أورشليم بحثت عن مخلص من نسل داود .

جاء فى سفر أشعيا - فيما وصف المسيح أنه ملك دنيوى يولد من بيت داود الملكى ، (يخرج قضيب من جذع يسىّ ، وينبت غصن من أصوله ، ويحل عليه روح الرب ، روح الحكمة والفهم ، روح المشورة والقوة ، روح المعرفة ومخافة الرب .. يقضى بالعدل للمساكين ، ويحكم بالإنصاف لبائس الأرض .. فيسكن الذئب مع الخروف ، ويربض النمر مع الجدى) .

وفى سفر كل من أخنوخ ودانيال ذكر أنه سينزل من السماء .

أما صاحب سفر الأمثال ، وصاحب حكمة سليمان ، فلعلهما تأثرا بأفكار أفلاطون ، أو بروح الأرض عند الرواقيين ، فتصوراه (الحكمة) مجسدة ، وهى الكلمة أو العقل (Logos) التى كان لها شأن عظيم فى فلسفة أفلاطون ، ثم فى فلسفة أفلوطين .

ويكاد مؤلفو (سفر الرؤيا) يجمعون على أن المسيح سينتصر انتصارًا سريعًا ، لكن أشعيا يصوره بأنه (محتقر ومخذول بين الناس ، رجل أوجاع ، ومختبر الحزن ، لكن أحزاننا حملها ، وأوجاعنا تحملها ، وهو مجروح لأجل معاصينا ، مسحوق لأجل آثامنا) بيد أنهم جميعًا متفقون على أن (المسيح) سيخضع الكفار آخر الأمر ، ويحرر إسرائيل ، ويتخذ أورشليم عاصمة له .

ويقول (سفر الرؤيا) إن هذا المنقذ لن يطول غيابه ، وإنه حين ينتصر سيرتفع إلى الجنة كل العادلين ، حتى من سبق منهم إلى القبور ، ليتمتعوا فيها بالنعيم السرمدى .

ومنذ صعد المسيح من قبره إلى السماء ، وقلوب المسيحيين وعيونهم فى انتظار عودته .. وقد ظهر لبعض الحواريين ، أو الرسل ، ووعد وعودًا ، وظل الأمل والحلم فى أن يعود ، وبخاصة بعد أن اشتدت قبضة الرومان .

لكن المسيحيين اختلفوا فى موعد العودة .. فلما مات نيرون ، وخرب تيتوس الهيكل ، ولما دمر هدريان أورشليم - رحب كثيرون من المسيحيين بهذه الكوارث ، وعدوها بشائر عودة المسيح .

ولما هددت الفوضى الإمبراطورية - فى أواخر القرن الثانى - ظن ترتليان وغيره أن آخرة العالم قد دنت ، وسار أحد الأساقفة السوريين على رأس قطيعه إلى الصحراء ، ليلتقى بالمسيح فى منتصف الطريق .

وأفسد أسقف آخر فى بنطس نظام أتباعه ، بأن أعلن أن المسيح سيعود فى خلال عام واحد .

ولما لم تصدق هذه المزاعم ، رأى عقلاء المسيحيين أن يخففوا من وقع هذه الخيبة بتفسير موعد عودته تفسيرًا جديدًا ، فقيل فى رسالة معزوة إلى برنابا إنه سيعود خلال ألف عام ، وقال أشد هؤلاء حذرًا إن عودته ستكون حين ينقرض (جيل) اليهود ، أو شعبهم عن آخره ، أو حين لا يبقى أحد لم يصل إليه الإنجيل ، أو كما قال إنجيل يوحنا : (إنه سيرسل بدلًا منه الروح القدس ، أو المعزّى) - قصة الحضارة مج ٣ ج ٣ ص ٢٩ .

ثم صار الاعتقاد بعودة المسيح بعد ألف عام لا يلقى تشجيعًا من الكنيسة ، بل صارت تقاومه ، وتحكم على القائلين به بالزيغ والضلال .

● جاء فى (سفر الرؤيا) المنسوب إلى يوحنا ، الذى قد يكون غير صاحب الإنجيل - أن حلول ملكوت الله يسبقه حكم الشيطان (المسيخ الدجال فى الفكر الإسلامى) وانتشار الشرور والآثام ، فيصف حكم نيرون بأنه هو بعينه عهد الشيطان ، ويقول : إنه لما خرج الشيطان وأتباعه على الله غلبتهم الملائكة ، جيوش ميخائيل ، وقذفت بهم إلى الأرض ، فقادوا العالم الوثنى فى هجومه على المسيحية ، ونيرون هو الوحش ، وعدوّ المسيح فى هذا الكتاب ، فهو مسيح من عند الشيطان ، كما أن عيسى مسيح من قبل الله .. ويصف رومه بأنها (الزانية العظيمة الجالسة على المياه الكثيرة التى زنى معها ملوك الأرض) ، (وسكر سكان الأرض من خمر زناها) ، وهى (زانية بابل) ، مصدر جميع الظلم والفساد ، والفسق والوثنية ، ومركزها وقمتها ، هنالك ترى القياصرة المجدفين المتعطشين للدماء ، يطلبون إلى الناس أن يخصّوهم بالعبادة التى يحتفظ بها المسيحيون للمسيح .

ويبصر مؤلف (سفر الرؤيا) - فى عدة رؤى متتابعة - ما سوف يحل برومه وبالإمبراطورية من ضروب العقاب ، سترسل عليها أسراب من الجراد تظل خمسة أشهر تعذب سكانها أجمعين ، عدا المائة ألف والأربعة والأربعين ألفًا من اليهود الذى يحملون على جباههم خاتم المسيحية ، وتأتى ملائكة أخرى فتصب سبع قوارير من غضب الله على الأرض ، فيصاب الناس بقروح شديدة ، ويتحول البحر إلى دم كدم الميت ، يموت منه كل ما فى البحر من الكائنات الحية ، ويطلق ملك آخر حرارة الشمس بأجمعها على الذين لم يتوبوا ، ويلفّ ملك غيره الأرض فى ظلام دامس ، ويقود أربعة من الملائكة عشرات الآلاف من الفرسان يذبحون ثلث أهل الأرض ، ويخرج أربعة فرسان يقتلون الناس (بالسيف والجوع والموت وبوحوش الأرض) ، ويحدث زلزال تندك منه الأرض ، وتسقط قطع ضخمة من البَرد على من بقى من الكفار ، وتدمر رومه تدميرًا تامًا ، ويجتمع ملوك الأرض ليقفوا وقفتهم الأخيرة فى وجه الله ، لكنهم يموتون عن آخرهم ، ويلقى الشيطان وأتباعه إلى الجحيم ، بعد أن يُمنوا بالهزيمة فى كل مكان ، ولن ينجو من هذه الكارثة إلا المسيحيون الصادقون ، والذين عذبوا من أجل المسيح ، والذين غسلوا فى دم الخروف سيجزون الجزاء الأوفى .

ثم يطلق الشيطان بعد ألف عام ليفترس بنى الإنسان ، وتعود الخطيئة فتفشو مرة أخرى فى عالم خال من الإيمان ، وتبذل قوى الشر جهدها ، فتفسد عمل الله ،

لكنها تغلب مرة أخرى ، ويلقى الشيطان وأتباعه هذه المرة فى الجحيم ، حيث يقون جميعًا إلى أبد الدهر ، ثم يحل يوم الحساب الأخير ، فيقوم الموتى جميعًا من القبور ، ويخرج الغرقى من البحار ، وفى ذلك اليوم الرهيب (يلقى فى البحيرة المتقدمة بنار وكبريت) كل (من لم يوجد مكتوبًا فى سفر الحياة) ، ويجتمع المؤمنون ليأكلوا (لحوم ملوك ، ولحوم قواد ، ولحوم أقوياء .. ولحوم الكل ، حرًا وعبدًا ، صغيرًا وكبيرًا) ، ومن لم يبالوا بدعوة المسيح ، وستقوم سماء الله مهيأة لتكون جنة على الأرض ، وستكون أساساتها من الحجارة الكريمة ، ومبانيها من فضة وذهب ، شبه زجاج نقى ، وسورها يشب ، وكل باب من أبوابها الاثنى عشر لؤلؤة واحدة ، وسيجرى فيها نهر صاف من ماء حياة تنمو على ضفته « شجرة حياة » ويقضى على حكم الشر إلى أبد الدهر ، ويرث الأرض من يؤمنون بالمسيح ، (والموت لا يكون فيما بعد ، ولا يكون حزن ، ولا صراخ ، ولا وجع ، فيما بعد) – قصة الحضارة مج ٣ ج ٣ ص ٢٧٢، ٢٧٣ .

● وتكررت نبوءات (سفر الرؤيا) فى كتابات يهودية وإسلامية ، لأن الدافع واحد ، وما أكثر ما يظهر الفساد برًا وبحرًا وجوًا ، وتضيق أنفاس القادرين وغير القادرين ، فيكون الله الملجأ والملاذ ، من خلال طاقة نور ملساء ناعمة تدحرج أحلامهم ، وتهدهدها فوق أرجوحة (المخلص) الذى تتمثل فيه كل صفات الخير التى افتقدوها خلال حكم شياطين الإنس والجن ، الجبابرة والعملاء والدخلاء .

يروى روجر وندوفر فى كتابه Flores Historia Ram سنة ١٢٢٨ أن أحد رؤساء أساقفة أرمينيا كان يزور دير القديس ألبان ، أوائل القرن الثالث عشر ، فسئل عن القصة التى تقول إن يهوديًا كان قد تحدث إلى السيد المسيح لا يزال على قيد الحياة فى الشرق الأدنى ، فأكد رئيس الأساقفة للرهبان أنها صحيحة ، وأضاف المرافق أن رئيس الأساقفة كان قد تناول الغداء مع هذا الرجل الخالد ، قبل مغادرته أرمينيا بوقت قصير ، وأن اسم هذا الرجل – على الطريقة اللاتينية – (كارتو فيلس) وأنه لما هم السيد المسيح بمغادرة محكمة بلاطس البُنطى ، ضرب كارتوفيلس السيد المسيح على ظهره ، وقال له (أسرع) ، وأن يسوع قال له : (إنى ذاهب ، وكذلك سوف تبقى حتى أحضر) .

وكرر أرمَنيّون آخرون زاروا دير سانت ألبان سنة ١٢٥٢ نفس القصة .

وزاد عليها القصص الشعبى ، وبدل من اسم (التائه) ، وروى كيف أنه فى كل مائة عام أو نحوها يصاب بمرض عضال ، ويروح فى سبات عميق ، يفيق منه شابًا يمتلئ رأسه بذكريات لا تزال حية ، عن محاكمة المسيح وموته وبعثه .

وانقطع ورود القصة على الألسنة فترة ، لكنها ظهرت من جديد فى القرن السادس عشر .

وادعى أوربيون غلبهم التأثر أنهم رأوا أحشويروش - اليهودى التائه - فى همبورج (١٥٤٧/١٥٦٤) ، وفى فيينا سنة ١٥٩٩ ، وفى لوبك سنة ١٦٠١ ، وفى باريس سنة ١٦٤٤ ، وفى نيوكاسل سنة ١٧٩٠ ، وأخيرًا فى ولاية يوتا ، غربى الولايات المتحدة سنة ١٨٦٨ .

وتلقت أوربا - التى كانت تفقد إيمانها - هذه الأسطورة على أنها برهان يؤكد من جديد ألوهية المسيح وبعثه ، وضمان جديد لمجيئه ثانية .

يقول ول ديورانت (قصة الحضارة مج ٦ ج ٥ ص ١٣١) : وعندنا أن الأسطورة رمز كئيب لشعب فقد وطنه فى السنة الحادية والسبعين من بداية المسيحية ، وبات يتيه فى الأرض فى قارات أربع ، وعانى الاضطهاد والتعذيب المرة بعد المرة ، قبل أن يسترد موطنه القديم فى خضم زماننا .

● وكانت القبلانية (التقليد السرى) لمتصوفة اليهود فى العصر الوسيط ، الذين اعتقدوا أنهم وجدوا وحيًا إلهيًا مستترًا فى رموز الأعداد ، والحروف ، والألفاظ ، لا سيما فى الحروف التى يتألف منها اسم (يهوه) الذى لا ينطق به .

وكان العلماء فى (الجيتو) كثيرًا ما يضلون فى متاهة هذه الأوهام ، حتى لقد صرح أحدهم بأن من يهمل حكمة القبلانية السرية يستحق (الحرم) - بالسيف أو اللعنة - ويقول أكبر المؤرخين اليهود المحدثين : إنه فى القرنين السادس عشر والسابع عشر (خنقت القبلانية الطفيلية حياة اليهود الدينية بجملتها) .

ومن عباءة هذه القبلانية ظهر سبتاى زفاى فى أزمير ، وادعى سنة ١٦٤٨ أنه الفادى الموعود .

كان قد اجتذبته كتابات سليمان لوريا (١٥١٠/١٥٧٢) إلى القبلانية ،

فأخضع ذاته لنظام صارم من النّسك ، آملًا فى أن يصير جديرًا (بالتقليد السرى) فى أكمل صوره ، وكان أبوه أحد جماعة آمنت بقرب مجىء (المسيا) ، الذى لن يتجاوز سنة ١٦٦٦ ، وسمعهم سبتاى يتنبئون بأن الفداء العظيم سيأتى على يد رجل طاهر النفس ، شديد الورع ، عليم بأسرار القبلانية ، قادر على جمع شمل كل الأبرار ، ليعيشوا عصر السلام الموعود ، وخيل إليه - بعد أن طهره الزهد - أنه (الفادى الإلهى) .. وكان (الزوهار) - وهو نص قبلانى يرجع إلى القرن الثالث عشر ، ويعنى الإشراق أو الضوء - قد حدد السنة اليهودية ٥٤٠٨ ع = ١٦٤٨م فاتحة عصر الفداء ، وفى تلك السنة أعلن سبتاى أنه المسيّا ، وكان آنذاك فى الثانية والعشرين .

وكان أن صدقه رهط من مريديه ، فأدانتهم حَاخامية أزمير ، باعتبارهم مجدفين ، لكنهم أصروا ، فنفوا من المدينة .

وانتقل سبتاى إلى سالونيك ، وهناك أقام احتفالًا قبلانيًا ، زوج فيه نفسه للتوراة ، فطرده أحبار سالونيك ، فمضى إلى أثينه ، ثم إلى القاهرة ، حيث ضم إليه تابعًا غنيًا يدعى روفائيل شلبى ، ثم انتقل إلى أورشليم ، وتبعه آلاف اليهود ، بعد أن ذاع أنه سيُسقط السلطان العثمانى ، ويقيم ملكوت السماوات .

ثم عاد إلى أزمير ، ودخل سنة ١٦٦٥ المجمع فى رأس السنة اليهودية ، وأعلن نفسه المسيا مرة أخرى ، وتبعه جمع غفير ، حتى إذا رماه حَبْر عجوز بأنه دجال نفاه سبتاى من أزمير .

وانتشر نبأ مجىء المسيا فى أرجاء غربى آسيا ، وحمل البشرى تجار مصر ، وإيطاليا ، وهولندا ، وألمانيا ، وبولنده إلى بلادهم ، ونسبوا إلى سبتاى كثيرًا من المعجزات .

وقال بعض المسيحيين : إن مسيا أزمير هو حقًا المسيح المولود من جديد ، خضوعًا للتيار (الدعائى) المنتشر ، دون مراجعة نسبه ومنشئه .

وكتب هنرى أولدنبرج إلى سبينوزا فى ديسمبر ١٦٥٥ يقول :

(كل العالم هنا يتحدث عن شائعة عودة الإسرائيليين المشتتين منذ أكثر من

ألفى عام إلى وطنهم ، وقليلون يصدقون الخبر ، وكثيرون يتمنونه .. فإذا تأكد فربما أحدث ثورة فى كل شىء) .

وفى أمستردام أعلن أحبار بارزون إيمانهم بسبتاى ، واحتفل فى المجمع بمجىء الملكوت بالموسيقى والرقص ، وطبعت كتب الصلوات لتعلم المؤمنين ضروب التكفير ، والتراتيل الممهدة لدخول أرض الميعاد .

وفى بولنده هجر يهود كثيرون بيوتهم وأملاكهم انتظارًا لأن يقودهم المسيا إلى أورشليم فى موكب النصر ، واتخذ آلاف منهم أهبتهم للرحيل إلى فلسطين .

واقترح بعض المتحمسين فى أزمير أن توجه الصلوات اليهودية إلى (ابن الله البكر ، سبتاى زفاى ، المسيا والفادى) ، لا إلى يهوه !!

وكأن سبتاى آمن بقواه المعجزة ، فأعلن أنه ماض إلى الآستانة ، ليأخذ تاج الدولة العثمانية - بما فيها فلسطين - من السلطان .

وقبل أن يبرح أزمير قسّم العالم وحكومته بين أخلص معاونيه ، ووصل إلى الآستانة فى أول يناير ١٦٦٦ ، وبرفقته نفر من مريديه .

وما إن رسا على ساحل الدردنيل حتى قبض عليه ، وسيق إلى الآستانة مكبلًا بالأغلال ، وزج به فى السجن ، ولم يفقد أتباعه إيمانهم به ، فزعموا أن أوثق النبوءات ذكرت أن المسيا سيُرفض أولًا من رؤساء هذا العالم الذين سيُوقعون به ألوانًا من العذاب والهوان ، لكنه لا يلبث أن ينتصر ، ويتعرض كل من تشكك فى أنه المسيا لخطر الموت كل يوم .

خشى الأتراك من أن قتله قد يجعله شهيرًا يزيد من التفاف الناس حوله ، فَسُووم على الإيمان بالإسلام مقابل تكريمه ، وإعفائه من التعذيب ، فقبل ، وفى ١٤ سبتمبر ١٦٦٦ مثل أمام السلطان ، وأعلن مروقه عن دينه بخلع ملابسه اليهودية ، وارتداء الزى التركى ، وخلع عليه السلطان اسم محمد أفندى ، وعينه حاجبًا لبابه براتب كبير .

وأصبح اليهود فى كل مكان أضحوكة المسلمين والمسيحيين .

وحصل سبتاى على إذن بتبشير يهود أدرنه ، مؤكدًا للسلطات التركية أنه

سيهدى سامعيه إلى الإسلام ، وأصدر فى الوقت نفسه رسائل سرية يقول فيها : إنه ما زال المسيا ، وعليهم ألا يفقدوا إيمانهم به .

ولما خاب أمل الحكومة العثمانية فيه رحّلته إلى أولسنج فى ألبانيا ، حيث لا يوجد يهود ، وهناك مات المسيا محطمًا سنة ١٦٧٦ .

وظل المؤمنون به نصف قرن يواصلون حركته ، ويؤكدون قداسته ، ويعدون بقيامته من بين الأموات .

● واستمر الاستهوائيون الحالمون يستغلون معاناة الشعوب ، ناسجين من خيوط الوهم (شباك) الخلاص ، عن طريق (الفادى الإلهى) ، أو عن طريق أكثر اختصارًا بقيام القيامة .

وقيام القيامة ارتبط زمنًا طويلًا بأحد المذنبات الذى سيصطدم بالأرض ، فيحيلها كومة رماد .

حتى فى عصر الفضاء ، والنهضة العلمية الباهرة ، وإيمان الغالبية العظمى بالعقل وفتوحاته - استطاع حكام مصر - بعد خيانة ١٩٦٧ التى جللت الشعب العربى كله بالعار والشنار ، وبسحابة الحزن الأسود ، والهزيمة الخبيثة الأعماق - أن يوهموا الشعب بظهور السيدة العذراء ، معزية الشعب البائس الذى لا حول له ، واعدة إياه بنصر عزيز مؤزر .

وقد سهرت الجموع الحاشدة ليالى حول كنيسة العذراء بحى الزيتون بالقاهرة ، لتحظى بالعزاء المبارك بينما كان عشرات الآلاف من الجنود الذين غدرت بهم (القيادة) الواغلة فى دمائهم وفى اقتصاد بلادهم - يضربون فى رمال سيناء ، تتصيدهم الطائرات العمودية المعادية ، ويمزقهم الظمأ والجوع وهجير النهار وصقيع الليل ، تسفى عليهم الريح شجونها وجنونها .

والمثير للدهشة حقًا - كما جاء فى أهرام ٣٠ / ١٢ / ٩٢ - أن تتكرر مأساة ظهور العذراء فى قرية (مين جو جورج) التى تقع على بعد مائة كيلو متر من مدينة سراييفو ، عاصمة البوسنة والهرسك ، ونقلت مجلة بارى ماتش الفرنسية روايات عن أشخاص شهدوا أنها وجهت رسائل تقول فيها : (أحبوا إخوانكم المسلمين) .

هذا ، بينما المسلمون يغتالون ، وتغتصب نساؤهم ، ويمزق أطفالهم ، عن طريق الصرب والكروات ، وعن طريق مؤامرة دولية تحت قيادة الأمم المتحدة ، شاركت فيها أمريكا وروسيا وفرنسا وبريطانيا وألمانيا ، وباركتها الحكومات التى تسير فى فلكها ، وغضت الطرف ، وابتلعت الحرف ، كل الدول التى تلبس ثوب الإسلام .. كل هذا من أجل تطهير أوربا من (الشرذمة) الإسلامية التى تدنس أرض أوربا (المقدسة) !!

● وفى كوريا الجنوبية التى اكتوت بنار الحرب العالمية الثانية ، ثم طحنتها الأسلحة الأمريكية والروسية ، وظلت تستعر نيران حِلْفى وارسو والأطلنطى على أرضها - كان الشعب يحلم ، لا برغيف الخبز ، ولا بالروبل والين والدولار ، لكن بأن يصحو على دنيا غير الدنيا ، وأسرع ما يحقق له هذا الحلم أن تقوم القيامة ، فيتخلص من العدو الذى يجهر بعداوته ، ومن العدو الذى يجهر بصداقته ، ولا ضير فى أن يسبقهما إلى الطريق الذى لا رجعة منه ، على طريقة شمشون .

فى منتصف ليلة ٢٨ أكتوبر ١٩٩٢م ظل أكثر من مليون شخص ينتظرون نهاية العالم ، وتبعهم خلق كثير من اليابان وسنغافورا وأستراليا وتايلاند والصين .

يقول تاهك ميونخ وان ، مدير المعهد الدولى للأديان فى كوريا الجنوبية ، وأحد الزعماء الذين يؤكدون أن نهاية الكون قد حانت : إنه سوف يحدث انفجار هائل فى الكرة الأرضية ، وسوف يصيب كل الناس والحيوان بالصمم ، وبعد ذلك لن يشعر أحد بشىء ، أو يعرف شيئًا ، لأن الكون سيكون قد انتهى خلال ذلك ، وإن هذه العملية لن تستغرق سوى دقائق معدودة ، يعود خلالها المسيح عيسى على الأرض ، ويلتقط ١٤٤ ألف شخص فقط معه ، لا أحد يعرف من أى البقاع سوف يلتقطهم ، أو ما هى جنسياتهم أو أشكالهم أو نوعهم ، ليعود بهم مرة أخرى إلى السماء .

وبعد سبع سنوات كاملة سوف يعود هؤلاء الـ ١٤٤ ألفاً إلى هذا العالم من جديد ، ليشيدوا كرة أرضية جديدة ، بنسل جديد مطهر من السماء ، وينشروا حضارة أو حضارات منزهة عن الفساد .

ويقول تاهك - فى حديثه المنشور بجريدة الأهرام ٢٠ / ٨ / ١٩٩٢ - : إن

نظرية نهاية الكون مشتقة من كتاب الإيحاءات فى الوصية الجديدة ، وإن أصحاب هذه النظرية هم مجموعة من الكتّاب والعلماء الأمريكيين ، وعن طريقهم وصلت إلى كوريا .

ونشرت صحيفة (يوميورى) اليابانية واسعة الانتشار أن هناك آلاف الأشخاص اندفعوا لبيع كل ممتلكاتهم ، وتبرعوا بكل أموالهم للكنائس فى كوريا الجنوبية ، وهناك آلاف الشباب هربوا من منازلهم ، ليلحقوا بالجموع المنتظرة هذا الحدث العظيم ، وأن كثيرًا من النساء الحوامل أجهضن أنفسهن ، ليكون صعودهن إلى السماء سهلًا ، فلا يثقلهن الحمل عن مصاحبة المسيح .

وذكر متحدث باسم الكنيسة اليابانية أن الدعوة تلقى اهتمامًا كبيرًا فىاليابان ، وأن هناك على الأقل نحو ١٣ ألف شخص يؤمنون بنهاية العالم ، وأنه كلما اقترب الموعد المحدد تزايد العدد .

ونشرت جريدة (الوفد) المصرية فى ٣ / ٩ / ١٩٩٢ أن أتباع الطائفة ينتشرون فى الشوارع ، ومحطات المترو ، ويصيحون فى المارة (فيوجو) : أى أسرعوا للجنة ، وتخشى سلطات سيول من حدوث حالات انتحار جماعية ، عندما يثبت بطلان النبوءة التى سعت أمريكا إلى ترويجها .

ألم تسأل نفسك لماذا تنفق أمريكا الملايين على أفلام سلاحف النينجا ، وحرب الكواكب ، وهرقل ، والبطلة كزنيا ، ولماذا تنفق الملايين على أفلام الجريمة ، وتفرض تسويقها على الشعوب النامية ؟

ألا تعرف أن كل أجهزة الاتصال والتأثير العالمية (تقريبًا) تحركها أصابع يهودية ؟ الإذاعة والتليفزيون ، والصحافة ، والسينما ، والإنترنيت .

أما سمعت أن وزير الدفاع ووزير الخارجية ووزير المالية ومعظم السفراء والخبراء الأمريكان من اليهود ؟

أليست أكثر المصارف العالمية فى أيدى اليهود ؟

أليست (الدولة اليهودية) هى الوحيدة فى الشرق الأدنى والأوسط والأقصى تملك أسلحة نووية وكيماوية وجرثومية ، ولم تُطالَب فى يوم بالتوقيع على مواثيق

تحرم هذا النشاط الإجرامى ، خارج نطاق الدول الخمس دائمة العضوية فى مجلس الأمن ؟

إن اليهود وراء كل وسائل التخريب النفسى المصاحبة لوسائل التدمير الجسمى والفكرى ، عن طريق نشر المخدرات ، وامتصاص أقوات الشعوب بالتصحر ، وبتهريب ثروات الشعوب عن طريق حكام صنعوا صناعة (استعمارية) ، وفق برامج وسياسات عكف عليها علماء النفس والاجتماع والكيمياء والبيولوجيا والفزيولوجيا (النشاط الحيوى والتكوينى) ، فباعوا الأسلحة لمن لا يعرف استخدامها ، أو لمن يستخدمها فى تمزيق الوحدات الإنسانية والوطنية والقومية ، ويكون الإغراء بالعمولات التى تصبح أرصدة قد تتجاوز الدخل القومى ، ومن ثم تكون الأنشوطة فى رقبة الحاكم ، حتى لا يتجاوز الخط الذى رسم له .

وما ظنك بمجتمعات هذا حالها ؟ ألا تروج فيها (عبادة الشيطان) ؟ ألا تنتشر فيها أخطر الموبقات ؟ ألا تصبح (الخرافة) كتابها المقدس ؟!

ومع هذا ، فالحديث عن (الخرافة) قد يأخذ مسارًا آخر ، فكما تستخدم المخدرات فى الطب ، وفى الحصول على سعادة مؤقتة كسعادة (السادى) ، أو (الماسوشى) ، أو كسعادة العبد الذى يجد فى تعذيب سيده له اهتمامًا به ، وكما صار للفقر والحاجة فلسفة استعان بها (الصوفية) للسيطرة على قطاع كبير من (السائرين نيامًا) ، وكما استطاع (مصاصو الدماء) وتجار الأطعمة الفاسدة أن يسيطروا على (أصحاب القرار) ، وعلى رجال الجمارك والشرطة والقضاء .. كذلك يمكن أن نجد فى (الخرافة) ما وجده باستور فى (العفن) ، وما وجده بعض العلماء فى (الطحالب) ، وما وجدته بعض النساء فى (تراب الفرن) !!

* * *

الخُرافـة ..

الخرافة هى أقدم العلوم الإنسانية ، وأصدقها دلالة على ما يعتمل فى نفس المرء ، وما ينطبع على حسه ، وما يمزج بين واقعه وحدسه .

إنها دين من لا دين له ، وعلم من لا علم له ، وحلم من يعجز عن تقييد حلمه ، هى التعويذة السحرية لعلاج كثير من الآلام ، وهى البساط السحرى الذى ينقلك فى خفة ورشاقة بين عوالم لا حدود لها ، ولا أسوار .

أقبل عليها الفلاسفة والعلماء بقدر ما أقبل الحمقى والجهلاء .

كم ذا يتحدث التاريخ عن قادة عظام استعانوا على النصر بتمائم وطلاسم ، وبطواطم وأوثان ، وبدعوات دجالين لا رصيد لهم إلا لحية طويلة ، وأظافر سوداء ، وأنياب زرق ، ونصف طن من الملابس المهلهلة والقاذورات .

وكم ذا تحدث التاريخ عن فتوحات علمية وفلسفية نبتت من بذور (شيطانية) .

وهل يخصب الفنون والآداب إلا كمّ هائل من الخرافات والأساطير ؟!

إنك لا تكاد تفتش فى أدبيات أى دين إلا وتلتقى بتراث ضخم من النباتات (العشوائية) التى تملأ الأحراج والغابات .

أردت أو لم ترد ، فأنت مضطر إلى معايشة هذه (الكائنات) العجيبة التى تملك عليك الحس والوجدان ، وقد تملك العقل والإدراك ، ما لم تكن شديد الحذر ، شديد اليقظة ، كثير المراجعة والمحاسبة .

إن أخطر ما يصيب الحياة الثقافية - وبخاصة فى المجالات الإنسانية - هو عدم القدرة على التمييز بين الحقيقة والخرافة ، بين العلم والأسطورة .

وإن أخطر حملات نقّاد (الكتاب المقدس) قامت على عدم الفصل بين القمح والزوان .

من هنا لا عجب أن تواكب الخرافات المسيرات الحضارية المتقدمة ، وأن يقع فى إسارها أعلام التنوير ، ومشاعل التطور ، ورئيس الولايات المتحدة الأمريكية ، ريجان وزوجته .. وقد عرفنا أن علماء أمريكان هم الذين روّجوا لدعوى القيامة التى أصابت شرق آسيا .

يقول ول ديورانت عن الخرافات التى راجت فى عهد جاليليو (١٥٥٨/ ١٦٤٨) :

كانت الخرافات الشعبية أكثر مما يحصيه العد ، فآذاننا تلتهب عندما يتحدث عنا الآخرون ، ولا تكون الزيجات التى تتم فى شهر مايو سعيدة ، وتشفى الجراح إذا مسح السلاح الذى أحدثها بالزيت المقدس ، وتستأنف الجثة نزف الدم فى حضور القاتل ، الجنيات والغيلان والأرواح الشريرة والشياطين تحوم فى كل مكان .. ثمة طلاسم تضمن الحظ السعيد ، وتمائم وتعاويذ تقى من التجاعيد ، ومن العنّة ، ومن شر الحاسد ، ومن الطاعون .. ويمكن أن تبرئ لمسةٌ من الملك المصابَ بسُلّ الغدد اللمفاوية فى العنق .. وللأرقام والمعادن والنباتات والحيوانات خصائص وقوى سحرية .. ويمكن التنبؤ بالأحداث من شكل الرأس ، أو خطوط الكف .. وتختلف الصحة والقوة والقدرة الجنسية باختلاف منازل القمر ، بدرًا أو فى المحاق ، وقد يسبب ضوء القمر الجنون ، أو يشفى الثؤلول ، وتنذر المذنبات بالكوارث .

وإذا كان من المستطاع الحصول على شفاعة قديس بالصلوات ، فلم لا نلتمس معونة الشيطان بملاطفته والتودد إليه ؟!

(إن كل مكان فى العالم بأسره ، فى الداخل والخارج ، فى البر والبحر ، يعج بالعفاريت والأرواح الشريرة) - قصة الحضارة مج ٧ ، ج ٣ ص ٢٢٢ - ٢٢٤ .

وفى سنة ١٥٥٧ نشر الملك جيمس السادس كتابه (الإيمان بالشياطين) ، ينسب إلى السحرة القدرة على ارتياد البيوت ، وغرس الحب والبغض فى قلوب الرجال والنساء ، ونقل المرض ، والقتل بإحراق تمثال أو دمية ، وإثارة العواطف المدمرة .. وبهذا برر الملك عقوبة السحرة والمشعوذين بالإعدام .

واتفقت الكنيسة الوطنية الأسكتلندية مع الملك فى هذا الشأن ، وهُدد القضاة الذين يتساهلون مع السحرة بالحرمان من الكنيسة .

وفيما بين ١٥٦٠ و ١٦٠٠ أحرق نحو ثمانية آلاف من الساحرات فى أسكتلنده التى لم يبلغ عدد سكانها المليون .

وكان الاعتقاد فى السحر فى انجلترا عامًا شاملًا ، وقد نصت إليزابث فى القوانين التى سنتها سنة ١٥٦٢ على أن الاشتغال بالسحر عقوبته الإعدام ، وتم إعدام إحدى وثمانين امرأة فى عهدها .

وخفف جيمس السادس من تزمته بعد أن أصبح جيمس الأول ملك انجلترا ، وأصر على محاكمة المتهمين بالسحر محاكمة عادلة .

وكادت مطاردة السحرة تتوقف بعد اعتلاء شارل العرش ، لكنها استؤنفت وبلغت أقصاها أيام حكم البرلمان الطويل ، حيث أعدم فى عام ١٦٤٥ و ١٦٤٧ مائتان من السحرة .

والمنجم نوستراداموس الذى زعم أنه طبيب وفلكى ، ارتضته كاترين دى مديتشى منجمًا خاصًا ، وبنت له مرصدًا فى ليزال ، وفى سنة ١٥٦٤ تنبأ لشارل التاسع بأنه سيعمر إلى التسعين ، لكنه مات فى الرابعة والعشرين ، وقد ترك هذا المنجم عند موته سنة ١٥٦٦ كتاب تنبؤات صاغها بحكمة ، بحيث تحتمل معنيين ، وبحيث يمكن أن تصدق بعض سطور الكتاب على أى حدث تقريبًا فى التاريخ اللاحق .

وقد صدر هذا الكتاب فى اللغة العربية بالعراق إبان حربه مع إيران والكويت ، وانتشر فى مصر ، وأعيد طبعه فى مصر فى ذلك الحين ، ليجد فيه العرب مخرجًا من (النحوس) التى ركبتها ، وقد روّج لهذا الكتاب كتّاب مشاهير !!

يقول لوثر : (إنى لأرفض العطف على هؤلاء الساحرات ، وبودى لو أحرقتهن على بكرة أبيهن) ، وقد أحرق أربعًا منهن فى فيتنبرج فى ١٩ يونية ١٥٤٠ ، وأربعًا وثلاثين فى جنيف سنة ١٥٤٥ .

وكان لدى دعاة الإصلاح البروتستانتى مبرر من (الكتاب المقدس) لهذا الحرق .

وشجعت عادة إخراج الشياطين الكاثوليكية الإيمان بالسحر ، لأنها افترضت أن

قوة الشياطين تسكن فى البشر ، وزعم لوثر أن خصمه يوهان إيك قد وقع ميثاقًا مع الشيطان ، ورد يوهان بأن لوثر نتاج لعبث الشيطان مع أمه .

وقد عظم تأثير السحرة فى أوربا القرن السادس عشر ، وعظم تعذيبهم (بوحشية لم تعهد فى الأمم الوثنية) .

وعبرت روح العصر عن ذاتها فى قصّة (فاوست) التى كتبها شاعر الألمان جوته .

وأول ما سمعنا بجورج فاوست كان فى خطاب كتبه يوهان ترنتيميوس سنة ١٥٠٧ ، وهو يصفه بالمشعوذ ، ثم فى سنة ١٥١٣ ، إذ وصفه موتيانوس روفوس بنحو هذا .

وقد كتب فيليب بيجاردى أحد أطباء فورمز سنة ١٥٣٩ يقول : (فى السنوات الأخيرة كان رجل عجيب يجوب كل إقليم وإدارة ومملكة تقريبًا ، ويفاخر ببراعته الفائقة ، لا فى الطب فحسب ، بل فى قراءة الكف ، والفراسة ، والعرافة ، وبالتحديق فى الكرة البلورية ، وما شابه ذلك من فنون ، ولم ينكر أن اسمه فاوستوس) ، ومعناه المحظوظ .

ويبدو أن فاوست التاريخى مات سنة ١٥٣٩ .

يقول ملانكتون صاحب لوثر ووصيفه : إن الشيطان لوى عنقه ، وبعد موته بأربع سنوات ظهرت أسطورة فاوست ، حليف الشيطان فى كتاب (عظات مرحة) بقلم قسيس بروتستانتى فى بال ، يدعى يوهان جاست .

وتجسدت أسطورة فاوست تجسدًا قاسيًا فى شخص هنرى كورنيليوس أجريبا ، الذى ولد من أسرة طيبة بكولونيا سنة ١٥٤٧ ، ثم شق طريقه إلى باريس ، وهناك التقى مصادفة بنفر من المتصوفة أو المشعوذين الذين ادعوا الحكمة الخفية ، وإذ كان متعطشًا للمعرفة والشهرة فقد احترف الكيمياء القديمة ، ودرس القبلانية ، واقتنع أن هناك عالما من الاستنارة بعيد المنال على الإدراك أو التفكير العادى .

وجاء فى كتابه (فلسفة السحر) أن روح الكون تسود العالم وتحكمه ، كما أن روح الإنسان تسود الجسد وتحكمه ، وأن هذا المستودع العظيم لقوة الروح يمكن

أن يستمد منه العقل إذا طهر خلقيًا ، ودرب فى صبر على الأساليب المجوسية ، ومتى اكتسب العقل هذه القوة استطاع أن يكشف الخصائص الخفية للأشياء والأعداد والحروف والكلمات ، وأن ينفذ إلى أسرار النجوم ، وأن يسيطر على قوى الأرض وشياطين الهواء .

وراج الكتاب رواجًا كبيرًا ، وأفضى تعدد طبعاته بعد موت أجريبا إلى قصص أسطورية حول تحالفه الوثيق مع شيطان كان يرافقه متنكرًا فى صورة كلب ، ويمكنه من الطيران فوق الكرة الأرضية ، والنوم فى القمر .

● وبعد ، فهل من دليل على كذب هذه الدعاوى ؟ وإذا كانت الدعاوى كاذبة ففيم (إحراق) السحرة ؟ أما كان يكفى حبسهم وعقابهم بمصادرة أموالهم ؟

إن زمن التقدم العلمى وغزو الفضاء تحدث عن الأطباق الطائرة ، وعن سكان فى الكواكب الأخرى نزلوا إلى كوكب الأرض ، وأنشئوا حضارات ، وبنوا أهرامات ، كما تحدث عن (علم) الباراسيكولوجى الذى يعنى القدرة على تحريك المادة دون ملامسة ، وعلى تشكيلها دون أداة ، وعلى معرفة ما يدور فى أقصى الأرض دون انتقال ، وعلى التنبؤ بالزلازل والبراكين دون أجهزة استشعار ، وعن التعرف على أسرار العدو دون فك أحرازه وفتح مغاليقه ... إلخ ... إلخ .. فهل نعد هذا إيذانًا بالعودة إلى (سحرة فرعون) . ونبش دماغ التاريخ للوصول إلى (قوى إنسانية) طمستها أبخرة الحضارة ، وأطعمتها وسقتها ، بحيث تغير شىء هام فى بنية الإنسان الحديث ؟

إن الذين يمشون على النار حفاة ، أو يجلسون داخلها ، والذين يمشون على الماء ، ويطيرون فى الهواء ، وينامون عراة على المسامير ، ويعيشون سنوات فوق أعمدة رومانية عالية ، والذين يصومون عن الطعام والشراب أيامًا طويلة – لا شك فى أنهم لم يكونوا يملكون الإرادة فحسب ، بل كانوا يملكون قدرة (حيوانية) أخرى ، نعرف شيئًا عنها فيما يسمى (البيات الشتوى) عند بعض العلماء ، وهو ما يحاوله العلماء اليوم فى تجميد (الجسد) ، ثم إعادته إلى الحياة بعد سنوات ، أو بعد قرون .

على أى حال ، فلولا أن (الخرافة) وثيقة الصلة بالكيان الإنسانى ، لأمكن

التخلى عنها بالعلم والمعرفة ، لكن الواقع يقول : إن من العلماء من وقعوا أسرى (الدجالين) والمشعوذين ، بسبب ضغوط نفسية ، وإن من العلماء والمفكرين من لجئوا إلى (الدجالين) والمشعوذين ، لعلاج أمراض عجز عنها الأطباء .. ودون شك يعجز هؤلاء الدجالون عن علاجها ، لكنه الضعف البشرى ، أو الخضوع لمواريث لا تلبث الأزمات أن تطفو بها على سطح الواقع .

إيت بكبير مكذبى وجود العفاريت ، ثم أدخله حجرة مظلمة ، داخلها فأر لم يره ، ثم انظر حال هذا المكذب بعد أن يطلق سراحه ، ستجده يقسم بأغلظ الأيمان أنه التقى بشمهورش العظيم ، إلى آخر ما تَصوَّره خوفه وخياله الخلاق .

ولعل هذا يكشف عن أن الإنسان حيوان (خرافى) ، قبل أن يكون حيوانًا (عاقلًا) ، أو لعل الخرافة والعقل وجهان لعملة واحدة ، كما يقولون ، على طريقة (اسلخ الروسى تجد تتريا) .

* * *

فى مدينة الرسول ﷺ

حين وصل ابن إسحق إلى عاصمة الخلافة العباسية لاحظ أن الجالية اليهودية (التى كان لها فى هذه العاصمة مظهر الدولة ، كان لها دستور خاص) ، وكان رئيس الجالية اليهودية فى بابل يطلق عليه اسم (رأس الجالوت) ، وكان عميد الأكاديمية الدينية اليهودية يطلق عليه اسم (الجاعون) ، والاثنان يتساويان فى المرتبة .. كان منصب (رأس الجالوت) سياسيًا ، وشاغله يمثل اليهودية البابلية / الفارسية ، تحت الخلافة العباسية ، وكان يجبى الخراج من مختلف الملل ، ويدفعه للخزانة الإسلامية .. وشاغلو هذا المنصب أمراء فى تصرفهم ، أمراء فى أسلوب حياتهم ، يتنقلون فى عربات فارهة ، فى مواكب يتقدمها حجاب ، يمتطون صهوات الجياد ، وكان يحف بهم رجال أشبه بالحرس ، ويلقون فروض الولاء والتوقير التى تقدم للأمراء .

ولأن (رأس الجالوت) كان يقابل فى كل مكان بمظاهر الإجلال ، كان تنصيبه يتم فى احتفال مهيب ، فى ساحة كبيرة مكشوفة وسط الزينات الباهرة ، كرسى له وكرسى لكل من رئيسى الأكاديميتين اليهوديتين ، وكان جاعون (سور Sora) – موضع بالعراق – يلقى خطابًا أمام من سيعين (رأس الجالوت) يذكره فيه بواجبات منصبه .. وكان كلا رئيسى الأكاديميتين يضع يده على رأس المرشح للمنصب ، ويهتف وسط نفير الأبواق : (يحيا سيدنا أمير المنفى) .

اعترف (جويتاين) صاحب كتاب (اليهود والعرب) – بعد تحفظات حذرة – أن رأس الجالوت كان تحت الخلافة العباسية يشغل منصبًا رفيعًا ، باعتباره الممثل العام للجالية اليهودية ، ويستفاد من أحد المصادر المسيحية أنه كان يتمتع فى بلاط الخليفة بمرتبة أعلى من مرتبة أعيان النصارى ، لكنه لم يكن يضطلع – كقاعدة عامة – بأية وظيفة إدارية فى الدولة الإسلامية .. وكان المسلمون يخاطبونه بلقب (سيدنا ابن داود) ، ولما كان القرآن الكريم يعد داود من أعظم الأنبياء كان طبيعيًا أن يحاط هذا المنصب بهالة من الاحترام .

وكان الجاعون ، أو رئيس أكاديمية أورشليم - خلال السنوات المائة الأولى من الخلافة الفاطمية - يمثل مركزًا مماثلًا فيما يتعلق بيهود الدولة الفاطمية .

● وفى زمن ابن إسحق ظهر الدعىّ السورى (سيرين) اليهودى الذى ادعى أنه المسيح المنتظر ، وأنه نبى لليهود والمسلمين ، وقد ألغى القوانين الدينية التى تحرم أطعمة بعينها ، وسمح بالزواج بدون عقد ، (وسجّل التحلل من الأحكام التلمودية) على رايته .. وكان أن ذاعت شهرته حتى وصلت أسبانيا التى كانت فى ذلك الوقت تحت الحكم الإسلامى .

يقول جراتز فى كتابه (تاريخ اليهود) : (إن يهود ذلك البلد - الأندلس - قرروا النزول عن ممتلكاتهم ، ووضعوا أنفسهم تحت قيادة هذا الشخص الذى كانوا يشبهونه بالمسيح) ، وقد قبض عليه أخيرًا ، وحكمت عليه محكمة تضم قضاة يهودًا ومسلمين بالإعدام .

كذلك ادعى ابن عيسى عباديا (عوفيد) أنه المسيح ، فى المركز اليهودى بأصفهان ، وأعلن أن فلسطين يجب أن تعود ليهود ، لا بمعجزة ، ولكن بالقوة ، ودعا اليهود إلى الالتفاف حول رايته ، فتجمع منهم نحو عشرة آلاف تحت قيادته ، كانوا يهتفون بأنه المسيح ، وقد اختار ابن عيسى لثورته الوقت المناسب ، إذ إن الخلافة العباسية لم تكن قد توطدت أركانها بعد ، (وكانت شئون الخلافة فى ذلك الوقت فى حالة سيئة من الفوضى ، وكان أمام أية حركة عسكرية فرصة للنجاح ، وسرعان ما أصبحت الحركة التى تزعمها ابن عيسى عسكرية) .. وقرر ابن عيسى أن يتحالف مع زعيم فارسى رفع راية العصيان على الخليفة ، لكن المنصور هزمه فى الرى ، وقتل ابن عيسى فى المعركة .

●● أطمعت روح التسامح الإسلامية نفسية اليهود المتمردة ، فعجلوا إلى نشر أجنحتهم القصيرة على أكبر وأقوى إمبراطورية فى ذلك الحين ، ولم يبال ممثلو (الشعب المختار) بما يمكن أن يترتب على هذا (التمرد) غير المحسوبة آثاره من حالة شتات جديدة ، مع أن الطريق إلى مهجر جديد بعيدة المنال .

ومع أن تاريخ اليهود مع دولة الإسلام - منذ هجرة الرسول ﷺ - يوجب الحذر وعدم الاطمئنان إلى قوم وصفهم القرآن الكريم بسرعة اللجوء إلى الفتن

والسعى بالفساد ، وقد وصفهم بتحريف ما أنزل الله على موسى عليه السلام ، وبدلوا الكلم عن مواضعه .

قال ابن عباس رضى الله عنهما : (كيف تسألون أهل الكتاب عن شىء وكتابكم الذى أنزل الله على رسوله أحدث الكتب ، وقد حدثكم أن أهل الكتاب بدلوا كتاب الله ، وغيروا ، وكتبوا بأيديهم الكتاب ، وقالوا : هو من عند الله ، ليشتروا به ثمنًا قليلًا ، ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم ؟ لا والله ، ما رأينا منهم رجلًا يسألكم عن الذى أنزل عليكم) .

وروى ابن جرير عن ابن مسعود أنه قال : (لا تسألوا أهل الكتاب عن شىء ، فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا ، إما أن تكذبوا بحق ، أو تصدقوا بباطل) .

يقول الدكتور بركات (ص ٤٥) : من الصعب على المرء أن يتصور أن العلماء والأحبار فى أكاديميَّتَىْ (الجاعون) اليهوديتين ، وفى مقر رئاسة (الجالوت) فى بابل ، فى القرنين الثانى والثالث الهجريين ، حين كان ابن إسحق وابن سعد يجمعان مادتهما - عجزوا عن الحصول على الرواية اليهودية لأحداث مثل هذه ، كان لها تأثير عميق على حياة المجتمع اليهودى فى الحجاز ، فى زمن الرسول ﷺ لا سيما وأن المعروف عن اليهود أنهم حريصون على تسجيل ما يصيبهم من محن ونكبات ، وقد أقام يهود خيبر ، الذين يُقال إن عُمر طردهم ، فى الكوفة التى لم تكن بعيدة عن مقر الجاعونية ، وكانوا من سلالة بنى النضير وبنى قريظة ، وكان فى مقدور علماء اليهود أن يجمعوا منهم مادتهم .

إن كتاب (صموئيل أوسكوى) بعنوان (عزاء لبلايا إسرائيل - الحوار الثالث) مرجع كلاسيكى عن شهداء اليهود ، يرجع إلى القرن السادس عشر ، وهذا الكتاب الذى قيل إنه صور معاناة اليهود أبلغ تصوير ، وأنه (جعل مراحل التاريخ اليهودى الطويلة تمر أمام معاصريه بكل ما فيها من عظمة مجيدة ومأساة سحيقة ، تستدر الدموع من مآقيهم) - لا يتحدث عن إجلاء بنى قينقاع وبنى النضير ، ولا عن إعدام بنى قريظة .

● يلاحظ لامانس فى كتابه (عرب الجزيرة العربية قبل الهجرة - ص ٤١) أن إرسال قريش وفدًا إلى المدينة للتشاور مع اليهود فى شأن ما كان يقول الرسول ﷺ دليل على أنه لم يكن فى مكة يهود تتسنى استشارتهم : أى أنه إذا كان ثمة يهود

بمكة فهم قلة من التجار ليسوا أهلًا للاستشارة فيما جاء به الرسول ﷺ .

أما في المدينة (يثرب) فالأمر مختلف .. يقول ابن خرداذبه (ت سنة ٣٠٩ هـ) في كتابه : « المسالك والممالك » إن مرزبان البادية عين عاملًا على المدينة - يثرب يجبى الخراج ، وإن بنى قريظة وبنى النضير كانوا ملوكًا عينوا لجمع هذا الخراج من الأوس والخزرج .. كذلك قال ياقوت (ت ٦٢٦ هـ) فى (معجم البلدان) : إن قريظة والنضير كانوا ملوكًا فى المدينة ، حتى أخرجهم منها الأوس والخزرج الذين كانوا فى السابق يؤدون خراجًا لليهود .

ويرى (التهايم وستيل) فى كتابه (التاريخ المالى للعصر القديم المتأخر) أن ما ذكره ابن خرداذبه معقول ، لأن مثل هذا الوضع كان من الممكن أن يستمر طالما كانت القبائل اليهودية تسيطر على الأوس والخزرج حتى منتصف القرن السادس .. ولعل الأقرب إلى الصواب أن نفترض أن يهود المدينة فقدوا مركزهم - كمجموعة مسيطرة - قبل ميلاد الرسول بفترة - محمد واليهود ص ٦٧. ٦٨ .

ويتضح من دراسة المصادر العربية ونتائج البحث الحديث أن يهود الجزيرة العربية لم يكونوا شعبًا يعيش فى عزلة ، ويرى (عرفان شاهد) - وهو آخر الدارسين الذين توفروا على بحث هذه الفترة - أن العلاقة بين يهود يثرب ويوسف ذى نواس (كانت بالضرورة علاقة وثيقة للغاية ، وقد دفع اليهود ذانواس إلى محاربة نصارى نجران) .. وكانت هناك كتيبة من اليهود فى جيش المنذر الثالث (٥٠٥/٥٥٣م) حاكم الحيرة الذى تزوج ابنه المنذر الرابع (٥٨٠/٥٨٣) يهودية ، هى سلمى بنت الصائغ ، أم النعمان الثالث (٥٩٢/٦٠٤) الشهير الذى كان آخر اللخميين .

ويلاحظ الدكتور بركات أنه لم يرد فى (الصحيفة) التى سجلت طبيعة العلاقة بين المسلمين وأهل المدينة - ذكر لبنى قينقاع أو لبنى النضير أو لبنى قريظة ، وإذا كان معظم المؤرخين المسلمين لم يتنبهوا إلى عدم ذكر هذه القبائل اليهودية الثلاث المهمة فى الصحيفة - فإن بعض المستشرقين حاولوا أن يفسروا هذا الإغفال بقولهم : إن الرسول (كان يجمع اليهود وفقًا للقبائل العربية التى كانوا يعيشون بين ظهرانيها) - مونتجومرى واط (محمد فى المدينة ص ٢٦٦) - وهذا التفسير واضح التهافت .

إن يهود بنى عوف وبنى النجار وبنى الحارث وبنى ساعدة وبنى جشم وبنى ثعلبة ، بل وبطن من بطون بنى ثعلبة - كانوا جميعًا حلفاء للخزرج ، وقد ذكروا فى الصحيفة بهذا الوصف .. ولو أن هذه الصيغة كانت كافية لشمول بنى قينقاع الذين كانوا حلفاء للخزرج لذكر اسم مواليهم بنى الحبلى أو بنى سليم .

والتفسير البسيط لهذا الموضوع هو أن الوثيقة وقعت بعد إجلاء بنى قريظة .

ومونتجومرى واط لا يوافق على هذا التفسير ، لأن الصحيفة تولى أهمية كبرى (للمسائل اليهودية ، فى وقت كان فيه اليهود فى المدينة قليلين) ، غير أن هذا الافتراض لا تؤيده الوقائع ، فقد بقيت القبائل اليهودية التالية فى المدينة بعد إجلاء قبيلتى بنى النضير وبنى قريظة اليهوديتين ، منها :

١ - يهود بنى عوف .
٢ - يهود بنى النجار .
٣ - يهود بنى ساعدة .
٤ - يهود بنى جشم .
٥ - يهود بنى الأوس .
٦ - يهود بنى ثعلبة .
٧ - يهود بنى الشطيبة .
٨ - يهود بنى زريق .
٩ - يهود بنى حارثة .
١٠ - يهود قينقاع .

وقد وردت أسماء القبائل اليهودية السبع الأولى فى الصحيفة ، أما اسما بنى زريق وبنى حارثة فقد ذكرهما ابن إسحق فى قائمة أعداء الرسول ﷺ من اليهود .. ومصادرنا لا تشير إلى أنه كانت هناك أية هجرة عامة لليهود فى حياة الرسول ﷺ ..

ويستنتج (واط) بحق فى هذا الصدد أن (الوثيقة - فى شكلها النهائى - أريد لها أن تكون ميثاقًا لليهود الباقين فى المدينة) .

وبالرغم من أن اليهود الذين بقوا فى المدينة فقدوا قيمتهم (الإخبارية) ، بالنسبة للمؤرخ المسلم ، فهناك إشارات تنبئ بوجودهم فى المدينة بعد إجلاء بنى النضير وبنى قريظة ، فابن سعد يقول : إن الرسول ﷺ لما أمر أصحابه بالتهيؤ لغزو خيبر (شق ذلك على من بقى بالمدينة من اليهود) ، بل إن يهود المدينة كان لهم نشاط سياسى ، واستمروا فى معارضة الرسول ، وحين أمر الرسول ﷺ بالإعداد لغزوة ضد البيزنطيين فى السنة التاسعة للهجرة فى تبوك ، اجتمع ناس من المنافقين فى بيت يهودى اسمه (سويلم) ووضعوا خططًا لتثبيط الناس ، ولم يعاقب الرسول

(سويلم) شخصيًا ، ولكنه أمر طلحة بن عبيد الله بإحراق بيته - محمد واليهود ص ٨٢/٨٤ .

● كانت القبائل التى تنحدر من أصل واحد فى زمن الرسول ﷺ كما يقول سميث Smith فى كتابه (القرابة والزواج فى الجزيرة العربية القديمة) - هى القبائل الوحيدة التى كان يتصور وجودها ، ولذلك كان اليهود - بأسرهم المبنية على زواج الأقارب التى تتكون من ستة أو سبعة أعضاء - يشكلون عددًا من السكان يتراوح بين ٣٦ و ٤٢ ألف نسمة .

وقد رحل عن المدينة - بعد إجلاء بنى النضير ، وما قيل من إعدام بنى قريظة - عدد يتراوح بين ١٢ و ١٤ ألف يهودى .

وبهذا يكون عدد اليهود الذين بقوا فى المدينة عند توقيع الصحيفة بين ٢٤ و ٢٨ ألفًا ، وهو عدد غير قليل ، كان يستوجب اهتمام النبى ﷺ .

والمؤشر الثانى إلى التاريخ الاجتماعى للصحيفة هو إعلان أن يثرب حرم آمن .. يقول موسى جيل Gil فى كتابه (دستور المدينة) : (إن النص الخاص بهذا الإعلان هو نقطة من نقاط التعريف التى احتفظت بها الرواية الشفوية بشأن الوثيقة التى حفظت فى غمد ذى الفقار) .. واعتبار إقليم من الأقاليم حرمًا يفترض إما وجود تقليد قوى وعرف مرعى باطراد ، كما كان الحال بالنسبة لمكة ، وإما وجود قوة عسكرية قادرة على فرض حماية قداسة الحرم من التهديد الخارجى ، والاضطرابات الداخلية ، ولم يكن النبى ﷺ والصحابة فى السنوات الأولى للهجرة - لا سيما حتى غزوة الأحزاب سنة ٥ هـ - يعيشون فى أمن ، كما لم يكونوا بالتأكيد واثقين من قدرتهم على حماية المدينة بنجاح ، كذلك فإن الأمن فى داخل المدينة لم يكن - كما سنرى - مستتبًا ، وقد حاول بنو قينقاع مرة أو مرتين - على الأقل - أن يثيروا الشغب ، وكان بنو النضير على صلة بأهل مكة ، وكان موقف بنى قريظة خلال غزوة الأحزاب مصدراً لتخوف شديد للمدافعين عن المدينة .

وكان عدد من دخل بهم الرسول ﷺ غزوة بدر فى العام الثانى للهجرة ٣١٣ مقاتلًا ، وهذه قوة لا يمكن أن تفرض على قرابة ٣٦ ألفًا من اليهود ، وعدد أكبر من المنافقين ، احترام الالتزامات التى يفرضها إعلان الحرم .

وبالرغم من أن غزوة الأحزاب كانت حربًا دفاعية ، وأن الأرض التى انتصر فيها المسلمون كانت أرضهم - فإنهم لم يكونوا آمنين بدرجة تجيز لهم إطلاق صفة الحرم على يثرب .. لذلك من المقبول أن نستنتج أن إعلان يثرب كحرم جاء بعد حادثة بنى قريظة التى لم تكن فى واقع الأمر سوى استمرار لغزوة الأحزاب .

ويرى السمهودى الذى بحث موضوع تاريخ وحدود إقليم الحرم ، وما هو محظور إتيانه فيه بالتفصيل - أن إنشاء هذا الحرم ، وفقًا للحديث ، جاء بعد عودة الرسول ﷺ من خيبر فى السنة السابعة .. ويشير سرجنت فى كتابه (دستور المدينة) إلى ما قاله السمهودى ، ويعترف بأنه (يرجح أن إعلان الحرم تم فى وقت ما بعد فشل أعداء الرسول ﷺ فى الاستيلاء على المدينة فى غزوة الخندق ، لا قبل ذلك ، وأنه لم يكن من الممكن أن تكون هناك مناسبة أفضل لإعلان المدينة حرمًا مقدسًا ، من المناسبة التى أثبتت فيها هذه المدينة قدسيتها بصد الغزاة) .

إن المسلمين - بعد أن عركوا التمرد من جانب بنى النضير وبنى قريظة - أرادوا أن يسجلوا فى الصحيفة أن أية خيانة من جانب اليهود يترتب عليها تلقائيًا إلغاء جميع المواثيق والاتفاقات .. ويبدو أن الرسول ﷺ أراد أيضًا أن يوفر على نفسه غضاضة الرفض إذا تقدم إليه الأوس والخزرج بشفاعة اليهود المخالفين .

والصحيفة فى الواقع ليست دستور الدولة ، وإنما هى وثيقة تضع المبادئ الرائدة لبناء أمة متعددة الثقافات والديانات ، يكون المسلمون فيها دائمًا الفئة الغالبة - عن محمد حميد الله (أول دستور مكتوب فى العالم) .

والصحيفة بعد أن وضعت الأساس لغلبة المسلمين قررت للفئة الغالبة ما يأتى من امتيازات :

١ - وظائف محكمة الاستئناف العليا يتولاها الرسول ﷺ .

٢ - مسألة الحرب والسلم امتياز ينفرد به الرسول ﷺ .

أما غير المسلمين الذين تضمهم الأمة فيتمتعون بالحقوق الآتية :

١ - ذمة الله واحدة بالنسبة للمجموعات كافة

٢- أعضاء الأمة من غير المسلمين يتمتعون بحقوق سياسية وثقافية على قدم

المساواة مع المسلمين ، وحرية الديانة مكفولة للجميع ، وكل المجموعات تتمتع بالاستقلال الذاتى .

٣ - غير المسلمين والمسلمون ينتضون السلاح ضد عدو الأمة ، ويشتركون فى تحمل نفقات الحرب ، والمسلمون وغير المسلمين أصدقاء صادقون بالبر دون الإثم .

٤ - لا التزام على غير المسلمين بالاشتراك فى حروب المسلمين الدينية .

يقول برنارد لويس فى كتابه (العرب فى التاريخ) : (من الطريف أن نلاحظ أن هذا الدستور الأول للنبى العربى يكاد يقتصر على تنظيم العلاقات المدنية والسياسية للمواطنين فيما بينهم ومع الخارج) محمد واليهود ص ٨٦ - ٩٢ .

● تحرش بنو قينقاع بالمسلمين أكثر من مرة ، حتى اضطر الرسول ﷺ إلى جمعهم فى سوقهم ، وقال لهم : (يا معشر يهود ، احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة ، وأسلموا ، فإنكم قد عرفتم أنى نبىّ مرسل ، تجدون ذلك فى كتابكم ، وعهد الله إليكم) .

فرد اليهود على دعوته بتحد : (يا محمد ، إنك ترى أنا قومك ، لا يغرنك أنك لقيت قومًا لا علم لهم بالحرب ، فأصبت منهم فرصة ، إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس) .

كانت قوتهم تتكون من سبعمائة رجل ، ثلاثمائة منهم دارعون ، مقابل ثلاثمائة مسلم حاسرين ، وكانت لدى بنى قينقاع ميزة القتال فى حصون مجهزة ، كما كان بنو قينقاع أشجع اليهود ، ويسمون أنفسهم (أصحاب الحرب) ، لذلك قرروا أن يأخذوا زمام المبادرة ، وحاربوا الرسول ﷺ ، ولاذوا بحصونهم .

ذهب الرسول ﷺ إلى تلك الحصون ، وعسكر مع رجاله خارجها .. كانت المعركة غير متكافئة ، كما كانت غزوة بدر ، وكانت نتيجتها كما كانت نتيجة بدر ، تدعو إلى العجب ، فبعد حصار لم يتجاوز خمسة عشر يومًا استسلم بنو قينقاع .

ولم تهبَّ أقوى القبائل اليهودية الأخرى - بنو النضير وبنو قريظة - لنجدتهم ، كذلك لم يتحرك عبد الله بن أبى بن سلول لتقديم أى عون لهم ، رغم أن بنى قينقاع كانوا موالى له ، وحاربوا إلى جانبه قبل الهجرة ، ولم يتبنَّ قضية اليهود

إلا بعد أن ألقوا السلاح ، ونزلوا على حكم الرسول ﷺ فذهب ابن سلول إلى الرسول ﷺ وقال له : (يا محمد ، أحسن إلى موالى) ، وأدخل يده فى جيب درع رسول الله ، فقال له الرسول ﷺ : (ويحك ، أرسلنى) ، قال ابن سلول : (لا والله،لا أرسلك حتى تحسن فى موالى ، أربعمائة حاسر ، وثلاثمائة دارع ، قد منعونى من الأحمر والأسود ، تحصدهم فى غداة واحدة ؟ إنى والله امرؤ أخشى الدوائر) ، فقال له الرسول ﷺ : (هم لك) محمد واليهود ص ١٠٧ ، ١٠٨ .

● هذا خيط من خيوط كثيرة نسجها الدكتور بركات أحمد من حواره مع الأخبار ، وهذا الخيط يكشف عن طبيعة اليهود الجامحة والمستخذية معًا ، كما يكشف عن أن (الهجوم) هو خير وسائل النصر ، لكنه هجوم مرتبط بالإيمان أولًا ، فما النصر إلا من عند الله ، وبالإعداد ثانيًا ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِن قُوَّةٍ** ﴾ - الأنفال : ٦٠ - وبهذا يقذف الله الرعب فى قلوب الذين لا يفقهون .

* * *

يعقوب بن كلّس

كان يهود أسبانيا يلقبون أنفسهم سفارديم Sephardim ، ويرجعون بأصولهم إلى قبيلة يهوذا الملكية ، وقد أطلق لفظ سفرد Sepharad فى أحد أسفارهم على إقليم (لعله آسيا الصغرى) نقل إليه الملك نبوخذ نصر بعض اليهود سنة ٥٩٧ ق. م ، ثم أطلق هذا اللفظ على بلاد أسبانيا ، على حين كان يهود ألمانيا يسمّون تسمية غير دقيقة أشكنازيم ، لانتسابهم إلى أشكناز Ashkenaz حفيد يافث بن نوح .

ولما اعتنق الملك ريكارد الدين المسيحى (الأصيل) انضمت حكومة القوط الغربيين إلى رجال الدين الأقوياء ، أتباع الكنيسة الأسبانية ، فى مضايقة اليهود ، وتنغيص حياتهم ، فحرمت عليهم المناصب العامة ، ومنعوا من الزواج بالمسيحيات ، أو أن يغادروا البلاد ، وألغى الملك الذى خلفه هذا الأمر ، لكن مجلس طليطلة الذى عقد سنة ٦٣٣ أصدر قرارًا ينص على أن اليهود الذين عُمّدوا ، ثم عادوا إلى الدين اليهودى ، يجب أن يفصلوا عن أبنائهم ، وأن يباعوا أرقاء ، وأعاد الملك شنتلا Chintla العمل بمرسوم سيزبوت سنة ٦٣٥، وحرّم الملك إجيكا Egica على اليهود امتلاك الأراضى ، كما حرم كل عمل مالى وتجارى بين المسيحى واليهودى سنة ٦٩٣ ، وكانت نتيجة هذا أن ساعد اليهود العرب حين جاءوا أسبانيا فاتحين - قصة الحضارة مج ٤ ج ٣ ص ٤٩ .

● أراد الفاتحون العرب أن يعمروا البلاد ، فدعوا إلى الهجرة إليها ، وقدم إليها فيمن قدم خمسون ألف يهودى من آسيا وأفريقيا ، وكاد سكان بعض المدن أن يكونوا جميعًا من اليهود .

ولما تحرر اليهود من القيود المفروضة على نشاطهم الاقتصادى انتشروا فى جميع ميادين الزراعة ، والصناعة ، والمال ، والمناصب العامة ، ولبسوا ثياب العرب ، وتكلموا بلغتهم ، واتبعوا عاداتهم ، واستُخدم عدد من اليهود أطباء فى بلاط الخلفاء والأمراء ، كما كان الحال فى المشرق الإسلامى ، وعُين أحدهم مستشارًا لأعظم خلفاء قرطبة .

كان حسداى شيروط (٩١٥/٩٧٠) بالنسبة لعبد الرحمن الثالث ما كان نظام الملك فى القرن التالى لملك شاه .

ولد فى أسرة ثرية ، وتعلم العربية والعبرية واللاتينية ، ودرس الطب وغيره من العلوم ، وعالج الخليفة من أمراضه ، وأظهر من واسع المعرفة والحكمة فى الأمور السياسية ما جعل الخليفة يعينه فى الهيئة الدبلوماسية للدولة ، ولما يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره .

وقد نجح فى مهام كثيرة أكسبته محبة المسلمين واليهود والمسيحيين ، وشجع العلوم والآداب ، ومنح الطلاب الهبات المالية والكتب بلا ثمن ، وجمع حوله الشعراء والعلماء والفلاسفة ، فلما مات كرمه العرب واليهود جميعًا .

وفى أشبيلية دعا المعتمد بن عباد إلى بلاطه إسحق بن بروك العالم الفلكى ، ومنحه لقب أمير ، وجعله حاخامًا أكبر لكل المجامع اليهودية فى دولته .

وفى غرناطة نافس صمويل بن نجدلا Naghdela حسداى بن شيروط فى سلطانه وحكمته ، وفاقه فى علمه .

وفى سنة ١٠٢٧ أصبح صمويل اليهودى الوحيد الذى شغل منصب وزير فى دولة إسلامية ، ومما يسر هذا الأمر فى غرناطة أن نصف سكان هذه المدينة فى ذلك الحين كانوا يهودًا .

ولما توفى سنة ١٠٥٥ خلفه فى الوزارة والنجادة ابنه يوسف بن نجدلا .

ويمكننا أن نؤرخ بداية تدهور يهود أسبانيا بسقوط يوسف هذا الذى لم يكن له ما لأبيه من تواضع وكياسة ، ذلك أنه جمع السلطة كلها فى يده ، وتشبه بالملك فى لباسه ، وفى مسكنه ، وفى موكب سيره ، وسخر من القرآن ، وتحدث الناس بأنه لا يؤمن بالله .

ولهذا ثار العرب والبربر عليه سنة ١٠٦٦ ، وصلبوه ، وذبحوا أربعة آلاف من يهود غرناطة ، ونهبوا بيوتهم ، وأرغم باقى اليهود على بيع ممتلكاتهم ومغادرة البلاد .

ولقد استوعب هذا الدرسَ كثيرٌ من اليهود الذين هاجروا إلى شمال أفريقيا ، وانتشروا فى البلاد الإسلامية ، مثل موسى بن ميمون وغيره من العلماء والأطباء .

● ومن قبل موسى بن ميمون استطاع يعقوب بن كلس أن يكون مَعْلَمًا من معالم الدولة الفاطمية .

جاء فى كتاب (أهل الذمة فى مصر / فى العصر الفاطمى الأول) للدكتور سلام شافعى محمود ، أنه يعقوب بن يوسف بن إبراهيم بن هرون بن داود بن كلس ، الوزير الكامل ، المكنى بأبى الفرج .. ولد ببغداد ، ونشأ بها ، وتعلم الكتابة ومبادئ الحساب ، ثم انتقل مع أبيه إلى الشام ليعمل بالتجارة ، ولما نزل الرملة سنة ٣٣١ هـ عمل وكيلًا للتجارة بها ، وعندما تراكمت عليه الديون وعجز عن سدادها هرب إلى مصر ، وفى مصر اتصل بكافور الإخشيدى ، حيث كان يبيعه ما يطلب من السلع .

وما لبث أن التحق بخدمة كافور ، وأصبح من المقربين إليه ، فعينه فى (ديوان الخاص) ، ثم أسند إليه الإشراف على النواحى المالية فى دواوين الحكومة ومراجعة مستنداتها قبل عرضها عليه .

أظهر ابن كلس مقدرة فائقة فى الإدارة ، فأعجب به كافور ، وقال : (لو كان هذا مسلمًا لصلح أن يكون وزيرًا) .

أحضر ابن كلس من علّمه شريعة الإسلام سرًا ، وفى شعبان ٣٥٦ هـ أشهر إسلامه ، ولزم الصلاة ، وواصل دراسته للدين الإسلامى والفقه والتشريع ، طمعًا فى الوزارة .

وأصبح منافسًا خطيرًا للوزير أبى الفضل جعفر بن الفرات ، وزير كافور ، المعروف بابن خزابة .

وما إن توفى كافور سنة ٣٥٧ هـ حتى أصدر ابن خِنْزابة أمره بعزل ابن كلس ، ومصادرة أمواله ، والقبض عليه ، غير أن ابن كلس تمكن - بالرشوة ومساعدة أعوانه - من الفرار إلى المغرب .. وهناك اتصل بالمعز لدين الله وتمتع بثقته لكفاءته ، ولمبالغته فى طاعته .

وكما جاء فى اتعاظ الحنفا للمقريزى أنه فى ١٤ من المحرم ٣٦٣ هـ (قلد المعز الخراج ، ووجوه الأعمال جَمْعها ، والحسبة ، والسواحل ، والأعشار ، والجوالى ، والأحباش ، والمواريث ، والشرطتين ، وجميع ما ينضاف إلى ذلك ، وما يطرأ من

مصر وسائر الأعمال – أبا الفرج يعقوب بن يوسف ، وعسلوج بن الحسن ، وكتب لهما بذلك سجلًا قرئ يوم الجمعة ، على منبر جامع أحمد بن طولون) .

تم منحه العزيز بالله فى رمضان ٣٦٨ هـ لقب (الوزير الأجل) ، وأمر ألا يخاطبه أحد ولا يكاتبه إلا به .

ولقد هيأ ابن كلس كل فرص النجاح لإدارة الدولة ، فأحكم سيطرته على الدواوين ، ونقل مقر الإدارة من قصر الخليفة إلى داره ، ثم أنشأ ديوان (العزيزية) خاصًا بشئون الخليفة ، وعين للإدارة خيرة الكتّاب والإداريين ، وألحق بالإدارة خزانة للكسوة ، وخزانة للمال ، وخزانة للأدوية ، وعين على رأس كل منها (ناظرًا) للإشراف .

ورتب فى داره الحجّاب ، وحصنها بالحرس الخاص ، وزودها بالكتّاب والأطباء والصيادلة ، وأفرد لكل طائفة من العلماء والأدباء والشعراء والفقهاء والمتكلمين وأرباب الصنائع الأماكن الخاصة بهم ، وأجرى على كل منهم الأرزاق والرواتب .. كما أنشأ مجلسًا للنظر فيما يعرض عليه من شكاوى وتظلمات للفصل فيها ، وكان يبتّ فيها بنفسه ، ويعمل على فض المنازعات بين الخصوم .

وبذلك أصبحت داره مقرًا لإدارة أقاليم الدولة ، فى مصر والشام والحرمين وبلاد المغرب ، وأناب عنه فى تلك الأقاليم عمالًا وعيونًا يكتبون إليه بأخبار الولاة ، ليكون على دراية تامة بكل ما يدور فى هذه الأقاليم من أحداث .

ومع تزايد نفوذه ، وعلو مكانته ، اتخذ سنة ٣٧٠ هـ موقفًا عدائيًا من الكتاميين ، وهم الدعامة التى قامت عليها الدولة الفاطمية ، وجرؤ فعزل جوهر الصقلى ، القائد الفاطمى الكبير ، وكانت مواجهة عنيفة مع الكتاميين الذين حاولوا اغتياله سنة ٣٧٣ هـ ، فرد بإسقاط المغاربة ، وجردهم من كل سلطان ، واستخدم الأتراك والإخشيدية .

وفى سنة ٣٧٣ هـ توفى القائد التركى أفتكين ، وكان مقربًا من الخليفة العزيز بالله ومن أخص خدمه وحجابه ، مما دفعه إلى الترفع على ابن كلس ومقاطعته ، واشتعلت نار العداوة والبغضاء بينهما ، فثارت شكوك العزيز بالله حول ابن كلس ، ظنًا منه أنه دس السم لأفتكين ، فعزله من منصبه فى شوال ٣٧٣ هـ ، وأمر باعتقاله ، ونقل الدواوين من داره إلى قصر الخلافة ، وجعل النظر فى أمور الدولة إلى خير بن القاسم ،

وصادر أموال ابن كلس ، وجرده من ألقابه ، ومحا اسمه من الطراز .

ولبث ابن كلس فى الاعتقال عدة شهور ، ارتبكت فيها أمور الدولة ، وساءت أحوالها ، فاضطر العزيز بالله إلى إطلاق سراحه ، سنة ٣٧٤ هـ ، وأعاده إلى الوزارة وخلع عليه ، وأصدر مرسومًا برد ما أخذ من أمواله ، وزاد عليها ، وأعاد اسمه إلى الطراز ، وأمر بأن يتقدم الوزيرَ موكبٌ من عدة خيول تكريمًا له .

وقد ألف ابن كلس (الرسالة الوزيرية) ، فى الفقه الشيعى ، على المذهب الإسماعيلى ، روى فيه عن الأئمة الفاطميين ما سمعه من الخليفتين المعز والعزيز ، وصار هذا الكتاب مرجع العلماء فيما يصدرون من الفتاوى والأحكام ، ومن مؤلفاته كتاب فى القراءات ، وكتاب فى الأديان ، وكتاب فى آداب الرسول ﷺ ، وكتاب فى علم الأبدان وصلاحها ، وهو مؤلف فى ألف ورقة ، كما ذكر المقريزى فى خططه .

وبذل ابن كلس قصارى جهده لنشر أفكاره ومؤلفاته ، فكان يجلس فى يوم الجمعة ، ويقرأ بنفسه مصنفاته على الناس ، ليكون لها اهتمام خاص ، وكان يحضر هذه المجالس القضاة والفقهاء والقراء وأصحاب الحديث والنحاة ، فإذا فرغ من قراءته قام الشعراء يمدحونه .

وشجع العزيز بالله هذه المجالس العلمية ، فأجرى لجماعة الفقهاء الذين يحضرون مجالس الوزير أرزاقًا فى كل شهر ، على قدر حاجتهم .

واتخذ ابن كلس من الجوامع مراكز لنشر الدعوة الفاطمية ، وأدخل كثيرًا من التحسينات على جامع عمرو بن العاص الذى كان من أهم مراكز الإشعاع الفكرى فى العالم الإسلامى ، وفى هذا الجامع تناول الفقهاء والعلماء مؤلفات ابن كلس فى الفقه والقراءات بالدرس والشرح ، كما اتخذ من جامع الحاكم ، وهو الجامع الذى وضع ابن كلس أساسه سنة ٣٨٠ هـ ، مركزًا آخر لنشر تعاليم المذهب الإسماعيلى ، واجتمع فى ساحته الفقهاء للدراسة ، على غرار ما كان يجرى بالجامع الأزهر .

ويرجع الفضل إلى هذا الوزير فى أن يصبح الجامع الأزهر أعظم جامعة علمية إسلامية ، ففى سنة ٣٧٨ هـ وافق العزيز بالله – بناء على اقتراح ابن كلس – على تحويل الجامع الأزهر إلى جامعة علمية ، ومركز للدراسات الفقهية لكل ما يتعلق

بالمذهب الإسماعيلى ، وعين بالأزهر خمسة وثلاثين من كبار الفقهاء ، وخصص لهم الرواتب الشهرية المجزية ، وأنشأ دارًا ملحقة بالجامع لسكناهم ، وكانوا يعقدون ندوة علمية عقب الانتهاء من صلاة الجمعة ، حتى صلاة العصر ، وبالغ العزيز فى تكريم هؤلاء العلماء ومنحهم الخلع ، وأجزل العطايا ، وأركبهم البغال ، وبالإضافة إلى ذلك قدم لهم ابن كلس المنح كل عام تشجيعًا لهم .

● كل هذه الجهود الإصلاحية لا تعد فى حساب إسلام ابن كلس بقدر ما تعود إلى يهوديته ، إذ كان اليهود فى العالم الغربى حينئذ يمرون بمرحلة من أخطر مراحل الشتات اليهودى ، ثم إنه تعلم من دروس حياته على يد ابن الفرات ، ومن صراعه مع المغاربة ، ومما أصابه عقب موت أفتكين ، ولهذا كان حرصه على أن يؤمّن وجوده وسلطانه بالإسلام ، وبمؤلفاته الفاطمية ، ويجمع كل ركائز الدولة وكل ذوى الكلمة المؤثرة تحت جناحيه ، وبلغة السياسة حرص على أن تكون له الشعبية التى تعزز وجوده ووجود بنى جلدته ، وكأنه كان يخشى أن تمتد أصداء ما يجرى فى الغرب فتهتز الأرض من تحت أقدام اليهود فى الشرق .

* * *

زلزال

لما دالت دولة المسلمين فى الأندلس واضطرب الكيان اليهودى بين الهجرة والتنصر والوقوع تحت طائلة المحاكمات العشوائية والحرمان من كل الحقوق - كانت بداية عدم التسامح الدينى بين اليهود أنفسهم ، على طريقة (إن جاءك الطوفان فضع أبناءك تحت قدميك) .. هذا يهوذا بن عزرا المتولى شئون الفونسو السابع ملك قشتاله وليون - وجه فى سنة ١١٤٩ قوة حكومية ملكية ضد اليهود القرائين فى طليطلة ، إما لتصفية حسابات بين الطوائف اليهودية ، وقلما كان هذا يحدث ، وإما لإعلان ولائه وانتمائه إلى الحكومة القائمة ، حتى لا تنشب مخالبها فى عنقه ، وفى أعناق من يلوذون به ، والتضحية بالقليل أعون على الاحتفاظ بالكثير .

فلما تولى الفونسو العاشر مُلك قشتاله أدخل بعض المواد المجحفة باليهود فى القانون الصادر سنة ١٢٦٥، لكن هذا القانون لم يطبق إلا سنة ١٣٤٨ ، إذ كان ألفونسو فى ذلك الوقت يستخدم طبيبًا وخازنًا لبيت المال من اليهود ، فتأجل العمل بالمواد المجحفة باليهود .

وكانت خاتمة التسامح حين أصدر مجلس زمورا Zmora الدينى سنة ١٣١٣ قرارًا بأن يلبس اليهود شارة تميزهم من غيرهم ، وألا يختلط اليهود بالمسيحيين ، ويحرم على المسيحيين استخدام أطباء من اليهود ، وعلى اليهود ألا يكون لهم خدم مسيحيون .

- وأخذ مد الاضطهاد فى الارتفاع مع الحروب الصليبية ، ثم مع ظهور محاكم ديوان التفتيش ، وبخاصة فى عهد فرديناند وإيزابلا .

وقد بلغ عدد الدعاوى التى نظرتها محاكم ديوان التفتيش بين عامى ١٧٢١ و ١٧٢٧ أكثر من ثمانمائة تهمة يهودية ، من بين ٨٦٨ ، وأحرق خمسة وسبعون ممن أدينوا .

وظلت قوانين أسبانيا تحرم المناصب المدنية والعسكرية على جميع الذين

لا يستطيعون إثبات نقاء دمهم من كل أثر علق به من أسلاف يهود .

وفى البرتغال أحرق ديوان التفتيش ، سنة ١٧١٧ ، سبعة وعشرين يهوديًا ، لرفضهم الارتداد عن الديانة اليهودية .

وفى رومه أتت على اليهود فترة كان عشرة آلاف منهم يسكنون فى حيز لا يزيد على كيلو متر مربع واحد ، وكان نهر الثيبر يفيض على ضفافه كل عام ، ويغمر شوارع الحى الضيقة ، ويملأ الحجرات السفلى بالطين الموبوء .

واحترف يهود رومه الخياطة لحرمانهم من أكثر الحرف ، ففى سنة ١٧٠٠ كان ثلاثة أرباع الذكور البالغين منهم خياطين .

وفى سنة ١٧٧٥ جدد البابابيوس السادس المحظورات على اليهود ، فحرم عليهم ركوب العربات ، وترتيل المراثى فى الجنائز ، وإقامة الشواهد على قبور موتاهم .

وفى النمسا ألزمتهم الإمبراطورة ماريا تريزا بالحبس فى أحياء ضيقة معينة ، وبالحرمان من الحرف والمناصب وتملك العقارات ، لكن ابنها جوزيف أصدر فى ٢يناير ١٧٨٢ (ترخيص تسامح) منع هذا الحظْر .

وفى تركيا وصفت الليدى مارى ورتلى مونتجيو حالة اليهود سنة ١٧١٧ بقولها :

(إن اليهود يتمتعون بسلطان لا يصدق فى هذا البلد ، فلهم امتيازات كثيرة يفوقون فيها الأهالى الأتراك أنفسهم ، لأنهم يحاكمون طبقًا لقوانينهم ، وقد استقطبوا كل تجارة الإمبراطورية فى أيديهم ، وذلك بفضل ما يربطهم من وحدة وثيقة من جهة ، ومن جهة أخرى لبلادة الترك وافتقارهم إلى الجد والاجتهاد ، ولكل باشا مساعده اليهودى الذى يدير أعماله ، وهم الأطباء ، والوكلاء ، والمترجمون لأكابر القوم ، وكثير منهم ذوو ثراء عريض) .

نسيت الليدى مونتجيو أن هؤلاء الكسالى هم الذين دوخوا أوربا وروسيا عدة قرون ، وبسطوا نفوذهم على نصف العالم القديم .

ولقد عمل اليهود فى خدمة الأتراك ، كما عمل أبناء الدول المستعمرة فى خدمة انجلترا وفرنسا وأسبانيا والبرتغال وهولندا وألمانيا ، مع فارق واحد هو احترام

الأتراك للعاملين معهم ، ما داموا لا يهددون أمن الدولة ، وبخاصة بعد مرحلة تكوين الإمبراطورية التى صحبها كثير من العنف العسكرى ، وكذلك فى مرحلة (الرجل المريض) الذى كانت تدفعه كثرة الفتن وتآكل أطرافه إلى تشنجات (الصريع) الذى يضر نفسه بتخبطه أكثر مما يضر سواه .

وفى روسيا أمرت الإمبراطورة إليزابث بتروفنا سنة ١٧٤٢ أن (يُرحّل فورًا من إمبراطوريتنا كلها جميع اليهود ، ولا يسمح لهم منذ الآن بدخول إمبراطوريتنا بأية حجة ، ما لم يعتنقوا الديانة المسيحية ، على المذهب الرومى) .

وما حلت سنة ١٧٥٣ حتى كان قد طرد قرابة ٣٥ ألف يهودى ، وتشفع بعض رجال الأعمال الروس لدى الإمبراطورة ، لتخفف من صرامة المرسوم ، محتجّين بأن طرد اليهود قد أحدث كسادًا فى اقتصاد الأقاليم ، لأنه حول التجارة منها إلى بولنده وألمانيا ، لكن إليزابث لم تلن لها قناة .

وفى بولنده حاول الإقطاعيون الهبوط بهم إلى درجة العبيد ، وكلفهم الحكام المحليون ثمنًا باهظًا لحمايتهم من عنف الغوغاء ، وندد القساوسة باليهود ، لأنهم (متشبثون بكفرهم) ، وطالب مجمع كنسى عقد سنة ١٧٢٠ بأن تحظر الحكومة (بناء المجامع الجديدة لليهود ، وترميم القديم منها) ، وكرر مجمع عُقِد سنة ١٧٣٣ مبدأ العصر الوسيط القائل بأن المبرر الوحيد للتسامح مع اليهود هو أنهم قد يصلحون (أداة للتذكير بعذابات المسيح ، ومثلاً يضرب - بعبوديتهم وبؤسهم - للعقاب العادل الذى ينزله الله بالكافرين) .

وفى سنة ١٧١٦ نشر يهودى دخل المسيحية ، يدعى سيرفينوفتش ، كتابًا أسماه (فضح الشعائر اليهودية) اتهم فيه اليهود باستعمال دم المسيحيين لشتى الأغراض السحرية ، ولتلطيخ أبواب المسيحيين ، ولمزجه بالفطير الذى يأكلونه فى الفصح ، ولغمس قطعة قماش فيه محتوية على تعزيمة يقصد بها حماية بيت أو إنجاح تجارة .

وقد اتهم اليهود غير مرة بقتل الأطفال للحصول على دم مسيحى ، واستدعى يهود بولنديون لمحاكمتهم على تهم كهذه فى سنة ١٧١٠ و١٧٢٤ و١٧٣٦ و١٧٤٧ و١٧٤٨ و١٧٥٣ و١٧٥٩ و١٧٦٠ ، وعذبوا فى حالات كثيرة حتى

الموت ، وسلخت جلود بعضهم أحياء ، ومات بعضهم بالخازوق موتًا بطيئًا .

هامش : ويلاحظ أنه فى مدرسة سانت كاترين بالإسكندرية صرح الأب Leonce أمام تلاميذه بصحة التهمة الموجهة لليهود ، حول خبز الفطير ، وأن اليهود قد تسببوا فى قتل عدد كبير من المسيحيين ، فأدى تصريحه إلى ثورة الطلبة غير اليهود على زملائهم اليهود .

وذكرت مجلة الاتحاد الإسرائيلى عدد ٢ يونية ١٩٢٥ أن مجلس الطائفة اليهودية بالإسكندرية أرسل إلى مدير المدرسة محتجًا ، فأبدى المدير أسفه لهذا الحادث .

ولا يزال اليهود فى بولنده حتى الآن موضع ريبة ، فقد دعا الأب هنرى جانكوسكى المرشد الروحى لحركة تضامن إلى عدم الاستعانة باليهود فى الحكومة البولندية ، لأن وراء المطرقة والسندان تلوح فى الأفق نجمة داود .

● وفى سنة ١٧٣٤ و ١٧٥٠ و١٧٦٨ تألفت جماعات من القوزاق والفلاحين الأرثوذكس الروس على شكل عصابات مثيرة للشغب ، شنت غارات على كثير من المدن والقرى ، فى أقاليم كييف ، وفولهينيا ، وبودوليا ، ينهبون الضياع ، ويقتلون اليهود .

وفى سنة ١٧٦٨ حمل المغيرون (مرسوماً ذهبيًا) نسب زورًا إلى كاترين الثانية ، يدعوهم إلى (استئصال شأفة البولنديين واليهود الذين يدنسون ديانتنا المقدسة) ، وذبحوا فى مدينة واحدة ، هى أومان ، عشرين ألف بولندى ويهودى ، فجردت كاترين جيشًا روسيًا يتعاون مع القوات البولندية على قمع المغيرين .

● كان كل هذا من واقع ما أصاب العالم الغربى من جراء الحروب الدينية بين الحكومات والبابوات ، داخل الإمبراطورية الرومانية ، وبين الطوائف الدينية المختلفة ، ومن جراء الحملات الصليبية التى لم تسفرْ إلا عن مزيد من الضحايا والهزائم والتمزقات .

لقد كان العالم الغربى يبحث عن ضحية يفثأ فيها حدة انفعالاته ، أو عن شيء يحطمه حتى يحقق قدراً من التوازن النفسى .. ولم تخرج أوربا من هذه (الأزمة) ،

ولم يحرَّر اليهود من هذا العذاب ، إلا بالمغامرات الاستعمارية التى لا تزال إلى يومنا هذا تأخذ أشكالًا متعددة ، ابتداء من الإبادة البشرية ، والاستيلاء على مصائر الشعوب فى أفريقيا وآسيا واستراليا ونيوزيلانده وأمريكا اللاتينية ، وانتهاء بتصنيع حكومات محلية ، تتحرك بحركة المخابرات والخبراء والقروض والعملات ، من أجل استمرار ضخ ثروات الشعوب (المغلوبة) إلى الحكومات (الغالبة) ، ومن أجل استمرار (تدجين) الشعوب (المغلوبة) ، بحيث تظل أسيرة الصناعات (الاستهلاكية)، والحروب (المحلية) ، والأوبئة والمجاعات ، وديمقراطية الاستفتاءات والانتخابات والمؤسسات (الحكومية) !!

ومما يثير الدهشة فى كل هذه (المخططات) الإجرامية أن كل خيوطها صارت بأيد يهودية ، أما كيف كان ذلك ، فهذا ما تحدث به الصفحات التالية !!

* * *

الجيتو

يقول الدكتور رشاد الشامى فى كتابه (الشخصية اليهودية الإسرائيلية) ص ١٣ - ٣٣ :

القاهال كلمة عبرية تعنى جمهورًا أو جماعة كبيرة من الناس فى مكان واحد ، أو طائفة ، أو الطائفة اليهودية فى إحدى مدن الشتات .. ويعنى بها (الخلية) الأساسية لتنظيم حياة اليهود فى منطقة إقامتهم .

وكانت مهام القاهال مشابهة لمهام الدولة تجاه مواطنيها ، وتعد تجسيدًا للحكم الذاتى من قبل الحكومة .

وقد اهتمت القاهال - بمرور الوقت - بتصديق من السلطات ، بإجراء الزواج ، كما عهد إليها بتمثيل اليهود أمام السلطات ، وجمع الضرائب نيابة عنها .

وكان من حق القاهال أن تعين القضاة والربّانيم (حاخامات الأشكنازيم) .. وكانت المحكمة الحاخامية بمثابة تعبير عن القضاء الداخلى المستقل ، من حقها فرض العقوبات ، والغرامات ، والسجن ، والتحريم ، والعزل الاجتماعى .

وفى الوقت نفسه كان هذا التنظيم (القاهال) يمثل (العزل الاجتماعى) للطائفة كلها ، وهو عزل (اختيارى) ، عمل على تأصيله الوهم الأسطورى عن (شعب الله المختار) الذى يسرى فى عروقه (الدم المقدس) ، بالإضافة إلى عمق الشعور بألوان من اضطهاد (الأمميين) ، والانتكاسات التى أصابت انتفاضاتهم ضد الإمبراطورية الرومانية .. كل ذلك بعد ما كان من أمر (الخروج) من مصر ، والوقوع فى الأسر البابلى ، ثم فى الأسر الرومانى .

● تقول دائرة المعارف العبرية : (إن واقع وطابع حياة اليهود دفَعا بهم دائمًا إلى التجمع والإقامة معًا فى شارع واحد ، أو فى حى واحد ، محافظة على الشرائع الدينية ، ولتبادل المساعدة كأقلية مضطهدة ، ولضرورة الأمن كغرباء مكروهين) .

وقد أدت العزلة إلى :

١ - تقليل الاختلاط بالمسيحيين ، مما ولّد الشبهات تجاه اليهود .

٢ - التوسع الرأسى فى البناء ، وزيادة الكثافة السكانية ، مما ساعد على انحطاط المستوى الاجتماعى ، وتفشّى الأمراض ، وتراكم القاذورات .. وقد عمق هذا الانفصال عن الآخرين ، وتوليدَ أوهام وأحلام خاصة بهم .

ثم إن القوانين الدينية الخاصة بآداب الطعام (الكاشير) ، وتحريم الزواج المختلط ، والختان ، وصلاة الجماعة ، وأنواع المحظورات المقدسة ، مثل : نجاسة لحم الحمل مع لبن أمه ، ونجاسة الحائض ، ونجاسة كل ذى مخلب ، ونجاسة كل ذى ظلف ، ونجاسة السمك بدون زعانف ، ونجاسة الجسد العارى ... إلخ ، كل هذه المحظورات التى فرضها الحاخامات ، زادت من كراهية الآخرين لهم ، ومن السخرية بهم ، والرغبة فى الاعتداء عليهم .

هذا بالإضافة إلى تركيزهم على الوظائف المالية ، والاتجار بالأعراض ، والتجسس ، والاشتغال بالربا ، وأعمال السمسرة والبورصة ، واتخاذ وسائل سرية توهم بالتآمر وعدم الولاء .

وبالإضافة إلى هذا كان اليهود يتهمون غير اليهود (الجوييم) بالقذارة المادية والروحية والكفر ، وأنهم (أبناء الزنى) .. يقول الأديب الصهيونى يوسف حاييم بريير (١٨٨١ / ١٩٢١) : (يجمع كُتَّاب تاريخنا على أن أجدادنا يهود الجيتو القديم كانوا يحسون بنوع من الكبرياء والسمو بالنسبة «للجوى» ، حتى عندما كانوا يقبلون يديه ، ويركعون أمامه) .

ويقول : (إن هذا الاحتقار لم يكن سوى استسلام لنصيبنا فى الدنيا ، ونوع من العزاء لآمالنا فى العالم الآخر ، يتلوه صرير أسنان وغضب داخلى ، عن وعى أو غير وعى) .

● ولما كانت النهضة الأوروبية طبعت اليهود بطابعها ، إذ أخذت الآراء الجديدة عن حرية الإنسان تدخل حارات اليهود الضيقة ، وأخذ اليهود يشعرون بجو (بيت هموراش) - مركز العبادة والدراسة معًا - الضيق الخانق ، وبعالم (الربانيم) القاسى المتزمت ، ولم يعد كثير من اليهود يرى أى معنى لبعدهم الزائد عن الشعوب

التى آوتهم ، ودعت إلى حب الإنسان وإلى الحرية .. وتفجرت فى كل ناحية هتافات : (لنخرج من الجيتو) ، و (لنتقرب من الشعوب) ، و (لنتعلم لغاتهم) ، و (لنتثقف ونتعلم الحكمة والمعرفة) .

وقد رسم موسى مندلسون (١٧٢٩ / ١٧٨٦) الرائد الروحى لحركة (الهسكالاه) البرلينية - حركة التنوير اليهودية - وجهة نظر جديدة فى الدين اليهودى ، لكى ينبذ اليهود عقلية (الجيتو) ، ويندمجوا فى الشعوب التى يعيشون بينها .

كان جده فيلكس مندلسون من أهم شخصيات القرن الثامن عشر ، وكان صديقًا وخصمًا لكانط ، وملهمًا لِليسنج ، وكان أبوه (مندل) كاتبًا ومعلمًا بمدرسة يهودية فى (دسو) ، وهناك ولد (موسى الثالث) فى ٦ سبتمبر ١٧٢٩ ، وشب مشغوفًا بالمعرفة ، فلما بلغ الرابعة عشرة أوفد إلى برلين لمزيد من دراسة التلمود ، وهناك اتبع نص أمر التلمود : (كل الخبز بالملح ، واشرب الماء بمقدار ، ونم على الأرض اليابسة ، وعش عيشة الحرمان ، وليكن الناموس شغلك الشاغل) .

وقد طالب مندلسون فى كتابه (القدس) مثقفى عصره بالتسامح تجاه اليهود ، بروح حركة التنوير الأوروبية ، وإقامة فواصل واضحة بين الدين والدولة .

لم يكن يؤمن بإحياء اللغة العبرية ، مع أنه كتب بعض مؤلفاته بها ، وأصدر بالتعاون مع مريديه مجلة عبرية بعنوان (الجامع) ، بهدف فتح أبواب الثقافة الأوربية أمام من يعرفون العبرية ، لكن لم يكتب لها أن تستمر ، إذ طغى تأثير التيار الألمانى بين المتنورين ، من أجل فائدة الألمانية اجتماعيًا وثقافيًا واقتصاديًا .

● وقد أشادت حركة (الهسكالاه) بالاندماج الاجتماعى والثقافى واللغوى ، وبالزواج المختلط ، وطرحت تعديلات جذرية فى الدين اليهودى وفى العبادة ، وصلت إلى حد الدعوة إلى اعتناق المسيحية .

كان الإنتاج الأدبى الأول لهذه الحركة فى القرن الثامن عشر ترجمة موسى مندلسون (العهد القديم) إلى الألمانية (بحروف عبرية) ، وكان الهدف من هذا العمل تقريب اليهود من الثقافة الألمانية .

وقد ظهر مركز آخر للهسكالاه فى جالسيا ، على حدود النمسا ، حيث تمرد أتباع الحركة الهسكالاه على الاستبداد الدينى وتأثيره على حياة اليهود ، وبعد ذلك

انتقلت الهسكالاه إلى روسيا القيصرية ، وطالب التنويريون اليهود بإحداث تغييرات فى الحياة اليهودية ، وحثوا اليهود على العمل الإنتاجى .

وقد اختلفت الهسكالاه الروسية عن الألمانية فى استخدام اللغة العبرية كوسيلة للإحياء الثقافى على نطاق واسع ، كما زاد الميل إلى التشبه بالروس ، والاندماج اللغوى والثقافى ، بتشجيع من السلطات الروسية أحيانًا ، حيث تم إغلاق (الحواريم) - الكتاتيب اليهودية - وأقيمت بدلًا منها مؤسسات تعليمية عامة ، وكان شعار الهسكالاه الروسية : (كن يهوديًا فى بيتك ، وإنسانًا خارج بيتك) ، وهو الشعار الذى أطلقه شاعر يهودى .

وقد دعا زعماء الهسكالاه إلى أن تكون الدراسات فى مدارس التلمود مقصورة على الحاخامات ، وأن يرسل اليهود أبناءهم إلى مدارس (الجوييم) ، حتى يتقنوا كل الفنون العلمانية ، مثل الهندسة والزراعة ، وشجعوا ممارسة المهن اليدوية ، كما دعوا إلى تعليم المرأة ، ونادوا بالقضاء على اليديشية وإحياء اللغة العبرية باعتبارها لغة التراث فى الغيبية واللاتاريخية ، وهاجموا فكر (الماشيح) وأسطورة العودة ، وحولوا فكرة جبل صهيون إلى مفهوم روحى ، وأصبح (الخلاص) فى الاحتكام إلى العقل وإلى العدالة بين الشعوب .

● نجحت حركة الهسكالاه إلى حد كبير فى غرب أوربا ، لكنها جوبهت بمقاومة شديدة فى شرق أوربا .

وبعد اغتيال القيصر الكسندر الثانى سنة ١٨٨١ حدثت اضطرابات راح ضحيتها عدد كبير من اليهود ، ومن ثم انتشرت الدعوة إلى (الحل القومى اليهودى) ، وفشل مشروع الاندماج فشلًا ذريعًا ، وأخذت تتخلق أحلام (الوطن القومى لليهود) .

* * *

الماسونية

سبق أن قلنا إنه خلال مراحل الاضطهاد كان اليهود يتحصنون داخل ما يسمى (الجيتو Ghetto) ، ويُقال إن هذا اللفظ مأخوذ عن كلمة (Getto) ، وهو مسبك كان فى البندقية ، كأنّ اليهود أرادوا أن يعيدوا سبكهم فى ذلك الحى من المدينة الذى ينكفئون فيه على نفوسهم ، يضمدون جراحهم ، ويلملمون ما تبعثر منهم ، ويكيدون للعالم كله الذى وقف منهم ، أو وقفوا منه ، موقف العداء .. وبهذا يتسع مفهوم الجيتو للحالة النفسية (التاريخية) التى جعلت من اليهود (شعبًا مختارًا) لله أو للشيطان ، لا يحسن الحياة مع الآخرين ، لأنه لا يأمن جانبهم ، أو لأنه يعمل على الكيد لهم ، ومن ثم فالعزلة والظلام وسيلته إلى حماية نفسه ، وإلى التأهب للانقضاض ، مستغرقًا فى أسطورة (الماساده) ، قلعة هيرود التى آثر العازر قائد اليهود المحاصرين بها الانتحار دون التسليم ، وعلى طريقة (اطلبوا الموت توهب لكم الحياة) ، و (المستقتل لا يقتل) ، فقد عزم اليهود أن يحملوا أكفانهم على أكفهم ، أكفانًا مسحورة مسعورة ، من الرهون والمرابات وأكل أموال الآخرين بشتى الحيل والخداع .. ولما كان (الجيتو) فى (حارة اليهود) لا يعين على تحقيق المطامع العالمية ، وحارات اليهود منتشرة فى أنحاء العالم بلا روابط ، أو بروابط غير مسعفة ، وغير قادرة على تجميع الجهود - فقد انبثق الفكر الحاقد الناقم شديد الجشع عن (بناء) أسطورى وهمى أشبه بخيوط العنكبوت ، تصطاد الحشرات والديدان من أجل الحصول على آكلى الحشرات والديدان ، فكان من المكائد الناجحة التى لا تزال تعبث فى أفنية الآخرين ، بأيدى الزعماء وكبار رجال الأعمال والمثقفين ما أسمَوْه (الماسونية) ، أو العمل من أجل بناء العالم على أسس جديدة من التعاون الحر وتبادل المنفعة ، ومن خلال أعضاء هذه الجماعة القادرين على الوصول إلى أدق الأسرار وأخطرها ، والقادرين على التأثير فى (صنع القرار) ، أمكن لليهودية (الدولية) التى ترجمت فى بعض انطلاقاتها إلى (الصهيونية) ، أن تجمع خيوطًا كثيرة تشدها متى شاءت ، وترخيها متى شاءت ، وتعقدها متى شاءت ، وتصنع منها النسيج الذى تريد وقتما تريد وحيثما تريد .

● كان الهدف المعلن إنشاء جماعة (إخوان) دولية سرية ، يترابطون فيها وفق طقوس وطلّسمات ورموز ، ويتعهدون بتبادل العون ، وبالتسامح الدينى ، وبالإصلاح السياسى .

ولقد مهدت لظهور هذا (التكوين السرطانى) طائفة (القبالة) .

هامش : يقول مارتن برنال صاحب (أثينة السوداء) ص ٣٠٦ ، ٣٠٧ : (إن الماسونيين الأحرار كانوا فى الأصل جماعات سرية من « البنائين » الذين اشتغلوا بتشييد الكاتدرائيات وغيرها من الأبنية الفارهة فى أوربا فى العصور الوسطى ، وقد تلاشوا من أكثر أجزاء القارة الأوربية ، بعد حركة الإصلاح الدينى والحروب الدينية ، لكنهم بقوا فى بريطانيا ، وإن اتخذوا فيها طابعًا مختلفاً للغاية بدخول السادة النبلاء « الجنتلمان » فى عضوية الجماعة ، وبداية أصبح يعرف بالماسونية التأملية ، غير أنه حتى قبل أن يقع هذا التغيير فى أواخر القرن السابع عشر كان للماسونيين الأحرار علاقة (خاصة بمصر) .

(وفى صميم الأساطير الماسونية كان هناك الفينيقيون الذين عقد الكتاب المقدس بينهم وبين المصريين علاقة وثيقة ، إذ عد كلًا منهم من أبناء حام ، ويحتمل أن « حيرام أبيف » ، مشيد هيكل سليمان ، وهو نصف فينيقى ، يحتمل أن يكون جزءًا من أسطورة ماسونية وجدت فى القرن السادس عشر ، وإزاء ما كان مفترضًا من أن الرجل قتل بعد إتمامه الهيكل ، فمن المؤكد أنه فى الوقت الذى أعيد فيه إنشاء الطائفة فى بداية القرن الثامن عشر كان حيرام قد أصبح رمزًا رئيسيًا من طراز الإله أوزيريس) .

● لا يراد بهذا الهامش إلقاء الضوء على أولية الماسونية ، بل إشارة إلى أن القول فى الأوليات محض اختلاق ، وإذا كان للمذاهب أو التكوينات السياسية أو الدينية أن تبحث فى رفات الماضى عن جذور ، فقد نجح اليهود بين حفارى القبور فى صناعة أساطير ، ظلوا ينفخون فى رمادها حتى طمسوا عيون كثير من الواهمين .

● كانت كلمة (قبالة) - قبل أن يستهل القرن الثالث عشر - قد عم استعمالها لوصف (العقيدة السرية) فى جميع مظاهرها ونتائجها .

وهذه (العقيدة السرية) ترجع إلى كتاب ظهر فى القرن الأول بعد الميلاد ،

يعرف باسم (سفريصيرا) : أى كتاب الخلق ، وكان الأتقياء المتصوفة من اليهود - ومنهم يهوذا هاليفى - يقولون : إن واضعه هو إبراهيم ، أو الله نفسه .. وتوالت على الكتاب شروح العلماء من أيام سعديا إلى القرن التاسع عشر .

ونقل أحد الأحبار اليهود البابليين - حوالى سنة ٨٤٠ - هذه (العقيدة السرية) إلى إيطاليا ، ومنها إلى الدول الأوربية .. وأكبر الظن أن ابن جبرول قد تأثر بها فى نظريته القائلة بوجود كائنات وسط بين الله والعالم .

واتخذ إبراهيم بن داود (العقيدة السرية) وسيلة لإبعاد اليهود عن نزعة ابن ميمون العقلية ، وأكبر الظن أن ابنه إسحق (الضرير) وتلميذه عزرائيل هما مؤلفا (سفر هباهير) ، أو كتاب الضوء سنة ١١٩٠م تقريبًا ، وهو شروح صوفية للإصحاح الأول من (سفر التكوين) ، وقد استبدلا فى هذا الكتاب بفكرة خلق العالم عن طريق الفيض الربانى الواردة فى (سفر يصيرا) - الفكرة القائمة على مثلث الضوء ، والحكمة ، والعقل ، وعرض هذا التثليث للعقل الإلهى بوصفه ثالوثًا يهوديًا .

وعرض (ألعازر) ، من يهود ورمز (١١٧٦ / ١٢٣٨) وأبرام بن شمويل أبو العافية (١٢٤٠/١٢٩١) هذه (العقيدة السرية) على أنها دراسة أعمق وأكثر نفعًا من التلمود ، وقد استخدما فى وصف الصلة بين الله والنفس البشرية لغة الحب الشهوانى ، والزواج التى كان يستخدمها المتصوفة المسلمون والألمان .

وفى عام ١٢٩٥م نشر موسى بن شم طوب ، من علماء ليون ، الكتابَ الثالث من الكتب القبالية المسمى (سفر زوهر) ، أو كتاب المجد ، وعزا تأليفه إلى شمعون ابن يوحاى ، أحد علماء القرن الثانى ، فقال : إن الملائكة قد ألهمت شمعون أن يكشف لقرائه المستترين الأسرار التى كانت من قبل محتفظًا بها إلى أيام المسيح المنتظر .

وقد جمعت فى الزوهر كل عناصر القبالة : فكرة الإله الشامل لكل شىء ، الذى لا يعرف إلا عن طريق الحب ، والحروف الأربعة المكونة لاسم « يهوه » ، والأوساط الخالقة ، والفيوض الربانية ، والاستعارات الأفلاطونية الخاصة بالعالم الكبير والعالم الصغير ، وتاريخ ظهور المسيح ، وكيفية ظهوره ، وأزلية الروح

وتنقلها ، والمعانى الصوفية للطقوس الدينية ، والأعداد ، والحروف ، والنقط ، والشرط ، واستعمال الكتابات الجفرية ، والحروف الأولى من العبارات التى إذا جمعت كونت اسمًا خاصًا ، وقراءة الكلمات عكسًا لا طردًا ، والتفسير الرمزى لنصوص الكتاب المقدس ، والقول بأن حمل المرأة خطيئة ، وإن كان فيه تجسيد لسر عملية الخلق .

وظل الزوهار وقتًا ما كتابًا يدرسه اليهود كدراستهم للتلمود ، بل إن بعض القباليين قد هاجموا التلمود ، ووصفوه بأنه كتاب بال قديم ، وتأثر بعض علماء التلمود - ومنهم ابن نحمان ، العالم النحرير - تأثرًا شديدًا بالمدرسة القبالية ، وانتشر الاعتقاد بصدق القبالة ، وبأنها وحى من عند الله ، انتشارًا واسعًا بين يهود أوربا ، وصار لها أثر شامل واسع المدى .

وادعى بيكودلا ميرندولا (١٤٦٣/١٤٩٤) أنه قد وجد فى القبالة أدلة قاطعة على ألوهية المسيح ، واستفاد كثير من المتصوفة المسيحيين من بحوثها .

●● جاء فى كتاب (الجمعيات السرية) للدكتور عبد الوهاب المسيرى أن (جذور الماسونية تعود إلى جماعات أو نقابات الحرفيين فى العصور الوسطى الغربية الإقطاعية ، وهى جماعات كانت منظمة تنظيمًا صارمًا شبه دينى ، فكان لكل نقابة طقوسها الخاصة ، ورموزها الخفية ، وقَسَمها السرى ، وأسرار المهنة التى تحاول كل جماعة الحفاظ عليها) ص ٨٧ .

لكن المعروف عن النقابات أنها كانت تحافظ على حقوق أفرادها ، والمحافظة على الحقوق (المشروعة) تتم بالوسائل (المشروعة) ، ومن ثم فلا حاجة - وهى تعمل فى النور ، وليس (خلسة) - إلى رموز خفية ، وقسم سرى ، إلا إذا جعلنا (منسر) اللصوص ، و (وكر) قطاع الطرق ، وتجمعات الإرهابيين ، بين التكوينيات النقابية ، ثم إذا كانت النشأة مرتبطة بالحرفيين فما الذى دفع بها إلى مصاف الحكام وطبقة الرأسماليين والإقطاعيين ، ثم البرجوازية ؟! وفيما كان اللقاء باليهودية والبهائية والبروتوكلات الصهيونية ؟!

وجاء أنه (لم يكن البناء وأدواته المصدر الوحيد للرموز الماسونية ، فكما كان هناك سليمان وهيكله ، وهو يعتبر البناء الأول ، وهيكله هو رمز الكمال الذى يطمح

أن يصل إليه كل البنائين أو الماسون .. كانت هناك رموز مسيحية كثيرة مأخوذة من تقاليد جماعات الفرسان التى انتشرت فى أوربا فى العصور الوسطى ، والتى يعُود أصل معظمها إلى حروب الفرنجة والاستعمار الاستيطانى للفرنجة فى فلسطين) ص ٩٠ .

لا أدرى سر تخطى المعمار الرومانى إذا كان من الممكن تخطى المعمار المصرى والبابلى ، للوقوف عند هيكل سليمان ، مع إجماع المؤرخين على صغر حجمه ، وإن عمل فيه آلاف العمال ، وأعان عليه ملك صور ، وغابة الأرز اللبنانية ، كما يحكى (العهد القديم) .. ثم يكون الانتقال المفاجئ إلى العصور الوسطى ، ويكون تداخل مع جماعات الدروز والإسماعيليين والحشاشين (ص ٩١) ، مع أنهم لم يكونوا حرفيين أو معماريين أو نقابيين ، وتطول الوقفة عند (جماعة فرسان المعبد التى اتخذت الحركة الماسونية كثيرًا من رموزها رموزًا لها هى فى الواقع الأصل الحقيقى للحركة الماسونية) ص ٩٢ .

وبهذا (الأصل الحقيقى) تنبتّ العلاقة بالفكرة (المعمارية) ، سواء عن الصلة بسليمان - عليه السلام - أو بالحرفيين ، ثم يقوى الاتصال بالفكر الإسلامى ، لأن (هؤلاء الفرسان كانوا فى واقع الأمر مسلمين ، أو متأثرين بالفكر الدينى الإسلامى ، وأنهم كانوا يحاولون - من خلال تنظيمهم السرى / العلنى - أن يسيطروا على العالم المسيحى) ، من خلال (شبكة ضخمة فى معظم أرجاء أوربا) ص ٩١ .

فإذا عرفنا أن الحشاشين كانوا متآمرين مع الصليبيين ، وأنهم كادوا يقتلون صلاح الدين لحساب الصليبيين ، تحول مفهوم الماسونية إلى جماعة سرية ذات طابع تخريبى هدام (لا بنّاء) ، واقترب الأمر من المبادئ والتعليمات الواردة فى البروتوكلات ، فإذا أضفنا أن البهائية نشأت فى أرض الحشاشين ، ورعت فى حضن اليهود الإسرائيليين ، وأن أهم شروط الالتحاق بالمحافل الماسونية الإيمان بالله ، على طريقة الربوبيين والبهائيين - فقد خرج الأمر عن نطاق جذور سليمان ، وجذور الحرفيين ، من أجل رموز المعمار ، مع أن هذه الرموز ولفظ الماسون يمكن اتخاذها مأخذًا مجازيًا ، وبخاصة أن الشعار الماسونى يقوم على (الحرية والإخاء والمساواة) ، شعار الثورة الفرنسية التى غزت جميع أنحاء أوربا غزوًا فكريًا وعاطفيًا ، وجاءت بروتوكلات حكماء صهيون لتزعم أن الثورة الفرنسية من عمل الماسونية ، حقيقة أو

ادعاء ، لتتولد علاقة ما بين الماسونية واليهودية ، فإذا تبين بعد ذلك أن نابليون كان ماسونيًا ، وأن نابليون كان من دعاة توطين اليهود فى فلسطين - فقد بطل السحر والساحر ، وأسفر الصبح لذى عينين .

يقول الأستاذ الدكتور : (وقد استطردنا فى الحديث عن فرسان المعبد والإسلام لنبين مدى تشابك أصول الماسونية وتركيبيتها) ص ٩٢ .

ثم يمتد به المدى فيذكر أن (الطبيعة الجيولوجية المركبة لرموز الماسونية التى ضمت رموزًا من الديانات المصرية القديمة ، كما ضمت كلمات عبرية بتأثير من القبالاه التى دخل كثير من أفكارها على الماسونية) ص ٩٣ .

هذا إلى (اختلاط فكر البنائين بالفلسفة الهرمسية) ، و (بالثورة العقلانية المادية الكبرى ، التى تفجرت فى الغرب ، فى القرن السادس عشر ، والتى كانت تهدف إلى إزاحة الخالق من الكون ، أو وضعه فى مكان هامشى) - ص ٩٣ - حتى لا يحدث انقسامًا فى صفوف الجماعة ، وحتى تجد كل جماعة مدخلًا إلى الماسونية ، حتى (الغنوصية الجديدة) ، هذه التوليفة الكبيرة التى (تهدف إلى التحكم فى الكون ، لا من خلال المعرفة الخفية ، وإنما من خلال الصيغ العلمية) ، أو بيع الأوهام ، للغافلين والطامعين ، الذين يجدون فى المحافل الماسونية سوقًا لتبادل المصالح ، وتبادل الأنخاب .

وليس بدعًا أن تكون انجلترا الاستعمارية التى صارت آفاقها تمتد فى أفريقيا وآسيا وأمريكا ، وصارت مرشحة لامتلاك العالم - هى الموطن الرسمى لولادة الماسونية ، وأن يتم (تأسيس أربعة محافل متفرقة فى القرن السابع عشر ، جمعها كلها محفل واحد مركزى ، تأسس عام ١٧١٧ ، مع بدايات عصر العقل ، ويعد هذا التاريخ هو تاريخ بدء الحركة الماسونية ، وقد سمح لليهود بالالتحاق بها عام ١٧٣٢ ، ودخلت الماسونية فرنسا عام ١٧٢٥م ، وإيطاليا عام ١٧٢٣م ، وألمانيا عام ١٧٣٣م) ص ٩٦ .

ليس بدعًا أن تكون انجلترا الموطن الرسمى لميلاد الماسونية ، وأن تكون انجلترا أكبر الدول دعوة للصهيونية ، قبل أن تولد الصهيونية ، مما يفيد العلاقة الوثيقة بين الماسونية والصهيونية والمطامع الاستعمارية بوجه عام .

(وقد جاء فى الدستور الماسونى لعام ١٧٣٣م الصادر فى انجلترا أن الماسونى

« لا يمكن أن يكون كافرًا غبيًا ، أو يكون فاسقًا غير متدين » ، وعليه أن يحترم السلطات المدنية ، ولا يشترك فى الحركات السياسية ، وتدعو الماسونية إلى وحدة البشر ، على أساس الإخاء والمحبة والمساواة ، والعون المشترك ، وخدمة الغير ، وحسن معاملتهم، وحب الجماعة ، وتبادل المصالح ، والتحلى بالفضائل المدنية ، كما تقدس الماسونية الملكية الخاصة) ص ٩٧ .

تذكرنى هذه المبادئ ما تعلمناه فى المدارس (الإلزامية) من شعر شوقى ، أمير الشعراء - عن (الثعلب الواعظ) :

برز الثعلب يومًا فى ثياب الواعظينا　　ومشى فى الأرض يهدى ويسب الماكرينا

ويقول الحمد لله إله العالمينا　　يا عباد الله توبوا فهو كهف التائبينا

واطلبوا الديك يؤذن لصلاة الصبح فينا　　... ... ...

كذلك الماسونية تدعو فرائسها (بليل) لتؤذن ، حتى لينبلج صباح الماسونية على (مذبح) الصهيونية العالمية .

إن الدعوة إلى كل الفضائل كثيرًا ما يؤدى إلى التفريط فى كل الفضائل ، أو استغلال كل الفضائل ، من خلال أولئك الأعضاء (العرائس) الذين تحركهم أيد خفية .

ومن ثم وجدنا (ماسونية الطبقات الأرستقراطية احتضنت الطبقات الوسطى الصاعدة باعتبارها قوة تستخدمها وتوظّفها لصالح الدولة القومية المطلقة ، دون أن تسلمها صولجان الحكم والقيادة) ص ٩٧ .

ومن أجل هذا الهدف (السياسى) التآمرى الاستغلالى (انضم إليها ملكًا بروسيا : فريدريك الثانى ، وفردريك الثالث ، وملوك شبه جزيرة اسكندنافيا ، وجوزيف الثانى ملك النمسا ، ونابليون وأفراد عائلته ، وأعضاء الطبقة الوسطى الذين يطمحون فى شيء من الحراك الاجتماعى .. ويمكن تفسير انضمام أعضاء الأسرة المالكة الإنجليزية ، وأعضاء الأرستقراطية إلى الجماعات الماسونية ، من نفس المنظور ، وكان كثير ممن يطلق عليهم مثقفو الطبقة الوسطى الصاعدة من الماسونيين ، كما يمكن أن نذكر من أعضائها فولتير والإنسيكلوبيديين وفخته وجوته وهردر ولسنج

وموتسارت ، وأعضاء الجمعية الملكية فى انجلترا ، وجورج واشنطن ، وماتزينى ، وغاريبالدى .. وفى عشية الثورة الفرنسية كان يوجد فى فرنسا نحو خمسمائة محفل ماسونى ، كما يقال : إن نصف أعضاء الجمعية العمومية فى فرنسا - عشية الثورة - كانوا من الماسونيين) ص ٩٨ .

ما هدف كبار الحكام والثوريين من الاشتراك فى المحافل الماسونية ؟ أهو الحرص على (الفضيلة) ، أم هو الشعور بالإخاء والمساواة والمحبة ؟!

لقد جمعت هذه المحافل أصحاب المصالح المتعارضة ، جمعت الذئاب والكباش ، فمن الذى خطط لهذا ؟

لا يمكن أن ينشأ هذا التكوين (عشوائيًا) أو بالصدفة ، وليس من السهل أن نزعم أنه نشأ لغاية نبيلة ، ثم جرى تطويره بحكم المصالح المتطورة .

إن الذى يشكل تنظيمًا (عالميًا) منفتحًا لجميع التيارات وأصحاب المصالح السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية - لابد أن يكون قد وضع فى حسابه طريقة تحريك هذه الخيوط ، دون أن تتشابك ، أو تنعقد ، من أجل غاية أبعد من مجرد العبث بهذه الخيوط ، أو الاهتمام بخيط على حساب آخر ، أو لحساب آخر .

إن الماسونية (تقوم بتجنيد أعضائها من كافة الطبقات) ، (يترأسها الملك وأعضاء النخبة ، وتأخذ شكلًا هَرَميا) ، إنها (حركة إيمانية ربوبية ، تجرى داخلها كل معالم التفكير الإلحادى الذى يسقط الإله تمامًا) ، إنها (عقلانية ذات رموز صوفية ، وتضم أفكارًا عالمية ومحلية) ، إنها (بنت محيطها الحضارى التاريخى والجغرافى) ص ١٠٠ .

إن كثيرًا من المحافل الماسونية يكتسب (مضمونًا ثوريًا ، خصوصًا فى البلاد الكاثوليكية والأرثوذوكسية) ، إذ (قرر محفل الشرق الأعظم فى فرنسا عام ١٨٧٧م استبعاد أى بقايا إيمانية من الفكر الماسونى .. وكانت المحافل الماسونية فى روسيا القيصرية خلايا ثورية ، وكان معظم أعضاء ثورة الديسمبريين من الماسونيين) ص ١٠١ - فما سر هذا ؟ أهى طبيعة التطور وأثر البيئة ؟ فما جدوى مبادئ الإخاء والمساواة والمحبة ، والبعد عن السياسة والحرص على الملكية الخاصة ؟!

لقد ركبت الماسونية مركب الاستعمار ، (فقد انتشرت بسرعة فى الجزر البريطانية) - ص ١٠٢ - واتسعت (مع اتساع الإمبراطورية الإنجليزية ، فانتقلت إلى الولايات المتحدة واستراليا وكندا ومصر وفلسطين والهند ، وغيرها من المستعمرات أو المحميات) ، وكان (الدعاة المحليون ينخرطون فى هذه المحافل بغية توظيفها فى خدمة أهدافهم ، وحتى يتمتعوا بالمزايا الممنوحة لهم) - ص ١٠٣ - لكنهم أحيانًا كانوا يدركون أنهم موظفون لخدمة أغراض أخرى أبعد من الأفق المنظور ، فقد اتسعت المحافل لعصابات المافيا التى تداخلت (مع الجهاز التنفيذى فى الولايات المتحدة ، إذ تستأجر كبار المحامين ، وتشترى القضاة ، وتجند ضباط الشرطة) ، وكثيرًا ما تحولت إلى قوة ضغط (لوبى) داخل النظام السياسى ، والاقتصادى ، متخذة شكلًا تآمريًا أو إجراميًا ، فقد (بدأ ظهور تحالف بين بعض المحافل الماسونية وعصابات المافيا فى إيطاليا ، وقد بدءوا فى السيطرة على بعض المؤسسات المالية الشيوعية ، ليمارسوا نشاطهم غير الشرعى) ص ١٠٥ .

إن المحافل الماسونية ذات طقوس ورموز وأسرار ، لكن تشكيلها يتم كأى ناد من الأندية الخاصة ، أعضاء يتم تجنيدهم بالتزكية من أحد الأعضاء العاملين ، وهى فى الوقت نفسه لا تخفى مضابط اجتماعاتها عن الحكومة ، لكن - فى الوقت نفسه - تحتفظ بأسرارها (الخاصة) ، وبأسماء بعض أعضائها ، أى أنها تتعامل بالقناع الزائف ، على طريقة التعامل مع الضرائب فى مصر ، فثمة دفاتر للحساب الضرائبى ، ودفاتر خاصة بالممول ، ومعروف أنها أغلقت محافلها فى مصر (لأنها رفضت أن تخضع لتفتيش وزارة الشئون الاجتماعية ، مما يعنى أنها ذات طبيعة خاصة تختلف عن الأندية الاجتماعية والرياضية المنتشرة ، وإن كانت لم تنسحب من الميدان فسرعان ما أنشأت أنديتها (الخاصة) التى تمارس من خلف ستارها كل ما تريد من نشاط ، وتحقق كل ما تريد من أهداف ، فكانت أندية الروتارى والليونز التى غزت القمم والسفوح والوهاد .

وقد أعلن البابا كليمنت الثانى عشر سنة ١٧٣٨م أن (الماسونية كنيسة وثنية غير مقدسة) - ص ١١١ - ولم يسمح للكاثوليك بالانضمام إليها ، كذلك تحرّم اليهودية الأرثوذكسية الانضمام إليها ، ويلاحظ أن اليهودية الأرثوذكسية تناصب الصهيونية العداء .

● يقول ول ديورانت (قصة الحضارة مج ١٠ ج ٢ ، ص ١٨١ و ج ٤ ، ص ٤٥٦) ما يفيد أن حركة (التنوير) خرجت من محافل الماسونية أو تبنتها ، فقد تشكلت في جنوه وفلورنسه ورومه ونابلي - بإيطاليا منذ سنة ١٧٣٠م - محافل ماسونية نزاعة إلى الربوبية ، لتهدم العقائد ، حتى تبني (عقيدتها) الجديدة .. وقد أدانها البابوان كليمنت الثاني عشر ، وبندكت الرابع عشر ، لكنها اجتذبت الكثيرين ، خصوصًا من طبقة النبلاء ، وأحيانًا من الإكليروس .. وقد جلبت إلى إيطاليا مؤلفات مونتسكيو ، وفولتير ، وكونديياك ، وهلفتيوس ، ودولباخ ، ولامترى ، ونشرت طبعات من (الموسوعة) الفرنسية في لوكا ، ولجهورن ، وبادوا ، وبهذا وصلت حركة (التنوير) أو الربوبية والإلحاد إلى إيطاليا في صورة ميسرة لمن يقرءون الفرنسية .

وسرعان ما أقبل على الدعوة كثير من المغامرين والطامعين في سرعة الوصول إلى أهدافهم ، أو الأهداف التي زينت لهم ، حتى ياكوبو كازانوفا ، ذلك الذي ولد لممثل وممثلة في البندقية سنة ١٧٢٥م ، وزعم أنه نال الدكتوراه من جامعة بادوا ، وهو في السادسة عشرة ، والذي استطاع أن يخدع سناتور البندقية ، فبسط عليه حمايته ، وزوده بالمال لزيارة فرنسا وألمانيا والنمسا - هذا الدجال المغامر المحتال اليهودي زير النساء ، حين وصل إلى ليون انضم إلى الماسونية ، وفي باريس أصبح رفيقًا ، ثم رئيسًا للطائفة .

وفي فرنسا أصبح السياسي اليهودي الفرنسي أودولف كريمنيه سنة ١٨٦٩م البناء الأعظم للمحفل الأكبر على الطريقة الأسكتلندية ، ومع أن البابا كليمنت الثاني عشر حظر على السلطات الكنسية الانضمام إلى الماسون أو مساعدتهم ، فإن برلمان باريس رفض تسجيل هذا الأمر البابوي .

وفي سنة ١٧٨٩م كان هناك ٦٢٩ محفلًا ماسونيًا في باريس ، كل منها يضم عادة خمسين عضوًا إلى مائة ، وبين هؤلاء كثير من النبلاء ، وبعض الكهنة ، وإخوة لويس السادس عشر ، وأكثر زعماء التنوير .

وكان الماسون من الناحية النظرية يستبعدون من عضويتهم كل (فاسق فاجر) ، وكل (ملحد غبي) ، حتى لا ينكشف أمرهم ، وحتى لا تقوى شوكة أعدائهم .. وكان على كل عضو أن يعلن إيمانه بـ (مهندس الكون الأعظم) ، ولم تشترط في

العضو عقيدة دينية غير هذه ، حتى يسهل تشكيله ، وإعادة صياغته .

لقد قصر الماسون بوجه عام لاهوتهم على الربوبية مدخلًا إلى العقول (الغوغائية) والسفسطائية .

ويقول ول ديورانت : يبدو أنهم كانوا أصحاب نفوذ فى الحركة التى قامت لطرد اليسوعيين من فرنسا .

وفى عهد لويس السادس عشر دخلوا ميدان السياسة بنشاط ، وأصبح عدد من الأعضاء الأرستقراطيين زعماء متحررين فى الجمعية الوطنية ، لافاييت ، وميرابو الأب والابن ، والفيكونت دنواى ، ودوق لاروشفوكو ليانكور ، ودوق أورليان .

ومن هنا كانت تصريحات بعض زعماء اليهود أنهم صانعوا الثورة الفرنسية .

● فى سنة ١٧٥٣م تأسس أول محفل ماسونى بهمبورج وتلته محافل أخرى ، كان من أعضائها فردريك الأكبر ، وفرديناند دوق برنزويك ، وكارل أوجست دون ساكسى فايمار ، وليسنج ، وفيلاند ، وهردر ، وكلويشتوك ، وجوته ، وكلايست .. وكانت هذه الجماعات بوجه عام تميل إلى الربوبية ، لكنها تحاشت النقد العلنى للإيمان التقليدى .

ووصل (التنوير) إلى الإكليروس ، فطبق يوهان سملر أستاذ الفلسفة فى هالة (النقد الأعلى) على الكتاب المقدس ، وزعم أن العهد القديم لا يمكن أن يكون بوحى من الله ، لأنه - إلا فى مرحلته الأخيرة - تجاهل الخلود ، وألمح إلى أن المسيحية قد حرفها عن تعاليم المسيح لاهوت القديس بولس الذى لم ير المسيح قط ، ثم نصح اللاهوتيين بأن ينظروا إلى المسيحية على أنها صورة عابرة من صور جهد الإنسان فى بلوغ حياة فاضلة ، فلما رفض كارل بارت وغيره من تلاميذه العقيدة المسيحية بأكملها إلا الإيمان بالله ، عاد سملر إلى إيمانه السنّى ، واحتفظ بكرسى اللاهوت من سنة ١٧٥٢ إلى ١٧٩١م .. ووصف بارت المسيح بأنه معلم عظيم فقط ، (مثل موسى ، وسقراط ، وكونفوشيوس ، وسملر ، ولوثر ، ومثلى أنا) .. كذلك سوّى يوهان إيبرهارت بين سقراط والمسيح ، وقد طرد من وظيفة القسوسية اللوثرية ، لكن فردريك عينه أستاذًا للفلسفة فى هاله .. وقسيس آخر يدعى ف. أ بتلر اختزل المسيحية إلى الربوبية ، ودعا لعضوية كنيسته أى إنسان مؤمن بالله ، بما

فى ذلك اليهود .. أما يوهان شولتز ، الراعى اللوثرى ، فقد أنكر لاهوت المسيح ، ولم ير فى الله أكثر من (الأساس الكافى للعالم) ، وقد طرد من وظيفته سنة ١٧٩٢م .

● أما فى النمسا فقد نظموا فى فيينا سنة ١٧٨١م محفلاً انضم إليه كثير من المواطنين البارزين ، وقد حماه الإمبراطور جوزيف نفسه ، رغم ربوبيته المفهومة ضمنًا .. قال أحد أعضائه : (كان هدف الجماعة إعمال الضمير والفكر ومكافحة الخرافة والتعصب) .

وتكاثرت المحافل الماسونية حتى بلغت ثمانية فى فيينا وحدها ، وأصبح من مجاراة العصر أن ينتمى الشخص إليها ، وارتدى الجنسان الشعارات الماسونية ، وألف موتسارت الموسيقى للحفلات الماسونية .

وبمرور الوقت اشتبه جوزيف ملك النمسا فى اشتغال هذه المحافل بالتآمر السياسى ، ففى سنة ١٧٨٥م أمر بأن تندمج محافل فيينا فى محفلين فقط ، ولم يسمح بأكثر من محفل واحد فى عاصمة إقليمية .

ولقد غزت هذه المحافل الإمبراطورية العثمانية ، حتى تمكنت من القضاء على الخلافة الإسلامية ، وتبعًا للإمبراطورية العثمانية غزت هذه المحافل البلاد العربية ، بدءًا من القمة إلى القاعدة ، ولا يزال رؤساء حكومات أكثر الدول العربية ، وأكثر وزرائها ، ورجال الأعمال و (المصالح) أعضاء بارزين ، وبخاصة فيما يسمى نوادى الليونز والروتارى ، مع أن الصهيونية المعادية علنًا - سياسيًا وعسكريًا - للطموحات العربية لا تخفى هيمنتها على هذه النوادى [١] .

* * *

(١) لمزيد من المعرفة اقرأ ما جاء فى كتابى (الساعة الخامسة والعشرون) عن الماسونية .

امتداد

حتى عام ١٨٤٠م لم يكن هناك غير منظمتين يهوديتين دوليتين ، وهما (منظمة مبعوثى الطوائف) التى اقتصرت أنشطتها على الإشراف على يهود الإمبراطورية البريطانية ، و(منظمة المجمع المركزى) التى اقتصرت أنشطتها على يهود فرنسا وبلجيكا .

وفى عام ١٨٦٠م تأسست فى باريس جماعة (كل شعب إسرائيل أصدقاء) تمثلت أهدافها فى مساعدة كل الدول وتخليصهم من الاضطهادات التى يتعرضون لها ، والارتقاء بمستواهم الروحى والفكرى ، وسرعان ما أقيمت فروع كثيرة لهذه الجماعة فى العواصم الأوربية المختلفة ، مثل برلين والقسطنطينية .. وبعد مضى بضع سنوات على تأسيس هذه الجماعة تأسس فى انجلترا عام ١٨٧٠م (الاتحاد الإنجليزى اليهودى) الذى كان على صلة وثيقة بجماعة (كل شعب إسرائيل أصدقاء) ، وسرعان ما كرّستا جهودهما لمصلحة يهود أوربا الشرقية والبلدان الإسلامية .

وقد شملت أنشطة المنظمات اليهودية بغرب أوربا مجالين رئيسيين ، هما : التدخل لصالح يهود الشرق ، والتخفيف من حدة الضغوط التى يتعرضون لها ، والسعى نحو إقامة مؤسسات يهودية تعليمية حديثة فى الشرق .

وكانت مدارس جماعة (كل شعب إسرائيل أصدقاء) تقام فى الشرق ، بجهود ذاتية ، بعد أن كان أبناء أى طائفة يهودية بالشرق يطلبون من مركز الجماعة فى باريس إقامة مدارس لهذه الجماعة فى بلدانهم ، وذلك بسبب سوء الوسائل التربوية التى كانت متبعة ، وبسبب سوء المناهج التى اقتصر دورها على تدريس المواد الدينية .

أنشأ الحاخام عبد الله سوميخ فى عام ١٨٤٠م مدرسة (أبو منشى) الدينية التى كانت تمنح التلاميذ اليهود قدرًا كبيرًا من المعرفة الدينية يؤهلهم لشغل منصب حاخامات الطائفة فى المستقبل ، ومع هذا لم يكن بمقدور هذه المدرسة الارتقاء

بالمستوى التعليمى لكل أبناء الطائفة اليهودية فى بغداد .

وأسس إسحق لوريا وتسفاى روزنفلد ، فى عقد الستينيات ، بالقرن التاسع عشر - فرعًا لجماعة (كل شعب إسرائيل أصدقاء) فى بغداد ، بعد أن طالبا هذه الجماعة بإنشاء مدرسة يهوديه تتبع النظم التعليمية الحديثة . واستجابت الجماعة لهذا الطلب ، وأرسلت حاخامًا فرنسيًا تولى مهمة إدارتها .

وبفضل جهود الحاخام يحيى قافح وتلاميذه شهدت الطائفة اليهودية فى اليمن - فى نهاية القرن التاسع عشر -- نهضة هادفة إلى تحسين طرق التعليم ، وتطوير المناهج الدراسية .

وأنشأت جماعة (كل شعب إسرائيل أصدقاء) مدرسة يهودية حديثة فى صنعاء .

وحققت هذه الجماعة قدرًا كبيرًا من النجاح التعليمى فى العراق .

وكان هم كل المنظمات اليهودية العاملة فى حقل التعليم هو خلق نموذج جديد للشخصية اليهودية ، وتشجيع اليهود على الاندماج فى الحياة الحديثة ، وذلك عن طريق نشر المناهج الفرنسية .

ومع أن هذه المناهج لم تكن تولى التربية الدينية الاهتمام المرجو فإن عائلة موسى - وكان لها قدر من النفوذ والهيمنة - استطاعت الحفاظ على التقاليد الدينية .

● وبتشجيع ومباركة الجهاز (المقنَّع) المتسلط على الحركة الماسونية أشاع حاخامات اليهود فى الشرق والغرب - استنادًا إلى بعض الحسابات والاعتبارات الغيبية - أن عام ١٨٠٠م سيشهد تحقيق الخلاص اليهودى .. ومن هنا هاجرت أعداد كبيرة من أتباع الحاخامات فى بداية القرن التاسع عشر إلى فلسطين ، وساد هذا (الاعتقاد / الإشاعة) أوساط الرؤساء اليهود فى أمستردام ، وفى المغرب ، وفى أنحاء أخرى من دول الشرق .. وقد طرح الحاخامات السفاراد فى ذلك بين أبناء البلقان ، ومن تأثروا بالثورة اليونانية ، وبالتحولات السياسية - مشاريع وتصورات لتشجيع الهجرة اليهودية إلى فلسطين .

وكانت مؤسسة (موظفى فلسطين فى القسطنطينية) من أهم المؤسسات اليهودية الداعية - فى القرن الثامن عشر - إلى الاستيطان فى فلسطين ، وقد انتشر مبعوثو هذه المؤسسة ، فى كافة أنحاء الدولة العثمانية وخارجها ، يدعون إلى الهجرة إلى فلسطين ، حتى كان معظم المهاجرين فى تلك الفترة من يهود تركيا واليونان .

وفى النصف الثانى من القرن التاسع عشر عبر الحاخام حاييم بالاجى عن إحساسه بالأسى إزاء ظاهرة حرص اليهود على محاكاة المجتمع غير اليهودى ، بقوله : (اعتاد اليهود أن يكونوا مختلفين فى ملبسهم عن الآخرين ، وهذا حتى يكونوا مختلفين ومتميزين عن سائر شعوب العالم ، ولكن لا يوجد فى الوقت الحالى أى فرق بيننا وبينهم ، فأصبحنا الآن مثل غير اليهود) .

ولم يكن استنكار (الاندماج) مع غير اليهود إلا تعبيرًا عن الأمل الذى أحدثته الدعوة إلى الهجرة إلى (أرض الميعاد) ، وتعبيرًا عن النجاح الذى أحرزته الحركة الماسونية عقب حادثة اختفاء القسيس توماس وخادمه المسلم فى فبراير ١٩٤٠م ، وما أشيع عن قتل القسيس وشرب دمه ، أو إضافة هذا الدم إلى عجين عيد الفصح .

فحين نشر الخبر فى إحدى الصحف التى تصدر بالفرنسية فى أزمير ، سرعان ما تناقلته الصحف الأوربية ، ولم تمض فترة وجيزة حتى أعلن قادة المجتمع اليهودى فى أوربا إدانة الحادث ، وكان من هؤلاء القادة مندوبو عائلة روتشيلد ، فاحشة الثراء ، ومؤيدة وممولة الاستيطان اليهودى فى أرض فلسطين ، وإدولف كرميه الذى صار وزيرًا بالحكومة الفرنسية ، وموشيه مونتفيورى الصهيونى الكبير ، وهيرش ليرن رئيس لجنة الموظفين الحكوميين فى أمستردام ، وقادة الطوائف اليهودية فى كل من إيطاليا واليونان وتركيا وألمانيا ، وقادة مبعوثى الطوائف اليهودية فى انجلترا ، التى تولت مهمة تنظيم الدفاع عن المتهمين فى هذه الحادثة ، وتنظيم حملة دبلوماسية وشعبية واسعة النطاق لإدانة الاتهام .

وخضوعًا لهذه الحملة (العاتية) أصدر المسئولون الأتراك فرمانًا أدان الاتهام ، وأمر بإطلاق سراح المتهمين ، مما أشاع إحساسًا بالزهو فى أوساط اليهود ، وزاد من إحساسهم الثقة فى أنفسهم ، وبالقدرة على تحقيق حلم العودة .

* * *

امتداد آخر

يفيد أحد المصادر التركية التى يرجع تاريخها إلى عام ١٩٠٦م أن التركيبة السكانية فى (سالونيكا) تكونت من سبعة وأربعين ألفًا وثلاثمائة واثنى عشر يهوديًا ، وواحد وثلاثين ألف تركى ، (وكان من بينهم عشرة آلاف من يهود الدونمه ، وخمسة عشر ألفًا وسبعمائة بلغارى ، وألفان آخران) ، وقد عاش فى سالونيكا آنذاك المئات من اليهود ذوى الأصل الإيطالى .

وفى عام ١٩٠٨م أصبح تعداد اليهود بالمدينة - إبان ثورة تركيا الفتاة - يقدر بخمسة وسبعين ألف يهودى ، وفق الإحصاء التركى .. وأشار مكتب الإحصاء اليهودى فى برلين عام ١٩١٢م أن تعداد اليهود يقدر بتسعين ألف يهودى ، وأن التعداد الكلى للسكان يقدر بمائة وسبعين ألف نسمة .

وكان اليهود يسيطرون على الحركة الاقتصادية فى الميناء ، وعلى الصناعة ، كما كان عدد كبير يعمل فى التجارة والمهن الحرة .

وزعم الدبلوماسيون الغربيون وبعض الصحفيين أن ثورة (تركيا الفتاة) ليست إلا مؤامرة يهودية ، بغرض إخراج البريطانيين من تركيا .

وقال أحد الدبلوماسيين البريطانيين فى ذلك الحين : (تقلد اليهود منذ نشوب ثورة ١٩٠٨م مكان الصدارة فى الحياة السياسية بتركيا ، ويشغلون الآن مكانة مهمة فى أوساط الدوائر التركية الحاكمة) .

واتهم دبلوماسى بريطانى آخر اليهود بأنهم يشاركون فى كل الثورات ، وحذر الأتراك من خطر تزايد قوة اليهود .

هذا على حين تبنى العثمانيون موقفًا طيبًا تجاه اليهود ، واحتفلوا سنة ١٨٩٢م بذكرى خروج اليهود من الأندلس واستيطانهم تركيا .

ومع هذا جاء فى أحد المنشورات اليهودية التى وزعت فى سالونيكا إبان ثورة (تركيا الفتاة) :

(اسعدوا يا إخوانى ، لقد جاء اليوم المنشود ، يعيش الوطن ، يحيا الضباط) .

وكان من أبرز الشخصيات التى شاركت فى الثورة المحامى عمانويل كاراسو الذى انتخب عام ١٩١٤م عضوًا بالبرلمان ، ويوسف مودياني الذى كان من أبرز الشخصيات التى لعبت دورًا مهمًا فى ضم المتطوعين لجيش الثورة ، وكانت كل هذه الشخصيات تنتمى إلى طبقة المستنيرين (الماسون) من اليهود .

وذكر أن كاراسو كان أحد ثلاثة تقدموا نيابة عن الثوار إلى السلطان عبد الحميد يطلبون استقالته ، أو يجبرونه على التخلى عن الحكم .

وقيل : إنه اختير لهذه المهمة كيدًا وتشفيًا فى الرجل الذى رفض استيطان اليهود بأرض فلسطين ، برغم كل المغريات التى عرضت عليه ، سداد ديون ، ومعونات اقتصادية وعسكرية .

وقيل : إن (الذئب الأغبر) أتاتورك ، من يهود الدونمه ، الذين أعلنوا الإسلام ، وستروا معتقدهم ، وأنه لجأ إلى سالونيكا حين مطاردة رجال السلطان له ، وأنه خرج من سالونيكا مؤيدًا من اليهود والإنجليز ليقود الثائرين ضد الخلافة ، وضد الإسلام والمسلمين .



امتداد ثالث

كانت روسيا القيصرية (الأرثوذكسية) شديدة الحذر من التسلل اليهودى إلى أعماق الريف ، ومن ثم استمرت الملاحقة بالقوانين والقرارات التى تحد من نشاطهم ، وتسعى إلى طردهم خارج الحدود ، فلما أخذ الفكر المناهض للقيصرية يتلاحم ويتطرف ويأخذ طريقه الثورى (الاشتراكى) ركب اليهود ظهر الموج ، وصار منهم (الرفاق) الكبار ، وممثلو الشعب فى كافة اللجان (الشعبية) والقيادية ، حتى وصل (بريا) إلى وزارة الداخلية ، وصار سوط عذاب أو سيفه ، يلاحق جميع العاملين فى الدولة من القاعدة إلى القمة ، ويملأ بهم القبور الجماعية والمنافى السيبيرية .

يقول الدكتور مصطفى محمود (الأهرام ١٧ أغسطس ١٩٩٦م) نقلاً عن كتاب (علاقات خطرة) تأليف اليهوديين أندرو ولسلى كوكبيرن : كان (ستالين) هو الذراع التى ساندت إسرائيل ، وكان (جروميكو) أول من أعطى صوته لمشروع التقسيم ، وقال ساعتها : بيدى هذه أخرجت إسرائيل إلى الوجود .

وبنفس المنطق الاستعمارى ساند ستالين المشروع الإسرائيلى باعتباره قوة مناهضة للوجود البريطانى فى فلسطين ، وأخذ السلاح التشيكى - بتوصية من ستالين - يتدفق على إسرائيل ، وفتحت براغ ذراعيها لتدريب الجنود والطيارين اليهود ، وكانت إسرائيل تقدم الثمن على شكل سرقات من التكنولوجيا الأمريكية المتطورة ، ونظام رادار متحرك للإنذار المبكر ، ورسم للطائرة الأمريكية ١٣ Bt ، وفتح ستالين أبواب الهجرة اليهودية إلى إسرائيل ، فكانت أول دفعة مائتى ألف يهودى بولندى ، ثم آلاف من رومانيا وهنغاريا وبلغاريا .

لكن إسرائيل رأت فى أمريكا الأكثر طواعية وقدرة وسخاء ، وبعد مقتل (بريا) والتخلص من كثير من أعضاء اللوبى اليهودى الذين سكنوا مساكن (صانعى القرار) ، وبعد ممارسة اللوبى اليهودى فى أمريكا ضغوطه على (صانعى القرار) - كلفت الموساد بالتجسس على كل ما يدور خلف (الستار الحديدى) ، عن طريق المهاجرين الروس القادمين من الاتحاد السوفيتى ، وعن طريق اليهود الذين لا يزالون يشغلون

مراكز حساسة داخل المؤسسات العلمية ، وتزويد أمريكا بهذا السيل المتدفق من الأسرار السوفيتية .

وطمعت إسرائيل فى أن تكون إحدى الولايات الأمريكية ، أو بمعنى أصح أن تكون أمريكا بقوة اقتصادها وقوة جيشها وبغرورها وطيشها - اليد الطولى لتنفيذ المطامع (الصهيونية / العالمية) .

اقترح بن جوريون على أيزنهاور فكرة حلف بغداد الذى تشارك فيه تركيا وإيران وباكستان ، وكلها دول إسلامية ، لتكون (حلف الطوق) ضد النفوذ الشيوعى ، أو بعبارة أصدق لامتصاص القدرة العربية على التوحد ، وعلى التسلح ، وعلى التفكير فى تهديد الوجود الإسرائيلى .

ومدت الموساد يدها بالسلاح إلى الأكراد ، مستعينة بالمخابرات الأمريكية ، وبالمخابرات الإيرانية (السافاك) ، وبتدفق العون المادى الأمريكى والإيرانى ، لتمزيق الوحدة الوطنية العراقية ، ولتمزيق الوجود الكردى بين ما هو برازانى وطالبانى .

ومدت الموساد يدها إلى هيلاسلاسى ، إمبراطور الحبشة ، وأنقذته من الغضب الشعبى العارم فى ثلاث انقلابات ، حتى أمكن الإطاحة به سنة ١٩٧٤م ، وذلك ليكون شوكتها فى ظهر السودان ومصر ، وليحول دون استقلال إرتريا والصومال .

وكانت شركة (أنكودا) ، مركزُ المخابرات الإسرائيلية فى أفريقيا ، مخبأً خطيرًا للأسلحة فى أفريقيا ، لتزويد كل المغامرين ، لتهديد أمن القارة ، ولمساعدة العملاء ، ومن لا ولاء لهم ، على الوصول إلى السلطة ، لاستباحة ثروات القارة ، وتزييف شعارات أبنائها .. وفى الوقت نفسه ساعدت هذه الشركة على تزويد الحكومات الأفريقية التى (فقدت توازنها) بالخبراء الجواسيس الزراعيين الذين يحملون البذور الفاسدة والإرشادات الضارة ، والذين يهيئون القارة لتكون سوقًا لترويج المنتجات الزراعية الاستهلاكية الإسرائيلية .

لقد وقفت إسرائيل بخبرائها وأسلحتها ومدربيها وجواسيسها خلف كل الانقلابات العسكرية الأفريقية ، وخلف كل المذابح القبلية والطائفية .

عيدى أمين ، بوكاسا ، تشومبى ، موبوتو ، حسين حبرى ، أكلة لحوم البشر ،

المذابح القبلية التى تجاوزت الملايين ، إهدار الكنوز الأفريقية مقابل عمولات توضع فى مصارف يهودية بالخارج .

وامتدت الذراع الإسرائيلية القذرة مؤيدة بالقوة الأمريكية الغاشمة إلى دول الكاريبى ، وإلى دول أمريكا اللاتينية ، فأمدت سوموزا غارشيا سفاح نيكاراجوا بالمال والسلاح ، لإبادة الشعب الذى نشّأه ورعاه ، وحدث الجرم الشنيع نفسه فى السلفادور ، وفى جواتيمالا ، وفى هندوراس .. آلاف من قتلى الموساد بالسلاح والمال الأمريكى ، وبالأيدى التى تحمل أسماء (وطنية) و (عقولًا) همجية ، وقلوبًا (وحشية) .

ولم يقف الأمر عند استعمال الأسلحة العسكرية الغاشمة ، فكانت أسلحة الدمار (الباسمة) .. كانت المخدرات بكافة أنواعها ، سحائب زرقاء ، ودقيقًا أبيض أو أصفر سريع الفتك ، وسائلًا سريع الانتشار فى العروق .. ألوان من الميتات لم تحرم أصحابها من حرية الاختيار .

وأخيرًا امتد النشاط إلى مطاحن أفغانستان ، التى لا تزال تطحن أقوى الرجال بسلاح الحرب الصاخبة ، وسلاح الحرب الصامتة ، بالمدفع وبالكوكايين ، وبالإرهابيين الذين تنشرهم فى جميع أنحاء العالم الإسلامى بخاصة ، لماذا ؟ هذا ما ستجيب عنه الأيام القليلة القادمة !!

* * *

امتداد رابع

الاغتيال أحد وسائل الموساد ، وأيسرها ، تمارسه ضد كل من يقف فى طريقها ، وكذلك كان الشأن ، كانت العصابات الصهيونية التى [illegible] إسرائيل تمارسه حتى مع أبناء جلدتهم الذين تزعُم هذه العصابات أنها [illegible] من أجل تحقيق حلمهم الذى لفه رماد عشرات القرون ، وصارت له مئات الأجيال أكفانًا .

فعلى سبيل المثال تمت التضحية بعشرات الآلاف من اليهود على يد النازية فداء لحفنة من الصهاينة ، وفى عام ١٩٤٠م ، من أجل إثارة السخط على الإنجليز الذين قرروا إنقاذ اليهود المهددين من هتلر ، باستضافتهم فى جزيرة موريشيوس ، لم يتردد زعماء الهاجاناه ، تحت رئاسة بن جوريون ، فى إغراق ناقلة البضائع الفرنسية (باتريا) ، التى تُقِلّهم ، عند توقفها فى ميناء حيفا يوم ٢٥ ديسمبر ١٩٤٠م ، مما أدى إلى وفاة ٢٥٢ يهوديًا ، وأفراد طاقم الباخرة الإنجليزى .

ولأن لورد موين ، الوزير المقيم للحكومة البريطانية فى الشرق الأوسط ، ومقر إقامته القاهرة ، لم يكن يخفى معارضته الشديدة للوسائل الصهيونية العنيفة – تم اغتياله فى ٦ نوفمبر ١٩٤٤م ، وفى وضح النهار .

أما الكونت برنادوت ممثل الأمم المتحدة لتنفيذ قرار التقسيم ، فلأنه التزم بنص القرار – طلبوا إليه الاستقالة والانسحاب من المهمة الموكولة إليه ، فلما رفض تم اغتياله فى أحد شوارع القدس (فى ١٧ يوليه ١٩٤٨م) .

ولم يقف هذا (الامتداد) عند حد (الاغتيال) الجسدى الذى بلغ ذروته مع الرموز الفلسطينية والشعب الفلسطينى كما سنشير إليه بعد ، بل كان ثمة اغتيال (عنوى) ، وهو أشبه بالتفاف الحية حول الفريسة حتى تقصم ظهرها دون أن تفرغ ما فيها بحيث تعيش الموت دون أن يشطب اسمها من الأحياء .

المعروف أن اليهود يملكون أقوى الوسائل الإعلامية فى العالم مسموعة

ومشاهدة ومقروءة ومبثوثة عن طريق الأقمار الصناعية و (الإنترنت) .

والمعروف أن اليهود يملكون أقوى قدرة مصرفية تتحكم فى سوق المال وفى (البورصات) العالمية ، بحيث تملك الكشف عن الأرصدة المشروعة وغير المشروعة للأفراد والمؤسسات .

ومن خلال هاتين (السلطتين) تملك سجلات تجمع كافة المعلومات عن كل الحكومات والمؤسسات وأصحاب النفوذ من الأفراد والجماعات ، لاستثمار هذه السجلات فى الوقت المناسب لتحقيق أكثر من هدف وأكثر من فائدة .

فى الولايات المتحدة الأمريكية ، عرين الأسد ، لا يملك فخامة (الأسد) أن يميل عن الخط الذى رسم له ، فإن تاريخه منذ نشأ ، وتاريخ أجداده ، فضائحه فى فترة المراهقة ، وفى المناصب التى تقلدها قبل الرئاسة ، أو قبل أن تجلوه الأموال ووسائل الإعلام اليهودية للرئاسة .. كل ذلك مدون فى (كتاب) حتى يحين الحين فتشهد عليه وقائع (ووترجيت) أو (ويت جيت) أو (مونيكا جيت) .. وهكذا يؤخذ العملاء بالنواصى والأقدام .

تشارلز ولى عهد بريطانيا شاب مثقف ، قرأ فى الديانات ، ورأى رأيًا فى الإسلام ، أعلن عنه فى أكثر من محفل ، ثم لم يستجب للانضمام إلى المحفل الماسونى ، وشجع أخاه الأمير أندرو على أن ينهج نهجه ، فإذا المحفل الماسونى تثور ثائرته ، ويستحث الصحف الصفراء للنيل من ولى العهد ومن الأميرة ومن الأسرة المالكة .

تقول مجلة فيزون : إن ملوك بريطانيا والأمراء والأوصياء على العرش ، منذ القرن الثامن عشر ، كانوا جميعًا أعضاء بارزين فى هذا المحفل الذى يضم فى عضويته حاليًا ٧٩٠ ألف بريطانى ، على رأسهم كبار الزعماء السياسيين والقضاة وقادة الجيش والشرطة ورجال جهازى المخابرات (إم آى ٥ ، وإم آى ٦) ، وكما يقول ستيفن كنت مؤلف كتاب (الأخوة) : إن نخبة المجتمع البريطانى أعضاء فى المحفل الماسونى الذى يعتبر الأمير فيليب زوج الملكة إليزابيث الثانية أحد أعضائه البارزين ، مع الأخذ فى الاعتبار أن الملكة لم تنضم للمحفل ، لأن أعضاءه من الذكور فقط .

وتقول مجلة فيزون : إن سيل الفضائح من أجل تلويث سمعة تشالز وديانا ، وأندرو وزوجته التى انفصل عنها سارة فيرجسون ليس إلا بعض مؤامرات المحفل الماسونى ، ومنطق المدافعين عن الملكية هو أن نظم الحراسة والحماية والمراقبة التى تحاط بها تحركات أفراد الأسرة المالكة ، وفى المقدمة الملكة والأمير تشارلز ولى العهد ، تجعل من الصعب ، إن لم يكن من المستحيل ، على صحفى أو مصور اختراق هذه النظم ومعرفة أدق الأسرار . ولكن هناك مؤامرة محكمة يشرف عليها مسئولون ذوو كفاءة وسلطة تمكنهم من اختراق البوليس والحراسة الشخصية لأفراد الأسرة المالكة ، وحتى العاملين فى القصور الملكية ، للحصول على ما يريدون ، وبشكل غاية فى الإتقان .

إن هذا يعنى أن الولاء للمحفل الماسونى يصير الأهم والأولى بالوفاء من الولاء الوطنى ، وما دامت النخبة البريطانية تدين بالولاء الماسونى فليس سرٌّ يمكن إخفاؤه عن عيون وآذان المحفل .. فإذا كانت الصحافة ووسائل الإعلام البريطانية فى أيد يهودية ، (يلاحظ أن ٧٠٪ من هذه الوسائل فى يد يهودى واحد) ، فإن كل التوجهات البريطانية - شأنها شأن كثير من الدول الأوربية وغير الأوربية - تصبح فى أيد يهودية ، أو ماسونية .

ملحوظة : فى شهر أكتوبر عام ١٩٩٧م أصيبت السوق المالية (البورصة) فى دول النمور الآسيوية بزلزال هز أحلام النمور فى مستقبل اقتصادى ثابت الأركان ، فقد تدخل البليونير اليهودى جورج سوروس بإنفاق الملايين فى المضاربة فسقطت أسقف كثير من العملات الآسيوية .. وقد اتهم محاضر محمد رئيس وزراء ماليزيا المضاربين اليهود بأنهم مسئولون عن تدهور العملة الماليزية ، وشنّ هجومًا عنيفًا على المؤسسات المالية الدولية مثل صندوق النقد الدولى ، واتهمه بمساندة المضاربين وتقويض الحقوق الاقتصادية لبلدان جنوب شرق آسيا .

ملحوظة ثانية : صندوق النقد الدولى ، والبنك الدولى ، مؤسستان أمريكيتان يهوديتان تمسكان بخناق كل الدول النامية ، وفى مقدمتها مصر ، وتبعثان بمندوبهما - على طريقة (صندوق الدين) فى القرن التاسع عشر - لمحاسبة الدول (المستقلة) على جميع تصرفاتها المالية ، وتَتَبُّع جميع ألوان النشاط الاقتصادى ، لتتحول هذه المعلومات إلى (سجلات) تخدم أجهزة المخابرات ، وتزيف ما تزهو به الشعوب النامية من حريات .

الصهيونية

لم تكن أوربا – قبل عهد الإصلاح الدينى – ترى اليهود (الشعب المختار) الذى قدر له أن يعود للأرض المقدسة ، وإذا كان اليهودى مختارًا لأمر ما فإنه اللعنة ، هكذا يقول هيلير بللوك .

وكان اليهود يعدون مارقين ، ويوصمون بأنهم قتلة المسيح ، ولم تكن هناك ذرة من حب عاطفى للمجد القديم الذى يزهو به العبريون ، كما لم تكن ثمة بارقة أمل فى إعادة بعث اليهودية روحيًا أو قوميًا ، كما لم تكن ثمة أدنى فكرة عن تملك اليهود لفلسطين .

كانت الصهيونية غائبة تمامًا عن أوربا فى العصور الوسطى ، وكانت إسرائيل تعنى مجرد اسم لديانة غائبة عن الوعى ، أو لماض لا علاقة له بمستقبل قومى .

وتطور الاهتمام بالتوراة ، تحت شعار (العودة إلى الكتاب المقدس) ، وأصبح العهد القديم مرجعًا للاعتقاد والسلوك ، وحلّت كلمة الله المعصومة – كما جاءت فى الكتاب المقدس ، والتى ترجمت إلى اللغات الشعبية – محل الكنيسة المعصومة التى يمثلها البابا فى رومه ، (ودعى المؤمنون للعودة إلى الكتاب المقدس نفسه ، باعتباره مصدر المسيحية النقية الثابتة ، وإلى فهم النصوص بمعناها الواضح البسيط) .

وبعد ترجمة الكتاب المقدس إلى اللغات القومية أصبح ما ورد فى العهد القديم من تاريخ ومعتقدات وتشريع أمورًا مألوفة فى الفكر الغربى ، وغدت قصص وشخصيات العهد القديم مألوفة ، وصار كثير من البروتستانت يحفظونها ، وأصبح المسيح نفسه واحدًا من سلسلة طويلة من الأنبياء العبرانيين ، وحل إبراهيم وإسحق ويعقوب محل القديسين الكاثوليك .

وأخذت فلسطين تمثل فى الخيال البروتستانتى والطقوس البروتستانتية أرضًا للشعب المختار ، وأصبح الربط بين الأرض وأهل الكتاب يرد فى الطقوس والشعائر البروتستانتية ، بل إن الأسماء الواردة فى الكتاب صارت من مسميات الأبناء ..

وهكذا جعلت فلسطين أرضًا يهودية فى الفكر المسيحى ، فى أوربا النهضة ، وصار اليهود هم الفلسطينيون الغرباء فى أوربا ، والذين سيعودون إلى فلسطين فى يوم ما .

● ولما كان التعليم الذى يتلقاه معظم المسيحيين يتكون أساسًا من قراءة الأدب التوراتى ، فقد أخذت الأجيال اللاحقة تعد فلسطين الوطن اليهودى ، فلا هجرة سوى هجرة إبراهيم ، ولا وجود لمملكة غير مملكة داود ، ولم يعد الناس يذكرون غير ثورة المكابيين ، وكأن الشعوب التى أقامت وحكمت فى فلسطين ، وأنشأت تاريخًا أطول وأعمق أثرًا فى تراب فلسطين - لم يكن لها وجود .

وتستمر رجينا الشريف فى كتابها القيم (الصهيونية غير اليهودية) قائلة :

قبل عصر النهضة ، كانت الأساطير الكاثوليكية التقليدية ترى أن دراسة العبرية ، أو اليونانية ، تسلية الهراطقة ، وكان تعليم العبرية فى نظر الكثيرين (بدعة يهودية) ، وقد اتخذت خطوات عنيفة ضد دراسة العبرية فى عهد الفلسفة النظرية التى سادت القرون الوسطى ، وكانت اللاتينية والفرنسية والإنجليزية هى اللغات التى يهتم بها المثقفون .

لكن فى عصر النهضة صارت اللاتينية واليونانية والعبرية جزءًا من الثقافة الأوربية ، بل إن حركة الإصلاح جعلت العبرية جزءًا من المنهج الدراسى اللاهوتى .

كان تمسك حركة الإصلاح الدينى بحرفية الكتاب المقدس هو الذى أثار الاهتمام باللغة العبرية .

وقبل نهاية القرن السادس عشر أخذت الحروف العبرية تستعمل فى الطباعة ، ولم تعد العبرية مقصورة على دراسة أسفار العهد القديم ، بل امتدت إلى دراسة أدب الأحبار ، وسرعان ما تحولت معرفة الأدب العبرى ، أو الإلمام بشىء منه ، إلى التبحّر فى عالم الفكر العبرى .

وكان للقبلانية المكان الأول من بين النصوص العبرية التى كانت تدرس بعناية خلال عصر الإصلاح الدينى .

كان الأدب القبلانى يعد من كنوز الحكمة القديمة ، كما كانت الصوفية القبلانية تعد تحولًا جذريًا عن النظام اللاهوتى العقيم الذى كان معروفًا فى العصور الوسطى .

وأدى الاهتمام بالماضى اليهودى إلى احترام اليهودية المعاصرة ، وكان من نتائج ذلك أن ازداد التسامح الدينى فى مجال النفوذ البروتستانتى ، وبخاصة فى الأراضى المنخفضة (هولنده) تحت حكم أسرة أورانج ، حتى كانت أمستردام تعرف بين يهود أوربا بأنها القدس الجديدة .

وامتد اهتمام الفنانين فى عصر النهضة إلى رسم وحفر مناظر من العهد القديم .

وصارت شخصيات العهد القديم مجالاً للدراسات التاريخية والأدبية ، وكتابة القصص والمسرحيات ، وكان التركيز على العهد القديم مصدرًا للتعاليم الخلقية أكثر منه مصدرًا للعقيدة .

●● **وتقول رجينا الشريف** : مع عصر الإصلاح الدينى تسرب الحلم (الألفى) إلى أوساط الجماهير ، واستمر هذا (الحلم) يستقطب أنصارًا له فى كل فترات التاريخ التى تلت حركة الإصلاح الدينى ، إلى أن بلغت ذروتها فى القرن العشرين .

كانت بعض الطوائف ، كالمعمدانيين والفرانكيين ، تعبر عن آمالها فى المسيح المنتظر ، لكن الكنائس اللوثرية والكالفينية كانت تعارض بشدة ، تصل إلى اضطهاد هذه (القوى المارقة) .

وقد أحرق حيًا مايكل سرفتس (١٥٠٩/١٥٥٣) ، لاتهامه بأنه (يهودى) معاد للثالوث .

وفى عام ١٥٨٩م لقى فرانسيس كت ، فى انجلترا ، نفس المصير .

وكان الرجلان من الموحدين ، وكتبا عن الشعب اليهودى أنه المقصود (بشعب الله المختار) .

وظهر توماس برايتمان (١٥٦٢/١٦٠٧) ، وهو عالم لاهوتى ، يقول : إن اليهود سيعودون إلى فلسطين وطن آبائهم الأولين ، (لا من أجل الدين ، كما لو أن الله لا يمكن أن يعبد فى مكان آخر ، بل لكيلا يكافحوا كغرباء ونزلاء لدى الأمم الأجنبية) .

وكان لبرايتمان ، الأب الروحى لعقيدة بعث اليهود ، أتباع كثيرون فى بريطانيا من بينهم أعضاء فى البرلمان ، وقد وافق السير هنرى فنش Finch ، الحجة فى

القانون ، على ما كتب برايتمان ، ونشر كتابه المثير للجدل (البعث العالمى الكبير ، أو عودة اليهود ومعهم كل أمم وممالك الأرض إلى دين المسيح) ، وذلك فى عام ١٦٢١، وقد جاء فيه : (حيث تذكر إسرائيل ويهوذا وصهيون والقدس ، فى الكتاب المقدس ، فإن الروح المقدسة لا تعنى إسرائيل الروحية ، أو كنيسة الله التى تتكون من المسيحيين أو اليهود ، أو منهم معًا ولكنها تعنى إسرائيل التى انحدرت من صلب يعقوب ، وينطبق الشيء نفسه على عودتهم لأرضهم وقواعدهم القديمة ، وانتصارهم على أعدائهم .. سيقيمون الكنيسة المجيدة فى أرض يهوذا نفسها .. هذه التعبيرات وأمثالها ليست مجازات وأقوالًا تفوه بها المسيح ، ولكنها تعنى اليهود فعلًا وقولًا) .

لقد رفض فنش - بشكل قاطع - تفسير أوغسطين المجازى ، وأصر على أن الله كان يعنى - طبقًا للنبوءة التوراتية - إعادة اليهود جماعيًا وقوميًا إلى وطنهم السابق .

(إن كل ما يميز نبوءة فنش هو مزجه بين الدين والسياسة ، كما عبر عنه فى رؤية الكومنويلث اليهودى المستعار ، وهنا نرى تصورًا للحكومة الدينية التى تعد حقيقة واقعة فى أرض إسرائيل المحررة) - عن فرانز كوبلر .

● وقد حمل الملك جيمس الأول (١٦٠٣/١٦٢٥) أفكار العصر الألفى السعيد محمل الجد ، وعدها انتهاكًا شخصيًا ، واعتداء على حقوقه الخاصة ، كحاكم مطلق ، فاضطر (فنش) للتراجع ، وبخاصة بعد تحذيرات برلمانية من أنبياء متهودين جدد يطالبون بالبعث اليهودى .

لكن جذور هذه الأفكار الصهيونية رسخت فى الحياة الروحية لانجلترا ، وانبعثت من جديد ، ووصلت عصرها الذهبى فى العهد البيوريتانى ، على الرغم من الاستياء العام الذى واجهته فى بداية القرن السابع عشر .

أما مارتن لوثر ، الذى كان متحمسًا لدراسة اللغة العبرية ، ويفضل المبادئ اليهودية البسيطة على تعقيدات اللاهوت الكاثوليكى - فلم يترك أعداؤه البابويون فرصة إلا اغتنموها لوصفه بأنه (يهودى) ، و (راع يهودى) .

أما مبادئه ، وبخاصة هجومه العنيف على الأشكال الوثنية ، وعبادة الآثار المقدسة ، فقد دعت إلى وصفه باليهودية .. ولهذا كان لوثر يحظى باحترام كبير فى

الأوساط اليهودية ، ويعد علامة على أن مجيء عهد المسيح بات وشيكًا .

وفى سنة ٥٢٣ كتب لوثر كُتيِّبه (عيسى ولد يهوديًا) ، وقد أعيد طبعه سبع مرات فى نفس العام ، شرح فيه المواقف المؤيدة لليهودية ، وأدان اضطهاد الكنيسة الكاثوليكية لليهود ، محتجًا بأن المسيحيين واليهود ينحدرون من أصل واحد ، وفيه يقول : (إننى أنصح وأرجو كل شخص أن يكون لطيفًا فى تعامله مع اليهود ، وأن يعلمهم الكتاب المقدس .. كيف نتوقع منهم أن يكونوا أفضل مما هم إذا كنا نحول بينهم وبين العمل معنا ، ونرغمهم بذلك على الربا) ؟

●● وتكمن أهمية حركة الإصلاح الدينى فى أنها مهدت الطريق للأفكار الصهيونية ، وكون فلسطين وطنًا لليهود .

كان البيوريتان يجمعون بين الإشفاق على اليهود والتعاطف معهم ، وبين الانطباع بأن اليهود هم سلالة العبرانيين القدامى ، ومن ثم كان الشعور بالإدانة لما لاقاه اليهود على أيدى المسيحيين ، والكنيسة الرسمية ، وقد وجد البيوريتان فى العهد القديم (مثالًا سماويًا للحكومة الوطنية ، ودلالة واضحة للقوانين التى يجب اتباعها) .

كان البيوريتان - كأتباع كالفِن - يستشهدون بالعهد القديم لدعم أفكارهم السياسية ، وأصبح كومنويلث القديسين فى جنيف هو جمهورية القديسين البيوريتانية .

وقد طالبت مجموعة اللفلرز Levellers البيوريتانية المتطرفة بأن تعلن الحكومة التوراة دستورًا ، أو المصدر الرئيسى للقانون الإنجليزى .

وصار الأطفال يحملون أسماء المقاتلين والبطارقة اليهود بدلًا من أسماء القديسين المسيحيين ، (وحولوا الاحتفال الأسبوعى الذى كانت تقيمه الكنيسة - منذ زمن بعيد - إعظامًا لذكرى بعث المسيح إلى السبت اليهودى) .

واعتنق بعضهم اليهودية ، كما فعل جون تراسك وأتباعه ، وكما فعل الفنان الشهير الكسندر كوبر .

وأصبحت فكرة إعادة فلسطين لليهود فى انجلترا ، خلال القرن السابع عشر ،

بديلًا من التاريخ المسيحى الطويل الذى جعل من القدس شعار الحروب الصليبية ، بحسبان أن عودة اليهود إيذان بعودة المسيح المنتظر .

وفى سنة ١٦٤٥م أرسل الالتماس التالى للحكومة الإنجليزية :

(ليكن شعب انجلترا ، وسكان الأراضى المنخفضة ، أو من يحمل أبناء وبنات إسرائيل على سفنهم إلى الأرض التى وعد بها أجدادهم إبراهيم وإسحق ويعقوب ، لتكون إرثهم الأبدى) .

وكان ينظر إلى العودة على أنها اعتناق اليهود للمسيحية ، لأن العودة إشارة إلى قرب عودة المسيح .

وفى ديسمبر ١٦٥٥م دعا مؤتمر وايت هول لبحث شرعية وعوامل تلك العودة ، وقد مثل فى هذا المؤتمر كبار رجال الدين والقانون ، وحضره كل من أوليفر كرومويل (١٦٤٩/١٦٥٨) ومناسح بن إسرائيل ، وسيقت فى المؤتمر حجج بليغة تؤيد عودة اليهود .

وقد نص هذا المؤتمر على أن (السماح لليهود بدخول دولة بروتستانتية ينبغى ألا يكون « قانونيًا » فحسب ، بل « أمرًا نفعيًا ») .

وعندما وافق كرومويل على السماح لليهود بدخول انجلترا من جديد - بعد أن طردهم إدوارد الأول سنة ١٢٩٠م - كان منهمكًا فى حروب تجارية مع البرتغال وأسبانيا وهولنده ، وكان لدى هذه الدول جماعات يهودية معروفة بنشاطها التجارى فى الداخل والخارج ، ومن ثم كان الأمل فى أن يقوم اليهود فى انجلترا بدور اقتصادى تحتاجه البلاد ، كما يمكن أن يكونوا جواسيس يزودون انجلترا بمعلومات عن السياسات التجارية المنافسة ، وعن المؤامرات التى يدبرها أنصار الملكية فى الخارج ، بفضل اتصالاتهم وتنقلاتهم فى أوربا ، كما كان الأمل فى نقل رءوس الأموال اليهودية الضخمة واستثمارها فى الصناعة الإنجليزية .

● وفى الأراضى المنخفضة كانت الأفكار الصهيونية راسخة فى الإحساس الشعبى ، إذ إن اليهود الأسبان الذين فروا من محاكم التفتيش وجدوا ملاذًا لهم وحلفاء ضد العدو المشترك ، الملك الأسبانى والكنيسة الكاثوليكية .

وفى فرنسا كان ممثل الهيجونوت البارز هو إسحق دى لابيرير (١٥٩٤/

١٦٧٦) الذى كتب (دعوة اليهود من أجل إحياء إسرائيل) ، بتوطين الشعب اليهودى فى الأرض المقدسة ، رغم اعتناقه النصرانية .

وقد بعث التماسه إلى الملوك الفرنسيين ، لكن رسالته لم تنشر مطبوعة إلا بعد قرنين من الزمان تقريبًا ، حين دعا نابليون إلى اجتماع فى السنهدريم اليهودى فى مايو ١٨٠٦م ويلاحظ أن هذا اليهودى المتنصر عين سفيرًا لفرنسا فى الدانمارك عام ١٦٤٤م .

والعالم الفرنسى فيليب جنتل دى لانجالير (١٧١٧/١٦٥٦) تقدم بخطة من أجل توطين اليهود فى فلسطين ، على أن يعطى الخليفة العثمانى رومه بدلًا منها .

وتنبأ القسيس الفرنسى بيير جوريو بإعادة تأسيس مملكة يهوذا فى فلسطين قبل نهاية القرن السابع عشر .

ويحكى أن احتلال تونس تم بسبب السائق اليهودى باطوسبر الذى أعدمته السلطات التونسية سنة ١٨٦٥م ، بعد أن سبّ الدين الإسلامى ، فأثار هذا الحادث غضب السكان اليهود الذين أرسلوا وفدًا إلى نابليون الثالث يطلب من فرنسا الدفاع عن ممتلكات وحياة غير المسلمين فى تونس ، فكلف الملك الفرنسى قائد أسطوله بالتوجه إلى تونس على رأس فرقاطة لإجبار حاكمها على تنفيذ مبادئ الدستور العثمانى الصادر فى القسطنطينية الذى تعهد بموجبه السلطان بمنح كافة الحقوق لجميع رعاياه من المسلمين وغير المسلمين ، واضطر حاكم تونس فى التاسع من سبتمبر ١٨٥٩م إلى أن يصدر الميثاق الذى منح بموجبه المساواة لكل الرعايا ، وكفل حرية العبادة لأبناء كل الطوائف ، كما ألغى كافة الضرائب المفروضة على غير المسلمين .. وكانت هذه الاستجابة السهلة دعوة إلى التفكير فى احتلال تونس .

● وفى ألمانيا كانت هامبورج - فى القرن السابع عشر - مشهورة بأنها الموطن الأسطورى لليهود ، وكان هذا الميناء ثالث مكان مهم - بعد لندن وأمستردام - يأوى إليه اليهود الأسبان والبرتغاليون الفارون من محاكم التفتيش ، كما أن هامبورج كانت مركزًا لحركة التقوية (القابالاه) الألمانية ، وهى حركة صوفية روحية تركز تعاليمها على عودة الشعب اليهودى إلى فلسطين ، وقد استغل مؤسس هذه الحركة فيليب جاكوب سبنر (١٧٠٣/١٦٣٥) كتابات لوثر الأولى حول المسألة اليهودية ، من أجل تعزيز حب السامية ، كوسيلة لإغراء اليهود بالتنصر قبل عودتهم إلى فلسطين .

وفى سنة ١٦٥٥م نشر بول فلجنهادر (١٥٩٣/١٦٧٧) كتابه (أخبار سعيدة لإسرائيل) الذى أكد فيه أن عودة المسيح المنتظر ووصول المسيح اليهودى حدث واحد ، وكانت علامة ظهور المسيح اليهودى - حسب اعتقاد المؤمنين بالعصر الألفى السعيد - هى (عودة اليهود الدائمة إلى وطنهم الذى منحه الله لهم من خلال وعده القاطع لإبراهيم وإسحق ويعقوب) .

● وانتشرت هذه الأفكار الصهيونية من شمال ألمانيا إلى الدول الإسكندنافية .

فى الدنمارك حثّ هولجربولى ملوك أوربا على القيام بحملة صليبية جديدة لتحرير فلسطين والقدس من الكفار ، وتوطين اليهود وارثيها الشرعيين .

وفى سنة ١٦٩٦م قدم خطة مفصلة إلى ملك انجلترا وليم الثالث ، طالبًا منه أن يعيد احتلال فلسطين ، ويسلمها لليهود ، لإقامة دولة خاصة بهم .

وقد خاطب الملك الإنجليزى بقوله : (أى قورش العظيم ، يا أداة الإله العظيم ، الذى بفضله سيولد المعبد الأخير من بين رماد معبد هيرود) .

وفى السويد أرغم أندرز بدرس كمب (١٦٢٢/١٦٨٦) - وهو ضابط سابق فى الجيش تحول إلى اللاهوت - على مغادرة ستوكهولم ، بسبب دوره فى نشر حركة التبشير بالمسيح الألمانية .. وقد استقر قرب هامبورج حيث نشر سنة ١٨٦٨م كتابه : (أخبار إسرائيل السارة) ، وقد جاء فيه : (أيها المسيحيون الوثنيون ، إنكم تسمحون لمعلمين مزيفين ، وبخاصة رومه أم الفسق ، بأن يقنعوكم بأن الله حرم اليهود من الميراث ، وطردهم ، وأنكم إسرائيل المسيحية صاحبة الحق فى امتلاك أرض كنعان إلى الأبد) .

واستحث اليهود على أن يفرضوا على الآخرين الاعتراف بأنهم شعب الله المختار ، وأن يتهيئوا للعودة الدائمة للأرض المقدسة .

وخلال حرب الثلاثين عامًا (١٦١٨/١٦٤٨) وما بعدها اجتاحت أوربا موجات أفكار العصر الألفى السعيد ، وقد ووجه كثيرون من دعاة هذه الأفكار بالازدراء والتعذيب ، وبالإعدام ، بسبب معتقداتهم (الكافرة) . لكن كتاباتهم ساعدت على تعزيز فكرة العودة اليهودية إلى فلسطين .

دور الأدب فى التعريف بالعالم العبرى

جاء فى قصيدة ملتون الشهيرة (الفردوس المستعاد) : (لعل الله الذى يعرف الوقت المناسب جيدًا سيذكر وعده إبراهيم ، وسيعيدهم نادمين وصادقين ، وسيشق لهم البحر وهم عائدون مسرعين مبتهجين ، كما شق البحر الأحمر وبحر الأردن عندما عاد آباؤهم إلى الأرض الموعودة ، إننى أتركهم لعنايته ، وللزمن الذى يختاره) .

وقد توصل إسحق نيوتن فى كتابه (ملاحظات حول نبوءات دانيال ورؤيا القديس جون) الذى نشر بعد خمس سنوات من وفاته ، إلى أن اليهود سيعودون إلى وطنهم ، بل حاول أن يضع جدولاً زمنيًا للأحداث التى تفضى إلى العودة ، وتوقَّع تدخل قوة أرضية من أجل إعادة اليهود المشتتين .

وأخضع الطبيب الفيلسوف دافيد هارتلى قضية عودة اليهود لدراسة منظمة فى كتابه العلمى العام (ملاحظات حول الإنسان وواجباته وتوقعاته) سنة ١٧٤٩م ، وصنف اليهود ضمن (الهيئات السياسية) ، على أساس أنهم يشكلون كيانًا سياسيًا موحدًا ، له مصير قومى مشترك ، رغم تشتتهم الحالى ، إذ يعد الشعب اليهودى كائنًا حيًا يرتبط أفراده معًا باللغة المشتركة والروابط التاريخية .

وجاء فى كتاب روسو التعليمى (إميل) سنة ١٧٦٢م : (لن نعرف الدوافع الداخلية لليهود حتى تكون لهم دولتهم الحرة ، ومدارسهم ، وجامعاتهم) .

وقد وصف إيمانويل كانْت اليهود بأنهم (الفلسطينيون الذين يعيشون بيننا) .

وكان جوهان فختة على عداء لليهود مشوب بأفكار صهيونية ، إذ كان يرى أنه لا مكان لليهود فى أوربا ، وعليهم أن يعودوا إلى فلسطين حيث نبتت جذورهم .

وفى سنة ١٧٩٠م كرر ريتشارد بير ، أسقف ساندبروك ، الالتماس الذى قدمه كارتر إيت سنة ١٦٤٩م ، حق طلب من رئيس الوزراء الإنجليزى وليم بت أن يساعد على تحقيق (عودة اليهود نهائيًا للأرض المقدسة) ، وادعى أن انجلترا وأسطولها التجارى سيستفيدان سياسيًا واقتصاديًا ، إذ (عندما يجتمع إخواننا

العبريون معًا ، ويقيمون فى وطنهم من جديد ، سيكونون بحاجة إلى كثير من السلع المصنعة ، ومستلزمات الحياة ، وبخاصة الأصواف والكتان ، وسيبقون لسنوات طويلة فى حاجة إلى شراء هذه السلع من الأمم الأخرى) .

وفى سنة ١٨٠٠م نشر جيمس بشينو - وهو أحد زملاء بير المؤمنين بالعصر الألفى - كتابه (عودة اليهود .. أزمة جميع الأمم) ، وكان ما أزعج بشينو حملة نابليون على مصر وفلسطين ، واحتمال أن يكون لفرنسا (الملحدة) موطئ قدم فى فلسطين ، وقد دفعت الشائعات القائلة : إن نابليون كان على وشك إحياء دولة يهودية فى فلسطين - بشينو إلى شن هجوم عنيف على تحالف الحكومة البريطانية مع تركيا ضد فرنسا التى كانت تتصرف وكأنها يد الله .

وقد روض بشينو نفسه أخيرًا على التحالف البريطانى التركى ، فقدم اقتراحًا مؤدّاه : (أن يقوم حكام هذه البلاد - انجلترا - باستخدام نفوذهم لدى الباب العالى للتخلى عن هذا الجزء من الأرض الذى طرد منه اليهود ، وإعادته إلى أصحابه الشرعيين) .

وحذر من احتمال سيطرة فرنسا على البحر المتوسط ، وما يتضمنه ذلك من تهديد للتجارة البريطانية مع الشرق .

وقد جعل اللورد شافتسبرى (١٨٠١/١٨٨٥) أكبر همه إقناع قرنائه الإنجليز بأن اليهود (ليسوا أهلًا للخلاص فحسب ، ولكنهم عنصر حيوى فى أمل المسيحية بالخلاص ، بالرغم من أنهم متعجرفون ، سود القلوب ، ومنغمسون فى الانحطاط الخلقى والعناد والجهل بالإنجيل) .

كانت فلسطين فى مخيلة شافتسبرى بلدًا مهجورًا ، وهو واضع شعار (وطن بدون شعب لشعب بدون وطن) ، الذى حوله الصهيونيون إلى (أرض بلا شعب لشعب بلا أرض) .

وعندما عين صديقه يونج نائبًا للقنصل فى القدس ، كتب فى مذكراته : (يا له من حدث رائع ، إن مدينة شعب الله القديمة توشك أن تستعيد مكانتها بين الأمم) .

● **تقول ريجينا الشريف** : لقد تضافرت - خلال القرن التاسع عشر - ثلاثة

عوامل على اهتمام بريطانيا بفلسطين ، وهى : ميزان القوى الأوربى ، وتأمين الهند المهددة من قبل فرنسا وروسيا ، وطريق العبور الآمن للهند عبر سوريا .

ومنذ ذلك الحين بدأ ما وصفه دافيدبولك بـ (الاتحاد العجيب بين سياسية الإمبراطورية ، ونوع من الصهيونية المسيحية الأبوية التى تتجلى فى السياسة البريطانية فيما بعد) .

وقد تناول اللورد بايرون - فى كثير من قصائد مجموعته الشعرية (الألحان العبرية) سنة ١٨١٥م - الأفكار التوراتية والفلسطينية ، وجعل خاتمة أشهر قصائد هذه المجموعة (ابك من أجل هؤلاء) .

(أيتها القبيلة الكثيرة التجوال ، ذات الصدر المرهق ، كيف ستستقرين وتشعرين بالراحة ؟

إن لليمامة عشها ، وللثعلب جحره ، وللبشرية وطنها .

أما إسرائيل فليس لها إلا القبر) .

وقد سافر هذا الشاعر إلى فلسطين سنة ١٨١١م ، وعبر عن صدمته بما شاهد من بؤس وفقر فى الأراضى المقدسة ، وقد دعا اليهود للعودة وتحرير الأرض فى قصيدتيه : (الغزال البرى) ، و(يوم أن هدم تيتوس المعبد) .

أما شاعر الإمبراطورية التى لا تغرب عنها الشمس روبرت براوننج فقد قال سنة ١٨٥٥م فى قصيدته (يوم الصليب المقدس) :

(سيرحم الله يعقوب .
وسيرى إسرائيل فى حماه .
عندما ترى يهوذا القدس .
سينضم لهم الغرباء .
وسيتشبث المسيحيون ببيت يعقوب .
هكذا قال النبى ، وهكذا يعتقد الأنبياء) .

وأخذت جورج إليوت سنة ١٨٧٤م تكتب أول رواية صهيونية فى تاريخ الأدب القصصى غير اليهودى ، وهى (دانيال ديروندا) .

يقول (مردخاى) اليهودى الصوفى ، أحد شخصيات الرواية :

(إن لدينا رصيدًا من الحكمة يقيم دولة يهودية عظيمة وبسيطة وعادلة ، كتلك التى كانت فى الماضى ، جمهورية تتوفر فيها المساواة فى الحماية ، وهى المساواة التى سطعت كنجم على جبين مجتمعنا القديم ، وجعلته أكثر إشراقًا من حرية الغرب وسط طغيان الشرق ، عندما سيكون لجنسنا مركز عضوى ، وقلب ، وعقل يراقب ويهدى وينفذ ، وسيجد اليهودى المظلوم من يدافع عنه فى محكمة الأمم ، كالإنجليزى ، أو الأمريكى المظلوم ، وسيحقق العالم المكاسب ، كما ستحقق إسرائيل) .

● بعد هزيمة نابليون فى عكا (مايو ١٧٩٩م) أصدر بيانًا جاء فيه :

(من نابليون القائد الأعلى للقوات المسلحة للجمهورية الفرنسية فى أفريقيا وآسيا ، إلى ورثة فلسطين الشرعيين .

أيها الإسرائيليون ، أيها الشعب الفريد الذى لم تستطع قوى الفتح والطغيان أن تسلبه اسمه ووجوده القومى ، وإن كانت قد سلبته أرض الأجداد) .

(إن الجيش الذى أرسلتنى العناية الإلهية به ، والذى يقوده العدل ، ويواكبه النصر ، جعل القدس مقرًا لقيادته ، وخلال بضعة أيام سينتقل إلى دمشق التى لم تعد ترهب مدينة داود) .

(يا ورثة فلسطين الشرعيين .

إن الأمة التى لا تتاجر بالرجال والأوطان - كما فعل أولئك الذين باعوا أجدادهم لجميع الشعوب - تدعوكم لا للاستيلاء على إرثكم ، بل لأخذ ما تم فتحه ، والاحتفاظ به ، بضمانها وتأييدها ضد كل الدخلاء) .

(سارعوا ، إن هذه هى اللحظة المناسبة التى قد لا تتكرر لآلاف السنين ، للمطالبة باستعادة حقوقكم ومكانتكم بين شعوب العالم ، تلك الحقوق التى سلبت منكم لآلاف السنين ، وهى وجودكم السياسى كأمة بين الأمم ، وحقكم الطبيعى المطلق فى عبادة « يهوه » ، طبقًا لعقيدتكم ، علنًا وإلى الأبد) .

وكان نابليون قد أصدر فى ربيع ١٧٩٩م بيانًا طلب فيه من يهود أفريقيا وآسيا أن يقاتلوا تحت لوائه لإعادة إنشاء مملكة القدس القديمة .

وقد نشرت صحيفة متخصصة فى الفلسفة والأدب - أبريل ١٧٩٨م - رسالة لا تحمل توقيعًا ، تحدثت عن حدود دولة إسرائيل المقترحة ، تقول :

(إن الدولة التى ننوى إقامتها ستشمل - بالاتفاق مع فرنسا - مصر السفلى ، بالإضافة إلى منطقة يحدها خط يمتد من عكا إلى البحر الميت .. وهذا الموقع الذى يعد أكثر المواقع فائدة فى العالم سيجعلنا - عن طريق السيطرة على ملاحة البحر الأحمر - سادة تجارة الهند والجزيرة العربية وجنوب وشرق أفريقيا والحبشة وإثيوبيا) .

الرسائل أو البيانات هذه لا تمثل فكرًا عسكريًا ، فالبيان الذى يتحدث عن الوصول إلى دمشق وهو مهزوم فى عكا لا يعنى أكثر من ستر العورة بورقة فى مهب الريح ، أما عن دعوة اليهود إلى القتال فهو اعتراف بصعوبة الموقف أكثر منه طلبًا للعون ممن لا يملكه ، وأما عن البيان الذى لا يحمل توقيعًا ، ويتضمن تفسيرًا لشعار (من النيل إلى الفرات) فقد يكون نزوة من أحد القراء ، كما أن البيانات الثلاثة يمكن أن تكون مجرد تعبير عن الولاء الماسونى ، دون أن تكون لها علاقة بمجريات الأحداث .. وجملة القول أن هذه البيانات - إذا صح صدورها ولم تكن من صناعة الزيف اليهودى - لا تصل إلى أن تكون دخانًا فى الهواء ، أو ذرًا للرماد ، فكيف بها تنسب إلى قائد محنك مثل نابليون ، ينظر بعين إلى مواقع القتال ، وبالأخرى إلى صفحات التاريخ !!

* * *

دور بالمرستون

كان اللورد بالمرستون (١٧٨٤/١٨٦٥) أهم نصير سياسى لمشروع اللورد شافتسبرى الخاص بإعادة اليهود إلى فلسطين .

كان اليهود فى نظر بالمرستون – كوزير للخارجية البريطانية – يمثلون عنصرًا أساسيًا لدعم السلطان ضد (أية خطط شريرة فى المستقبل يفكر بها محمد على أو من يخلفه) .. ولا أدرى كيف يمكن ذلك إلا بموافقة السلطان ، وتدريب اليهود على القتال ، ونقلهم إلى أرض المعركة ، وهم فى ذلك الحين أشتات !!

المهم أن اللورد شافتسبرى قد أطلع اللورد بالمرستون – زوج حماته – على المزايا السياسية لفلسطين اليهودية ، وقد جاء فى يومياته ، فى أول أغسطس ١٨٣٩م :

(تناولت طعام العشاء مع بالمرستون ، ثم بقينا وحدنا ، أفصحت له عن مشروعاتى للاستيطان اليهودى فى فلسطين ، التى يبدو أنها وجدت هوى فى نفسه ، أثار بعض الأسئلة ، ووعد بالنظر فيها ، كم هى رائعة العناية الإلهية ، إنها رائعة إذا قورنت بالوسائل البشرية ، لقد اختار الله بالمرستون ليكون أداة الخير لشعبه القديم) .

وبناء على إلحاح شافتسبرى ، سعى بالمرستون إلى فتح قنصلية بريطانية فى القدس ، وتعيين وليام يونج ، صديق شافتسبرى ، ليكون أول نائب قنصل فى القدس ، وكانت من بين مهامه حماية كل اليهود المقيمين فى فلسطين ، مما يتضمن اعترافًا باليهود كافة ، وارتباطهم بفلسطين – ص ١١٨، ١١٩ الصهيونية غير اليهودية .

لم يكن عدد اليهود فى فلسطين يتجاوز عدة مئات ، وفى القدس لم يتجاوزوا عشرات ، ولم يكن لهم حول ولا طول ، يعيشون مع العرب أصحاب الأرض فى أمان (لا يحتاجون إلى حماية) ، شأنهم شأن اليهود فى جميع البلاد العربية والإسلامية حتى فى تركيا كانوا يتمتعون بكافة الحقوق والامتيازات .. ولهذا يبدو أن الأخبار (القديمة) صيغت لتوافق ما جدّ من أحداث .

فى مايو ١٨٣٩م أرسل يونج إلى وزارة الخارجية تقريرًا جاء فيه : (إن عدد

اليهود المقيمين فى فلسطين ٩٦٩٠ شخصًا ، وإن وضعهم بائس ، وإنهم يعتمدون اعتمادًا كاملًا على المساعدة الخارجية) .

الرقم يخالف أرقامًا أخرى دونها المؤرخون لا تصل إلى عشر هذا الرقم ، ثم إن يونج يزعم ، أو زُعم على لسانه أن (العبرانيين فى فلسطين يدركون موقف بريطانيا الودى تجاههم ، ورغبتها فى حمايتهم من ظلم جيرانهم ، وظلم السلطات المحلية لهم) .

لو أننا أخذنا فى الاعتبار قصة الذئب والحمل ، وأن الإمبراطورية البريطانية كانت تسعى لالتهام (الرجل المريض) ، وأن حماية اليهود أو استيطانهم فلسطين مجرد ذريعة .. لانقشعت كثير من الغيوم .

وهذا الخبر (ص ١٢٢ الصهيونية غير اليهودية) يظاهر هذه الحقيقة :

عندما استفسر بالمرستون شخصيًا من مجلس الوكلاء اليهودى فى لندن عن مدى مساهمة اليهود فى مشاريع الاستيطان لم يحظ بجواب شاف ، عندها بعث رسالة مثيرة إلى سفيره فى القسطنطينية ، بتاريخ ١١ أغسطس ١٨٤٠م ، جاء فيها :

(يسود بين اليهود الشرقيين فى أوربا شعور جياش بأن الوقت الذى سيعود فيه شعبهم إلى فلسطين بات وشيكًا ، وبالتالى فإن شوقهم للذهاب إلى هناك عارم ، وأصبح تفكيرهم موجهًا أكثر من قبل نحو وسائل تحقيق ذلك .. ومن المعروف أن يهود أوربا يملكون ثروة ضخمة ، وأن أى بلد تختاره مجموعة كبيرة منهم لسكناها سيجنى فوائد جمة من الثروات التى سيجلبونها معهم .. ومن المفيد للسلطان أن يشجع اليهود على العودة إلى فلسطين ، واستيطانها ، لأن الثروة التى سيجلبونها معهم ستُضاعف موارد المملكة ، وإذا ما عاد اليهود بموافقة السلطان وحمايته ودعوته فإنهم سيحولون دون أية خطط شريرة قد يفكر فيها محمد على أو خلفه فى المستقبل) .

الرسالة واضحة الهدف ، تكشف عن الدهاء الاستعمارى ، فاليهود مجرد وسيلة ، وأفكار العودة بصقت على ألسنتهم ، للخلاص منهم ، وليكونوا مركبًا للاحتلال ، والأموال التى أريد بها الاحتيال على السلطان لم تكن لتخرج بسهولة إلى يد السلطان ، فهى تخدم اقتصاد الإمبراطورية ، وهى فى الوقت نفسه تسكن جيوبًا منيعة ، فاليهودى يفرط فى حياته ولا يفرط فى ماله ، واليهودى لا يصطاد

السمك فى الهواء ، وبيع الواقع بالحلم ليس سلوكًا يهوديًا ، فالمرابى لا يكتفى بنسبة الربح ، إذ لابد من الضمانات والرهون (العينية) التى قد تساوى ضعف قيمة الدين .. ثم إن السلطان لم يكن فاقد الوعى حتى يسلم لحيته للإنجليز ذوى التاريخ الأسود القبيح .. لقد كان بالمرستون استعماريًا داهية يطرق أكثر من باب ، ويظل متربصًا لعل وعسى ، وهو على يقين من أن الأيام حبالى بكل جديد ، وهو على يقين من أن الإمبراطورية آخذة فى الاتساع .

• تقول ريجينا الشريف ص ١٢٣ : حتى المؤرخون الصهيونيون يعترفون بأن اليهود الأوربيين كانوا أيام حماسة بالمرستون أبعد ما يكونون عن الرغبة فى الانشغال بأية خطة للاستيطان فى ولاية فلسطين العثمانية ، وكان اهتمامهم بالكفاح من أجل التحرير السياسى والمدنى فى بريطانيا أكبر من اهتمامهم بالاستيطان .

وفى رسالة شافتسبرى إلى بالمرستون ما يحذر من التفاؤل ، فالطيور آكلة اللحوم تفضل أن تمضى خلف الجيوش المقاتلة لا أمامها ، يقول شافتسبرى :

(سيرتاب الأغنياء ويستسلمون لمخاوفهم ، أما الفقراء فسيؤخرهم جمع المال ، وإن قلة منهم لتفضل مقعدًا فى مجلس العموم فى بريطانيا على مقعد تحت أشجار العنب والتين فى فلسطين ، وقد تكون هذه أحاسيس بعض الإسرائيليين الفرنسيين ، أما يهود ألمانيا الكفار فيحتمل أن يرفضوا الاقتراح) .

وكان السفير البريطانى فى القسطنطينية معارضًا للمشروع ، فكتب إليه بالمرستون يستحثه فى ٤ سبتمبر ١٨٤٠م :

(لا تتوان عن متابعة نصحى للباب العالى بدعوة اليهود للعودة إلى فلسطين ، إنك لا تدرك مدى ما سيثيره مثل هذا الإجراء من اهتمام المتدينين فى هذا البلد بقضية السلطان ، إن نفوذهم كبير ، واتصالاتهم واسعة ، فضلًا عن ذلك فإن الإجراء فى حد ذاته سيكون ذا فائدة كبيرة للسلطان ، إذ إنه سيجلب إلى مُلكه عددًا كبيرًا من الأثرياء الرأسماليين الذين سيوظفون الناس ويثرون الإمبراطورية) .

• شعر الجميع بخيبة الأمل فى إغراء اليهود بالخروج من بريطانيا ، وأدركوا أن القرار فى يد اليهود قبل أن يكون فى يد السلطان ، ولهذا كتب تشارلس هنرى تشرشل ، وكان ضابطًا فى الحملة البريطانية التى اشتركت فى حرب محمد على

باسم السلطان - إلى موسى مونتفيور ، رئيس مجلس الوكلاء اليهودى فى لندن :

(لا أخفى عنك رغبتى الجامحة فى أن أرى قومك يحاولون استعادة وجودهم كشعب ، وأرى أن الموضوع ميسور تمامًا ، لكن هناك شرطين ضروريين لذلك ، **أولهما** أن يتولى اليهود أنفسهم الموضوع عالميًا وبالإجماع ، **وثانيهما** أن تساعدهم القوى الأوربية على تحقيق أهدافهم) .

وتكرر الطلب فى سنة ١٨٤٢م (لإيفاد شخص كفء للإقامة فى سورية تكون مهمته الإشراف على مصالح اليهود هناك) .

لكنه قوبل بالرفض ، إذ جاء فى قرار مجلس الوكلاء اليهودى فى ٧ نوفمبر ١٨٤٢م : (من المستحيل البدء بأية إجراءات لتنفيذ وجهة نظر الكولونيل تشرشل الطيبة تجاه يهود سورية) .

ورفض مؤتمر الأحبار الذى عقد فى فرانكفورت سنة ١٨٤٥م فكرة العودة تمامًا وأقر حذْف جميع التوسلات للعودة إلى أرض الآباء ، أو إحياء دولة يهودية .

وبقيت اليهودية حتى سنة ١٨٧٢م ترفض صهيونية مستقبلها .

وخلال المؤتمر اليهودى الدولى الذى عقد فى سنة ١٨٧٢م ، اجتمع ممثلون عن يهود انجلترا وفرنسا وألمانيا والنمسا والولايات المتحدة ، لدراسة حال اليهود فى رومانيا ، ولم يتطرق إلى حل عن طريق الهجرة إلى فلسطين .

* * *

الطريق إلى وعد بلفور

كان صندوق استكشاف فلسطين واحدًا من المؤسسات والمنظمات الكثيرة التى ازدهرت فى انجلترا فى العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر ، والتى كانت تقدم استشاراتها ومساعداتها المادية والشخصية لليهود الراغبين فى الاستيطان فى مستعمرات زراعية فى فلسطين .

وكان أنصار القضية اليهودية من غير اليهود يؤثرون نشر مشروعاتهم فى صحف يهودية ، ليضمنوا وصولها إلى أكبر عدد ممكن من اليهود .

وفى عام ١٨٧١م اقترح إسحق آش Ashe فى إحدى مقالاته قيام صندوق النقد القومى اليهودى ، ودعا إلى تشكيل شركة ذات حقوق وامتيازات ، على غرار شركة الهند الشرقية ، وشركة خليج هدسون ، وقال :

(هناك ثلاث أو أربع خطوات ضرورية لإعادة قومية يهودية فى فلسطين : شراء الأرض من أصحابها الحاليين ، وجعلها ذات قيمه للمستأجرين والفلاحين ، عن طريق إنفاق مبلغ من المال ، حتى تتحسن أحوالها ، ثم تأجيرها لمستأجرين يهود بشكل دائم ، وبأجور ثابتة ، ثم توجيه رأس المال إلى إقامة مصانع ذات أهمية قومية ، بحيث تجعل البلاد فى وضع مناسب للدفاع العسكرى ، عندما يحين الوقت للدفاع عنها) .

وكان أقوى ممثل للصهيونية غير اليهودية لورنس أوليفنت (١٨٢٩/١٨٨٨) عضو البرلمان ، ووزير الخارجية ، والصحفى ، وفوق ذلك كله المتدين المتطرف .

حضر أوليفنت عدة اجتماعات لحركة (حب صهيون) فى روسيا ورومانيا ، والتقى بزعمائها ، كما اجتمع بعدد من زعماء الدين ورجال الدولة غير اليهود ، ومنهم أمير ولز الذى صار الملك إدوارد السابع .

كانت (الآمال) مشرقة ، وكان لدى رئيس الوزراء البريطانى فى بيكونسفيلد (دِزْرَائيلى) ووزير خارجيته اللورد سالزبرى نفس الطموحات ، فمنحا أوليفنت إذنًا

بالمفاوضة مع الحكومة العثمانية حول أرض يمكن لليهود استيطانها ، بل إنه حصل على موافقة وزير الخارجية الفرنسى .

وفى هذه الأثناء دعا اللورد كتشنر - أحد المؤيدين الرئسيين للسياسة الجديدة - حكومته (لتأمين فلسطين كحصن لبريطانيا فى مصر ، وكحلقة وصل برية مع الشرق) .

وفى مطلع عام ١٨٩٦م أصبح وليم هشلر ، القسيس الإنجليكانى ، ملحقًا فى السفارة البريطانية فى فيينا ، فقدم له صديق كتاب (الدولة اليهودية) لهرتزل ، وما إن فرغ من قراءة هذه (التحفة الأوربية الصهيونية) حتى طلب أن يجتمع بمؤلفه ، والتقيا فى مارس ١٨٩٦م ، وتحابا ، وكان كلاهما يأمل فى أن يتمكن دوق بادن ، عم القيصر ولهلم الثانى - وكان لهشلر علاقة به - من إقناع القيصر الألمانى بتبنى دور قورش ، فى إطار حماية ألمانية للصهيونية فى فلسطين ، كما كان الأمل فى أن يستغل نفوذ ألمانيا المتزايد مع السلطان .

ومع ميلاد المنظمة الصهيونية فى أغسطس ١٨٩٧م ، فى المؤتمر الصهيونى الأول فى بازل ، وضع اليهود للمرة الأولى مسودة البرنامج السياسى الذى كان أساسًا للحركة الصهيونية فى القرن العشرين :

(تكافح الصهيونية من أجل إنشاء وطن للشعب اليهودى فى فلسطين ، يحميه القانون .. ويرى المؤتمر أن الوسائل التالية تؤدى إلى الغاية المنشودة :

١ - تشجيع استعمار العمال اليهود الصناعيين والزراعيين لفلسطين ، على أسس مناسبة .

٢ - تنظيم وربط جميع اليهود عن طريق المؤسسات المحلية والدولية ، طبقًا لقانون كل دولة .

٣ - تعزيز وتشجيع الإحساس والشعور القومى اليهودى .

٤ - اتخاذ الخطوات التمهيدية للحصول على موافقة حكومية ، حين يكون ذلك ضروريًا للوصول إلى أهداف الصهيونية) .

● وفى خطوة إلى الأمام رأى جوزيف تشامبرلين (١٨٣٦/١٩١٤) - وزير

المستعمرات – أن يقوم المستعمرون اليهود باستيطان وتطوير وامتلاك أرض خالية تحت الوصاية البريطانية .

وفى سنة ١٩٠٣م قدم لهرتزل العريش فى سيناء ليستوطنها اليهود ، غير آبه بواحدة من البدهيات الصهيونية ، وهى أن فلسطين هى أرض الميعاد ، لكنه أدرك فيما بعد أن إقامة مستعمرة يهودية فى سيناء قد تكون أداة نافعة لتوسيع النفوذ البريطانى فى فلسطين ، حين يحين الوقت لتقطيع أوصال الإمبراطورية العثمانية .

هذا هو تشامبرلين الذى قال لوزير المالية الإيطالى اليهودى بارون سونينو : (إن الجنس الوحيد الذى أحتقره هو الجنس اليهودى .. إنهم جبناء يا سيدى) .

وفى ثمانينات القرن التاسع عشر بدأ تيار المهاجرين اليهود يتدفق من روسيا ورومانيا ، وكان معظمهم يتجه إلى انجلترا وأمريكا .. فخشى تشامبرلين من تأثير هؤلاء اللاجئين على العمالة البريطانية ، وعلى الاقتصاد والسياسة والأمن بوجه عام .

ومن منطلق البحث عن مكان فى الإمبراطورية البريطانية لامتصاص هؤلاء اللاجئين قال هرتزل فى المؤتمر الصهيونى الرابع الذى عقد فى لندن سنة ١٩٠٠م : (انجلترا العظيمة ، انجلترا الحرة ، انجلترا التى تمد عيونها إلى البحار السبعة – ستفهمنا) .

وفى سنة ١٩٠٢م ظهر هرتزل فى دوائر الحكومة البريطانية الرسمية فى المشاركة فى عمل (اللجنة الملكية لهجرة الغرباء) التى شكلت للنظر فيما يترتب على تدفق اللاجئين من مشكلات .. فكان من رأى هرتزل أنه (لا شيء يحل المشكلة التى دعيت اللجنة لبحثها غير تحويل تيار الهجرة المتزايد بقوة إلى وطن لهم يتم الاعتراف به قانونيًا) .

وبعد أشهر استقبله تشامبرلين وأخبره أن إقامة مستعمرة يهودية فى سيناء يهيئ للوصول إلى فلسطين ، لكن لجنة الخبراء الصهاينة التى ذهبت إلى العريش لدراسة إمكانات العيش فيها رأت أن الأرض فى حاجة إلى مياه غزيرة ، لا تتحقق إلا عن طريق تحويل نهر النيل ، مما قد يثير مشكلات مع مصر .. وكان من رأى كرومر أن زراعة القطن فى مصر تحتاج إلى كل قطرة من مياه النيل .

واقترحت أماكن أخرى تابعة للإمبراطورية البريطانية ، فى أفريقيا وأستراليا وأمريكا ، لكنها رفضت جميعًا ، لأنها بعيدة عن أرض الميعاد .

وعد بلفور

يتضح من المناقشات حول قانون الغرباء سنة ١٩٠٥م أن بلفور لم يكن رئيس الحكومة التى قدمت القانون فحسب ، بل إنه (قام شخصيًّا بدور فعَّال فى تبنيه فى مجلس العموم) ، وحين كان المشروع أمام اللجنة رد بلفور على السير تشارلس ديلوك بقوله : (ليس من مصلحة حضارة هذا الوطن أن يكون فيه كثير من الأشخاص الذين يظلون - نتيجة تصرفاتهم - شعبًا مستقلًّا ، يعتنقون دينًا يختلف عن دين الغالبية العظمى من مواطنيهم ، ولا يتزاوجون إلا من بنى جنسهم ، ليس من مصلحة الوطن أن يكونوا فيه ، مهما بلغت درجة وطنيتهم وقدرتهم وجدهم وانغماسهم فى الحياة القومية) .

وكان بلفور قد وصف اليهود بأنهم (أكثر شعوب البشرية نبوغًا ، منذ إغريقى القرن الخامس قبل الميلاد) ، لكنه لا يجب (التقليل من الويلات الأبدية التى أصابت الحضارة الغربية نتيجة وجود جسم كان يعدّ غريبًا ، بل معاديًا ، لكنها فى الوقت نفسه غير قادرة على إبعاده أو استيعابه) .

هذا مع أن بلفور (ابن امرأة ذات إيمان دينى راسخ) ، نشأ وترعرع فى أحضان التقاليد البروتستانتية ، بكل ما تحمله من حب للعهد القديم ، وإيمان شديد بعودة اليهود تمهيدًا لمجىء المسيح المنتظر .. لكن مصلحة الإمبراطورية كانت تقتضى الخلاص من هذه العناصر (الغريبة) الشاذة ، وإذا أمكن استغلالها فى خدمة الإمبراطورية يكون قد تحقق أكثر من فائدة .

أما لويد جورج فقد كفله خاله ريتشارد لويد الذى كان واعظًا متطوعًا ينتمى لإحدى فرق المعمدانيين فى ويلز ، وقد اعترف لويد جورج بأنه تمرس بالتاريخ العبرى أكثر من تاريخ انجلترا ، فقال :

(نشأت فى مدرسة تعلمت فيها تاريخ اليهود أكثر من تاريخ بلادى ، وبمقدورى أن أذكر أسماء جميع ملوك إسرائيل ، لكنى أشك إن كنت أستطيع ذكر

أسماء بضعة ملوك من ملوك انجلترا ، أو مثل ذلك العدد من ملوك ويلز) .

وكان حاييم وايزمان يعمل كيماويًا فى وزارة العتاد الحربى أيام لويد جورج ، وقد بدأ تعارفهما فى يناير ١٩١٥م ، على حين كان لويد جورج على اتصال وثيق بهرتزل والحركة الصهيونية منذ سنة ١٩٠٣م .

وحين صار لويد جورج رئيسًا للوزراء كان أرثر جيمس بلفور وزيرًا للخارجية ، وعن طريقهما تغلغلت الصهيونية (غير اليهودية) فى أعماق دوائر القرار البريطانى .

فلما كان عام ١٩١٧م كان احتلال فلسطين ضرورة استراتيجية لبريطانيا ، لكن المطالبة بذلك على أساس العمل العسكرى وحده لم تكن تتفق مع مبدأ (ولسن) الذى ينص على عدم السماح بالاستيلاء على الأرض بالحرب ، ومن ثم كانت الحاجة للالتفاف حول هذا (المبدأ) ، وكانت الدبلوماسية البريطانية متمرسة بهذا الشأن ، بحكم تاريخها الاستعمارى ، كما كانت متمرسة بصياغة العبارات التى تحتمل أكثر من معنى لتُيسّر القفز فوق الحواجز .

● كتب مارك سايكس للورد روبرت سيسل :

(علينا - دون أن نظهر أية رغبة فى ضم فلسطين ، أو جعلها محمية - أن نرتب سياستنا بحيث نصبح أكثر المرشحين لهذه المهمة ، حين يحين الوقت لاختيار سلطة تنتدب لإدارتها بإجماع الرأى ، ورغبة سكانها) .

ومن ثم كان وعد بلفور مرتبطاً بالانتداب البريطانى على فلسطين الذى عهد به المجلس الأعلى للقوات المتحالفة فى سان ريمو سنة ١٩٢٠م ، كما كانت موافقة عصبة الأمم سنة ١٩٢٢م على هذا الانتداب ، من أجل (إقامة وطن قومى للشعب اليهودى فى فلسطين) .

ولم يقف الأمر عند النشاط السياسى والدبلوماسى ، فقد كان للصحافة البريطانية دور كبير فى تهيئة المناخ .

نشر هربرت سايد بوثام عدة مقالات فى المانشستر جارديان سنة ١٩١٥م ادعى فيها أن فلسطين مهمة جدًا للدفاع عن مصر وقناة السويس ، وكانت هذه المقالات المبكرة تؤكد الأهمية الاستراتيجية والسياسية للاستيطان اليهودى فى فلسطين ، بالنسبة للإمبراطورية البريطانية .

وفي حديثه عن (الارتباط الوثيق بين مصر وفلسطين وبلاد ما بين النهرين) قال :

(كانت بلاد ما بين النهرين مهد الشعب اليهودى ، ومكان منفاه فى الأسر ، وجاء من مصر موسى مؤسس الدولة اليهودية ، وإذا ما انتهت هذه الحرب بالقضاء على الإمبراطورية التركية فى بلاد ما بين النهرين ، وأدت الحاجة إلى تأمين جبهة دفاعية فى مصر إلى تأسيس دولة يهودية فى فلسطين - فسيكون القدر قد دار دورة كاملة) .

وقال : (ليس لفلسطين فى الواقع وجود قومى أو جغرافى مستقل ، إلا ما كان لها من تاريخ اليهود القديم ، الذى اختفى مع استقلالهم ، ولذلك فعندما أطلق عليها بلفور اسم وطن قومى لم يكن يعطى شيئًا يخص شخصًا آخر ، إنها روح الماضى التى لم يستطع ألفا عام أن يدفناها ، والتى يمكن أن يكون لها وجود فعلى من خلال اليهود فقط ، لقد كانت فلسطين هى الأرض المقدسة للمسيحيين ، أما بالنسبة لغيرهم فإنها تعتبر تابعة لمصر أو سورية أو الجزيرة العربية ، ولكنها تعد وطنًا قائمًا بذاته بالنسبة لليهود فقط) .

● اتفاقية سايكس بيكو الشهيرة هى المعاهدة السرية التى وضعت سنة ١٩١٦م ، وقسمت الإمبراطورية العثمانية بين روسيا وبريطانيا وفرنسا ، ووضعت فلسطين تحت إدارة دولية .

وكان السير مارك سايكس أحد مساعدى لويد جورج فى وزارة الحرب ، كانت مهمته تزويد مجلس الوزراء بالمعلومات والمشورة حول شئون الشرق الأوسط ، كما كان القوة المحركة للسياسة البريطانية فى فلسطين ، التى أدت إلى وعد بلفور ، وإلى الانتداب .

وكان الدكتور موسى غاستر اليهودى الرومانى ، والحاخام الأكبر فى لندن ، قد التقى مع سايكس فى إحدى الجمعيات الشرقية خلال سنة ١٩١٥م ، وفتح عينيه - كما يقول سايكس - على معنى الصهيونية ، قبل تعيين سايكس واحدًا من وكلاء الوزارة فى مجلس الحرب .

وكان لهربرت صموئيل يد فى دعم معلومات سايكس عن الصهيونية ، إذ

أرسل إليه فى فبراير ١٩١٦م نسخة من مذكرته التى تدعو إلى حماية بريطانية على فلسطين ، يتم عن طريقها تقديم (تسهيلات للمنظمات اليهودية ، لشراء الأراضى ، وإقامة المستوطنات ، وإنشاء مؤسسات تعليمية ودينية) .

وكان سايكس قبل لقائه بكل من غاستر وصموئيل اليهوديين الصهيونيين معروفًا بمواقفه المعادية لليهودية التى كانت تصل أحيانًا إلى حد معاداة السامية صراحة .

وهكذا كان كل شىء يتم لصالح الصهيونية بأيد غير صهيونية ، حتى قال وايزمان : (لم نكن نحلم أبدًا بوعد بلفور ، ولقد جاءنا صراحة بشكل مفاجئ) .

* * *

الدور الأمريكى

يقول سيلج أدلر : (كان هناك ميل مسيحى قوى الاعتقاد بأن مجىء المسيح المنتظر يجب أن تسبقه عودة الدولة اليهودية .. لم يكن ذلك الرأى إجماعيًّا بين اللاهوتيين المسيحيين ، لكنه كان يشكل جزءًا من طبيعة التاريخ الفكرى الأمريكى التى ظلت تتضمن خيطًا من العصر الألفى السعيد) .

ويقول كارنس باس Bass : (إن حدود الأرض الموعودة لإبراهيم ستعاد خلال العصر الألفى السعيد ، وسيعود المسيح إلى مملكة سياسية ثيوقراطية قائمة على الأرض ، ولها حكومة على غرار الحكومة الوطنية القائمة) .

هذا الشكل المتميز للتفكير الألفى أوجد زعماء يطالبون بعمل شعبى لإعادة اليهود إلى فلسطين .

ومما ينبغى الوقوف عنده أن أمريكا منذ استقلالها عن الأم غير الرءوم ، انجلترا ، وهى تسعى بما تملك من ثروات أن ترث الدور الإنجليزى استعماريًّا وسياسيًّا ، وأن تطور هذا الدور بحيث تصبح هى وحدها العامل المؤثر فى حياة العالم ، سلمًا وحربًا ، اقتصادًا وثقافة ، إعلامًا وترفيهًا وتخريبًا ، وإهدارًا لكل القيم .

هذا وليام بلاكستون (١٨٤١ / ١٩٣٥) تزعم حملة لعودة اليهود ، قبل أن يكون للصهيونية السياسية دور ، وكان لكتابه (عيسى قادم) سنة ١٨٧٨م أثر كبير فى البروتستانتية الأمريكية ، فقد بيع منه أكثر من مليون نسخة ، وترجم إلى ٤٨ لغة ، بما فى ذلك العبرية .. وإن عدد الزعماء المسيحيين الذين أثار الكتاب انتباههم لعودة المسيح كان يفوق عدد من تأثروا بأى كتاب آخر .

وبما أن عودة المسيح رهن بعودة اليهود – فيما زعموا – فإن فكرة الوطن القومى اليهودى فى فلسطين تغلغلت فى الثقافة الأمريكية منذ وقت مبكر ، ولاقت قصة (دانيال ديروندا) التى كتبتها جورج إليوت ترحيبًا فى أمريكا ، فقد أشادت بها الصحافة ، وركزت على أثرها السياسى ، وانتشرت أفكار لورنس أوليفانت فى

أمريكا على يد كلود ر . كوندر الذى أكد أن اليهود وحدهم هم القادرون على تلبية احتياجات فلسطين ، وأصبح الربط بين أرض فلسطين واليهود أمرًا تلقائيًا ، وقويت فكرة البعث اليهودى القومى المتنامية ، نتيجة اهتمام الصحافة والأدب الدينى والدنيوى .

وبسبب الهجرات المتلاحقة من روسيا احتجت الخارجية الأمريكية على (الإجراءات التعسفية) التى تقوم بها الحكومة الروسية ضد فقراء اليهود ، مما سبب تضخمًا شاذًا فى الموانى الأمريكية .

وبسبب من تدفق اللاجئين اليهود ، ومضاعفة أعبائهم على سوق العمالة الأمريكية - كان اتحاد العمل الفدرالى الأمريكى (AFL) من أوائل المجموعات التى صادقت على وعد بلفور ، ففى ١٩ نوفمبر ١٩١٧م أصدر قرارًا يعترف (بالمطالب الشرعية للشعب اليهودى ، لإقامة وطن قومى فى فلسطين ، على أساس حكومة ذاتية) .

وفى ٣١ أغسطس ١٩١٨م بعث الرئيس ولسون إلى زعيم الصهيونية الأمريكية ستيفن وايز يقول :

(راقبت باهتمام مخلص وعميق العمل البناء الذى قامت به لجنة وايزمان فى فلسطين ، بناء على طلب الحكومة البريطانية ، وأغتنم الفرصة لأعبر عن الارتياح الذى أحسست به نتيجة تقدم الحركة الصهيونية فى الولايات المتحدة ، والدول الحليفة ، منذ إعلان السيد بلفور ، باسم حكومته ، عن موافقتها على إقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين ، ووعده بأن تبذل الحكومة البريطانية قصارى جهدها لتسهيل تحقيق ذلك الهدف ، مع الحرص على عدم القيام بأى عمل يلحق الأذى بالحقوق المدنية والدينية لغير اليهود فى فلسطين ، أو حقوق اليهود ووضعهم السياسى فى دول أخرى) .

كان ولسن على اتصال وثيق بمجموعة نشطة من الصهاينة ، صديقه المقرب لويس برانديز ، وفلكس فرانكفيرتز ، وجوزيفوس دانيالز ، والحاخام ستيفن وايز .

ولأن ولسن نشأ على التعاليم البروتستانتية الأمريكية التى كانت تؤمن بالأسطورة الصهيونية ، فقد كان تأييده للمطامع الصهيونية نابعًا من مشاعره الذاتية ،

وكان التفاف الزعامة الصهيونية من حوله مساعدًا على تعميق هذه المشاعر ، ومشجعًا على سرعة اتخاذ القرار .

ولهذا بعث بموافقته على وعد بلفور ، عن طريق مستشاره الكولونيل هاوس ، متجاهلًا وزير خارجيته الذى تمثل موقفه فى رسالته إلى الرئيس ولسون ، فى ١٣ ديسمبر ١٩١٧م ، ونصها :

(عزيزى الرئيس : هناك ضغط كبير لإصدار بيان حول الموقف الذى ستقفه هذه الحكومة تجاه فلسطين ، وهذا نابع بالطبع من العنصر الصهيونى لليهود .. أرى أن علينا أن نتلكأ فى إعلان سياستنا لثلاثة أسباب :

أولها : أننا لسنا فى حالة حرب مع تركيا ، ولهذا ينبغى أن نتحاشى كل ما من شأنه أن يظهر أننا نؤيد أخذ أراضِىَ منها بالقوة .

وثانيها : أن اليهود ليسوا جميعًا راغبين فى إعادة جنسهم كشعب مستقل ، ومن غير الحكمة تفضيل فريق على آخر .

وثالثها : أن كثيرًا من الفرق المسيحية والمسيحيين سيغضبون حتمًا إذا وضعت الأرض المقدسة تحت السيطرة المطلقة للجنس الذى يُعزَى إليه موت المسيح .. ولأسباب عملية لا أرى ضرورة للذهاب إلى أبعد من السبب الأول ، فهو كاف لتجنب إعلان سياسة حول وضع فلسطين النهائى .. المخلص روبرت لانسنج) .

واستمر ولسن على تأييده وتمكينه الصهاينة من الأرض العربية ، بالرغم من إعلان مبادئه عن رفض الحصول على أراضى الغير بالقوة ، وإدانة الاتفاقات السرية ، وتأييد حق تقرير المصير للشعوب ، وبالرغم من زعمه أنه (يجب أن تؤمن الفرصة للأقليات غير التركية فى الإمبراطورية العثمانية للتطور الذاتى) .

وبلغ تأييد الكونجرس أقصاه فى يونية ١٩٢٢م ، عندما قرر مجلس الشيوخ (أن الولايات المتحدة الأمريكية تحبّذ إقامة وطن قومى للشعب اليهودى فى فلسطين ، طبقًا للشروط التى يتضمنها وعد الحكومة البريطانية فى ٢ نوفمبر ١٩١٧م ، والمعروف بوعد بلفور) .

وفى ٣٠ يونية ١٩٢٢م حذا مجلس النواب حذو مجلس الشيوخ ، فأصدر قراره :

(حيث إن الشعب اليهودى كان يعتقد لقرون طويلة ، ويتشوق لإعادة بناء وطنه القديم ، وبسبب ما تمخضت عنه الحرب العالمية ، ودور اليهود فيها ، يجب أن يمكّن الشعب اليهودى من إعادة إنشاء وتنظيم وطن قومى فى أرض آبائه ، مما يتيح لبيت إسرائيل فرصته التى حرم منها لفترة طويلة ، وهى إعادة تأسيس حياة يهودية وثقافة مثمرة فى الأرض اليهودية القديمة) .

هذا ، ولم يكن يشار إلى سكان فلسطين العرب ، إلا كما يشار إلى الهنود الحمر ، كسبب لتأخر وخراب فلسطين .

● ولم يكن ولسون إلا حلقة فى تاريخ طويل للصهيونية الأمريكية ، فقد أظهر الرؤساء الجمهوريون الثلاثة الذين خلفوا ولسن : وارن هاردنج ، وكالفن كولدج ، وهربرت هوفر - نفس المشاعر التى كان يبديها سلفهم الديمقراطى .

فى مايو ١٩٢٢م عبر الرئيس هاردنج عن تأييده الشديد لصندوق إنشاء فلسطين بقوله :

(يسعدنى أن أعبر عن موافقتى وتعاطفى القلبى مع جهود صندوق إنشاء فلسطين ، من أجل إعادة فلسطين وطنًا قوميًا للشعب اليهودى .. لقد كنت أرقب باهتمام ما أعتقد أنه عملى بقدر ما هو عاطفى ، وهو اقتراح إعادة تأهيل فلسطين ، وآمل أن تلقى الجهود المبذولة الآن فى هذه البلاد وغيرها أقصى درجات النجاح) .

وهذا تصريح كالفن كولدج أمام جمهور من أتباع الصهيونية الأمريكية فى ١٣ يونية ١٩٢٤م :

(لقد كررت عدة مرات اهتمامى بهذه الحركة العظيمة ، بحيث إن أى شيء أضيفه يعد تكرارًا للبيانات السابقة ، ولكنى مع ذلك سعيد بأن تتاح لى هذه الفرصة لأعبر ثانية عن تعاطفى مع الحنين العميق الشديد الذى يجد تعبيرًا له فى الوطن القومى اليهودى فى فلسطين) .

أما هربرت هوفر فقد هنأ الصهيونية فى ٢١ سبتمبر ١٩٢٨م على إنجازها العظيم فى فلسطين ، بقوله :

(لقد راقبت بإعجاب حقيقى التقدم الثابت الواضح الذى تم من أجل إعادة

تأهيل فلسطين التى كانت قاحلة لعدة قرون ، ولكنها الآن تجدد شبابها وحيويتها ، من خلال حماس وجِدّ وتضحية الرواد اليهود الذين يكدحون هناك بروح السلام والعدل الاجتماعى) .

وفى ٢٨ مارس ١٩٤١م أصدر مكتب السناتور واجنر بيانًا للصحافة بعنوان (يشترك أعضاء الوزارة الأمريكية ، وأعضاء الكونجرس ، والمدرسون البارزون ، وزعماء الكنيسة ، والزعماء المدنيون - فى إقامة جهاز لتشجيع إعادة إقامة وطن يهودى فى فلسطين) ، وأورد البيان كذلك قائمة بأسماء أعضاء (اللجنة الأمريكية الفلسطينية) التى تضم أكثر من سبعين زعيمًا بارزًا فى كافة مجالات الحياة العامة الأمريكية ، ولخص واجنر فى خطابه الذى ألقاه بمناسبة الاحتفال السنوى الرابع والعشرين لوعد بلفور ، فى قاعة كارنيجى ، فى نيويورك ، فى أول نوفمبر ١٩٤١م المبدأ الأساسى للجنة الأمريكية الفلسطينية : (أن فلسطين حصن مهم على جبهة العالم الديمقراطى ، وأن الوطن القومى اليهودى فى فلسطين سيكون جزءًا مهمًّا وأساسيًّا من النظام العالمى الذى يجب أن يعقب النصر) .

وقد برر رينولد نيبور - أستاذ علم الأخلاق الاجتماعية ، وأبرز ممثلى اللاهوت الأمريكى الليبرالى - صهيونيته فى مقال نشر سنة ١٩٤١م ، بقوله : (من الواجب التضحية بسيادة العرب على جزء من الأرض المتنازع عليها ، من أجل إقامة وطن قومى يهودى عالمى) .

● وجاء دور روزفلت بطل الحرب العالمية الثانية .. كان الحاخام ستيفن وايز صديقًا حميمًا له ، منذ أن كان محافظًا لنيويورك (١٩٢٩ / ١٩٣٣) ، وهو نفس الحاخام الذى كان صديقًا حميمًا لولسن ، ويبدو أنها كانت صداقة مرسومة أعد لها إعدادًا جيدًا ، من واقع الدور الذى يمكن أن يلعبه مستقبلاً هذا (المحافظ) ، لهذا عمل الحاخام معه مستشارًا خلال حملاته الانتخابية للرئاسة ، ومع هذا فعندما كتب وايز مسودة بيان يلقيه الرئيس ، ويؤكد تأييده التام للهجرة غير المقيدة ، واستعمار فلسطين ، رفض روزفلت الإدلاء بأى تصريح لمصلحة الصهيونية .

لكن عندما أعلن المرشح الجمهورى للرئاسة توماس ديوى فى ١٢ أكتوبر ١٩٤٤م عن موافقته على بند سياسة الجمهوريين المتعلق بفلسطين ، وعلى الهجرة

غير المقيدة ، ودعم وعد بلفور - لم يتردد روزفلت فى الإعلان عن تأييده لبند مشابه فى برنامج حزبه :

(إننا نحبذ فتح أبواب فلسطين للهجرة اليهودية غير المقيدة ، واستيطانها ، كما نحبذ أية سياسة تؤدى إلى إقامة كومنولث يهودى ديمقراطى حر هناك) .

(إننى لعلى يقين من أن الشعب الأمريكى سيؤيد هذا الهدف ، وإذا ما أعيد انتخابى فسأساعد على تحقيق هذا الهدف) .

ولعل سبب تردد روزفلت أنه كان (يرى أنه ليس من النبل أن يطلب من العرب تقديم تسهيلات للهجرة فى الوقت الذى تبقى الولايات المتحدة على قوانينها المتشددة ، وقوانين الكوتا الانتقائية) .

لكن الكونجرس أيد الإبقاء على القيود المفروضة على الهجرة للدول الغربية ، وجعل الهجرة حرة ومفتوحة لفلسطين ، مما اضطر روزفلت للرضوخ للكونجرس .

ولهذا صوره أحد المؤرخين بأنه (انتهازى متردد ، يتذبذب تحت الضغوط الصهيونية ، تاركًا أصوات الناخبين تملى عليه سياسته تجاه فلسطين) .

● مات روزفلت فى ١٢ أبريل ١٩٤٥م وتولى ترومان الرئاسة ، فأصدر بيانًا صحفيًّا جاء فيه :

(إن وجهة النظر الأمريكية من فلسطين هى أننا نريد أن نسمح بدخول عدد من اليهود إليها قدر الإمكان ، وبعد ذلك يبحث الموضوع مع البريطانيين والعرب بالطرق الدبلوماسية ، حتى إذا ما أمكن قيام دولة هناك ، فإن ذلك يمكن أن يتم على أسس سلمية) .

بيان متحفظ ، لأن الرجل لم يكن بعد قد وطّد مقعده ، لكنه ما لبث أن مال كل الميل ، كما جاء فى مذكراته :

(لقد رسمت السياسة الأمريكية بحيث تحقق بالطرق السلمية إقامة الوطن اليهودى الموعود ، وتتيح ليهود أوربا حرية الدخول إليه) .

ولم يكتف ترومان بتعليماته للوفد الأمريكى بالأمم المتحدة ، بالتصويت إلى جانب التقسيم فى ٢ نوفمبر ١٩٤٧م ، بل طلب من المسئولين الأمريكيين أن

يمارسوا الضغط على الحكومات الأخرى للتصويت إلى جانب التقسيم .

ولم يخف ترومان ميوله الصهونية فى تعامله مع العرب ، ففى ٢٨ أكتوبر ١٩٤٨م كتب إلى الملك عبد العزيز آل سعود يقول :

(من الطبيعى أن تشجع الحكومة فى هذا الوقت وصول أعداد كبيرة من اليهود المرحلين من أوربا إلى فلسطين ، لا لكى يجدوا مأوى هناك فحسب ، بل ليساهموا بمواهبهم وطاقاتهم فى إقامة الوطن القومى اليهودى) .

وتبنت السياسة الأمريكية كل الطموحات والتجاوزات الصهيونية ، وزودت إسرائيل بالمال والسلاح وبالتأييد فى المحافل الدولية ، حتى قال الرئيس كارتر فى مارس ١٩٧٩م أمام الكنيست الإسرائيلى :

(لقد آمن وأعلن سبعة من رؤساء الجمهورية أن علاقة أمريكا بإسرائيل أكثر من مجرد علاقة خاصة ، لقد كانت ولا تزال علاقة فريدة ، وهى علاقة لا يمكن تقويضها ، لأنها متأصلة فى وجدان وأخلاق وديانة ومعتقدات الشعب الأمريكى نفسه) .

وكان يرى - كرئيس - أن دولة إسرائيل هى أولًا وقبل كل شيء (عودة إلى الأرض التوراتية التى أخرج منها اليهود منذ مئات السنين .. إن إنشاء دولة إسرائيل هو إنجاز النبوءة التوراتية وجوهره) .

وقال السناتور دول المرشح للرئاسة : (ليست الصداقة الأمريكية حدثًا عارضًا ، إنها نتاج قيمنا المشتركة ، فكلانا ديمقراطى ، وكلانا دولة رائدة .. لقد فتح كلانا أبوابه للمظلومين ، وأظهر كلانا شغفًا بالحرية ، وسرنا للحرب لحمايته)[1] .

● هذا الفصل يبين أن الصهيونية إنما هى ثمرة الرغبة فى الخلاص من الوجود اليهودى فى أوربا ثم فى أمريكا ، وأن التأييد القوى لعودة اليهود إلى أرض الميعاد لم يكن من واقع الولاء للوعد التوراتى ، بل من واقع كراهية الاندماج اليهودى .

من أجل هذا تحركت الصهيونية بحركة هذه الكراهية ، فلم يكن الأمر متعلقًا بالقدرات اليهودية (الخارقة) كما يتوهم بعض الدارسين ، والحديث عن (اللوبى

---

(١) اعتمدت فى هذا الفصل على كتاب (الصهيونية غير اليهودية) لريجينا الشريف .

الصهيونى) فى أمريكا أو فى أوربا لا يبعد عن قصة الحية التى كادت تهلك من البرد ، فلما أدفئت صارت خطرًا على من أدفأها .

إن اللوبى الصهيونى - بالرغم من قدرته المالية والإعلامية - لا يخلق المواقف ، إنما هو يعمل على تدعيم المواقف ، إنه يمثل الطفيليات التى سكنت جسم المسيحية ، فصارت تسبب له الآلام ، وتسبب به آلام الآخرين .

وعلى طريقة أن المرء يظل يكذب ويكذب حتى يصدق نفسه ، فإنه السيطرة اليهودية على وسائل الإعلام ظلت تكذب وتكذب حتى تحولت الأسطورة إلى دخان أسود يعمى العقول والقلوب والعيون .

وبهذا صار العرب (حثالة البشرية ، لصوصًا مجرمين ، مهربى مخدرات وتجار رقيق أبيض) .

مع أن التاريخ الحقيقى يدين اليهود بكل الممارسات الإجرامية ، حتى ضد الذين أيدوهم وحملوهم على أكتافهم .

وإذا كان اليهود عى أرض العرب قد حققوا بعض الانتصارات ، فإنه المال والسلاح والتآمر الأمريكى الأوربى ، وإنه العمالة والتمزق والتسلط فى الجانب العربى ، وإنه الغباء الذى يكدس الأموال العربية فى مصارف اليهود والدول الاستعمارية .

فإذا قال الشاعر اليهودى شاءول تشرنحوفسكى :

(فى كل ليلة نصعد من قبورنا ، حيث دُفِنّا.. لنشرب دماء هؤلاء الجزارين ، حتى نسكر أرواحنا .. نرضع من أنهار الدم ، رشفة رشفة ، قطرة قطرة .. نسكر من الحزن ومن الآهات ، حتى نراهم يرتجفون .. لا يبل لى صدى ، وأشعر بالشماتة من نظراتهم ، وقد تجمعت أثناء الليل من العاصفة) .

فإنه لا يصور الشجاعة اليهودية ، إنما ينضح من الوعاء الأسود الذى ملأته ذكريات (الجيتو) على مدى تاريخ طويل من الاضطهاد والتعذيب والكراهية .

والصهيونية اليوم تتحرك بقوة غليان هذه (الذكريات) فى نفوسهم ، لا ضد العرب فحسب ، بل ضد الإنسانية جميعًا .

أرقـــام

جاء فى كتاب (الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية) للكاتب الفرنسى الأشهر روجيه « رجاء » جارودى أن الاستعمارى الأوربى ، فى فترة تبنيه الحركة الصهيونية ، قضى على ١٠٠ إلى ٢٠٠ مليون أفريقى خلال فترة اصطياد العبيد السود للعمل فى المستعمرات ، كما قضى على نحو ٦٠ مليونًا من الهنود الحمر من جملة ٨٠ مليونًا .

وإبان الحرب العالمية الثانية التى أسفرت عن مقتل أكثر من ٣٠ مليونًا ، وتوجت باستخدام القنابل الذرية - أسفر قصف مدينة دريسدن الألمانية عن مقتل ٢٠٠ ألف مدنى ، فى حين أسفر قصف هيروشيما ونجازاكى عن احتراق ٣٠٠ ألف مدنى .

وكان تشرشل زعيم (المدنية) البريطانية يصيح فى ١٦ مايو ١٩٤٠م : (سنجوّع ألمانيا ، وسندمر مدنها ، وسنحرق محاصيلها وغاباتها) .

وفى يولية ١٩٤٤م كتب إلى رئيس أركانه الجنرال هِسْتِنْجَر : (أود أن نفكر جيدًا فى مسألة الغازات الخانقة ، وأود أن نبحث بهدوء نتائج استخدام الغازات الخانقة هذه ، ولا ينبغى أن نقف مكتوفى الأيدى بسبب مبادئ حمقاء) .

وفى سنة ١٩٤٤م وقد أخذت الكفة تميل لصالح الحلفاء كان الكاتب السوفيتى يصرخ : (اقتلوا ، اقتلوا ، فلا أبرياء بين الألمان ، لا بين الأحياء ، ولا بين من سيولدون) .

● هذه الوحشية (الحضارية) هى التى ولدت إسرائيل ، وهى التى جعلت من إسرائيل وسيلة تسلط (دائمة) على الكيان العربى ، وامتصاص قدراته .

منذ عام ١٩٤٨م قدمت الولايات المتحدة لإسرائيل ٢٨ مليار دولار ، مساعدات اقتصادية وعسكرية .

هذا برغم تحذير السناتور فولبريت : (إن الإسرائيليين يتحكمون فى سياسة

الكونجرس ومجلس الشيوخ .. إن زملاءنا فى مجلس الشيوخ ، وبنسبة ٧٠٪ منهم لا يحدّدون مواقفهم إلا تحت ضغط اللوبى) .

وزاد من تبجح اليهود واستمراء إعلان سيطرتهم على صانعى القرار الأمريكى أن الطيران والبحرية الإسرائيليَّيْن قذفا فى ٨ يونية ١٩٦٧م الباخرة الأمريكية (ليبرتى) ، وقتل فى هذه العملية ٣٤ بَحَّارًا وجرح ١٧١ ، وذلك خشية أن تكتشف أجهزة هذه الباخرة خطط إسرائيل لغزو الجولان ، مع أن الغزو يتم بالعون الأمريكى ، عسكريًّا وسياسيًّا وإعلاميًّا .

وكثيرًا ما قامت إسرائيل بالتجسس على التكنولوجيا الأمريكية ، عسكرية ومدنية ، واستخدام المعلومات التى تحصل عليها فى عقد صفقات مع أجهزة أخرى حليفة لأمريكا أو معادية .

وكما أن قوة اللكمة اليهودية - كما يقول هوليبوفيتش - تأتى من القفاز الفولاذى الأمريكى ، ومن الدولارات التى تبطنها - فإن الوليد الذى (استهل يزأر) ، قدم إلى الحلفاء الأربعة فى أوائل ١٩٥١م يطالب بتعويضات من ألمانيا الجديدة ، عمّا لحق باليهود فى العهد النازى ، على أساس من (بلطجة) العصابات الإرهابية ، فقد زعمت إسرائيل أنها استقبلت من ألمانيا ٥٠٠ ألف يهودى ، تكلفت إعادة توطين كل منهم ثلاثة آلاف دولار ، هذا إلى تكاليف مالية باهظة لاستنقاذ هؤلاء الضحايا من براثن النازية .. هذا مع أن الجرائم النازية حدثت قبل أن تولد إسرائيل ، كذلك عملية التهجير تمت قبل عام ١٩٤٧م ، فلا أساس قانونيًّا لهذه المطالبة ، وحتى الآن ١٩٩٧م لا تزال إسرائيل تفرض ادعاءاتها لابتزاز الدول التى كانت تدور فى فلك النازية ، حتى سويسرا (المحايدة) زعمت إسرائيل أن أرصدة اليهود الألمان ، وذهب اليهود الألمان ، كان يملأ خزائن مصارفها .. بل مازال اليهود يطاردون كل من كان له شبهة اتصال بالنازية ، حتى رجل السلام الذى عمل زمنًا سكرتيرًا عامًّا للأمم المتحدة ، ثم رئيس جمهورية النمسا ، لأنه صرح تصريحًا دوليًّا (محايدًا) ، تشبثوا بإدانته عميلًا نازيًّا .

ومع فيض التعويضات والمنح الأمريكية ، فإن إسرائيل تفرض على يهود (الشتات) سَيْلًا من المعونات كل عام ، وفى جميع المناسبات .

أثناء انعقاد مؤتمر المليارديرات اليهود فى القدس سنة ١٩٦٧م ، ذكر بنهاس سابير وزير المالية أن إسرائيل تلقت فى الفترة من ١٩٤٩ إلى ١٩٦٦م سبعة مليارات من الدولارات .

وكانت المنظمات اليهودية الأمريكية ترسل كل عام - فى المتوسط - مليار دولار (تخصم من ضرائب المانح) .

ولما كان (مشروع مارشال) لإنعاش أوربا الغربية فى الفترة (١٩٤٨ / ١٩٥٤) قد تكلف ١٣ مليار دولار ، فإن إسرائيل - بأقل من مليونين من السكان - تكون قد حصلت فى نفس الفترة على أكثر من نصف ما تلقاه مائتا مليون أوربى .

إن ما حصل عليه كل إسرائيلى - من المساعدات الأمريكى ، فى الفترة ١٩٤٨ / ١٩٦٧م - بلغ فى المتوسط ٤٣٥ دولارًا ، على حين ما حصل عليه كل عربى ٣٦ دولارًا نظير تشريده والاستيلاء على بيته وأرضه .

وفى الفترة ١٩٤٨ / ١٩٨٢م حصلت إسرائيل على أحد عشر مليارًا ونصف المليار من الدولارات ، مقابل بيع صكوك بالدولارات تسدد أصولها وفوائدها بالعملة الإسرائيلية .

هذا هو مصدر قوة إسرائيل ، بالإضافة إلى انشغال العرب بعضهم ببعض ، مما أدى إلى تقافز بعضهم على أكتاف الآخرين ، رجاء الحصول على الرضا الأمريكى (بالتطبيع) مع إسرائيل ، ولما كان الوجود العربى ممثلاً فى الحكام العرب ، فإن شأن هؤلاء الحكام ، شأن حكام جميع البلاد النامية : يقع الحاكم فى شباك دولة عظمى ، كأمريكا مثلًا ، فتمكنه من (العمولات) التى تتحول إلى أرصدة فى (الخارج) ، ومن هنا يظل الحبل ممدودًا ما امتد الولاء ، فإذا أخذته الحمية ، وأراد أن يعلن عن نفسه ، أو أن يحمى بلاده من العصابات (الحضارية) ، ممثلة فى القروض والخبراء والمدربين والمؤسسات الاستثمارية - أُخِذ بجريرة (العمولات) ، وصار (قشة فى مهب الريح) !!

دعت أمريكا لعقد مؤتمر اقتصادى (عالمى) فى قَطَر تشترك فيه البلاد العربية وإسرائيل ، من أجل إقامة سوق تجارية (مشتركة) ، ولما تحفظت مصر على اشتراك إسرائيل التى ترفض (مسيرة السلام) مع الفلسطينيين ، وترفض تنفيذ الاتفاقيات

الدولية بشأن انتشار الأسلحة النووية والكيماوية والجرثومية - عملت المخابرات الأمريكية والإسرائيلية على دفع جماعة من المنحرفين السذج إلى قتل جماعة من السائحين فى مدينة الأقصر ، لضرب موسم السياحة فى مصر الذى يدرّ دخلًا سنويًّا أكثر من ثلاثة مليارات من الدولارات ، ويفتح باب العمل أمام آلاف المصريين ، ومع أن الجريمة تمت يوم انعقاد المؤتمر ، كإنذار ، وتحذير من (التمرد) ، فإن الحكومة المصرية لم تشر مجرد إشارة ، إلى المجرمين الحقيقيين .

وهاهى اليهودية (أولبريت) وزيرة الخارجية الأمريكية تقوم بجولة فى الدول التى ينبع ويفيض منها النيل ، لتحيك أكثر من مؤامرة ، وتلتقى بزعيم الانفصال فى السودان ، وتعلن على الملأ ضرورة قلب نظام الحكم فى السودان ، بعد أن حاولت حصاره اقتصاديًّا وعسكريًّا ، مع أن هذا السودان (المسلم) عضو فى هيئة الأمم المتحدة ، لكن هذه الهيئة تسكن فى أمريكا ، وتتحمل أمريكا ثلث نفقاتها ، ومن ثم صارت محكومة بالإرادة الأمريكية أو اليهودية !!

* * *

تساؤلات

بالرغم مما يحمد للدكتور المسيرى من الحرص على تناول القضية اليهودية الصهيونية الفلسطينية من أبعادها المختلفة ، حتى صار علَمًا أكاديميًا بارزًا فى هذا المجال - فإن ما تناوله فى كتابه (الجمعيات السرية) يوحى بقدر من التساؤلات التى لا ينبغى أن تثار .

إنه من خلال مقدمة (علمية منطقية) فى حوالى خمسين صفحة يذهب إلى أن (التعامل مع الواقع من خلال نماذج اختزالية أمر مُغْرٍ للغاية ، فهو يبسّط الأمور ، ويخلق لدى الإنسان وهم التحكم الكامل فى واقعه ، والعقل الإنسانى - منذ أن وجد الإنسان - دائم البحث عن صيغة بسيطة يمكنه عن طريقها تفسير كل شىء والتحكم فى كل شىء ، وحلّ كل مشاكله : خاتم سليمان ، أو مصباح علاء الدين ، أو جملة سحرية ، أو معادلة رياضية ، أو قانون علمى واحد يفكّ به كل الشفرات ، ويحل كل الألغاز ، ويفتح به كل الكنوز) ص ٢٦ .

ثم يتساءل : (إذا كان اليهود دائمى التطلع لصهيون ، فلماذا لم يهاجر الملايين من اليهود إلى فلسطين ، بعد أن وقعت فى يد الصهاينة ، وبعد أن فتحت أبوابها للهجرة الاستيطانية ، بل وبعد تقديم الرشاوى المالية والعينية لمن يوافق منهم على الاستيطان ؟) ص ٣٧ .

والمعروف أن ترك أرض صارت (وطنًا) تشابكت فيه علاقات (عاطفية) واجتماعية واقتصادية ، من أجل أرض (يمكن أن تصير (وطنًا) ، تحيط به محاذير ومخاوف منظورة وغير منظورة .. وما تم من الهجرة أو التهجير إلى فلسطين إنما حدث عن طريق (عصابات) لأفرادها تاريخ مشبوه ، وأكثرهم ملاحدة لا يعنيهم الوعد التوراتى ، أو عودة المسيح .. ثم إن هذه (العصابات) تشكلت تحت ضغوط الاضطهاد والقهر ، وتحت تأثير (الإغراءات) الأوربية والأمريكية .

● **ويقول** : (فى القرن الأول قبل الميلاد كان يهود العالم حوالى سبعة ملايين

– أو ربما أكثر من ذلك – ولم يكن يوجد سوى مليون ونصف يهودى فى فلسطين ، وذلك قبل سقوط الهيكل عام ٦٦ ميلادية : أى أن الملايين من اليهود هاجروا من فلسطين بملء إرادتهم دون قسر خارجى) ص ٣٧ – ٣٨ .

هذا مع أن التاريخ يذكر أن السبعة ملايين من اليهود خارج فلسطين اضطر أجدادهم إلى الهجرة من (فلسطين) على يد الأشوريين والبابليين ، ووجدوا مستقرًّا أمنيًّا واقتصاديًّا فى أرض المهجر التى صارت وطنًا تكاثروا فيه ، وضربوا جذورًا فى أرضه ، ولم يرجع إلى فلسطين تحت قيادة زَرُوبّابل – فى عهد قورش – إلا عدد قليل ، ومن المعروف أنه لا تسهل الهجرة إلَّا على من لا جذور له ، أو من كانت جذوره مهددة بالاقتلاع ، بسبب من العواصف السياسية والعسكرية والدينية ، وبخاصة بعد سقوط الهيكل على يد تيتوس سنة ٧٠ للميلاد .

● ثم يتساءل : (لم ظهرت الصهيونية فى شرق أوربا ، وليس فى غربها ، أو حتى فى الولايات المتحدة ، مع أن عدد يهود الولايات المتحدة – مع بداية القرن – كان آخذًا فى التزايد ، حتى بلغ عدة ملايين قبيل الحرب العالمية الأولى ؟ ولماذا ظلت الصهيونية حركة أقلية يهودية من أعضاء الطبقة الوسطى ، فاشلة فى إحراز أية انتصارات على مستوى الاستيطان فى فلسطين ، أو على مستوى التحرك الدبلوماسى فى العالم حتى عام ١٨١٧م ، عام صدور وعد بلفور) ص ٣٨ ، ٣٩ .

وهذا دليل قاطع ضد ما ذهب إليه السيد الدكتور ، لأن هؤلاء الصهاينة أنشأتهم أحقاد الاضطهاد الذى نزل بهم ، أو بقومهم فى شرق أوربا ، فى الجنوب الغربى من الإمبراطورية الروسية ، أو من الاتحاد السوفيتى الذى ضم كلًا من بولندا ورومانيا ، ولأنهم كانوا من (الطبقة الوسطى) التى ينبت فيها الثائرون ، ولأنهم كانوا يحلمون بأن تكون لهم (دولة مستقلة) ، يمارسون فيها وجودًا (سياسيًّا) قادرًا على إعلان (الشوكة) اليهودية ، وكانوا على (أمل) أن تمكن الإمكانيات (المادية) اليهودية من إقامة دولة ذات كيان يستعيد (وعدًا إلهيًّا) قد يمتد ليشكل سرطانًا عالميًّا ، ينتقم لمعاناتهم الطويلة فى مرحلة الشتات التى امتدت قرونًا طويلة ، بين شعوب تضيق بهم ، وتتقاذفهم ، وتتهمهم وتكيد لهم ، وتطغى عليهم .

كل هذا وغيره من أطماع التسلط ، ومن كتابة الحاخامات عن (يشوع)

المهلك المبير ، ومن أساطير حيكت حول الماساداه وحول المكابيين - دفع هؤلاء الصهاينة إلى اضطهاد اليهود الذى يرفضون الدعاوى الصهيونية ، وإلى ابتزازهم ، بل دعا الصهاينة إلى التحالف مع النازية من أجل إبادة تلك العناصر التى ترفض الهجرة ، وحاولوا مع الولايات المتحدة وغيرها أن تغلق أبوابها فى وجوه المهاجرين إليها ، ثم إن (الحلم / الصهيونية) لم تنبته العقول الصهيونية ، إنما أنبتته ورعته ومكّنت له عقول استعمارية (معادية) لليهود ، ثم تبنى الصهاينة هذا (الحلم) ، أو (سيقوا) إلى تبنّيه عن طريق مغريات كثيرة ، كما سبقت الإشارة .

● **يقول** : (يجب أن نتذكر أن كثيرًا من الدول الكبرى تبنى أسلحة ، ولا تستخدمها لمجرد أن تبث الرعب فى قلب أعدائها ، بل إنها أحيانًا تلوح بمقدرتها على إنتاج سلاح ما ، دون أن تفعل ، لتدعم موقفها التفاوضى) ص ٤١ .

وما كانت إسرائيل إلا أحد الأسلحة الفتاكة التى مزقت شمل العرب ، وابتزت أموالهم فى شراء أسلحة لا يحسنون استخدامها ، أو مضى زمن استخدامها ، وضَلَّلَت أهدافهم بحيث لم يعد لهم هدف إلا (إلقاء إسرائيل فى البحر) ، دون أن يملكوا لذلك رقى أو تعاويذ ، ولعلهم لا يزالون يبحثون عن (البحر) الذى (سوف) يلقونها فيه .

وليس من المعقول أن العرب يجهلون دور الإمبريالية الغربية فى قيام دولة إسرائيل - ص ٤٢ - بعد تصريح بلفور ، وبعد تآمر سايكس بيكو ، وبعد ممالأة أمريكا عبر (عصبة الأمم) ، بشأن وضع فلسطين تحت الانتداب البريطانى ، وبعد اللجان التى كانت تشكلها انجلترا لسحب (البساط) من تحت أقدام العرب ، وبعد قرار التقسيم ، وبعد الأسلحة الفاسدة وتعيين جلوب قائدًا للمغاوير العرب ، وبعد حربى ٥٦ ، ١٩٦٧م .

إن الأمر لا يعدو الجهل بطريقة التعامل مع الإمبريالية الغربية ، وقلة الحيلة ، والخضوع قسرًا لوعود يعلمون أنها ضالة مضلة ، لكنهم لا يجرءون على كشف بهتانها .

ولا أدرى ماذا يقصد الدكتور بقوله ص ٤٨ : (إننا اكتشفنا أن الفساد الذى نسب إلى اليهود مرتبط بالوظائف التى يضطلعون بها ، لا بجوهرهم) ؟!

ألا ينطبق هذا القول على جميع المجرمين فى جميع الانحرافات ، وفى جميع الملل والديانات ؟ هل هى عودة إلى البحث عن أولية الخير أو الشر فى الإنسان ؟ أو أن (لنا الظاهر ، والله يتولى السرائر) ؟

لقد عرف اليهود – منذ فجر تاريخهم ، بنص ما دونوه فى أسفارهم (المقدسة) وبدلالة الدور الذى وُكِلَ إلى كهنتهم – بالحرص الشديد على جمع المال ، دون اهتمام بمشروعية الوسيلة ، وبخاصة إذا كان المال الذى يعملون على كسبه مال غير يهودى ، وما كان الاضطهاد الذى كانت تنزله بهم الحكومات والشعوب إلا بسبب وسائلهم الدنيئة فى كسب المال ، سواء عن طريق الربا ، أو الدعارة ، أو بيع الرقيق ، أو احتكار السلع ، أو التجسس .. هذا بالإضافة إلى عوامل أخرى حفلت بها الكتب التى تناولت الاضطهاد الذى نزل بهم .. ولعل هذه العوامل تجتمع فى طبيعة (الجيتو) ، وحياة العزلة التى ارتضوها ، أو اضطروا إليها .

ولا أدرى أيضًا ماذا يقصد الدكتور بقوله ص ٥٠ : (ليس من حق أحد إسقاط الحقوق التى أعطاها الله لهم ، بناء على رؤية حرفية واختزالية حتمية ، تهدر حقوقهم قبل أن يولدوا ، إذ تعتبرهم أشرارًا بالوراثة ، أى من خلال طبيعتهم المادية ، لا اختيارهم الأخلاقى) ؟!

وهل الاختيار الأخلاقى غير خاضع للبيئة التى ينشأ فيها أبناؤهم ، وللحرف التى يتوارثونها ، وللوصايا والتعاليم التى يتناقلونها ؟ وإذا صح أن (الدولة الألمانية قررت – باعتبارها تجسيدًا لإرادة الشعب – أن تدمر كل من يقف فى طريق التقدم والتنمية ، مثل مشوهى الحرب والعجائز وكثير من أعضاء الأقليات ، مثل الغجر واليهود) ص ٥٠ – فإن الحاخامات ورؤساء اليهود صنعوا التوراة والتلمود والبروتوكلات من أجل تدمير العالم ، سواء أمكن لهم أم لا ، المهم أنهم (تجسيدًا لإرادة الشعب) اجتمعوا وقرروا ودونوا ، وصارت لهم وسائل وأهداف ممثلة فى السيطرة المالية والإعلامية ، وفى نشر الشرور والآثام ، واتخذوا من الماسونية (المزدوجة) ظاهرًا وباطنًا ، ومن نشر الأمراض والأوبئة ، ومن الاتجار فيما يضر بالجسوم والأخلاق ، ومن الوصول إلى مقاعد صانعى القرار ، عن طريق (اللوبى) والماسونية والصهيونية والتشكيلات الثورية والراديكالية والرأسمالية والليبرالية

والبيروقراطية والاشتراكية والديمقراطية ، وعن طريق الفلسفات وعلوم الاجتماع والطب والهندسة الوراثية ، وكل ما يعين على الوصول إلى الهدف ، عسكريًّا وسياسيًّا ودبلوماسيًّا وإعلاميًّا .

● وإذا كان السيد الدكتور رأى ص ٥٢ أن (الدولة الصهيونية ليست مؤامرة عالمية بدأت مع بداية الزمان ، وإنما هى قاعدة عسكرية واقتصادية وثقافية وسكانية للاستعمار الغربى) ، فإن هذه القاعدة الاستعمارية لم تنشأ بقرار التقسيم سنة ١٩٤٧م ، وإنما هيأت لصنعها فى فلسطين عوامل كثيرة قد يعود بها التاريخ إلى بداية عصر الشتات ، ثم إن الأحداث المعاصرة تبين أن القاعدة الاستعمارية لم تقف عند حدود فلسطين ، وأخذت تهيمن على المحافل السياسية والاقتصادية الكبرى ، وتتحكم فى أسواق المال ، ولها نفوذ فى أسواق السلاح ، ولها حق تعطيل القرارات الدولية الخاصة بأسلحة الدمار ، ولها حق دخول الأماكن المحظورة فى أى مكان تحت أى شعار أو مسمى من المسميات .

ثم لماذا يكثر الاختلاف حول طبيعة هذا التكوين السرطانى العجيب ، أليس لأن أقنعته الكثيرة تخفى أكثر مما تعلن ؟ أليس لأنه – مع صغر حجمه – يملأ ساحة العالم نشاطًا وعنفًا ، إنه يتحرك على مستوى قارات العالم جميعًا ، يتحدث باللسان الأمريكى ، وباللسان الروسى ، وباللسان البريطانى والفرنسى والألمانى ، هو فى كل لسان ، بعد أن كان بغير لسان ، وهو فى كل مكان بعد أن كان بغير مكان ، (تمسكن حتى تمكن) ، وتضاءل حتى تعاظم ، يده فى كل الجيوب ، وسلاحه خلف كل باب ، ومع هذا فهو أقرب إلى العفريت الذى تقرأ عليه آية الكرسى فيتلاشى ، ولا يلبث أن يعود !!

* * *

البابية

كانت البداية فى إيران ، عندما انتقل إليها من العراق رجل دين اسمه (أحمد الأحسائى) ، داعيًا إلى مذهب اجتماعى سمى (المذهب الشيخى) ، نسبة إليه ، يهيئ لقرب ظهور المهدى (الغائب) الذى سيملأ الأرض عدلًا بعد أن ملئت جورًا .

وقبل أن يمضى الأحسائى إلى ربه سنة ١٨٢٦م ، أوصى بقيادة مذهبه إلى تلميذه الإيرانى السيد كاظم الرشتى ، وأمره أن يرقب ظهور الإمام الغائب (فالحق أقول لك : إن الساعة قريبة ، تلك التى طلبتُ من الله أن ينجينى من مشاهدتها ، لأن زلزلة الساعة شيء عظيم) .

وكان يتردد على مجلس الرشتى فى شيراز شاب من أسرة تعمل بالتجارة اسمه (على محمد الشيرازى) ، كان فى التاسعة عشرة ، وقد أولع بالرياضيات الروحية والفلسفات القديمة .

مات الرشتى فى ١٨٤٣م ، فآلت قيادة الدعوة إلى الملّا حسين البشروئى الذى هام بحثًا عن دليل ينبئ بظهور الإمام الغائب ، ثم وجد فى تلميذه على محمد الشيرازى صفات مطابقة لشخصية (الموعود) ، فأخبره بمسائل غامضة أجاب عليها إجابات تدل على غزارة علم ، عندئذ خرج إلى الناس يعلن أن هذا الشاب هو (الباب) ، أى الوسيلة إلى الإمام الغائب ، وأنه - البشروئى - (باب الباب) ، وكان ذلك إيذانًا بميلاد الدعوة البابية ، بتاريخ ٢٣ مايو ١٨٤٤م .

وقد زعم (الباب) أن (الوصول إلى الله لا يكون إلا من باب النبوة ، وأنه نبى ، وهو الباب الموصل إلى الله سبحانه وتعالى) ، قياسًا على الأثر المشهور (أنا مدينة العلم وعلىّ بابها)[1] .

---

(١) رواه الحاكم فى مستدركه (١٢٦/٣) ، والطبرانى (٦٦/١١) ، والموضوعات (٣٥٠/١) .

وقال : (إنه وحده الناطق بعلم الإمام المستور ، على مقتضى المذهب ، كغيره من الأئمة « الاثنا عشرية » ، أوتى - بمقتضى الوصايا التى اختص بها ممن سبق - علمًا يتبع ، وهو مصدر الهداية والمعرفة) .

وادعى : (أن الله حل فيه ، وأنه هو الذى به يظهر الله لخلقه ، وأنه السبيل لظهور موسى وعيسى فى آخر الزمان) .

إنه (المهدى الذى سيظهر بعد ألف سنة من غيبة الإمام الذى غيب سنة ٢٢٦ هـ) .

جاء فى دائرة المعارف الإسلامية للأستاذ محمد فريد وجدى :

(إن الميرزا على محمد الشيرازى بدأ يدعو لمذهبه ، وهو ابن تسع عشرة سنة ، متلقبًا بالسيد ، إشارة إلى أنه من الأسرة النبوية الكريمة ، فقصد الحج ، ثم زار الكوفة ، وبدا له بعد ذلك تأسيس دين جديد يخالف الإسلام فى بلاده) .. وهناك وضع كتابين : أحدهما فى تفسير سورة يوسف ، والآخر فى وصف رحلته ، واستنتج من آيات سورة يوسف ما لم يرد فى كتاب قبله ، فطار ذكره بين الناس ، وكان يخطب فى المساجد ، ويوجه أشد الملام لرجال الدين ، ولقبه أشياعه بلقب (حضرة العلى) ، ثم أعلن أنه (المنبثق عن الحق ، وروح الله ، ومظهر قدرته وجلاله) ، وتنازل عن لقب (الباب) لصاحبه حسين البشروئى الذى طبع البابية بطابع سياسى شديد الخطورة .

وقد جاء فى كتابه (البيان) أنه (الممثل الحقيقى لكل الأنبياء السابقين ، وتجتمع فيه الرسالات الإلهية) ، وأنه (لا يعتبر الرسالة المحمدية آخر الرسالات) ، وأنكر الجنة والنار والحساب ، فما هى إلا رموز لحياة متجددة ، وجعل المرأة فى مرتبة الرجل فى الميراث وغيره ، ودعا إلى المساواة المطلقة بين الناس ، كما دعا إلى نبذ كل القيود الإسلامية ، وجعل قبلة الصلاة إلى عكا بدلًا من الكعبة .. يقول : (وإذا أردتم الصلاة فولوا وجوهكم شطر المقام المقدس « عكاء » ، الذى جعله الله مطاف الملأ الأعلى ، ومقبل أهل مدائن البقاء ، ومصدر الأمر لمن فى الأرضين والسموات) وأبطل قراءة القرآن فى الصلاة ، وأمر أتباعه أن يقولون : (العظمة لله رب ما يُرى وما لا يُرى ، رب العالمين) ، وأبطل صلاة الجماعة إلا على الميت ، وجعل حكم الزنا دية تدفع لبيت العدل (الحكومة) ، قدرها تسعة مثاقيل من الذهب ، وإن عاد الزانى إلى جريمته تضاعف الدية ، وإذا وقع الطلاق جاز الرجوع فيه بعد ١٩ يومًا ،

والطلاق ١٩ مرة ، والصوم إجبارى على من بلغ ١١ سنة ، ويسقط عمن بلغ ٤٢ سنة ، ولابد من قراءة ١٩ فقرة من (البيان) كل يوم ، وأن يذكر اسم الله ٣٦١ مرة ، وعلى كل بابى أن يدعو ١٩ شخصًا فى بيته مرة كل ١٩ يومًا ، وإذا تعذر الطعام قدم الماء .

وجعل عدة الشهور ١٩ ، كل شهر ١٩ يومًا ، واليوم ١٩ ساعة ، والساعة ١٩ دقيقة .

ويبدأ التقويم البهائى بسنة ١٨٤٤م ، وقت إعلان الباب دعوته .

ولا يزال الرقم ١٩ عند البابيين والبهائيين رقمًا مقدسًا .

و (البيان) يتألف من ١٩ قسمًا ، كل قسم ١٩ فصلًا .

● وفى عام ١٨٤٨م تم عقد مؤتمر عام فى مدينة بِدشت ، على نهر شاهْرَود ، ما بين خراسان ومازندران ، لتحديد موقف البابية من الدعوة الإسلامية ، والشريعة المحمديّة ، وتم الاتفاق على نسخ الشريعة بحضور الميرزا حسين على المازندرانى (بهاء الله) ، وحسين البشروئى (باب الباب) ، وقرة العين رزين تاج (الطاهرة) ، ومحمد على البارفروشى (القدوس) ، الذين كانوا (قائمين على سواء السبيل ، وجادة اليقين ، فى إدراكهم وفهم أسرار الأمر) .

وبعد الضجة التى أحدثها مؤتمر بِدشت هاج الرأى العام على البابيين ، وأخذت الاعتداءات تنال منهم ، وفى ٩ يوليه ١٨٥٠م أعدم (الباب) فى مدينة تبريز (بناء على فتاوى العلماء) .

قصد حسين البشروئى ومعه جمع غفير من أنصاره المسلَّحين إلى جبال مازندران ، وابتنى له حصنًا منيعًا ، وطالت مقاومتهم لجنود الشاه ، ثم قضى عليهم .

دبر البابيون مؤامرة لاغتيال الشاه ناصر الدين فى أغسطس ١٨٥٢م ، لكن المحاولة أخفقت ، ونتج عن ذلك إباحة دمائهم .

(انقلبت البابية إلى مذهب سرى ، شاع بين كثير من الناس) ، وأعلن مرزا يحيى المازندرانى (صبح أزل) أنه خليفة الباب ، وذهب إلى بغداد ، فنفته الحكومة العثمانية إلى قبرص ، وسجن فى (فاماجوستا) ، كما تم نفى أخيه الميرزا حسين على المازندرانى (بهاء الله) إلى أدرنه بتركيا ، ثم اختار عكا مقرًّا له ، أما قرة العين

(الطاهرة) فقد احتجزت فى طهران ، وانتهى أمرها إلى أن (لبست ثياب العهر ، وتقمصت شخصية الشيطان) ، وماتت شنقًا .

● فى عكا أخذت الدعوة طورًا جديدًا ، فادعى حسين على المازندرانى (حلول الله فيه ، وأنه المطهَّر الكامل الذى بشّر به أستاذه ، وأن ظهور الباب ما كان إلا تمهيدًا له ، مثلما كان وجود النبى يحيى تمهيدًا لظهور المسيح) .

يقول جولد زيهر : (وفى شخص البهاء عادت الروح الإلهية للظهور ، لكى تنجز على الوجه الأكمل العمل الذى مهد له الداعية الذى بعث قبله ، فالبهاء أعظم من الباب ، لأن الباب هو القائم والبهاء هو القيوم) .

وفى عكا أخذ (البهاء) يدون مذهبه ، فعارض القرآن الكريم ، وعارض (البيان) الذى ألفه (الباب) ، وألف كتابًا سماه (الأقدس) ، زعم أنّ كل ما اشتمل عليه موحى به ، وأنه قديم قدم الذات العلية ، وأعلن أن كتبه كلها لا تمثل كل علمه الإلهى ، بل هناك ما احتفظ به لصفوة أصحابه ، لأن غيرهم لا يطيق هذه العلوم الباطنية ، وقد جاء فى هذا الأقدس : (يا ملأ الإنشاء ، اسمعوا نداء مالك الأسماء ، إنه يناديكم من شطر سجنه الأعظم ، إنه لا إله إلا أنا المقتدر ، المتكبر ، المسخر ، المتعالي ، العليم ، الحكيم) ، ويقول : (إياكم أن تتوقفوا فى هذا الأمر الذى خضع له الملأ الأعلى ، وأهل مدائن الأسماء ، اتقوا الله ولا تكونوا من المحتجبين ، أحرقوا الحجارة بنار حبى ، والسبحات بهذا الاسم الذى به سخرنا العالمين) .

وأعلن عن رسالته بخطابات أرسلها إلى حكام كل من إيران وتركيا وروسيا والنمسا وانجلترا ، واعترف به أكثر البابيين الذين صاروا يسمون البهائيين .

وتوفى فى عام ١٨٩٢م ، ودفن فى عكا ، وتحول قبره إلى أقدس مزارات البهائيين .

وخلفه فى قيادة الجماعة أكبر أبنائه عباس أفندى الذى سمى عبد البهاء (١٨٤٤ / ١٩٢١) ، وصار المفسر المعتمد به لتعاليم أبيه ، وقد سافر إلى عدة بلاد ، لينشر تعاليم الدين الجديد ، وعين أكبر أحفاده شوجى أفندى ربانى (١٨٩٦ / ١٩٥٧) خليفة له ، ومفسرًا لتعاليمه .

وكتابات بهاء الله تتجاوز المائة ، منها الكتاب الأقدس الذى يحوى كل مفاهيم مذهبه ، وكل تشريعاته ، وكتاب الإيقان ، وهو دراسة عن طبيعة الخالق وطبيعة الدين ، ومجموعة الألواح المباركة ، والإشراقات ، والبشارات ، وكتاب الأساس الأعظم ، وله قصيدة أسماها وَرْقائية .

وجوهر البهائية هو الإيمان بالحلول الكامل ، أو بتوحد الخالق بمخلوقاته .

وهو - إلى حد ما - يشبه القوانين الطبيعية المتمثلة فى مذهب الربوبيين والفيزيوقراطيين والماسونيين والتنويريين ، كما يشبه ما جاء فى كتاب سبينوزا الفيلسوف اليهودى .

ويتمثل هذا الجوهر فى القول البهائى الذى ينسبونه إلى الله (الحق يا مخلوقاتى أنكم أنا) .

ويلتقى البهائية فى هذا مع غلاة المتصوفة والباطنية ، ومع الفكر القبالى اليهودى ، والفكر الغنوصى .

إن كلًّا من البهائية واليهودية الحاخامية يلتقيان فى توكيد استمرارية الوحى الإلهى فى التاريخ الإنسانى ، وفى استمرارية الحلول الإلهى فى الحاخامات حسب النسق اليهودى ، وفى بهاء الله حسب النسق البهائى .

وحيث إن الخالق يكشف عن نفسه بشكل تدريجى ، فإن كل دين سيحلّ محله دين آخر ، ومهمة الأديان فى هذا السياق هى خلق وحدة شاملة بين البشر ، تزداد اتساعًا مع مرور الزمن ، فإبراهيم قام بتوحيد قبيلة ، وموسى قام بتوحيد شعب ، ومحمد قام بتوحيد أمة ، أما المسيح فكان هدفه تطهير الأرواح ، وتحقيق قداسة الفرد ، وقد تحققت بالفعل مهمة كل تجل إلهى .. أما بهاء الله - بمقتضى التطور الحضارى - فمهمته أن تتحقق على يديه وحدة الأديان ، وقداسة البشرية جمعاء .

وقد أوصى (كتاب الأقدس) بتشييد معابد تسمى (مشرق الأذكار) ، وهو بناء من تسعة جوانب ، عليه قبة مكونة من تسعة أقسام ، وهى مفتوحة لكل أبناء الديانات المختلفة .

وكما يركز تراث القبالاه على القيمة العددية للحروف ، فكذلك تفعل

البهائية ، ويحتلّ الرقم ١٩ مكانة خاصة فى الفكر البهائى .

يقول البهائيون : إن عدد حروف البسملة (بسم الله الرحمن الرحيم) ١٩ ، وإن كلمة (واحد) قيمتها العددية ١٩ ، ويستخرج البهائيون من الرقم ١٩ براهين ودلائل على أشياء كثيرة ، منها نهاية العالم .

وقد ترجمت تعاليم البهائية إلى أكثر من ٧٠٠ لغة ، ويصل عدد البهائيين اليوم إلى المليونين تقريبًا ، فى أنحاء العالم ، لهم نحو ١٤٣ مجلسًا روحيًا قوميًا ، يتبعها حوالى ٢٨ ألف مجلس محلى فى ٣٤٠ بلدة .

والبهائية سريعة الانتشار فى أفريقيا والهند وفيتنام ، وبين هنود أمريكا اللاتينية الأصليين ، واتخذت مركزها الرئيسى فى شيكاغو بالولايات المتحدة الأمريكية .

وعند نشوب الثورة الإسلامية فى إيران كان يوجد بها ٣٠٠ ألف بهائى ، كانوا يديرون مع إسرائيل مؤسسة الأمن فى إيران ، بالإضافة إلى نشاطات أخرى ، ثم حُرّم نشاطهم بعد قيام الثورة .

وفى إيران تبنى كثير من أعضاء الجماعة اليهودية المذهب البهائى ، مما جعل الحاخامات يحاربونها بشراسة .

وقد كان عباس أفندى يرى أن الخلاص مرتبط بعودة اليهود إلى أرض الميعاد .

وفى ٣٠ يونية ١٩٤٨م كتب أشوجى أفندى ربانى إلى بن جوريون يعبر عن ولائه وأطيب تمنياته ، من أجل رفاهية الدولة الجديدة ، مشيرًا إلى أهمية تجمع اليهود فى (مهد عقيدتهم) .

وقد أُعِد (بيت العدل) مركز البهائية فى أبريل سنة ١٩٨٣م فى بناية ضخمة على جبل الكرمل فى حيفا .

●● فى أول مايو ١٩٢٨م صدر بمصر دستور البهائيين ، مكونًا من ثمانى مواد ، وملحق به لائحة داخلية ، ويوجب : (الاعتراف التام بحضرة الباب مبشرًا ، وبحضرة بهاء الله مؤسسًا ، وبحضرة عبد البهاء مبيّنًا ، والتسليم التام والطاعة والخضوع لكل عبارة من العبارات الواردة فى وصية عبد البهاء المقدسة) .

وفى ١٣ أبريل ١٩٥٠م أصدر مفتى الديار المصرية فتوى :

(إذا كان المدعى قد اعتنق مذهب البهائيين بعد أن كان مسلمًا ، اعتبر مرتدًا عن الإسلام ، تجرى عليه أحكام المرتدين وكان زواجه بمحفل البهائيين بمن تزوج بها باطلًا شرعًا ، سواء أكان من زوجة بهائية أم غير بهائية) .

ومن قبل صدرت فتوى فى ٣ سبتمبر ١٩٤٩م تقول :

(إن البهائية فرقة ليست من فرق المسلمين ، إذ إن مذهبهم يناقض أصول الدين وعقائده التى لا يكون المرء مسلمًا إلا بالإيمان بها جميعًا ، بل هو مذهب مخالف لسائر الملل السماوية ، ولا يجوز للمسلمة أن تتزوج بواحد من هذه الفرقة ، وزواج المسلمة به باطل ، بل إن من اعتنق مذهبهم من بعد ما كان مسلمًا صار مرتدًا عن دين الإسلام ، ولا يجوز زواجه مطلقًا ولو ببهائية مثله) .

ومع هذا ألقت السلطات منذ سنوات يدها على محفل بهائى يتزعمه صحفى رسام له علاقات ، فانتصرت العلاقات على المعتقدات ، وظل الطائر الفنان يرفرف فى كل مكان !!

* * *

روسيا واليهود

فى دراستى (الساعة الخامسة والعشرون) تناولت يهود الخزر ، كان الخزر من أصل تركى ، زحفوا فى القرن السابع ، مخترقين جبال القفقاس إلى جنوبى روسيا ، وأنشئوا ملكًا منظمًا امتد من نهر الدنيبر إلى بحر قزوين (بحر الخزر) ، وشيدوا مدينة إتيل Itil عاصمة لهم ، على مصب نهر الفولجا ، بالقرب من استراخان الحاضرة ، واعتنق ملكهم هو والطبقة العليا الدين اليهودى ، وكانت تحيط بهم إمبراطوريتان : إسلامية ومسيحية .

كانت لهم سبع محاكم تقيم العدالة بين الناس : اثنتان للمسلمين ، واثنتان للمسيحيين ، واثنتان لليهود ، وواحدة للوثنيين .. وكان يسمح باستئناف أحكام المحاكم الخمس الأخيرة إلى المحكمتين الإسلاميّتين ، إذ كانوا يرون أنهما الأكثر عدلًا من المحاكم الأخرى .

وكان بين يهود الخزر ويهود أسبانيا مراسلات حول تقديم العون ليهود شرق أوربا ، وبخاصة يهود روسيا وبولنده .. كما كان يهود الخزر يسببون قلقًا وتهديدًا للحدود الروسية ، بسبب شوكتهم ، وبسبب قوة اتصالهم باليهود الروس ، أولئك الذين كانوا فى تزايد مستمر ، بسبب من الرغبة فى الحصول على الثروات الطائلة ، فى بلاد واسعة الأرجاء ، تتناوشها ذئاب الطامعين من الفرنسيين والألمان والفنلنديين ودول البلطيق .

● كان إيفان الرهيب (١٥٣٣ / ١٥٨٤م) أول روسى قرر طرد اليهود من روسيا ، لاستبعاد أية عناصر تجارية أجنبية .

وبعد اعتلاء أمير بولندى العرش الروسى (١٥٩٨ / ١٦١٣م) ، ونشوب حرب أهلية ، زاد عمق الرفض الروسى لليهود ، على أساس تأييدهم لمغتصب العرش الروسى ، واستعانتهم بكثير من اليهود غير الروس .

ولما كان نظام الأرندا يقوم على استئجار عوائد القرى ، بما فى ذلك الضرائب

والمطاحن والغابات والجبانات ، من النبلاء البولنديين الغائبين ، وقد عمل كثير من اليهود فى هذا النظام ، بعد تقسيم بولنده سنة ١٧٧٢م ، وانضمام مقاطعة روسيا البيضاء إلى الإمبراطورية الروسية ، بالإضافة إلى أوكرانيا وليتوانيا ومولدافيا وسواحل البحر الأسود ، وكانت هذه المقاطعات تضم غالبية يهود شرق أوربا ، وكان بين اليهود تجار أصحاب حوانيت وباعة جائلون ، كما كان كثيرون يعملون فى الرهونات والربا والتهريب والدعارة ، وما كان يعمل فى الزراعة - وظيفة الشعب الروسى - إلا ١٪ من اليهود ، مما جعلهم فى نظر الروس طائفة طفيلية ، تعيش عالة على الاقتصاد الروسى ، مع العمل على تخريبه بعمليات التهريب والتلاعب فى الأسعار ، ومع العمل على إفساد المجتمع بالاتجار فى الخمور وفى الأعراض والابتزاز الربوى .

● ولما تولى القيصر نيقولا الأول حكم روسيا سنة ١٨٢٥م أوضح - منذ بداية حكمه - أنه يعتبر اليهود شعبًا غريبًا ، شعبًا يجب أن يكيف نفسه بسرعة مع الأكثرية السلافية اليونانية الأرثوذكسية ، أو يقاسى من النتائج الوخيمة ، وقد سنّ قانونًا للتجنيد الإجبارى لليهود ، يقضى بأن يبقى اليهودى فى الخدمة العسكرية إحدى وثلاثين سنة ، وكان على القاهال أن تقوم بنفسها بتزويد السلطات بأسماء المجندين اليهود .

وفى سنة ١٨٣٥م صدر قانون جديد يسمى (ميثاق العقود) طرد اليهود بمقتضاه من ريف ولاية كييف ، وخارج عاصمة كييف نفسها .

وفى نهاية حكم نيقولا سنة ١٨٥٥م كانت مناطق إقامة اليهود تتكون من لتوانيا وروسيا الصغرى وروسيا الجديدة ، ومدن معينة فى أوكرانيا .. وحرم على اليهود أن يستخدموا خدمًا من المسيحيين ، أو الزواج قبل الثامنة عشرة ، أو استخدام لغة (البيديش) فى أية وثيقة من الوثائق الهامة .

وفى سنة ١٨٤٠م طلب القيصر من وزير الدولة الكونت ب. د. كيسيليف عقد لجنة تكون قادرة على إصدار مبادئ جديدة وفريدة فى نوعها لحل المشكلة اليهودية .

وجاء فى تقرير اللجنة أن أساس المشكلة إنما يرجع إلى التعصب الدينى اليهودى ، والانفصالية اليهودية ، وأن الذى غذّى فى اليهود أنهم شعب الله المختار هو التلمود الذى نفث فى اليهود (الاحتقار التام للشعوب التى تؤمن بديانات أخرى ، وزرع فى

نفوسهم الرغبة فى أن يحكموا العالم) ، وتحت تأثير التلمود وتعاليمه (التمردية) لا يمكن اعتبار اليهود فى أى بلد آخر - فيما عدا فلسطين - إلا إقامة مؤقتة في الأسر ، وهذا العكوف على التلمود هو الذى يفسر الولاء اليهودى لنظمهم الخاصة ، بالنسبة للحكومة الذاتية ، وبالنسبة لنظام مدارسهم الخاص .

ولذلك اقترحت اللجنة (التأثير على الثقافة الخلقية للجيل الشاب من اليهود عن طريق مدارس يهودية بروح مناهضة للشريعة التلمودية الحالية ، وإلغاء القاهالات ، وإخضاع اليهود للإرادة العامة ، وحظر استخدام الزى اليهودى الخاص ، وتقسيم اليهود حسب مهنهم ، إلى مقيدين مثل التجار والصناع والزراع ، وغير مقيدين ، وهم من ليست لهم مهنة ثابتة ، ويجب أن تفرض عليهم قيود مختلفة ، كالخدمة العسكرية فى الجيش لمدة تصل إلى ثلاثة أضعاف المدة العادية) .

وفى سنة ١٨٤٤م أصدر القيصر أوامره بإلغاء القاهالات جميعها ، وبهذه الطريقة انتهت الحكومة الذاتية اليهودية على الفور ، وأصبح اليهود تحت سلطة الإدارة الروسية العامة .

● وبعد اعتلاء الكسندر الثالث الحاكم (١٨٨١ / ١٨٩٤) وقعت البلاد تحت نظام أوتقراطى رجعى ، شنّ هجمات على كثير من مراكز اليهود السكانية ، استمرت حوالى ثلاثة أعوام ، وتأثر بها حوالى ٦٠ ألف يهودى .

وفى سنة ١٨٨٢م أصدر وزير الداخلية (قوانين مايو) لحماية المواطنين الروس من اليهود ، باعتبارهم عنصرًا أجنبيًا .

وفى سنة ١٨٩١م صدرت توصيات بطرد اليهود من موسكو .

ولم يتغير الوضع كثيرًا فى عهد نيقولا الثانى (١٨٩٤ / ١٩١٨) .

ومن أهم نتائج قوانين مايو ١٨٨٢م أن تدفق يهود روسيا على العالم بشكل أدى إلى طرح المسألة اليهودية على العالم الغربى ، وأعطى الفكر الصهيونى دفعة قوية ، وكان هرتزل يهوديًا نمساويًا مندمجًا لا يكترث بالمسألة اليهودية ، فلما وصل يهود جالشيا إلى فيينا ، حيث يقيم ، شعر بالخطر ، وأيقن أن الصهيونية ستساهم في تحويل الهجرة بعيدًا عن موطنه النمسا .

وخلال الفترة ١٩٠٤ / ١٩١٤م كان معظم المهاجرين من روسيا ، بعد

أحداث كيشنيف فى روسيا (١٩٠٣) ، وهومل (١٩٠٤) ، وبعد فشل الثورة الروسية (١٩٠٥) ، وبعد اضطرابات أخرى حدثت ضد اليهود .

وكان معظم الشبان اليهود الذين قاموا بالهجرة - خلال هذه الفترة - من أعضاء الحركة الصهيونية الاشتراكية ، الذين كان هدفهم خلق طبقة عمالية عبرية ، تكون ركيزة شعب عامل ، له السيطرة على العمل والحراسة والدفاع عن حياة اليهود وممتلكاتهم فى فلسطين .. وقد سعى هؤلاء الشبان إلى بلورة شخصية نموذجية لعامل له وعى اجتماعى متطور ، ولطليعى منجز للفكرة الصهيونية ، وقد ابتدعوا فكرة (الكيبوتز) ، وأسسوا الأحزاب العمالية ، ووضعوا أسس (الاستيطان الكامل) ، ونظموا الاتحاد الزراعى للفلاحين ، وأحيوا اللغة العبرية ، وكتبوا بها الأدب الحديث .

والقيمة الحقيقية لما أحدثته الهجرة الثانية تتبين من خلال مقارنتها بالهجرة الأولى ، إذ لم يهدف رجال الهجرة الثانية إلى (التأقلم) كفلاحين وعمال ، بل عدوا أنفسهم طليعيين ، وممهدى طريق ، لا يعملون من أجل أنفسهم ، ومن أجل الاستيطان الخاص بهم ، بل من أجل المستقبل ، من أجل المجموع القومى كله .. وكانت الصورة المثلى التى عبرت بها الهجرة الثانية عن أيديولوجيتها هى بلورة الشخصية النموذجية ، شخصية (الطليعى العبرى المثالى) .

أما الهجرة الثالثة (١٩١٩ / ١٩٢٤) فقد جلبت معها طاقة ثورية ، لكن هذه الطاقة لم تتحقق ، لأسباب فرضتها أرض الواقع ، وقبل رجالها الخضوع للأنماط الفكرية ، أو المبادئ العلمية الخاصة بزعماء الحركة السابقين .

تقول جولدا مائير ، وهى من طلائع (الهجرة الثالثة) : (يبدو لى أن الهجرة الثالثة لم تجدد فى أسس الحركة ، إن العمل العبرى ، والحراسة العبرية ، واللغة العبرية ، وحياة الكيبوتز ، وفلاحة الأرض كانت بمنزلة أشواق ، ورغم أنها لم تخرج إلى حيز التنفيذ فى صورة « اتحاد العمال » ، فإنها كانت فيما أورثته لنا الهجرة الثانية ، ويهيأ لى أن الأهمية الرئيسية للهجرة الثالثة كانت فى قبول هذه القيم التى سلمها لنا رفاقنا من الهجرة الثانية ، حيث أخذناها عنهم بنية سليمة ، وبسرور ، وحافظنا على وصاياها) .

وقد طبق هؤلاء الطليعيون الأوائل على الصهيونية مبادئ العلمانيين من الراديكاليين الاشتراكيين الروس ، وكان الكثيرون من الطليعيين الأوائل مناهضين للدين

أكثر من هرتزل ، ولم يغلق الشبان والشابات الذين هاجروا إلى فلسطين كرواد فى العقود الأولى من القرن التاسع عشر - البابَ على مظالم روسيا القيصرية فحسب ، بل على التدين اليهودى أيضًا ، الذى اعتبروه خانقًا ثقافيًا ، وكان زمامه فى أيدى رجال الدين الرجعيين ، ووضعوا نصب أعينهم (مجتمع العاملين) العلمانى ، فأباحوا الزواج المختلط بين اليهود وغير اليهود ، ونادوا بفصل الدين عن الدولة .

(ومن الروايات التى تحكى أنه فى أوائل العشرينيات ، فى عيد الغفران ، ذهبت جماعة من الطليعيين الشبان إلى حائط المبكى ، وأخذت تقضم قطعًا من لحم الخنزير ، كذلك فإن بن جوريون تزوج فى حفل مدنى بنيويورك ، ورفض عقد زواجه وفقًا للشعائر الدينية ، وظلت مطابخ العمال والمطاعم التعاونية التابعة للهستدروت تعارض اتباع قواعد الحلال والحرام فى الطعام ، وفى الكيبوتز كان الرجل والمرأة يعيشان معًا دون زواج ، وينجبان أطفالًا ، لأن بعضهم كان يرفض نظام الزواج البورجوازى ، وكان البعض الآخر يرفض الزواج وفقًا للطقوس الدينية ، كذلك رفض كثير منهم الحياة كيهود إلا وفقًا للمفهوم القومى ، ووضعت مجموعة من المصطلحات الجديدة لتأكيد الفارق بين اليهودية كدين واليهودية كقومية .. كانوا يرون أنها مفتوحة ، ظاهريًا ، لأبناء المعتقدات الأخرى ، وكان الطليعى « عاملًا عبريًا » ، وليس يهوديًا ، ونقابته المهنية تدعى « الاتحاد العام للعمال العبريين فى فلسطين - الهستدروت ») .

●● عندما اندلعت الثورة البلشفية كان ثمة من يسميها الثورة اليهودية ، بسبب الدور الذى لعبه اليهود انتقامًا من اضطهاد النظام القيصرى ، وأملًا فى أن يجد اليهود فى الدولة الاشتراكية الأمان وتوفير سبل العمل .

وفى ظل الاتحاد السوفييتى تمتع اليهود بأعلى مستوى من التعليم ، مقارنة بسائر القوميات الأخرى .

تشير إحصائيات تعداد سنة ١٩٥٩م أن نسبة اليهود الحاصلين على ٧ سنوات من التعليم أو أكثر هى ٦١٣ لكل ألف ، وأن نسبة الحاصلين على تعليم عال ١٧٩ لكل ألف .

وذكر أن عدد الطلاب اليهود فى الجامعات والمعاهد العليا السوفيتية جاوز - فى أواخر الستينات - ١١٠ آلاف ، بينما لم يتجاوز عدد الطلاب اليهود فى

الجامعات والمعاهد العليا الإسرائيلية ٣٥ ألفًا ، رغم أن العدد الكلى لليهود فى إسرائيل أكبر من عددهم فى الاتحاد السوفييتى .

وكانت نسبة عالية من اليهود فى القيادة العليا للجيش السوفييتى ، خلال الحرب العالمية الثانية ، إلا أنه خلال أعوام (١٩٤٨ / ١٩٥٣) تم تقاعد ٣٣٣ من القيادات العليا من اليهود ، ولم يبق يهودى واحد سنة ١٩٥٣م بين صفوف كبار الضباط .

وقد اتجه اليهود إلى التمركز فى المهن العلمية والحرة ، مثل الهندسة والطب والعلوم .

أما نسبة اليهود فى الحزب الشيوعى فقد شكلت فى أوائل الستينات أعلى نسب القوميات المختلفة فى الحزب .. لقد بلغت نسبتهم سنة ١٩٨٢م مائتين وستين ألفًا من مجموع أعضاء الحزب البالغ عددهم ١٤ مليون عضو .

وبينما كان عدد اليهود السوفييت ثلاثة ملايين عشية الحرب العالمية الثانية ، بلغ عددهم فى إحصاء ١٩٧٩م أقل من مليونين ، وفى عام ١٩٨٥م بلغ عددهم ١,٦٠٠ ، ثم هبط إلى ١,٤٥٠,٠٠٠ ، وفى سنة ١٩٧٩م صار عدد يهود أوكرانيا وروسيا البيضاء ٧٦٩ ألف يهودى فى مقابل مليون سنة ١٩٥٩ م .

ويذهب الديموجرافى الإسرائيلى جريجورى روزنتشاين إلى أنه يوجد ٣,٥ مليون مواطن سوفييتى من سلالة يهودية لم يصنّفوا على أنهم يهود .

وكثير من أعضاء النخبة الحاكمة فى إسرائيل من يهود اليديشية من أصل روسى ، مثل حاييم وايزمان ، ويتسحاق بن تسفى ، وزلمان شازار ، وجولدا مائير ، وموشيه شاريت ، وجابوتنسكى ، وبإضافة النخبة من أصل بولندى ، مثل بن جوريون ، ومناحم بيجن وغيرهما ، يمكن القول : إن النخبة من يهود الإشكناز هى التى تحكم إسرائيل .

● فى سنة ١٩١٦م تم عقد معاهدة بطرسبرج بين بريطانيا وروسيا وفرنسا ، تعهد فيها الجميع بالعمل يدًا واحدة من أجل إنقاذ البلاد العربية وحمايتها ، وتأليف حكومة إسلامية مستقلة منها ، تتولى بريطانيا مراقبتها وإدارتها .

وبعد قيام الدولة السوفييتية رأى مستشارو ستالين أن إقامة الدولة الصهيونية فى الشرق الأوسط المتخلف ستدخل عنصرًا من عدم الاتزان والصراع فى المنطقة ، مما سيؤدى إلى تثويرها .

وفى فبراير ١٩٤٥م عقد مؤتمر نقابات العمال العالمى فى لندن ، وصوّت الوفد السوفييتى إلى جانب قرار يؤيد قيام وطن قومى لليهود فى فلسطين .

وفى مؤتمر يالطا - فبراير ١٩٤٥م - اتفق ستالين مع كل من روزفلت وتشرشل على ضرورة إنشاء وطن قومى يهودى فى فلسطين ، وعلى وجوب فتح سريع للأبواب التى كانت تعوق الهجرة اليهودية إلى فلسطين ، مقابل السماح للسوفييت بإقامة مناطق نفوذ لهم فى أوربا الشرقية ، وبادر الاتحاد السوفييتى فى يوليه من نفس العام بالاعتراف بالوكالة اليهودية ، وسمح بفتح مكتب لها فى موسكو ، ثم قام جروميكو بتأييد قرار التقسيم ، (حتى يتم التعايش بين الشعبين العربى واليهودى) فى أبريل ١٩٤٧م ، وقد تحدث فى ١٣ أكتوبر ١٩٤٧م عن ارتباط الشعب اليهودى التاريخى بفلسطين ، وأشار إلى الظروف التى وجد الشعب اليهودى نفسه فيها نتيجة للحرب .

وخلال شهر واحد من إعلان قيام دولة إسرائيل اعترفت بها إحدى عشرة دولة ، ست منها من دول الكتلة الاشتراكية .

وقد سهل السوفييت عملية الهجرة لكثير من يهود بولنده إلى مناطق احتلال الحلفاء فى النمسا وألمانيا ، مدركين أن هؤلاء المهاجرين سيتوجهون فى النهاية إلى فلسطين ، كما أن تشيكوسلوفاكيا زودت المستوطنين اليهود بالأسلحة التى لعبت دورًا رئيسيًا فى عملية الغزو الصهيونى .

● ومع هذا ، يوصف المهاجرون السوفييت إلى إسرائيل بأن :

١ - وعيهم السياسى ضعيف للغاية ، وإن كانوا يتسمون بعداء حقيقى للاشتراكية .

٢ - وبأنهم يكرهون الكيبوتزات ، إذ تذكرّهم بالمجتمع الذى نبذهم ونبذوه .

٣ - ويرغبون فى تحسين المستوى المعيشى ، دون اكتراث بأى قيمة ثقافية أو دينية أو حضارية .

٤ - وهم هاربون من الاتحاد السوفييتى ، وليسوا مهاجرين إلى إسرائيل ، أى مستوطنون بالإكراه .

و (اللاجئون) من اليهود - فى زمن جورباتشوف ويلتسن ، أى بعد القضاء على النظام الاشتراكى (البولشفى) - متهمون بالمتاجرة فى كل شىء غير أخلاقى ، وبتكوين عصابات تتعامل مع المافيا العالمية ، ولا تدين بقدر من الولاء للدولة الإسرائيلية .

فى البلاد العربية

علمنا أن هجرات شرق أوربا لم تأخذ طريقها مباشرة إلى فلسطين ، ففى الفترة (١٨٨١ / ١٩١٤) ترك روسيا أكثر من مليونى يهودى ، فإذا أضفنا الهجرات منذ عهد إيفان الرهيب تبين لنا حجم هذه الهجرات التى شكلت عبئًا كبيرًا على غرب أوربا وأمريكا ، أدى إلى فزع قطاعات كبيرة من اليهود الغربيين ، فتبنوا الحل الصهيونى ، لإعانة يهود الشرق ، ولتحويل طوفان الهجرة عن بلادهم .

ولما كانت البلاد العربية جميعًا مستعمرات انجليزية وفرنسية وإيطالية فقد سهل تسرب أعداد كبيرة إلى حيث يجدون الملجأ الأمين والثروات الميسرة ، وبخاصة أن لهم بين العرب كثرة يهودية وجدت فى التسامح الإسلامى سُلّمًا إلى أخطر المواقع المؤثرة اقتصاديًا وثقافيًا وسياسيًا .

فى مصر أقام خمسة آلاف فى القاهرة ، وثلاثة آلاف فى الإسكندرية ، عشية الاحتلال البريطانى لمصر .

وتدفقت بعدُ أعداد ضخمة من يهود بلدان البحر المتوسط ، والبلقان ، وشرق أوربا .

ويلاحظ أن الهجرة إلى مصر واكبت حركات الانتعاش ، بعد أن طبق كل من محمد على (١٨٠٥ / ١٨٦٩) ، والخديوى إسماعيل (١٨٦٣ / ١٨٧٩) كثيرًا من الإصلاحات ، كما تزايدت بعد افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩ .

وفى العراق قدر تعداد اليهود عام ١٩١٧م بـ ٨٥ ألف نسمة ، وفى تعداد ١٩٢٠ قدر عدد اليهود بـ ٧٨ ألف يهودى ، منهم ٥٠,٣٠٠ يقيمون فى بغداد ، و٧ آلاف يقيمون فى البصرة .

وفى عام ١٩٤٧م وصل تعداد اليهود إلى ١١٨ ألفًا ، منهم فى بغداد ٧٧,٥٠٠ ، وفى البصرة ١٠,٥٠٠ .

بينما كان يهود الموصل سنة ١٩٠٦م يقدر عددهم بـ ٣,٣٠٠ ، وفى عام ١٩٤٦م قدر بـ ٨,٢٠٠ .

وقد سيطر اليهود على أسواق المال فى العراق ، مما أدى إلى تعرضهم للاضطهاد من قبل الأتراك الذين شكوا من أن اليهود تسببوا فى انهيار قيمة العملة التركية ، وأعرب اليهود بسبب هذا الاضطهاد عن تأييدهم للبريطانيين ، فأصبحوا - بعد احتلال العراق - يتحكمون فى الاقتصاد ، وتولى اليهودى ساسون يخرقيان منصب وزير المالية ، فى حكومة الانتداب البريطانى ، كما سيطر اليهود على ما يربو على ٩٠٪ من حركة الواردات وأعمال المقاولات ، وشغلوا ٥٠٪ من حجم الوظائف الحكومية ، وعمل كثيرون فى مجالات التدريس والطب والصيدلة والصحافة والمحاماة ، ولعبوا دورًا بارزًا فى الحياة الفنية والأدبية .

كانت عائلتا زلخا وعبودى من أكثر العائلات اليهودية ثراء فى العراق ، وقد تميزت العائلات اليهودية الثرية عن غيرها من العائلات اليهودية الثرية - فى الشرق - بالثراء الفاحش ، وبامتداد أنشطتها خارج العراق .

وكان مناحيم صالح دانيال وساسون أفندى بن يحزقئيل عضوين فى مجلس الأعيان العثمانى ، وكان يعقوب تسيمح وابن داود عضوى مجلس مدينة الموصل ، وحاييم بن موسى قافح بمنزلة حاكم محافظة باريم باليمن ، إبان الحكم التركى .

وقد كان لليهود فى العراق - منذ حكم المماليك (١٧٥٠ / ١٨٣١) - سيطرة على سوق المال ، وكان كبير الصرافين عادة من اليهود ، ممثلًا فى شيخ الطائفة اليهودية ، كما كان اليهود يتولون إدارة بيت المال ، ثقة من الحكام فى قدرتهم .

● وفى اليمن كان باروخ بن شموئيل الطبيب الخاص للإمام المهدى عبد الله سنة ١٨٣٤م ، ثم أصبح مستشاره وكاتم سره للشئون السياسية والعسكرية .

وفى عدن ارتفع عدد اليهود بشكل ملموس ، بسبب من الاحتلال الانجليزى ، وبسبب من النشاط التجارى الكبير فى هذا الميناء العالمى ، فبينما قدر عددهم فى عام ١٨٣٩ بـ ٢٥٠ يهوديًا ، فإن تعدادهم قدر فى عام ١٩٤٦م بـ ٧٣٠٠ يهودى .

وبعد احتلال عدن عام ١٨٩٣م ، تم إلغاء ضريبة الجزية ، بهدف التقرب من اليهود الذين لم يتوقفوا عن مساندة المحتل البريطانى عن طريق عمليات التجسس ، وعن طريق التأثير فى سوق المال ، وعن طريق نشر الموبقات .

● وفى سوريا ، ذكر الرحالة بنيامين هشينى الذى زار المنطقة عام ١٨٤٨م أن عدد العائلات اليهودية فى حلب يقدر بألفى عائلة ، وأن تعداد اليهود بها يقدر بعشرة آلاف ، وأن فى دمشق ستمائة عائلة ، يقدر تعداد أفرادها بثلاثة آلاف .

وذكر فرانكل فى كتابه (إلى القدس) أن تعداد اليهود فى دمشق سنة ١٨٥٦م يبلغ خمسة آلاف ، بعضهم من الأشكناز ، ومن بينهم خمسون يهوديًّا من أصل إيطالى ، يعيشون تحت رعاية قنصل النمسا .

وفى العقدين الأخيرين من القرن التاسع عشر بلغ يهود حلب والمناطق المحيطة بها تسعة آلاف وثلاثمائة وسبعين .

وكانت بيروت حتى عام ١٩٢٠م قرية صغيرة يعيش فيها ما بين خمسة وستة آلاف نسمة ، وبلغ سكانها فى الخمسينات نحو خمسين ألفًا منهم ثلاثة آلاف يهودى .

وفى تعداد لبنان سنة ١٩٥٨م بلغ عدد اليهود تسعة آلاف ، تضاءل بشكل ملحوظ بعد حرب ١٩٦٧م .

وقدر عدد يهود سوريا بعد حرب ١٩٦٧م نحو ٥,٥٠٠ معظمهم فى حلب ودمشق .

● وفى الجزائر لم يتجاوز عدد اليهود عام ١٨٣٠م ، وهو عام الغزو الفرنسى ، سبعة عشر ألفًا ، أقام أكثرهم فى أربع مدن رئيسية ، فى مدينة الجزائر نحو خمسة آلاف ، وفى قسنطينة نحو ثلاثة آلاف ، وفى وهران نحو ألفين وثلاثمائة ، وفى تلمسان ألف وخمسمائة .

وتفيد شهادات بعض القادة الفرنسيين أن يهود الجزائر رحبوا بقدوم الفرنسيين ، وعدوا تاريخ الاحتلال عيدًا لهم .

وقد اعتمد الفرنسيون على اليهود فى جمع المعلومات (التجسس) ، وفى الترجمة ، وفى الاتصال بالدوائر السياسية المحلية .

ورأى الفرنسيون فى تحسين أحوال اليهود عامل جذب ليهود حوض البحر المتوسط لتصبح الجزائر (فلسطين) أخرى ، وحلقة وصل بين أروبا وأفريقيا .

كتب البارون (بو) سنة ١٨٤١م : (يستطيع اليهود لما يتمتعون به من مكانة فكرية ، ولانتشارهم فى بقاع الأرض ، ولصلاتهم القوية مع سائر الطوائف أن يكونوا بمنزلة إحدى قنوات التأثير الاقتصادية والسياسية الفرنسية ، فى كافة أنحاء أفريقيا ، ويستطيعون على هذا النحو أن يقدموا لفرنسا مقابلاً مناسبًا لقاء ما حصلوا عليه منها) .

وبناء على هذه العلاقة تشكل مجلس يهودى مركزى فى مدينة الجزائر ، ومجلسان آخران فى مدينتى وهران وقسنطينة .

وكان حصول يهود الجزائر على حقوق المواطنة الفرنسية ، بموجب (قانون كرميه) من بين أسباب ظهور العداء لليهود فى الجزائر ، وظل يتنامى مع ازدياد النشاط الثورى ضد المحتلين .

ومعروف عن اليهود شدة ارتباطهم بالعناصر الحاكمة فى كل مكان نزلوا به ، لتيسير وسائل الكسب ، ولتوفير أسباب الأمان ، وكانوا يبتهلون فى صلواتهم بالأدعية للحكام .. ومع تطوير هذه العلاقة مع ما يجدّ من أحداث ، وما يجدّ من سبل ، ومع تكوين جماعة (كل شعب إسرائيل أصدقاء) - قوى الاهتمام فى بلدان الشرق بإقامة مؤسسات تعليمية حديثة على النمط الأوربى ، فى التجمعات اليهودية .

وقد أسهم انضمام اليهود الشبان إلى المنظمات الشيوعية أو الصهيونية فى مجتمعاتهم - فى زيادة إحساس مجتمع الأغلبية بالاغتراب عن اليهود ، ومن ثم كان الصراع اليهودى العربى الناجم عن الأنشطة التى مارستها الحركة الصهيونية التى اعتمدت على تأييد بريطانيا والقوى الأوربية - مساعدًا على الإحساس بقدر من التفوق اليهودى على آلية الكفاح العربى .

● وبعد احتلال تونس سنة ١٨٨١م شعر يهود فرنسا أنهم يشهدون أحداث احتلال الجزائر ، فاستخدمت الصحافة اليهودية الفرنسية عند حديثها عن يهود تونس - وكان يبلغ تعدادهم نحو ثلاثين ألفًا - نفس الألفاظ والتعبيرات التى سبق أن استخدمتها عند احتلال الجزائر ، وذكرت أن (تعداد يهود تونس ضخم للغاية ، وأن

يهود تونس من المستنيرين ، وأنهم على استعداد لتقبل الثقافة الأوربية ، وأنهم من محبى ومؤيدى فرنسا) .

وطالب يهود فرنسا حكومتهم بتشكيل مجالس يهودية فى تونس يتولى الحاخامات الفرنسيون رئاستها ، كما طالبوا بمنح الجنسية الفرنسية ليهود تونس ، لكن المندوب السامى الفرنسى فى تونس رفض هذا الطلب ، وكتب يقول : (تعد الأحداث التى تشهدها الجزائر دليلًا قاطعًا على طبيعة المساوئ السياسية المحيطة بتنظيم المجالس اليهودية ، إن كل محاولات الإصلاح الهادفة إلى وقوع قيادة الطائفة فى أيدى الأثرياء من اليهود والشخصيات المؤثرة منهم - ستخلق مراكز قوى فى تونس لن يكون هناك مفر من تجاهلها ، وفى الواقع إن بنية الهيئة الحاخامية الحالية بالغة القدم ، ولكنها تعطينا ضمانات كافية تكفل لنا الأمن والاستقرار) .

وقد أبدى الفرنسيون عشية الحرب العالمية الأولى قدرًا من المرونة إزاء منح حق المواطنة الفرنسية ليهود تونس ، شريطة قيامهم بالخدمة فى الجيش الفرنسى لمدة ثلاث سنوات ، أو العمل لمدة ثلاث سنوات مع الإدارة الفرنسية ، أو القيام بأى أعمال تستحق التقدير والإعجاب لمصلحة فرنسا .

وقدر عدد الذين حصلوا على الجنسية الفرنسية خلال الأعوام (١٩١١ / ١٩٣٠) بـ ٥,٥٦٩ يهوديًا ، كما حصل ١,٣١٢ يهوديًا خلال الأعوام (١٩٣١ / ١٩٣٥) على الجنسية الفرنسية ، وسافرت خلال هذه الفترة أعداد كبيرة من يهود تونس إلى الجزائر وفرنسا لإكمال الدراسات العليا ، وحصل هؤلاء على الجنسية الفرنسية عند عودتهم إلى تونس ، مما جعل الجنسية الفرنسية إحدى السمات المميزة لأبناء الطبقة العليا فى المجتمع اليهودى التونسى .

وازدهر فى تونس - بشكل ملحوظ - الأدب اليهودى المدون بحروف عبرية ، وقد ظهر هذا الأدب فى نهاية القرن التاسع عشر ، فى أعقاب إنشاء المطابع اليهودية التى حرصت على نشر قصص الفولكلور اليهودى التونسى .

وقد ذكر الباحث أفراهام هطل أنه صدرت فى تونس - إبان هذه الفترة - نحو ثمانين مجلة متخصصة فى الفولكلور اليهودى ، وحرصت هذه المجلات - مع مضى الوقت - على توسيع إطار اهتمامات يهود تونس ، فنشرت باللغة العربية بعض روائع

الأدب اليهودى الوسيط ، وحرصت الصحف اليهودية فى تونس على تزويد قرائها بكل ما يدور فى كافة أنحاء العالم ، وخاصة فى أوساط اليهود .

● وفى المغرب أبدى الفرنسيون تحفظهم إزاء دمج اليهود الذين هم من الرعايا الأجانب - حتى ولو كانوا فرنسيين - فى المؤسسات الطائفية ، خوفًا من أن يظهروا قدرًا كبيرًا من الاستقلالية فى أعمالهم ، ومن أن يُضْفوا طابعًا سياسيًّا على أنشطتهم ، كما تعامل الفرنسيون بحذر بالغ مع ممثلى الجيل الجديد من القيادات اليهودية .

وقد بلغ عدد يهود المدن الساحلية - طنجة وموجالة (الصوبرة) والدار البيضاء ، فى عام ١٨٥٠م - ما يتراوح بين ٢٥٪ و٤٠٪ من التعداد الكلى للسكان فى هذه المدن الذى كان يقدر آنذاك بمائة ألف نسمة ، بينما كانت نسبتهم إلى مجمل سكان المغرب ٣٠٪ ، وارتفعت هذه النسبة فى عقد السبعينات ، لتشكل ٥٥٪ من سكان المدن الساحلية الأخرى ، مثل : تطوان والرباط وسلا وفرجان وأغادير ، كما شكلوا نسبة ٦٥٪ فى عام ١٩٠٠م من تعداد السكان .

وعند النظر فى تعداد اليهود فى مدن فاس ومكناس وصفرو والعرايش وغيرها نجد أن اليهود كانوا يفضلون الإقامة فى المدن أكثر من القرى ، لكنهم كانوا يباشرون نشاطهم فى القرى من خلال إقامتهم فى المدن ، عن طريق التمويل الربوى ، وتسويق المحاصيل ، وعن طريق الصناعات الصغيرة ، وترويج السلع المستوردة من فرنسا بخاصة .

وقد تأثرت الحياة اليهودية - فى مناطق عديدة من المغرب - بالشخصيات اليهودية التى كان ينظر إليها بوصفها شخصيات تنتمى إلى عالم الأولياء والقديسين ، وكان الإفراط فى الولاء لهؤلاء القادة يعد بمثابة إحدى الظواهر المميزة لحياة يهود المغرب ، خاصة بالنسبة للطبقات الشعبية التى شكلت غالبيته أبناء المجتمع اليهودى ، وكان يطلق على هؤلاء عادة لقب (الصدّيقين) ، كما كان يطلق عليهم أحيانًا لقب (أولياء البلاد) ، أى الذين يرعون الطائفة ويحمونها ، وكان ثمة اعتقاد شعبى فى قدرة هؤلاء الأولياء على الإتيان بالمعجزات ، فى حياتهم وفى مماتهم .. وكان للأولياء الذين أتوا من فلسطين وضع خاص ، وكانوا يشكلون ٩٠٪ من كل الأولياء بالمغرب الذين قدر عددهم بنحو ٦١٥ وليًّا .. وشاع فى أوساط يهود المغرب أنه حينما يتم الكشف عن قبر بعض الصديقين والأولياء فإن المسيح المخلص سيظهر .

وكان يعتقد أن بمقدور الأولياء شفاء المرضى ، وإنجاب العاقر ، وتمكين القَعَدَة من السير ، والمكفوفين من الإبصار . كما كان يعتقد أنهم يوفرون الحماية من كافة الشرور .. وكانت زيارة قبورهم تساعد على انفراج الأزمات ، ولهذا كانت تحل البركات على الزوار وهم يُشعلون الشموع ، وينشدون القصائد ، ويرقصون ، تكريمًا للأولياء . وقد انتقلت هذه المعتقدات إلى يهود كُلٍّ من الجزائر وتونس ومصر وإسرائيل .



من آثار وعد بلفور

أثار تصريح بلفور وقرارات مؤتمر سان ريمو موجة كبيرة من الحماسة في أوساط يهود شمال أفريقيا ، فقد أخذوا في إقامة صلوات جماعية ، وعقد مؤتمرات حاشدة أعربوا فيها عن تأييدهم للفكر الصهيوني ، واشتراكهم في أنشطته ، وتنظيم الهجرة إلى إسرائيل ، وإقبالهم على شراء الشيكل الصهيوني لتعزيز قيمته .

في الجزائر تشكلت روابط يهودية بين مدن تلمسان ، ومديه ، ومستغانم ، وبريفيل ، لتأييد الفكر الصهيوني ، ومنذ عام ١٩٢٠م عملت رابطة (العودة إلى صهيون) التي ضمت في البداية حوالي مائتين وسبعين عضوًا - على تكثيف جهودها من أجل مزيد من الأعضاء العاملين في الحقل الصهيوني على أرض الجزائر وفي داخل فلسطين ، ومع هذا قال زعيم الرابطة : (إن أثرياء اليهود والشخصيات ذات النفوذ تقاطع الحركة الصهيونية ، ولا يمكننا حتى الآن الاعتماد عى تأييدهم ، وتضم رابطتنا في صفوفها فقراء اليهود والعمال والمستضعفين ، ونأمل في أن ننجح في جذب أثرياء وشرفاء اليهود ، لكنهم يدّعون دائمًا أنهم فرنسيون ، وأنهم غير ملزمين بالمسألة الصهيونية ، وأنهم سعداء في الجزائر) .

وفي تونس شهدت الفترة (١٩١٧ / ١٩٢٢) زيادة ملحوظة في عدد الروابط الصهيونية .. في عام ١٩١٧م تشكلت اثنتا عشرة رابطة ، كانت منتشرة في كل من تونس ، وبيروطة ، وصفاقس ، وسوسة ، ومهدية ، ونابول ، وجربه ، وقبوان ، وموقنين ، وبلغ أعضاء كافة هذه الروابط ألفي يهودي .. وفي عام ١٩٢٠م وافقت هذه الروابط على الاتحاد ، وتشكيل ما عرف باسم (الاتحاد الصهيوني التونسي) الذي حظي بعد مضي ثلاثة أشهر على تأسيسه باعتراف رسمي من قبل السلطة ، فأتيحت له الحرية الكاملة في ممارسة نشاطه ، والتعبير عن أهدافه .

وفي المغرب أخذت كثير من العائلات اليهودية في الهجرة إلى فلسطين ، وقد أرسل رئيس رابطة (الصوت المبشر) في مدينة صفرو إلى رئيس الاتحاد الصهيوني

العالمى ، يطلب مندوبًا خاصًا لشئون الهجرة ، (حتى يشعر الرواد منا بالطمأنينة والسعادة ، إذا قمتم بتوطين المهاجرين فى المستوطنات الزراعية ، أو فى الأحياء العربية ، لا سيما أنهم قد اعتادوا العيش مع العرب) .

وحصل رئيس الرابطة الصهيونية المحلية فى مدينة موجادير - إبان نفس الفترة - من القنصل البريطانى على تأشيرات دخول اليهود الراغبين فى الرحيل إلى فلسطين .

وفى ليبيا شملت الأنشطة الصهيونية مدينة قيرنايقه ، بعد أن تأسست بها سنة ١٩١٩م (رابطة هيرتزل) التى أثرت - مثل (رابطة صهيون) فى طرابلس - فى مسيرة التعليم العبرى ، ونجحت (رابطة صهيون) فى تعزيز مكانتها بين مؤسسات الطائفة التى تهتم بتعليم الشباب وتوجيه اهتماماتهم .. وكان يسكن طرابلس نحو ٤٠٪ من عدد اليهود فى ليبيا .

* * *

فى مصـــر

قرب عباس الأول يعقوب قطاوى إليه ، وعينه فى وظيفة الصراف العام ، أو كبير الصيارفة ، واحتفظ قطاوى بوظيفته فى عهدى محمد سعيد وإسماعيل .

وفى عهد إسماعيل أسهم بنك أو بنهيم اليهودى الألمانى فى إقراض إسماعيل مبالغ طائلة بفوائد باهظة ، كما لعب بنك روتشيلد اليهودى الفرنسى نفس الدور .

ولما تم فتح قناة السويس للملاحة الدولية ، نشطت الحركة التجارية ، وزادت الأطماع الاستعمارية واليهودية ، فلما كان الاحتلال البريطانى نزح إلى مصر عدد كبير من اليهود - كما حدث مع الحملة الفرنسية - حتى بلغ عدد اليهود ٢٥,٢٠٠ ، وأخذت الزيادة باطراد ، تبعًا لاطراد سيطرة اليهود على أصحاب المصالح الرأسمالية والإقطاعية ، وتبعًا للتوسع اليهودى اقتصاديًّا وسياسيًّا وإعلاميًّا ، وكان أن بلغ عدد اليهود ٣٨,٦٣٥ فى سنة ١٩٠٧م .

وفى سنة ١٩٢٧م بلغ عدد اليهود ٦٣,٥٥٠ ، وفى تعداد ١٩٤٧م بلغ عددهم ٦٥,٦٣٩ .

وقد عمل الخديوى توفيق (١٨٧٩ / ١٨٩١) على تقريب أشهر الأسر اليهودية قطاوى ، وهرارى ، وعاداه ، وموصيرى .

وفى عهد ابنه عباس الثانى (١٨٩٢ / ١٩١٤) كان محامى القصر مراد فرح ليشع ، وكان الخديو يستعين باليهود فى تصريف الاستثمارات والمضاربات المالية التى شغل نفسه بها .. وفى سنة ١٩١٣م أصدر الخديو دستوره المعروف باسم القانون النظامى ، وتأسست بموجبه الجمعية التشريعية ، وعين الخديو يوسف أصلان قطاوى عضوًا بالجمعية عن التجار ، وكان قطاوى هذا بين الأعضاء المنتخبين فى لجنة مشروعات واقتراحات نظارة المالية .

وتبعًا لازدياد السيطرة اليهـودية على صانعى القرار وافقت الحكومة المصـــرية

- برئاسة مصطفى رياض باشا - لثرى يهودى ألمانى يدعى بول فريدمان سنة ١٨٩٠م على إنشاء مستوطنة يهودية فى شبه جزيرة سيناء ، كما وافقت الحكومة المصرية - برئاسة بطرس غالى سنة ١٩٠٣م - على إقامة مشروع استيطان اليهود فى العريش ، بدلًا من فلسطين ، لكن كرومر رفضه خوفًا من أن يؤثر تزويد المشروع الصهيونى بماء النيل على زراعة القطن فى مصر .

● تقول الدكتورة سعيدة محمد حسنى (اليهود فى مصر ص ٢٠ ، ٢٢) :

فى يونية ١٨٦٧م أصدرت الدولة العثمانية قانونًا خاصًّا بالترخيص للأجانب بامتلاك العقارات فى جميع الولايات التابعة للدولة العثمانية ، ماعدا إقليم الحجاز ، لكن اليهود كانوا قد وجدوا فى مصر - قبل هذا التاريخ - أكثر من وسيلة للامتلاك ، وبخاصة أن مصر - منذ حكم محمد على - صارت أقرب إلى الاستقلال عن حكومة الباب العالى .

إن الجماعات اليهودية فى مصر كانت تنقسم من حيث النظام الاقتصادى إلى :

١ - تجمع الإسكندرية الذى أنشئ سنة ١٨٤٠م ، وكانت صلته وثيقة ببريطانيا ، وكان لعائلة موصيرى نفوذها فيه .

٢ - تجمع القاهرة سنة ١٨٤٤م ، وكان يلوذ بالحماية البريطانية كذلك ، وكان لعائلة قطاوى نفوذها فيه .

وبعد تدفق اليهود المهاجرين على مدينة الإسكندرية حاول البارون منشّه المقيم بالإسكندرية توجيد النشاط الاقتصادى لهذه الجماعات .

وعندما تأسست الشركة المساهمة للملاحة البحرية سنة ١٨٥٧م وجد عدد من اليهود فى مجلس إدارتها الذى كان يتشكل من الوطنيين والأجانب .

وعندما أنشئ مجلس القومسيون سنة ١٨٦١م كان أحد أعضائه من اليهود .

لقد تغلغل اليهود فى الاقتصاد المصرى ، حتى كان ٩٨٪ من رجال البورصة يهودًا ، وسيطر اليهود على ١٠٣ شركة من مجموع ٣٠٨ .

وعمل اليهود فى تجارة الأدوات الكتابية والورق وأدوات الطباعة ، فأسسوا شركة شندلر للطباعة سنة ١٩٢٧م ، واستطاعوا - من خلال هذه التجارة الخطيرة - توجيه بعض الأقلام والصحف لخدمة أهدافهم .

وكان اليهود يسيطرون على حى الحمزاوى والأزهر بالقاهرة ، وعلى شارع فرانك بالإسكندرية ، وعلى معظم الشوارع والأحياء التجارية فى كبرى المدن المصرية .. كما سيطروا على رصيف روض الفرج بالقاهرة ، ورصيف مينا البصل بالإسكندرية .. وأسسوا شركة التصدير الشرقية بالإسكندرية سنة ١٩٢٠م ، وبهذا صارت تجارة مصر الداخلية والخارجية بأيدى اليهود .

وامتلك اليهود معظم أراضى كوم امبو ، وحلوان ، ومصر الجديدة بالقاهرة ، ومنطقة سموحة بالإسكندرية ، واستمروا فى شراء الأراضى الزراعية بناحية رفح والعريش بسيناء .

واحتكر اليهود الصناعات الغذائية ، وصناعة مواد البناء ، بالإضافة إلى صناعة المنسوجات ، وحلج القطن وغزله ، والصناعات الدوائية والكيميائية والهندسية والبترولية .

وكان على رأس (اتحاد الصناعات المصرية) هنرى نوس بك ، وكان سكرتير الاتحاد جاك ليفى .

وكان يوسف قطاوى أحد مؤسسى (بنك مصر) ، وقد ساعد على إدخال جوزيف شيكوريل فى مجلس إدارة البنك .

وحين أراد طلعت حرب إنشاء بنك مصرى فلسطينى هدده اليهود بسحب ودائعهم فى (بنك مصر) ، وطالبوا بضرورة إلغاء التعامل بالجنيه المصرى فى فلسطين ، وإيجاد عملة فلسطينية مستقلة .

واشترك الرأسماليون اليهود : سوارس ، ورولو ، وقطاوى ، فى تأسيس بنوك رهونات عقارية ، استولوا عن طريقها على كثير من الأراضى والعقارات الوطنية ، وقد أسس بعضهم بنوكًا خاصة ، مثل بنك موصيرى الذى تأسس سنة ١٩٠٤م ، وبنك زلخه الذى أسسته أسرة عراقية يهودية سنة ١٩٠٥م .

وأسهم اليهود فى إنشاء خط سكة حديد الإسكندرية والرمل ، وفى إنشاء سكة حديد قنا / أسوان ، وفى إنشاء ترام الإسكندرية ، وشركة خط سكة حديد الفيوم وحلوان ، وشركة الخطوط الحديدية للدلتا ... إلخ .

وكان يوسف بك قطاوى أحد مديرى شركة سكة حديد حلوان ، واشترك شقيقه موسى قطاوى بماله وإدارته فى إنشاء سكة حديد حلوان ، وسكة حديد قنا / أسوان .

وكان سيمون وجاكومو روبين رولو من أعضاء شركة سكة حديد حلوان ، كما كان أفرايم عداه رئيسًا لحساباتها ، وكان قد تولى إدارة أعمال السكك الحديدية فى دمنهور وقنا وأسوان .

وكان لموسى بك قطاوى إسهام فى إنشاء شركات خاصة بالنقل بالسيارات ، وإنشاء شركة نقل الركاب داخل القاهرة .

كما كان لليهود السيطرة على أهم الفنادق ، مثل الكونتننتال وشبرد وسميراميس .

وسيطر كل من توجو مزراحى وإيلى درعى على صناعة السينما ، كذلك كان لجوزيف موصيرى وألكسندر ابتكمان نشاطهما فى بناء دور السينما والاتجار فى أدوات التصوير ، وفى الإنتاج السينمائى .

وسيطر اليهود على البنك العقارى المصرى ، والبنك الأهلى المصرى ، بالإضافة إلى شركات مالية كثيرة أسسها وأدارها رأسماليون يهود ، فضلًا عن بنوك زلخة وموصيرى وسوارس ، كما سبقت الإشارة .

وكانت لهم السيطرة على الصادرات والواردات ، وبخاصة فى تجارة القطن والأنسجة ، كما كانت لهم أشهر المحال التجارية ، مثل : شيكوريل وبنزايون وشملا وعمر أفندى وباروخ وهانو ، وكانوا الأنشط فى تجارة الذهب والدخان والمياه الغازية وإقراض المال .

● وساعد هذا النشاط الاقتصادى على تطويع (الهياكل) الرسمية لنشاط يهودى فى مجالات سياسية تعد ضد الخط الرئيسى الذى يحكم التطلعات (الشعبية) نحو تحرير الأرض (العربية) من جميع الطامعين والعملاء ، ومع أن الخط (القومى) لم يأخذ طريقه إلى صانعيالقرار ، لأنهم كانوا واقعين تحت تأثير المناورات الحزبية التى تمسك خيوطها الرئيسية أيدى المحتلين ومن يلوذون بهم ، فإن الوعى الشعبى ظل محجوبًا عما يجرى فى البلاد العربية ، بسبب من التوجه الساخط ضد الاحتلال الإنجليزى .

من أجل هذا ، وبفضل (القوة) الاقتصادية سهل على اليهود أن يخرجوا إلى

الشارع المصرى ليعبروا من فرحهم الغامر بوعد بلفور ، فتقيم المنظمة الصهيونية حفلًا بمدينة الإسكندرية حضره محافظ الإسكندرية أحمد زيور باشا ، وكبار رجال الطائفة ، حيث عرضت مسرحية تمثل معاناة اليهود فى روسيا ، واختتم الحفل بخطاب جاك موصيرى رئيس المنظمة الصهيونية فى مصر ، أعلن فيها أن الصهيونية أصبحت حقيقة واقعة ، وناشد اليهود فى مصر أن يولوا المسألة اليهودية اهتمامهم .

وأقامت جمعية زئير زيون حفلًا آخر بنفس الحماسة ، رسم فيه المتحدثون صورة طيبة للمستقبل الإسرائيلى فى فلسطين .. وفى الختام أنشد الحاضرون النشيد الوطنى اليهودى (هاتكفا) .

وظل اليهود يحتفلون بهذه الذكرى كل عام .

وعندما تألف الوفد المصرى للمفاوضات مع الانجليز - على عهد السلطان فؤاد - برئاسة عدلى يكن ، اصطحب الوفد بعثة من المستشارين والفنيين ، كان من أعضائها يوسف أصلان قطاوى .

وفى عهد عبد الخالق ثروت تألفت لجنة من ٣٠ عضوًا فى أبريل سنة ١٩٢٢م ، لوضع مشروع الدستور وقانون الانتخابات ، كان من بين أعضائها يوسف أصلان قطاوى .

وعندما استقالت وزارة سعد زغلول فى ٢٤ نوفمبر ١٩٢٤م تشكلت وزارة أحمد زيور التى انضم إليها يوسف قطاوى وزيرًا للمالية ، كما كان وزيرًا للمواصلات ، فى وزارة زيور الثانية (١٩٢٥ / ١٩٢٦) .

وقد كان قطاوى نائبًا عن دائرة كوم امبو سنة ١٩٢٤م ، ثم انتقل إلى مجلس الشيوخ سنة ١٩٢٧م ، كما كان يوسف بتشوتو عضوًا فى مجلس النواب ، ثم فى مجلس الشيوخ سنة ١٩٢٨م .

وكان لليهود نشاط بارز فى (حزب الاتحاد) الذى تكون سنة ١٩٢٥م ، وكان يسميه سعد زغلول (حزب الشياطين) ، وتم تعيين حاييم ناحوم أفندى عضوًا فى مجمع اللغة العربية ، منذ تأسيسه سنة ١٩٣٣م .

وأسس اليهود جمعية الدراسات التاريخية سنة ١٩٢٥م بهدف دراسة تاريخ يهود الشرق ، مع التركيز على دراسة تاريخ وآداب اليهود المصريين ، هذا بالإضافة إلى (لجنة

الجرد) لحصر الكتب والمخطوطات القديمة التى لها صلة بتاريخ اليهود المصريين الموجودة فى المعابد والمكتبات اليهودية فى مصر ، وبالإضافة إلى (لجنة المحاضرات والمطبوعات) لتنظيم محاضرات عن تاريخ اليهود فى مصر ، ونشر المؤلفات الخاصة بذلك ، وبالإضافة إلى (لجنة العلاقات الخارجية) ، لإجراء اتصالات بالهيئات اليهودية المماثلة لها فى الأقطار الأخرى ، وكان رئيس هذه اللجنة الحاخام الأكبر حاييم ناحوم أفندى .

● وتحت ستار النشاط الاجتماعى كانت المساهمة فى المجال النقابى الذى بدأ مع نهاية القرن التاسع عشر ، حينما وفد إلى مصر اليهودى جوزيف روزنتال ، الذى سعى إلى تكوين النقابات من بين العمال الأجانب فى الإسكندرية ، ومن هذه النقابات نقابة لفّافى السجائر ، سنة ١٨٩٩م ، ونقابة الخياطين ، سنة ١٩٠١م ، ونقابة عمال المطابع ، سنة ١٩٠١م ، ونقابة عمال الأدوات المعدنية ، سنة ١٩٠٢م .

وكان من رأيه أن تنشئ النقابات مراكز للدفاع الاقتصادى والتربية الفكرية ، ثم دعا إلى تأسيس اتحاد النقابات العمالية فى مصر سنة ١٩٢١م بعدد لا يتجاوز ثلاثة آلاف عامل ، ثم عمل على تأسيس حزب سياسى يكون لسان حال نقابات العمال .. وأعانه على هذا أن المدينة كانت تغص بالجاليات الأجنبية ، وأنها بحكم موقعها تهب عليها مختلف التيارات الفكرية الغربية .

واختير روزنتال أمين صندوق (الحزب الاشتراكى المصرى) الذى اتخذ القاهرة مقرًا له ، تتبعه فروع فى الأقاليم .

ولما تقرر عقد المؤتمر الشيوعى الرابع فى موسكو أرسل الحزب الاشتراكى المصرى حسنى العرابى مندوبًا عنه ليتفاوض بخصوص انضمام الحزب إلى الدولية الثالثة ، ولما عاد حسنى العرابى أخبر بأن الدولية الثالثة اشترطت فصل روزنتال ، فتم فصله سنة ١٩٢٣م .

وكان المليونير هنرى كورييل ، وهليل شوارز وعدد كبير من اليهود من وراء نشر الفكر الشيوعى فى مصر ، خلال الأربعينات ، كما كان اليهود من وراء نشر المذهب التروتسكى فى مصر منذ سنة ١٩٣٩م .

وفى سنة ١٩٢٢م تأسست فى القاهرة (رابطة مصر الجديدة) ، لبناء مدرسة ومعبد .

وفى سنة ١٩٣٤م تم إنشاء عدة ملاجئ فى القاهرة ، أشهرها ملجأ (ابن ميمون) .

وفى سنة ١٩٣٥م تأسست رابطة للشباب اليهودى ، لجمع شمل الشباب ، وتقوية الروح القومية بينهم ، وقد أقاموا نوادى المكابى الرياضية فى كل من القاهرة والإسكندرية ، وبعض المدن الكبرى ، فعملت على تحقيق التضامن بين أبناء الطائفة ، وتوفير احتياجات اللاجئين اليهود .

وفى سنة ١٩٣٦م تأسست فى القاهرة جمعية Matan Fstl من أجل مساعدة الفتيات اليهوديات الفقيرات ، وتعليمهن بالمجان ، وتوفير حرف شريفة .

وتشكل مجلس مِلّى للنظر فى شئون المدارس والمستشفيات والجمعيات الخيرية ومسائل الأحوال الشخصية ، من كبار رجال الطائفة فى مصر ، ومن رجال الدين .

●● وكان الاهتمام الأكبر بالمعابد اليهودية لتكون معامل تفريخ وحضّانات لكل أنواع الشرور ، وكافة الأقنعة .

فى سنة ١٩١١م باعت الحكومة المصرية قطعة أرض بالعباسية ، مساحتها ١٢٦٦ مترًا وخمسين سهمًا إلى حاخام طائفة القرائين ، لقيام كنيس وملحقاته بنصف ثمنها ، مع الإعفاء من دفع رسوم التسجيل .

وقد تم بناء ٢٩ معبدًا بمدينة القاهرة ، أكبرها معبد الإسماعيلية بشارع عدلى ، تأسس سنة ١٩٠٧م ، وفى الإسكندرية تم بناء ٢٠ معبدًا ، أكبرها معبد بولكى .

ومن أشهر المحافل محفل (ابن ميمون) الذى تأسس بالقاهرة سنة ١٨٨٧م ، وهو أول محفل يهودى فى مصر أسسه الأشكنازيون ، ومحفل (إلياهو جنابى) الذى تأسس بالإسكندرية سنة ١٨٩٢م ، وثمة عدة محافل بالمدن الكبيرة الأخرى .

وقد اهتمت (جمعية الاتحاد الإسرائيلى) - منذ سنة ١٨٩٦م - بالتعليم ، فأقامت عددًا كبيرًا من المدارس العلمية ، والمعاهد الأدبية والصناعية فى أنحاء مختلفة من مصر ، بالإضافة إلى تقديم كافة المساعدات للمحتاجين .

● وكان لليهود سبق فى مجال الصحافة بصدور جريدة أبو نظارة زرقاء سنة ١٨٧٧م ، جعل منها يعقوب صنوع جريدة هزلية ساخرة ، صادرتها الحكومة بعد العدد الخامس عشر ، بعد أن تعرضت لنقد الخديو إسماعيل وحاشيته بالسخرية

والتنديز ، فقد لقبت الخديو بلقب (شيخ الحارة) ، والفلاح بلقب (أبو الغلب) ، ولم يكن ليجرؤ على هذا إلا من خلال القوى الأجنبية التى تحكمت فى اقتصاد مصر ، وأنشأت (صندوق الدين) الذى شكل الحكومة على هواه ، مما اضطر إسماعيل إلى التخلى عن الحكم لابنه (العميل) توفيق ، الذى استدعى الأسطول البريطانى لحمايته ، ولاحتلال البلاد .

وقد تأسست فى الإسكندرية ، أواخر عهد إسماعيل (جمعية اتحاد مصر الفتاة) ، كان أعضاؤها من الأجانب وأغلبهم من اليهود .

وقد أصدرت جريدة متطرفة باسم (مصر الفتاة) ، مهمتها الأساسية نقد الخديو إسماعيل ، الذى كان على حظ من حب مصر ، والعمل على النهوض بها ، وإن أخطأ الوسيلة .. كانت تصدر بالعربية والفرنسية ، وتذهب مذهب النصيحة والإرشاد ، لتقلل من شأن الخديو ، حتى يزداد خضوعًا للمطامع الأجنبية .

وفى أواخر عصر إسماعيل أصدر موسى كاستلى سنة ١٨٧٩م صحيفة (الكوكب المصرى) باللغة العربية ، وهى صحيفة (سياسية ، علمية ، أدبية ، تجارية) .

وبعد خلع الخديو وتولية ابنه توفيق ، وُجهت (لائحة إصلاح) إلى الوالى الجديد ، تضمنت (الوسائل التى تقترحها جمعية مصر الفتاة لإصلاح أحوال مصر ، خلال هذه الفترة) .

وقد أعان على هذا النشاط (الصحفى) السيطرة على ورق الطباعة ، وعلى كبرى دور النشر ، وعلى معظم الإعلانات من خلال (شركة الإعلانات الشرقية) اليهودية ، ومن طريق مدير الإعلانات اليهودى فى كل من دار الأهرام ، ودار الهلال ، بالإضافة إلى أن وكلاء الشركات الأجنبية فى مصر كانوا يهودًا ، وكانوا يرسلون إعلاناتهم إلى (شركة الإعلانات الشرقية) .

فلا غرو أن صار لليهود فى مصر :

١ - جريدة الحقيقة ، لصاحبها الحاخام فرج مزراحى بالإسكندرية ، وظلت تصدر ثلاث سنوات (١٨٨٩ / ١٨٩٢) باللغة العربية ، وتدعو للوطن القومى اليهودى .

٢ - جريدة التهذيب ، لصاحبها مراد فرج ، بالقاهرة ، ظلت تصدر بالعربية من (١٩٠١ / ١٩٠٣) .

٣ - جريدة إسرائيل ، لصاحبها ألبرت موصيرى ، ظلت تصدر بثلاث لغات : العربية والعبرية والفرنسية فى الفترة (١٩٢٠ / ١٩٣٤) .

٤ - جريدة الاتحاد الإسرائيلى ، أصدرتها جمعية اتحاد الإسرائيليين القرائين ، باللغة العربية من ٢٠ أبريل ١٩٢٤م إلى أغسطس ١٩٢٩م ، وكانت صهيونية المنزع .

٥ - جريدة الشمس ، لصاحبها مسعد يعقوب مالكى ، أصدرها لتكون لسان حال الصهيونية ، باللغة العربية ، فى الفترة (١٩٣٤ / ١٩٤٨) .

٦ - مجلة الشبان القرائين ، أصدرتها بالقاهرة (جمعية الشبان القرائين) سنة ١٩٣٧م ، نصف شهرية ، ذات طابع دينى ، وتصدر باللغة العربية .

٧ - مجلة الكليم ، أصدرتها (جمعية الشبان القرائين) سنة ١٩٤٥م ، باللغة العربية ، وهى مجلة دينية .

وثمة صحف أخرى كانت تصدر بدون ترخيص ، مثل جريدة نهضة إسرائيل ، التى ظلت تصدر ثلاث سنوات .

ولم يقف النشاط اليهودى عند حد إصدار الصحف ، بل استطاع أن يتخذ من بعض الصحف العربية متحدثة (متعصبة) لكل ما هو يهودى .

هذه جريدة (المقطم) تدافع عن الاستعمار الصهيونى فى ١٢ يناير ١٩٠٥م ، تحت عنوان (استعمار فلسطين) ، بقلم سليم قبعين الذى يقول : (إن استعمار الإسرائيليين لفلسطين أفضل بكثير من استعمار الألمان لكل من حيفا ويافا والقدس ، وذلك لأن اليهود لا دولة لهم ترسل بوارجها ، أو تأخذ بناصرهم ، كما فعلت ألمانيا التى أرسلت طرادين كادا أن يرسلا كراتهما - قنابلهما - على حيفا وعكا ، بعد وقوع معركة هائلة بين الأهالى والألمان) .

ونشرت المقطم فى ١٤ يوليه ١٩٠٥م التقرير السنوى لشركة الاستعمار الإسرائيلية ، جاء فيه (أنها قامت بأعمال عظيمة فى الجمهورية الفضية - الأرجنتين -

وأن مستعمراتها هناك زاهرة ، وعدد سكانها آخذ فى الازدياد ، وأنها طرقت أبواب البرازيل ، حيث أنشأت مستعمرة واسعة فى العالم الماضى ، ونقلت إليها سبعًا وثلاثين عائلة روسية ، كما أنها اقتصرت فى نشاطها فى أمريكا الشمالية على كندا ، حيث أنفقت أموالاً طائلة على إنشاء المزارع ، وأقبل عليها الإسرائيليون إقبالًا عظيمًا ، وهاجر إليها ثلاثة آلاف مهاجر فى عامى ١٩٠٢ / ١٩٠٣ ، ثم أربعة آلاف آخرين فى عام ١٩٠٤م) .

وفى (الأهرام) أثنى شكيب أرسلان على الاستعمار الصهيونى (١٥ مارس ١٨٩٩م) ، لأنه - بعد زيارة قرية زمارين التى اختطها البارون إدمون روتشيلد ، وأسكن فيها نحو مائة عائلة من يهود رومانيا - (متى دخلت أرض زمارين ميزتها عن أراضى أهل الجوار ، بما شهدت من إتقان الغرس والزرع ، وانتظام السكك الحديدية ، وإحاطة جميع البساتين بالسياج البديع من العنبر وغيره .. وحيال زمارين على البحر ميناء الطنطورة الذى أنشأ فيه اليهود معملًا للزجاج ، وكأنهم تذكروا معامل الزجاج الفينيقية) .

وفى العدد ٢٩ أبريل ١٨٩٩م من الأهرام تمنى (أمير البيان) لو أنه كان لليهود فى كل فضاء قريتين حتى ينشروا التقدم فى فلسطين .

وفى العدد ٢٧ أبريل ١٩٠١م نشرت الأهرام مقالًا عن السمسرة والسماسرة والأضرار التى تلحق بالبلاد ، فهاجم اليهود الصحيفة ، وأحرقوا أعدادها ، وطردوا مراسلها من البورصة ، أما البارون منشّه فقد ذهب إلى دار الأهرام والسوط فى يده ، طالباً صاحب الأهرام للمبارزة ، أو لتأديبه .

وفى ٢٦ يناير ١٩١٢م كتب شكيب أرسلان مقالًا فى المقطم ، فتصدى للرد عليه عدد من الصهاينة ، فما كان من أمير البيان إلا أن تخاذل ، وكتب (كثرت على الردادة من إخواننا الإسرائيليين ، مع علمهم بجميل رأيى فيهم ، فكأنما هم يريدون مجاذبتى أهداب المسألة الصهيونية لعرض ظلامتهم على الملأ العثمانى ، ويتخذون هذه الفرصة سبيلًا للعتاب والتواجد ، وليبثوا ما عندهم فى هذه القضية) .

وإزاء ذلك توقف أرسلان عن الكتابة ، بعد أن أوضح موقفه بأنه لا يشك أصلًا فى إخلاص الإسرائيليين للدولة العثمانية ، وذهب إلى عدم جواز التخوف من قيام دولة صهيونية .

وفى ٢١ يوليه ١٩٠٦م نشرت الأهرام نبأ ابتياع الخواجين سوارس وإرنست كاسل سهل كوم امبو ، لإنشاء مستعمرة إسرائيلية فى القطر المصرى ، كما نشرت نبأ هجرة يهود عدن إلى مصر ، ثم رحيل أكثرهم إلى القدس .

وفى ٢٧ مارس ١٩٠٧م نشرت الأهرام خبرًا عن مظاهرة فى بور سعيد ضد اليهود ، بسبب اتهامهم بخطف غلام مسيحى ، لاستنزاف دمه ، واستخدامه فى صنع فطير الفصح .

وفى ١٥ سبتمبر ١٩٠٤م نشرت الأهرام نبأ عن وصول مهاجرين يهود إلى قبرص ، وعن سريان الخوف بين سكان الجزيرَة من عاقبة تلك الهجرة ، وفى الوقت نفسه أشارت إلى المفاوضات التى أجرتها الجمعية الصهيونية مع سلطات الاحتلال البريطانى فى مصر ، بشأن استيطان الإسرائيليين طور سيناء .

وفى ١٢ يناير ١٩٠٥م كتب سليم قبعين فى المقطم يصف الإسرائيليين على أرض فلسطين :

(إنهم يقضون سحابة نهارهم رجالًا ونساء فى الاشتغال بالأرض ، حتى إذا جاء المساء يعودون إلى بيوتهم للاستراحة ، ولهم فى كل مستعمرة مكتبة كبيرة للمطالعة ، ومستوصف يقدم لهم الأدوية مجانًا ، وهو ليس خاصًا باليهود فقط ، بل هو عام لجميع سكان البلاد المجاورة ، وهو مأثرة عظمى للإسرائيليين) .

وفى ٦ نوفمبر ١٩٠٤م كتب قبعين فى المؤيد :

(إنهم مجدون نشيطون ، شادوا البيوت البديعة ، ومهدوا الجبال الوعرة التى كانت ملجأ للصوص وقطاع الطرق ، فأصبحت اليوم بفضلهم حدائق غناء ، أثمرت لأصحابها الخيرات الوافرة ، كما جلبوا ٦٤ صنفًا جديدًا من العنب من الخارج ، وأدخلوا زراعتها فى فلسطين ، وأقاموا عليها صناعة الخمور التى يتم تصديرها إلى الخارج) .

وفى ٢٣ فبراير ١٩٠٣م نشرت أستير مويال فى المقطم عن فلسطين :

(إن هذا الوطن الذى نتشوق إليه ليس الآن من الحضارة فى شىء ، بل إن معظم أراضيه مقفرة ، خربة ، ينعق فيها البوم ، ولا يدوس ثراها إلا أقدام بعض قبائل البدو ، ولولا بعض المستعمرات الصغيرة التى أنشأتها أيدينا فى بعض جهاتها لما كان فيها

سوى بضع قرى تئن تحت نير الأعشار - ضرائب زراعية - وظلم الحكومة المحلية) .

وفى ١٤ يونية ١٩٠٩م كتب مراسل المقطم فى الإسكندرية أنه اطلع فى جريدة (مرآة الغرب) التى تصدر فى نيويورك أن يعقوب سكيف الصراف الإسرائيلى المشهور ، وإسرائيل زنجويل المؤلف المعروف ورئيس الجمعية الصهيونية ، وكبار اليهود - اتفقوا معًا على استعمار الأراضى العثمانية الواقعة فيما بين النهرين ، والممتدة من بغداد إلى عينتاب ، ومن الفرات ودجلة إلى النيل ، وذكرت الصحيفة أن أحمد بك رضا ، رئيس مجلس المبعوثان هو الذى عرض عليهم ذلك المشروع ، وقد أشاد مراسل المقطم بالمشروع ، ووصفه بأنه مشروع جليل ينشرح له صدر كل إسرائيلى ، ويستحسنه الإسرائيليون قاطبة ، وأعرب عن أمله فى أن يدعم الإسرائيليون هذا المشروع بالمال ، وفى أن تجيبهم الحكومة العثمانية إلى طلبهم فى عصر الحرية والإخاء والمساواة .

وقد نشر جاك ليفى طنطاوى فى كل من المقطم والأهرام يؤيد هذا العرض الذى (قدمه العثمانيون لليهود) ، ووصفه بأنه (عمل إنسانى تدافع به الدولة العثمانية عن الشعب الموسوى المضطهد) ، ودعا الإسرائيليين إلى مساعدة الصهيونية أدبيًا وماديًا (تاريخ النشر فى المقطم عدد ١٧ يونية ١٩٠٩م) .

وفى ٢٤ يونية ١٩٠٩م نشر جبر فارحى ، فى المقطم ، أن الإسرائيليين (فى أشد الحاجة إلى بقعة من الأرض ، أينما كان موقعها ، فلماذا لا يغتنمون الفرصة السانحة ، ويقبلون العرض الذى قدمته الدولة العلية إلى الحزب الصهيونى لاستعمار بلاد ما بين النهرين) ؟!

وفى ٨ مارس ١٩١١م نشر سليمان يلين فى الأهرام أن مقصد الصهيونيين استعمار أراضى فلسطين وغيرها وإحياؤها ، فإن بروغرامهم هو بروغرام اقتصادى محض ، وليس للسياسة مدخل فى مبادئ الصهيونية ، وإنه من مراجعة بروتوكلات مؤتمراتهم يتبين بالصراحة أن جل مقصدهم إيجاد مزارع وممتلكات فى فلسطين والبلاد المجاورة لها ، لإيواء بعض اليهود المساكين المظلومين الذين ذاقوا المظالم فى بعض ممالك أوربا ، بشرط أن يتنازلوا عن تابعيتهم الأجنبية ، ويدخلوا فى التابعية العثمانية !!

أهى سياسة (تمسكن حتى تتمكن) ؟ أم هو ذر الرماد فى العيون ؟ أو إطلاق

بالونات اختبار ؟ بل هى (غيبة الوعى العربى) التى جعلت من الصحافة (الشامية) فى (مصر) منبرًا لأطماع الصهيونية !!

نشرت الأهرام فى ١٢ أغسطس ١٩١١م لنورمان بنتويش (أن فلسطين لا تعود إلى خصبها ومجدها السابقين إلا بواسطة الاستعمار اليهودى ، وإنشاء أمة يهودية هناك ، وإذا توافر عدد اليهود فيها تلعب دورًا فى المدنية الحديثة) .

وطبعًا لن نستطيع أن نلعب هذا الدور من خلال تبعية (الأمة اليهودية) للكيان العثمانى الممثل فى (تركيا الفتاة) التى باعت بكارتها لكل قادر على ضرب الإسلام والمسلمين ، بدليل ما نقلته الأهرام فى ٢٤ أبريل ١٩٠١م عن المورننج بوست الأمريكية (أن الإسرائيليين عقدوا اجتماعات كبيرة فى ميلوكى بأمريكا ، وقرروا أن يفتحوا اكتتابًا عامًا فى جميع البلدان لمشترى فلسطين من الدولة العلية) !!

وكتب مراسل الأهرام فى يافا - ١١ مايو ١٩٠٦م - أن اليهود الروس توافدوا إلى فلسطين ، حيث تأتى فى كل باخرة أعداد منهم ، حتى كادت يافا والقدس تضيقان بهم ، وقدر المراسل عدد اليهود فى القدس وحدها - نقلًا عن مصدر موثوق - بمائة ألف يهودى .

وفى حين نشرت الأهرام عن هذا الخطر الذى يتهدد (الوجود العربى) نجد عبد الحميد الزهراوى الزعيم السورى ، ورئيس المؤتمر السورى العربى الذى عقد فى باريس سنة ١٩١٣م يصرح لجريدة (الجون ترك - تركيا الفتاة) بأن (البلاد تستفيد من وجود اليهود فى فلسطين ، لأن اليهود بأموالهم وسواعدهم وخبراتهم يفيدون ويستفيدون) - عن الأهرام ١٨ فبراير ١٩١٣م .

● نشرت المقطم فى ٨ يونية ١٩٠١م قرار (الجمعية الصهيونية) الذى نص فى مادته الأولى على أنه إذا هددت الدولة العثمانية بخطر ما وجب على الصهيونية معاونتها ومساعدتها ماديًا وأدبيًا ، إلى آخر رمق ، أما المادة الثانية فقد نصت على أن الصهيونية مستعدة لتقديم كل مستلزمات الدفاع فى الحرب الحاضرة - الحرب الطرابلسية - لتركيا ، عند مساس حاجتها ، بكل الوسائل الممكنة .

وفى الأهرام ١٢ يوليو ١٩٠٩م أن المستعمرات اليهودية أصبحت دولة داخل الدولة ، وأنهم كونوا لأنفسهم حرسهم الخاص الذى يعتدون به على أهالى فلسطين .

وفى الأهرام ١٨ فبراير ١٩١٣م أنه بمجرد صعود جاويد بك إلى نظارة المالية أدخل فى أقلام هذه النظارة عددًا كبيرًا من اليهود الصهاينة ، وأن كل القروض التى اقترضتها الوزارة الاتحادية كانت بواسطة هؤلاء الإسرائيليين الذين عملوا فى خدمة أهداف خاصة تضر بالاقتصاد العثمانى .

● وأخيرًا .. أخذ (الجدث) الفلسطينى ينبض بقوة آلامه ، فقد نشر محمد القلقيلى (الفلسطينى) فى المقطم ، بتاريخ ٨ يناير ١٩٠٥م أن الإسرائيليين حملوا الفلسطينيين على تعطيل الكثير من أراضيهم عن الحرث والزرع ، لأنهم أطمعوا عمال الفلاحين بالأجر ، حتى أصبح المزارع الفلسطينى لا يجد من العمال من يعين على الحرث والزرع والحصاد ، مما أدى إلى ترك أراضى كثيرة جرداء .

وفى الأهرام ١٧ أبريل ١٩١٤م برقية استغاثة من أبناء فلسطين ، تقول : (نحن فى وضع نكاد نفنى فيه ، ونطرد عن بلادنا ، وتوشك المطامع الصهيونية أن تبتلعنا ، ويحق علينا ما حق على هنود أمريكا إزاء المهاجرة الأجنبية) .. وناشد الموقعون على البرقية صحيفة الأهرام أن تكون لسان حالهم لدى الحكومة ، وأن تستعمل ما لديها من الوسائل المشروعة فى تنبيهها إلى الخطر المحدق بها ، قبل الفلسطينيين ، بسبب الحركة الصهيونية التى ستخلق لهم مقدونيا جديدة .

ونتيجة لوقوع الأتراك (الثوار) فى قبضة (الماسونية) ، ونتيجة غفلة العرب بعامة ، وخيانة أثرياء الفلسطينيين بخاصة ، تم الاستيلاء على أراضى الفلاحين بالقوة الشرائية ، وبرشوة (المتصرفين) الأتراك ، وعن طريق نشر الموبقات وإغراق ملاك الأراضى فى الديون والرهون .

نشرت الأهرام فى ١٦ يولية ١٩١٤م أنه كانت محاولة شراء الصهيونيين أراضى (السر) فى بير سبع ، ومساحتها عشرة آلاف فدان ، بمبلغ ٦٥ ألف ليرة ، خمسة آلاف فقط لأصحاب الأرض ، والباقى لكل من المتصرف جودت بك وبقية الوسطاء والمأجورين .

وفى الأهرام ٢٥ يولية ١٩١٤م أنه تشكلت فى القاهرة جمعية لمقاومة تيار الصهيونية المندفع فى فلسطين ، من الزعماء السوريين والفلسطينيين ، تحت قيادة حقى العظم ، رئيس حزب اللامركزية ، ووهبة أفندى العيسى المحامى أمينًا للصندوق .

وقد طبعت الجمعية منشورًا أوضحت فيه أهدافها :

١ - مقاطعة الصهيونية ، بتنبيه الرأى العام ، وتوحيد الأفكار والأعمال فى هذا السبيل .

٢ - تأسيس فروع وجمعيات فى أنحاء فلسطين وسوريا لهذا الغرض .

٣ - بث روح التضامن بين جميع العناصر التى يتكون منها الأهالى .

٤ - تنشيط وتعضيد المشروعات الاقتصادية والتجارية والزراعية ، وتنوير أفكار الفلاحين والمزارعين ، ليتمكنوا من اتقاء أخطاء الصهيونية .

●● يرجع وجود الماسونية فى مصر إلى سنة ١٧٩٨م ، بقدوم الحملة الفرنسية ، إذ قرر نابليون وعدد من ضباط الحملة تأسيس محفل ماسونى يجتمعون فيه ، وتم تأسيس أول محفل فى أغسطس ١٧٩٨م ، أطلق عليه محفل إيزيس .

ولما خرجت الحملة سنة ١٨٠١م توقف النشاط الماسونى حتى سنة ١٨٣٠م واستؤنف النشاط بتأسيس محفل فى الإسكندرية عن طريق بعض الإيطاليين .

وفى سنة ١٨٧٦م تم توحيد المحافل الماسونية فى (محفل الشرق الأعظم الوطنى المصرى) تحت رعاية الخديو إسماعيل .

وكانت كل تعاليم الماسونية تهدف فى الظاهر إلى تقديس ما ورد فى التوراة بشأن بقاء هيكل سليمان رمزًا للاتحاد العالمى ، على حين كان من أهم أهداف الماسونية فى مصر :

١ - استخدام الحيل للتخلص من الأفكار التى علقت باليهود ، والتى أدت إلى اضطهادهم وتعذيبهم فى أوربا .

٢ - بذر بذور الشقاق بين الشعوب العربية ، تمهيدًا للسيطرة عليهم .

٣ - تهيئة الجو الداخلى فى مصر وخارجها لعودة اليهود إلى فلسطين ، أرض الميعاد .

ومن الجمعيات الماسونية التى خدمت الأطماع اليهودية فى العالم (منظمة بنيه بريت) التى لم تكن تضم غير اليهود ، وكان ظاهرها مساعدة المحتاجين وذوى العاهات ، وباطنها غرس شخصيات (عميلة) فى أماكن حساسة من الدول التى لها

فروع بها .. وكان لها إدارة فى لندن ترحب بأصدقاء صهيون ، وتقوم - من خلال فروعها - بدراسة الشخصيات المؤثرة فى مجتمعاتها ، ومحاولة السيطرة عليها .

و (محفل الشرق الأعظم) كان على صلة بكافة المحافل الماسونية فى البلاد الشرقية ، وبخاصة فلسطين وسوريا .

جاء فى تلغراف مرسل من يافا فى ١١ مارس ١٩٣٤م إلى كبير أمناء القصر الملكى فى مصر ، بين برقيات كثيرة :

(نرجو أن نرفع إلى العتبات الملوكية اشتراك جميع أعضاء المحفل الوطنى الفلسطينى مع محفل الشرق الأكبر المصرى فى تقديم التهانى لشفاء حضرة صاحب الجلالة) .

لقد كانت الماسونية تمد خيوطها إلى كل مكان ، وإلى كل مؤثر للوصول إلى مملكة داود ، التى تمتد من (أرض الميعاد) إلى امتلاك العالم ، ولهذا نجد الخلط كثيرًا بين كل من الماسونية والصهيونية ، وقد تعمل الماسونية على استقطاب العملاء ، وغرسهم فى الأماكن الحساسة ، لجمع المعلومات ، ولتغطية التحركات المريبة ، وللدفاع عن الأخطاء التى يمكن حدوثها .

● **فارس نمر ، شاهين مكاريوس ، يعقوب صروف ، ثلاثى المقتطف والمقطم ، كانوا على علاقة وثيقة بسلطات الاحتلال فى مصر التى احتضنتهم ويسرت لهم ، كما كانوا على علاقة وثيقة بالدوائر الماسونية ، فقد صار شاهين مكاريوس ، أحد أصحاب المقتطف والمقطم ، ورئيس تحرير مجلة (اللطائف) الماسونية من كبار زعماء الماسونية فى مصر والشرق ، أما يعقوب صروف فقد تولى أثناء وجوده فى بيروت ، قبل مجيئه إلى مصر ، رئاسة المحفل الماسونى ، وأما فارس نمر فقد التحق بالماسونية منذ سنة ١٨٧٤م ، وعين رئيسًا لأحد المحافل بلبنان ، ثم انتخبه محفل (الثبات) بمصر رئيس شرف له سنة ١٨٨٧م .**

ويبدو أن العلاقة التى نشأت بين شاهين مكاريوس وبعض الشخصيات اليهودية داخل المحافل الماسونية وخارجها ، هى التى أثمرت كتابه (تاريخ الإسرائيليين) الذى أصدره سنة ١٩٠٤م ، وطبعته المقتطف ، وفيه وصف الجمعية الصهيونية بأنها (عظيمة ، وتهدف إلى شراء قرية « المطلة » فى قضاء « مرج عيون » ، بولاية بيروت ،

واستيطان اليهود لها ، وشراء أراضى فى جهات الحولة ، وطبريا ، ويافا ، وحيفا) ، كما تناول تاريخ اليهود فى مصر وأعمالهم بالتمجيد .

وحين زار حاييم وايزمان رئيس المنظمة الصهيونية العالمية مصر سنة ١٩١٨م أشار فى مذكراته إلى أنه لم يلمس أى روح عدائية فى الدوائر التى كان يسيطر عليها الدكتور فارس نمر وأمثاله أصحاب « المقطم » العظيم .

كذلك عبر روفائيل لينادو ، أحد كُتَّاب اليهود فى مصر ، عن ثقة اليهود فى (المقطم) بقوله : (نرى فى المقطم الحر مجالاً لأقلامنا ، وبث أفكارنا ، فعلينا أن نثق به كما نثق بالصحف الخاصة بنا) .

وقد انفردت (المقطم) بنشر أخبار المؤتمر الصهيونى الأول فى مدينة بال السويسرية فى العدد ٢٣ أكتوبر ١٨٩٧م ، بعد انعقاد المؤتمر بنحو شهرين .

وذكر مراسل المقطم أن ما يزيد على مائتى مندوب من نسل إبراهيم اجتمعوا للمفاوضة فى شراء أراضى فسيحة وقرى كثيرة فى فلسطين ، وجوار أورشليم ، من الدولة العلية ، وجعلها مملكة إسرائيلية مستقلة ، تحت سيادة الحضرة الشاهانية ، وعاصمتها القدس الشريف .

ومضى المراسل يقول : ولا شك فى أن القُراء يعدون تحقيق تلك الأمانى أضغاث أحلام ، ولكن إذا بحثنا جليًا وجدنا أن الإسرائيليين فكروا فى هذا الأمر ، وشرعوا فيه منذ سنوات ، وأذكر أن روتشيلد الثرى الشهير ، والبارون هيرش ، اشتريا قرى كثيرة فى نواحى فلسطين ، وأكثر اليهود العَمَلة والبنائين من جميع جهات سوريا ولبنان ، وخططوا مدنًا بشوارعها المستقيمة ، ودورها الفسيحة ، هاجر إليها الإسرائيليون من كل صوب ، ووجهوا عنايتهم إلى الزراعة والفلاحة ، فنجحوا كثيرًا وأكثرهم من يهود روسيا ، وقليل جدًا من فرنسا .

أما المؤتمر الصهيونى الذى عقد فى سويسرا ، فختم أشغاله بما مفاده أن الحزب الصهيونى يدأب فى إنشاء وطن للإسرائيليين فى فلسطين تضمنه شرائع وثيقة ، ولبلوغ هذه الغاية قرر مساعدة الفلاحين والصناع اليهود على المهاجرة إلى فلسطين ، وعلى التكافل والاتحاد ، وقد عين لجنة دائمة فى « فيينا » ونوّابًا لها فى عواصم أوربا ، وفى نيته الآن أن ينشئ بنكًا عظيمًا لمساعدة اليهود على المهاجرة إلى فلسطين وسوريا .

● وآل تقلا لا يقلون (وطنية) عن آل المقطم والمقتطف ، فقد نشرت الأهرام فى ٢٥ يونية ١٩٠٩م أن جميعة اتحاد الصهيونيين الأمريكان المنعقدة فى نيويورك عملت على تشكيل شركات فى المدن الأمريكية الكبرى لشراء الأراضى الفلسطينية وإعمارها .

وكان ثمة منافسة بين آل الأهرام ، وآل المقطم فنشرت المقطم فى ٢٦ يونية ١٩٠٩م مقالة بتوقيع (إسرائيلى) ، جاء فيها : (إن للصهيونية ألفى جمعية ، منظمة أحسن تنظيم ، فيها من الأعضاء ما يزيد على مليونى عضو ، بينهم كثير من خيار الناس وأعاظمهم ، وأبعدهم شهرة) ، كما أشارت إلى (أن أكثر المستعمرات الإسرائيلية فى فلسطين نجحت نجاحًا عظيمًا ، ونفعت كثيرًا من المهاجرين ، وحالها الآن يبشر بمستقبل عظيم ، فيه خير عميم للدولة العثمانية) .

وهذا سليم قبعين ، قدم إلى مصر من بلدة الناصرة الفلسطينية ، وعمل سنة ١٩٠٥م مدرسًا للغة العربية بمدرسة الاتحاد الإسرائيلى بالقاهرة ، وسرعان ما أصدر مجموعة من الصحف ، منها مجلة (الإخاء) ماسونية شهرية سنة ١٩٢٤م ، وكان فى مقدمة مؤيدى الهجرة اليهودية إلى فلسطين ، كتب عدة مقالات فى صحف المؤيد والمقتطف والأهرام والمقطم دفاعًا عن الهجرة اليهودية إلى فلسطين ، وعن شراء اليهود للأراضى الفلسطينية .

أما شبلى شميل (١٨٥٣ / ١٩١٧) التنويرى (العظيم) ، فقد كتب فى المقطم تحت عنوان (عمروا واستعمروا ، فالأرض ميراث المجتهدين) ، يقول : (إن حجة العرب على الصهيونيين بأنهم دخلاء غرباء يعتدون علينا ، ويسلبوننا أرضاً هى ملك لنا سفكنا دماء زكية لأجلها - هى حجة واهية ، كبكاء الأطفال ، وإنه باستطاعتهم أن يحجونا بمثل حجتنا ، ويقولون : « الأرض أرض آبائنا ، وقد سلبت منا بالسيف ، ونحن نستردها اليوم ، ولكن بغير السيف ») .

● وهكذا تهيأ الجو سياسيًا وإعلاميًا بقلم أبناء الشام فى مصر لانتشار الفكر الصهيونى ، والدعوة إلى استعمار أرض الشام .

ومن عجيب ما جرى أنه فى سنة ١٩١٥م أصدر الوالى العثمانى أحمد جمال باشا أوامره إلى يهود فلسطين ألا يشاركوا فى الحركة الصهيونية ، وحرم الكتابة

بالعبرية ، وجرد المستعمرات الصهيونية من السلاح ، فلم يجد يهود فلسطين بُدًّا من الهجرة ، وكانت مصر المأوى والملاذ ، حتى بلغ عدد المهاجرين إلى الإسكندرية حتى ديسمبر ١٩١٥م أكثر من أحد عشر ألفًا ، فتشكلت لجنة من الطائفة اليهودية لمقابلة السلطان حسين كامل بالقاهرة ، فأبدى عطفًا شديدًا على اللاجئين ، ولم تتوان حكومة حسين رشدى باشا عن اتخاد إجراءات حاسمة وسريعة لاستضافتهم وتنظيم عملية الغوث لهم ، وصرفت مبالغ يومية لإعاشتهم .

وبهذا أصبحت مصر (حاضنة) رسمية للوجود الصهيونى ، وسُلَّمًا إلى فلسطين ، أو مركز إعداد للدولة الإسرائيلية الكبرى (من الفرات إلى النيل) .

ويرجع النشاط الصهيونى فى مصر إلى سنة ١٨٩٦م ، حين وصل إليها جوزيف ماركو باروخ من بلغاريا ، وشرع فى تأسيس هيئة صهيونية باسم (ياكو خابا) فى القاهرة ، فى فبراير ١٨٩٧م ، وسرعان ما اتصلت بهرتزل فى ٨ أبريل ١٨٩٧م ، ونجحت فى تمثيل يهود مصر فى مختلف الاجتماعات والمؤتمرات اليهودية العالمية ، وفى الترحيب بالشخصيات اليهودية التى مرت بمصر .

ظلت هذه الهيئة تمارس نشاطها حتى سنة ١٩٠٦م ، ثم توقفت بسبب خلافات داخلية ، لتنشأ فى سنة ١٩٠٨م جمعية بنى صهيون بالإسكندرية ، وقد أعلنت تأييدها لبرنامج (بال) ، فى أول مؤتمر صهيونى سنة ١٨٩٧م ، وفى سنة ١٩٠٩م اندمجت مع (جمعية زئير زيون) التى تأسست كذلك بالإسكندرية ، من أصول روسية .

وحتى قيام الحرب العالمية الأولى كان اليهود يتظاهرون بتأييد الدولة العثمانية ، إذ كانوا ممثلين فى جمعية الاتحاد والترقى ، وتم تعيين نسيم مازلياح المحامى الإسرائيلى ناظرًا للتجارة والزراعة ، بالإضافة إلى جاويد بك ناظر المالية ، ويساريا أفندى ناظر الأشغال ، وصار فى يد هؤلاء الثلاثة مصادر الثروة فى البلاد ، هذا بالإضافة إلى طلعت بك ناظر الداخلية ، ذى الميول الصهيونية ، وبالإضافة إلى الذئب الأغبر (أتاتورك) الذى سرعان ما كشف عن وجه يهودى قبيح ، مزق فى وجه الدول العربية والإسلامية كل ما يربط تركيا بالإسلام والمسلمين ، لغة ودينًا ، ومساجد وشعائر ،وقيمًا وتقاليد .. وبالإضافة إلى السيطرة على الإعلام ، إذ كانت جريدة (الجون ترك) الاتحادية ، ووكالة الأنباء العثمانية ، أو شركة الأجانس أتومان ، تحت

السيطرة اليهودية ، ومع هذا كانت (تركيا الفتاة) المثل الأعلى للشعوب العربية وصار الذئب الأغبر (خالد الترك) .. ولم يكن الوالى أحمد جمال باشا ليجرؤ على تهجير اليهود من فلسطين إلا بعد أن اكتشف التآمر اليهودى مع (الحلفاء) ضد الوجود التركى ، ولم يكن أمام يهود الدونمة إلا أن يطأطئوا رءوسهم للعاصفة ، واثقين من قدرتهم على القضاء على الإسلام فى مقر الخلافة الإسلامية .

● وأثناء الحرب العالمية الأولى تكون الفيلق اليهودى ، بفضل فلاديمير جابوتنسكى (١٨٨٠ / ١٩٤٠) المغامر الصهيونى ، الذى كان يعمل مراسلًا لإحدى الصحف الروسية ، ووصل إلى الإسكندرية فى ديسمبر ١٩١٤م ، وبفضل جوزيف ترمبلدور الذى اشترك فى الحرب الروسية اليابانية ، ووصل هو الآخر إلى الإسكندرية فى ديسمبر ١٩١٤م ، وقد أخذا - منذ وصولهما - فى تشكيل قوة بوليسيّة تقوم على حفظ النظام بين اليهود المقيمين بالمدينة والمهاجرين إليها .

وتكونت لجنة الفيلق من خمسة أشخاص فى ٢٣ فبراير ١٩١٥م ، ونجحت فى تكوين (فرقة راكبى البغال) التى شاركت القوات البريطانية فى الحرب أثناء غزو فلسطين ، ليكون لليهود وجود عسكرى فى فلسطين ، وليكون لليهود أكثر من وسيلة لتهريب السلاح والمهاجرين إلى فلسطين ، وليكون لليهود حق المطالبة بنصيب من الغنائم ، حين يجلس الحلفاء على موائد (التقسيم) .

ولما كان (وعد بلفور) الذى لم يحرك شعرة واحدة فى الشارع العربى ، ولا بين ذوى الهيل والهيلمان - قامت جريدة المقطم فى ١ - ١٢ نوفمبر ١٩١٧م بنشره ، وزعمت أنه كسب تأييد اليهود لبريطانيا ، إذ كان لدى اليهود المهاجرين المقيمين فى الإسكندرية معلومات عن العسكرية الألمانية والعثمانية .

وتعبيرًا عن الابتهاج اليهودى بهذا (الوعد) أقيمت احتفالات فى مسارح الإسكندرية وطنطا ، وفى الحدائق العامة ، وصار العمل بالحركة الصهيونية فى وضح النهار .

قام ليون كاسترو بتأسيس أول فرع للمنظمة الصهيونية العالمية بالإسكندرية (٥٤ شارع النبى دانيال) سنة ١٩١٧م ، ثم فى القاهرة (١٧ شارع أبو السباع - جواد حسنى) ، ثم فى بورسعيد والمنصورة .

وفى ١٤ أغسطس ١٩١٨م - أثناء مرور حاييم وايزمان بالإسكندرية - احتشد اليهود ، وألقى فيهم كلمة عن وضع اليهود فى فلسطين ، وبعدها تم تشكيل (اللجنة المشايعة لفلسطين) ، التى دعت إلى الاكتتاب لصالح الاستيطان اليهودى فى فلسطين .

وخلال العشرينات زار حاييم وايزمان مصر ثلاث مرات ، وفى الزيارة الثالثة (أبريل ١٩٢٥) أقيم له حفل كبير بالقاهرة ، حضره كبار المشتغلين بالحركة الصهيونية ، ونوه وايزمان بنشاط الحاخام الأكبر حاييم ناحوم أفندى ، ورد الحاخام الأكبر معبرًا عن رغبته الأكيدة فى الاشتغال بالحركة الصهيونية فى مصر .

وفى طريقه إلى فلسطين ، فى ٧ فبراير ١٩٣٣م زار الزعيم الصهيونى ناحوم سوكولوف مصر ، فاستقبله كبار الرأسماليين اليهود ، وهتفوا بحياته ، وأدت فرقة المكابى والكشافة اليهودية التحية له ، وفى صباح اليوم التالى قابل الملك فؤاد بقصر عابدين ، وفى المساء ألقى محاضرة فى كنيس الأشكنازيين .

واعتاد موسى شرتوك - رئيس وزراء إسرائيل عامى ١٩٥٤ و ١٩٥٥م - زيارة مصر كل ستة أشهر ، أثناء الحرب العالمية الثانية ، بوصفه أحد منظمى عملية تجنيد اليهود فى جيوش الحلفاء أثناء الحرب ، وكان ينزل ضيفًا على صديقه يعقوب وايزمان ، رئيس المنظمة الصهيونية فى مصر ، وخلال وجوده كان يعقد الاجتماعات مع أعضاء المنظمة وأنصارها ، ويلقى خطبًا تحث اليهود على العمل فى الحركة الصهيونية ، والتبرع لإقامة مستعمرات جديدة فى فلسطين .

وجاء إسحق بن ريفى فى مارس ١٩٤٢م ، وجعل يتنقل بين القاهرة والإسكندرية ، ويعقد اجتمعات مع أبناء الطائفة ، ومع رئيسها يوسف قطاوى ، ومع الحاخام الأكبر حاييم ناحوم أفندى .

وفى سنة ١٩٤٣م قرر ليون كاسترو إعادة تشكيل فرع المنظمة العالمية فى مصر ، وصار تحت اسم (الاتحاد الصهيونى المصرى) ، يضم لجنة الشباب ، ولجنة الدعاية ، ولجنة الصحافة والإعلام ، ولجنة الصندوق التأسيسى لفلسطين .

وفى هذه الفترة تم قتل اللورد موين وزير الدولة البريطانى فى الشرق الأوسط ، بحجة الدفاع عن فلسطين ضد الاحتلال الإنجليزى ، متجاهلين الدور الخطير الذى

قام به الاستعمار الإنجليزى من تمكين اليهود فى فلسطين ، وإعداد قاعدة لجيش يهودى مدرب أحسن تدريب ، مسلح أحدث تسليح ، لعب دورًا كبيرًا فى حرب سنة ١٩٤٨م ، مستعينًا بمناورات ومعلومات الإنجليزى جلوب قائد الفيلق الأردنى .

وأخيرًا .. قررت **وزارة الشئون الاجتماعية** فى ٢٥ مايوم ١٩٤٥م رفض الترخيص بالاكتتاب من أجل مساعدة يهود فلسطين ، ومع هذا استمر جمع التبرعات ، وشراء الأسلحة ، وتهريبها إلى فلسطين .

وفى سنة ١٩٤٧م تشكلت الرابطة لمكافحة الصهيونية فى مصر ، بدعوى الكفاح ضد الدعاية الصهيونية ، وتوثيق الروابط بين اليهود والشعب المصرى !!

ولم تكن هذه (الرابطة) إلا ستارًا يخفى الأعمال الإجرامية التى يمارسها النشاط الصهيونى ، وقد أعلن كليمان شيكوريل زعيم النادى المكابى لأعوانه الصهيونيين : (لا تخشوا شيئًا ، فالبوليس المصرى يلبى أقل إشارة من إصبعى ، وقد اتفقنا معه على كل شىء) !!

وتعبيرًا عن (سعة الأفق) المصرى ، وعن عمق (التنويرية) التى لا تحدها حدود دينية أو سياسية أو وطنية ، أرسلت الحكومة المصرية أحمد لطفى السيد باشا مدير الجامعة المصرية فى أبريل ١٩٢٥م ، ليمثل مصر فى حفل افتتاح الجامعة العبرية بالقدس .

وحين كان طه حسين بك رئيسًا لجامعة فاروق الأول بالإسكندرية ، دعاه مجلس اتحاد الطائفة اليهودية فى مصر ، فألقى محاضرة فى قاعة الاحتفالات الخاصة بالاتحاد الإسرائيلى بالإسكندرية فى نوفمبر ١٩٤٣م ، دعا فيها إلى التقارب بين اليهود والعرب .

من هنا كان اليهود يمولون مجلة (الكاتب المصرى) التى كان يديرها ويكتب فيها طه حسين بك .

● وبالإضافة إلى هذا الزواج التنويرى تضاعف النشاط الصهيونى باستقطاب بعض الأدباء والصحفيين المصريين ، ومع كثرة الصحف الصهيونية التى بلغت نحو خمسين صحيفة سنة ١٩٤٨م ، ظل التداخل مع الصحف المصرية بسبب من

سيطرة شركة الإعلانات الشرقية ، وشركات الطباعة ، والأوراق ، والأحبار ، وأدوات التصوير ، وبسبب الشركات اليهودية العالمية القائمة على نقل الأخبار بالأجهزة الحديثة (التيكرز) وغيرها .

وجرؤ جاك سيد عضو المنظمة الصهيونية فافتتح مكتبًا عقاريًّا بالإسكندرية وكيلًا عن عدد من المؤسسات اليهودية فى فلسطين ، وكان يحتفظ لديه بخرائط تفصيلية للأراضى المطروحة للبيع ، يعرضها على عملائه من اليهود فى مصر ، حتى يساهموا فى تجريد العرب من أراضيهم .

وأخيرًا .. (وبعد فوات الأوان) أخذت الغشاوة تنقشع قليلًا قليلًا ، (أما فألعبان) !!

فى ٢ ديسمبر ١٩٤٢م قرر مجلس جامعة الدول العربية أن المنتجات والصناعات اليهودية فى فلسطين غير مرغوب فيها ، وأن إباحة دخولها البلاد يؤدى إلى تحقيق الأغراض السياسية الصهيونية .

وفى جلسة مجلس النواب (٨ يولية ١٩٤٦م) طرح العضو على السيد أيوب للمناقشة أن جريدة من أشد دعاة الصهيونية تطبع فى انجلترا وتوزع فى مصر ، وقد دأبت على التشهير بأعضاء الجامعة العربية ، بل على النيل من ملوك العرب ، فكان رد الحكومة أنها أصدرت قرارًا بتاريخ ٢٧ يونية ١٩٤٦م بمنع دخول هذه الجريدة وتداولها فى مصر .

وكأن الصهاينة لا يملكون فى مصر أكثر من صحيفة وأكثر من مجلة تنضح بكل مايسفّه دعاوى العرب عن الحرية والوحدة ، وعن القومية والديمقراطية ، وعن الاستقلال التام أو الموت الزؤام ، وعن أمجاد يا عرب أمجاد !!

المشكلة تتمثل فى المساس بالذوات وأبناء الذوات ، أما الأوطان ، وأما العربان ، وأما الضياع فى الزمان والمكان ، (فيا نسمة الصبح هبى على قفا المتنبى) !!

وفى الفترة من ١٧ - ٢٥ فبراير ١٩٤٧م جرت مناقشات فى مجلس النواب حول تهريب مخلفات الحرب العالمية الثانية من ذخائر وأسلحة إلى يهود فلسطين ، بمساعدة يهود مصر ، مستخدمين اللوريات البريطانية ، عبر صحراء سيناء ، وكانت الحكومة - شأن كل الحكومات حتى اليوم - تملك حق النفى والتكذيب ، وتملك

حق إصدار الشعارات الملونة بجميع الألوان (حسب الطلب) !!

ويقال إن جماعة الإخوان المسلمين ، ومصر الفتاة ، نشطتا فى التنديد بالدور الصهيونى فى مصر ، وقامت مظاهرات فى ٢ نوفمبر ١٩٤٥م ، ذكرى وعد بلفور ، عملت على تخريب المحال اليهودية ، وأشعلت النيران فى كنيس يهودى فى درب البرابرة بشارع الموسكى ، وقامت الصحف الإسلامية (الفتح ، والإخوان المسلمون ، والنذير) بشن حملات حكومية على النشاط اليهودى المعادى للحق العربى ، بينما كان الحق العربى يتوارى خجلًا تحت كراسى (هيئة الأمم المتحدة) التى أصدرت فى ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧م قرارًا بتقسيم فلسطين ، وإنهاء الانتداب البريطانى ، فى موعد أقصاه أغسطس ١٩٤٨م ، على أن يكون الجلاء البريطانى بالتدريج ، لتسهيل أعمال الهجرة اليهودية إليها ، ولتمكين العصابات اليهودية من إحكام قبضتها .

قامت (حدتو) - التنظيم الشيوعى الذى ضم إليه بعض زعماء ثورة ١٩٥٢م - بتكوين الرابطة الإسرائيلية لمكافحة الصهيونية ، لكن هذه الرابطة لم تستمر أسابيع ، لا خوفًا من (الضباط الأحرار) ، ولكن لأن اللعبة كانت (مفقوسة) .

ولما سيطرت الثورة أعلنت (التسامح) بين طوائف الشعب ، دون تمييز ، فالجميع سواء أمام القانون .

أرسل الحاخام الأكبر برقية تهنئة ، باسم طوائف يهود مصر إلى قائد الثورة ، اللواء نجيب ، جاء فيها : (الحاخام الأكبر والطوائف اليهودية فى مصر يضمون آيات تهانيهم وإجلالهم إلى التهانى التى وجهت إلى سعادتكم بالإجماع ، لسمو وطنيتكم ، سائلين المولى سبحانه وتعالى أن يوفقكم فى كافة جهودكم ، فى سبيل إقرار السلام والسعادة والرخاء لمصر العظيمة ، وفتح عهد جديد للشعب المصرى الكريم) .

وكتبت الأهرام فى ٩ أغسطس ١٩٥٢م على لسان اللواء نجيب : (التمسك بالدين الإسلامى ليس معناه التعصب ، فديننا سمح ، ويجب أن نحافظ على إخواننا من أهل الذمة ، يهودًا وأقباطًا ، فالقرآن أمرنا بذلك ، وأن نعاملهم معاملة حسنة ، إنهم مواطنون ، نحافظ عليهم ونرعاهم ، هذه هى آداب القرآن الكريم) .

وقد زار زعماء الثورة المعبد الإسرائيلى الأكبر بالقاهرة ، أكثر من مرة ، وكونوا علاقة طيبة مع الحاخام الذى سبق أن أعلن صهيونيته .

وفى ديسمبر ١٩٥٢م صدرت إجراءات تحفظ على بعض اليهود الذين يُشك فى صلتهم بالصهيونية ، وعلى بعض الضباط المصريين ورجال الأعمال وبعض السياسيين السابقين ، ثم أفرج عمن لا خوف منه ، وكان من المفرج عنهم ألبرت مزراحى الذى صرح عقب الإفراج عنه بقوله : (كانت هناك فقط ظلال من الشك تقول : إن تأمين الحركة يستدعى أن أكون مع من اعتقلوا داخل الأسوار ، وأحمد الله على ظهور الحقيقة البيضاء) !!

وعند تشكيل لجنة مشروع الدستور الجديد فى يناير ١٩٥٣م اختير زكى العريبى لتمثيل الطائفة اليهودية فى هذه اللجنة .

ومع هذا نشط العملاء والجواسيس الصهيونيون ، واكتشفت خلايا منهم فى الفترة من ١٩٥٣ إلى ١٩٥٦م وقد تعاون بعض اليهود مع جيوش الغزو فى بور سعيد سنة ١٩٥٦م ، وغادروا البلاد مع القوات المعتدية .

وظل عدد اليهود يتناقص فى مصر ، وبخاصة بعد قرارات التأميم ، حتى وصل عددهم خلال السبعينيات إلى بضع عشرات من العجزة والمسنين ، يقيمون بحارة اليهود ، ويؤدون شعائرهم فى معبد شارع عدلى .

وفى ٣٠ أبريل ١٩٥٤م أعلن جمال عبد الناصر أنه اكتشف فى مصر نشاطًا شيوعيًا من بعض اليهود ، وعلى رأسهم هنرى كوريبل ، واتهم عبد الناصر هؤلاء اليهود أنهم بنشاطهم الشيوعى يعملون على تمكين الصهاينة من احتلال وادى النيل ، عن طريق تضليل الشعب باسم الديمقراطية الشعبية .

وفى ٣١ مايو ١٩٥٤م أعلن عن تنظيم يتآمر على قلب نظام الحكم ، واتهم ٢٦ شابًا من بينهم يهود .

وفى أوائل يونية ١٩٥٤م تم القبض على بعض اليهود ذوى الفكر الصهيونى والشيوعى الذين لهم علاقات مع إسرائيل .

وذكر ألبرت مزراحى أن ضباط مجلس قيادة الثورة كانوا يستشيرون سلفاتور شيكوريل فى الشئون الاقتصادية قبل هجرته سنة ١٩٦٧م ، وأن سفارة مصر فى باريس طلبت إلى إيزاك فينا مصدر البصل الذى هاجر بعد وضعه تحت الحراسة سنة ١٩٦٥م أن يعود إلى مصر ويستأنف نشاطه ، مع تعويضه ، وذلك بسبب تدهور عملية التصدير !.

أرض بلا شعب

شاعر العروبة يقول : (من يهن يسهل الهوان عليه) ، وما أهون من يستجدى حقه ، ومن يمد يده إلى قاتله يطلب الإحسان فى القِتلة .

كنا نملك أرضًا ، وكانت لنا القدرة على حمايتها ، لكنا طفقنا نتغنى بالأمجاد ، ونغط فى نوم عميق ، ومن فرط ما اعترانا من بطر ، ومن الاستغراق فى متع الجسد ، ومن الصلف والغرور ، صار وهم السلطان هدفًا ، نستجديه بالديون وبالرهون ، ونفرضه على نسائنا وأبنائنا وجيراننا ، نقضنا الغزل بعد قوة أنكاثًا ، نتخذ أيماننا ومواثيقنا دخلًا بيننا ، صار كل منا كل شيء وهو لا شيء .

وصدق الشاعر العراقى :

قومى رءوس كلهم　　　أرأيت مزرعة البصل ؟!

أيام وعد بلفور ١٩١٧م كان اليهود لا يملكون من أرض فلسطين أكثر من ٢,٥٪ ، وعند صدور التقسيم سنة ١٩٤٧م كانوا يملكون ٦,٥٪ ، وبعد حرب الأشاوس ١٩٦٧م صاروا يملكون من فلسطين أكثر من ٩٣٪ ، ومن أرض مصر نحو ٣٠٪ ، ومن أرض الأردن ٥٠٪ ، ومن أرض سوريا نحو ٣٠٪ .

كشفت رابطة حقوق الإنسان فى إسرائيل أنه فى الفترة من ١١ يونية ١٩٦٧م حتى ١٥ نوفمبر ١٩٦٩م تم تدمير ٢٠,٠٠٠ منزل عربى بالديناميت فى إسرائيل والضفة الغربية .. أما ما حدث فى سيناء والجولان فيمكن السكوت عنه ، حتى لا يتسع الخرق على الراقع .

وما دمنا بصدد قصة (الضياع) على أرض فلسطين ، يكفى الإشارة إلى قائمة أوردها إسرائيل شاحاك سنة ١٩٧٥م عن ٣٨٥ قرية عربية دمرت بالبلدوزر من بين ٤٧٥ كانت تنعى من بناها منذ ١٩٤٨م .

وقد حُرّف قانون (العودة) لصالح اليهود ، فأى يهودى قادم من أى مكان يصبح مواطنًا إسرائيليًا ، بمجرد ما تطأ قدماه مطار تل أبيب ، أما الفلسطينى المولود

فى فلسطين ، ومن أبوين فلسطينيين ، فيجوز اعتباره عديم الجنسية !!

كيف كان ذلك ؟ الأرقام وحدها تبين كيف أخذ من لا يملك كل شيء ممن يملك .. (وكله بالقانون) كما قال زعيم الانفتاح العربى ، القانون الذى يصنعه القوى ليدوس ، أو (ليدعس) - كما يقول النشامى - رأس الضعيف .

إبان الاحتلال النازى لدول أوربا ، تم الاتفاق مع عدد من القيادات الصهيونية على نقل اليهود من الأراضى (النازية) إلى معسكرات الاعتقال سيئة السمعة ، كبوخنوالد ، وأوشفيتز ، مقابل السماح لأعداد من اليهود المثقفين الأغنياء الأقوياء بالرحيل إلى فلسطين .

إن مبدأ (الإنسان الأقوى / السوبر مان) الذى نادى به نيتشه ، واعتنقه هتلر ، وضع فى حساب كبار الصهاينة الذين صاروا يعملون جادين من أجل التحالف مع الأقوياء ، واتخاذ القوة والعنف والإرهاب لغة الاحتلال والتنكيل والتهجير .

(القسطل) كانت أول قرية عربية احتلها الصهاينة سنة ١٩٤٨م ، وقد أدى سقوطها والمذابح التى وقعت فيها إلى هز مشاعر السكان ، فانطلق المئات من شباب القدس وقراها ورجال العشائر نحوها ، ولكن كرد فعل مباشر، يقتصر على الحدث القريب ، دون دراية بأبعاده ، فقد شن المجاهدون هجومًا مضادًا ، وتم تحرير القرية بقيادة القائد عبد القادر الحسينى .

وبينما كانت فرق البالماخ (الصاعقة) محاصرة فى القسطل هاجمت قرية دير ياسين مجموعتان من عصابتى الأرجون وشتيرن ، وتم اعتقال من تبقى من الرجال ، ووضعوا فى شاحنة طافت بهم شوارع الأحياء اليهودية فى القدس ، ثم أعيدوا إلى محجر بالقرب من القرية ، وأعدموا هناك ، وبعدها جمع المهاجرون من بقى على قيد الحياة من النساء والأطفال ، ونقلوهم إلى جوار بوابة مندليوم فى القدس .

وقد بلغ عدد القرى التى هُدمت فى قضاء صفد ، شمالى فلسطين ، سبعين قرية ، وفى قضاء طبرية ، شمال غرب فلسطين ، خمسًا وعشرين قرية ، وفى قضاء الناصرة فى الجليل ، خمس قرى ، وفى قضاء حيفا ، فى الوسط الغربى تسعًا وثلاثين قرية ، وفى منطقة جنين خمس قرى ، وفى منطقة بيسان تسعًا وعشرين قرية ، وفى منطقة يافا ثلاثًا وعشرين قرية ، وفى المناطق التى أمكنهم السيطرة عليها سنة

١٩٤٨م من قضاء الجليل ، سبع عشرة قرية ، وفى منطقة طولكرم إحدى عشرة قرية ، وفى منطقة الرملة ستين قرية ، وفى منطقة القدس ثلاثين قرية ، وفى قطاع غزة ستًّا وأربعين قرية ، وبلغ عدد القرى التى ضاعت معالمها ٣٨٨ قرية .

ولم يكتف الصهاينة بما نزل بالفلسطينيين على أرضهم ، إذ كانت كل الدول (الاستعمارية) ، أو التى مارست الاستعمار زمنًا ، تؤيدهم بالمال والسلاح ، وبالمعلومات وتناصرهم فى جميع وسائل الإعلام ، ومن هنا صارت (الذراع الطويلة) التى تلبس القفاز الحديدى الأمريكى تمتد خارج الأرض الفلسطينية ، تلاحق المهاجرين فى تونس ، وتهاجم الزعيم الليبى ، والمطار العنتيبى ، والمفاعل العراقى ، وتعين الانفصاليين فى السودان ، والعنصريين فى جنوب أفريقيا ، وتتزعم عصابات المافيا على مستوى العالم شرقًا وغربًا .

وفى ٦ يونية ١٩٨٢م عبرت قوات إسرائيلية ضخمة مزودة بأحدث الأسلحة والمعدات ، تحت غطاء جوى ومدفعى ، وبحرى كثيف – حدود فلسطين الشمالية ، بحجة إجلاء قوات منظمة التحرير الفلسطينية إلى مسافة ٤٥ ك . م . – من شمال فلسطين ، لتأمين المستوطنات الصهيونية فى منطقة الجليل (المحتلة !!) ، ثم أعلن شارون وزير الدفاع الإسرائيلى أن الهدف هو القضاء على البنية التحتية لمنظمة التحرير الفلسطينية فى لبنان ، وتبين ذلك عن طريق عمليات القصف التى تمت جوًّا وبرًّا وبحرًا ، وشملت مناطق مأهولة بالسكان والمخيمات والقرى والمساجد والكنائس والمستشفيات والمدارس .. واستعمل الجيش الإسرائيلى الجرافات كسلاح أساسى مركب على مقدمة الدبابات فى الطريق إلى بيروت ، وتمت إزالة كثير من القرى والمخيمات بحجج عسكرية .

وتبع هذا مذبحة (صبرا وشاتيلا) التى قامت بها عصابات من (العملاء) اللبنانيين ، ومن المحترفين الإرهابيين اليهود ، تحت غطاء المدفعية الإسرائيلية ، وتحت الحصار الذى منع الناس من الإفلات من المجزرة التى راح ضحيتها ستة آلاف فلسطينى ولبنانى ، أكثرهم من النساء والأطفال ، وقد تمت المذبحة تحت إشراف شارون وزير الدفاع .

● خلال جو الإرهاب والاضطراب الذى أشاعته (حرب !!) ١٩٦٧م ، تم إجلاء أكثر من ربع مليون فلسطينى إلى الضفة الشرقية للأردن ، حيث أقيمت لهم على عجل مخيمات جديدة ، بالإضافة إلى مخيمات طريدى ١٩٤٨م وما بعدها .

ومع هذا يقول الحاخام « بوتشكو » بقدر من الشعور بالإحباط :

(لقد منحنا القدر فرصة رائعة فى ١٩٦٧م ، ولكن هل وعيناها فعلاً ؟! هل استجبنا لهذه الدعوة العظمى لاستعادة اليهود من المنفى ؟! إننا لم نستمع إليها ، وهذا هو السبب أننا اليوم فى هذا الموقف المأساوى الذى لا حل له ، لو كان ثلاثة أو أربعة ملايين يهودى قد عادوا ليقيموا فى يهوذا والسامرة ، ليخلقوا واقعًا مفروضًا لكان الوضع قد تغير كثيرًا ، ولكن هذا لم يحدث) !!

لكن ابن حفيد تروتسكى « دافيد آكسيلرود) لم يفقد الأمل ، فهو يرى أن العرب الذين لم يعودوا يقبلون الرحيل (يجب أن يموتوا ، ولا أرى إمكانية تحقيق هذا المشروع حاليًا ، ولكن الأوضاع الحالية لن تستمر ، فهى مسألة وقت ، فستنشب حروب دموية قاسية ، وأرجو أن نكون لازلنا قادرين على كسبها ، وبعد هذا الصراع لن يبقى عرب كثيرون فى المنطقة) ، لا فى إسرائيل وحدها .

والمعروف أن أمريكا تهيئ لهذا اليوم بتزويد إسرائيل بجميع أسلحة الدمار الشامل ، وبإضعاف القوى التى يُخشى أن يكون لها دور فى الصراع كالعراق ، وإيران ، والسودان المسلم ، وليبيا البترول ، والجزائر الطاقة ، مخزن القادرين على الاستشهاد .

وحتى يأتى ذلك اليوم ذكر ملحق (عَلْ همشمار) فى ٢٥ نوفمبر ١٩٨٨م أنه إذا تولى رحبعام زئيفى منصب نائب وزير الدفاع ، سيتقدم بمشروع متواضع بسيط ، يتم عن طريقه إبعاد مائة ألف عربى عن الأراضى المحتلة ، خلال عام ونصف العام ، كبداية .. وإن السماء لن تنطبق على الأرض لو نفذ هذا المشروع ، إنه سيعمل على اتخاذ عدة وسائل من القيود والمضايقات الكفيلة بتحويل الضفة الغربية إلى منطقة طاردة لمن فيها من العرب .

وفى ١٧ يونية ١٩٨٧م جاء فى صحيفة (معاريف) عن رحبعام زئيفى أن الحل الأفضل لعرب الأراضى المحتلة وللشعب الإسرائيلى هو نقل العرب خارج هذه الأراضى .

من أجل هذا قال عنه (رابين) الإرهابى ورئيس الوزراء فى التسعينات : إنه رجل جميع المهام .

ومن أجل هذا تلقى عشرات المكالمات التليفونية والرسائل والبرقيات تأييدًا وتشجيعًا ، كما تزاحمت باقات الزهور على باب منزله .

سئل : ألا يبدو لك هذا المشروع خياليًا ؟

أجاب : الصهيونية كلها كانت خيالًا ، ثم إن الانتصار على سبع دول عربية ، ومد المياه إلى النقب وبناء مدن عبرية ، كلها كانت أمورًا خيالية تحولت إلى واقع .

وفى ١٨ سبتمبر ١٩٨٧م ذكر ميخائيل ويكل ، نائب وزير الدفاع - فى ملحق صحيفة دافار - أن نائب وزير الخارجية الأمريكى لشئون اللاجئين (!!) قال :

١ - يجب إصلاح أحوال لاجئى الضفة الغربية وقطاع غزة فى الدولة العربية ، نحن لن نطردهم من أراضيهم ، لكننا سنقوم بنقل ٥٠٠ ألف مقيم محرومين إلى لاجئين غير محرومين !! وأضاف ويكل :

٢ - الأسر التى ارتكبت مخالفات أمنية يمكن أن تنقل إلى حيث نوفر لها الأمان !!

٣ - كل من يريد أن يكون مواطنًا إسرائيليًا مخلصًا يجب تشجيعه على هذا الإخلاص .

٤ - الذين لا يرغبون فى أن يكونوا مواطنين إسرائيليين عليهم أن يذهبوا إلى الأردن التى هى أساسًا الدولة الفلسطينية .

وكان أن تكونت فى أول يولية ١٩٨٨م حركة سياسية جديدة برئاسة رحبعام زئيفى ، شعارها : أرض إسرائيل لليهود ، والعرب لهم الدول العربية .

وفى ٢٣ يولية ١٩٨٨م نقلت صحيفة (هأرتس) عن البروفيسور يوفال نئمان زعيم حركة هتحياه ، أن (إخراج نصف المليون عربى من الأراضى المحتلة يجب أن يكون شرطًا مسبقًا لأية اتفاقية سلام ، وإذا لم يوافقوا يمكن أن نقلل من حجم السكان العرب ، أو أن نقلل من تأثيرهم السياسى) .

وقال ميخائيل ويكل : (من الواجب على الدول العربية الاهتمام الأخلاقى بترحيل السكان الفلسطينيين عن الضفة الغربية إلى المملكة الهاشمية) .

وكتب تسيفى شيلوح عضو الكنيسست : (إن التصميم الأعمى للفلسطينيين من شأنه أن يؤدى بهم إلى حرب أخرى تضطر فيها إسرائيل إلى استخدام الترانسفير كضرورة عسكرية وديموجرافية فى آن واحد) .

وفى ١٧ أغسطس ١٩٨٨م نشرت (هأرتس) عن رحبعام زئيفى : (لقد استوعبنا فى إسرائيل أغلب يهود الدول الإسلامية ، والآن جاء دور هذه الدول لتستوعب السكان العرب من مناطق الضفة الغربية وقطاع غزة) .

وذكرت صحيفة دافار (٢٧ سبتمبر ١٩٨٧م) عن شارون أنه ينوى أن يعرض على عرفات أن يساعده على إسقاط حكم الملك حسين ، وإنشاء دولة فلسطينية فى الأردن ، فى مقابل أن يتنازل عرفات عن الضفة .

● إن كلًّا من زئيفى وويكل وشارون لا يعدون مغالين فيما به يحلمون ، وهم يقفون على أرض (منتصرة) على سبع دول عربية (!!) ، وبخاصة عام ١٩٦٧م ، ذلك لأن هذا الحلم زرع فى الوجدان اليهودى منذ زمن بعيد ، ليس فقط عن طريق ما وعد به (رب إسرائيل) ، أو عن طريق قرارات المؤتمرات الصهيونية ، أو عن طريق وعد بلفور ، أو الانتداب البريطانى والتأييد الأمريكى ، أو المشاركة فى الحرب العالمية بفرقة راكبى البغال .. بل بالتنظيمات والعلاقات الدولية التى أسهمت فى نقل أعداد غفيرة من اليهود وتمكينهم من الأرض الفلسطينية .. وفى هذا كتب بن جوريون فى أبريل ١٩٤١م : (إن الشعب اليهودى يرى فى إسرائيل الوطن الأوحد والوحيد له ، أما العرب الذين تعد هذه الأرض وطنًا لهم ، فهم جزء صغير جدًّا من الشعب العربى كله ، وهناك وطن واسع الأرجاء للشعوب العربية .. لكن إمكانية ترحيل العرب إلى الدول العربية مرتبط فقط بموافقة العرب) - عن هأرتس ٢ أكتوبر ١٩٨٨م .

وفى لندن اقترحت مجموعة إنجليزية برئاسة أرنولد لورانس ، شقيق لورانس العرب - قيام فيدرالية بين أرض إسرائيل وسوريا والأردن ، تشمل دولة يهودية بلا عرب .

وفى أكتوبر ١٩٤١م قال بن جوريون : (يوجد أناس فى انجلترا وأمريكا يوصون بنقل عرب إسرائيل إلى العراق وسوريا ، كحل متميز لما يسمونه بالمشكلة العربية) .

وقد جاء فى وثائق الأرشيف البريطانى أن الرئيس فرانكلين روزفلت (يميل إلى الاعتقاد بإمكانية سحب العرب من أرض إسرائيل تحت إغراء الأراضى والأغنام ، وتوطينهم فى منطقة حلب) .

ودعا الخبير الزراعى عقيبا أيتنجار إلى (شراء أراضى شمالى سوريا وأرض الرافدين ، ونقل عرب أرض إسرائيل إليها) .

وفى دراسة بقلم إسرائيل شاحاك ، رئيس الرابطة الإسرائيلية لحقوق الإنسان ، أن من الحاخامات من يقف بحدود إسرائيل بين العريش جنوبًا ، ونهر الأردن شرقًا ، ويمتد الشمال إلى الإسكندرونة فى تركيا .. ومنهم من يصل بالجنوب إلى القاهرة ، وتقع الحدود الشرقية داخل العربية السعودية ، ويصبح الأردن قلب إسرائيل - ومنهم من يمتد بها فتشمل لبنان وسوريا والأردن ، وقد يضيف جزيرتى صقلية وسردينيا !! وأغفل قبرص ورودس لأنهما داخلتان فى الحدود الإسرائيلية ضمنًا ، أو من أجل ألا يثير ثائرة الإمبراطورية البريطانية .

يقول يوسف فايتس ، مدير الصندوق القومى اليهودى : (أرض إسرائيل ليست صغيرة على الإطلاق ، إذا ما أفرغناها من العرب ، وإذا ما وسعناها قليلًا ، حتى الليطانى شمالًا ، ومرتفعات الجولان شرقًا يجب أن ينقل العرب إلى العراق وإلى شمال سوريا) .

قال فايتس هذا سنة ١٩٣٢م ، وكأنه ينظر إلى خريطة إسرائيل اليوم ، أرأيت الفرق بين أحلام الحشاشين وأحلام (القادرين)[١] ؟!

* * *

(١) ما جاء فى هذا الفصل مستمد من كتاب (الترانسفير) تراجم مختارة من العبرية .

من هؤلاء ؟!

يقول أوجين بتار ، أستاذ علم الأجناس بجامعة جنيف :

(اليهود عبارة عن طائفة دينية اجتماعية ، انضم إليهم فى جميع العصور أشخاص من أجناس شتى ، جاءوا من جميع الآفاق ، فمنهم الفلاشة سكان الحبشة ، ومنهم الألمان ذوو السحنة الجرمانية ، ومنهم التامل السود فى الهند ، والخزر من الجنس التركى ، ومن المستحيل أن نتصور أن اليهود ذوى الشعر الأشقر الكستنائى والعيون الصافية اللون الذين نلقاهم فى أوربا الوسطى يمتون بصلة القرابة - قرابة الدم - إلى أولئك الإسرائيليين القدماء الذين كانوا يعيشون بجانب نهر الأردن) .

ويقول الكاتب اليهودى أبراهام ليون :

(إن اليهود يشكلون - فى حقيقة الأمر - خليطًا عرقيًا متنافرًا ، والسبب الرئيسى فىهذا هو طابع التشتت الملازم لليهودية ، وحتى فى فلسطين كان اليهود بعيدين عن تشكيل عرق صاف) .

لكن جولدا مائير تقول :

(بالرغم من أننا قدمنا من بلدان مختلفة ، ونتكلم لغات عدة ، ولنا ثقافات وعقائد متنوعة - كنا إخوة ، ونَدين بالولاء المتبادل ، ويربطنا رباط مقدس ، وهو فلسطين ، فهى المكان الوحيد الذى يجب أن نعيش فيه هربًا من حياة المكابدة والعناء.. هنا فقط يستطيع اليهود أن يكونوا أسيادًا لا ضحايا القدر) .

وهذا زعم يكذبه الصراع بين يهود شرق أوربا (الأشكنازيم) ويهود أسبانيا (السفارديم) ، واليهود العرب ، واليهود الأحباش .

ومعروف أن الهجرة لم تتم عن رضًا واقتناع بقيام دولة على أرض لها تاريخ ، إنما هى هجرة محكومة بالخوف ، الخوف من الشعوب المطارِدة ، ومن الشعوب الناقمة ، ومن العصابات الأجيرة ، ومن العصابات الطامحة إلى الانتقام من العالم ،

عن طريق السيطرة عليه بإفراغه من القيم والمبادئ .. والتوجه إلى إسرائيل فى نظرهم ليس إلا خطوة على الطريق ، أو هو خلق جيب من جيوب الجريمة ، يتبع جيوبًا أخرى أكثر عنفًا ، وأشد مراسًا .

كان الخوف فى أوربا من انضمام فقراء المهاجرين اليهود إلى الحركات الثورية والأحزاب اليسارية المناهضة للرأسمالية ، كما حدث فى روسيا وبولنده وألمانيا .

ولذلك لجأت البورجوازية اليهودية فى انجلترا وفرنسا إلى إنشاء مؤسسات وجمعيات تهدف إلى توجيه الهجرة اليهودية إلى خارج أوربا ، حفاظًا على الطابع الطبقى والحضارى لليهود فى الدول الأوربية .

وقد وجدت الحكومات الأوربية فى خلق كيان يهودى فى فلسطين وسيلة إلى التغلغل داخل الدولة العثمانية ، للحصول على بعض ممتلكاتها .

وكان موسى مونتيفيورى من أوائل البورجوازيين اليهود البريطانيين الذين سعوا إلى توطين اليهود فى فلسطين ، فالتقى بمحمد على باشا سنة ١٨٩٣م ، وتمكن من شراء بعض الأراضى فى فلسطين ، وإقامة مزارع صغيرة بجوار يافا والقدس وصفد .. كما استطاع - بمساعدة بريطانيا - من الحصول على فرمان من السلطان عبد الحميد يسمح لليهود بشراء بعض أراضى القدس .

وفى سنة ١٨٨٢م وصل إلى فلسطين عشرون شاباً يهوديًا من روسيا ، كانوا رواد الاستيطان اليهودى ، إذ أنشئوا أول مستعمرة ، أطلقوا عليها اسم (ريشون ليزيون : الأولى فى صهيون) ، أعقبها إنشاء مستعمرات مماثلة .

وعلى الرغم من الخطر العثمانى قام يهود آخرون قدموا من روسيا بإنشاء مستعمرة (بتاح تكفا : باب الأمل) ، التى أطلق عليها أم المستعمرات ، كما أسس يهود من رومانيا مستعمرتين زراعيتين ، إحداهما فى صفد ، والأخرى فى سامارين ، على طريق حيفا .

وكان يقوم بتمويل مستعمرات الاستيطان - لمدة خمسين عامًا - المليونير الفرنسى إدموند دى روتشيلد ، والمليونير الألمانى هيرش .

وظلت فكرة توطين اليهود فى قبرص مفتوحة حتى سنة ١٩٠٣م ، لكن تعذر الاتفاق مع السلطان العثمانى بشأنها .

وفى الفترة ما بين ١٩٠٤ / ١٩١١ طرح التوطين فى الجبل الأخضر فى برقة بليبيا ، وتوقف المشروع بسبب الغزو الإيطالى .

وطرحت مشروعات أخرى للتوطين فى العريش ، وكوم امبو بمصر ، وفى منطقة الأحساء والبحرين بالجزيزة العربية ، وفى الكونغو ، وفى الأرجنتين ، وفى أستراليا .. لكنها جميعًا كانت صواريخ (اختبار) ، أو (تعمية) ، تشغل (الجوييم) ، و (السائرين نيامًا) عن الهدف المقصود ، عن (أرض الميعاد ، أو مركز الحركة الصهيونية الذى سيدور العالم من حوله) ، كما تحدثت (البروتوكلات) .

ولا ريب فى أن هدفًا كبيرًا كهذا استدعى جرأة بالغة ، ولم تكن هذه الجرأة ذاتية ، إنما هى صدى ضعف الآخرين وتمزقهم ، وعدم قدرتهم على تتبع الأحداث ، والوعى بمتطلبات الغد .

لقد وجد اليهود مؤيدين من جميع الناقمين والساخطين على اليهود ، ومن جميع الطامعين فى استغلال اليهود ضد الكيان العثمانى ، ومن هنا التقت رياح كثيرة لتعصف بتاريخ سجله أهله غناء وتطريبًا ورقصًا ، و (أمجاد يا عرب أمجاد) .

● اهتم اليهود بزراعة (الصوبات) البشرية أو (الكيبوتزات) ، ممثلة فى جيل الغد ، الجيل الذى يغرس أقدامه فى أعماق التربة (المقدسة) ، وفى أعماق الحلم العربى المرسوم على الصدور والأذرع على طريقة السبع أبى سيفين ، وأبى زيد الهلالى سلامة ، وعنترة بن شداد .. ومن هنا كان (الصباريم) ، يقول روبنشتاين : إنهم ليسوا كل من ولد فى فلسطين من اليهود ، قبل قيام دولة إسرائيل ، كما أنهم ليسوا كل من ولد فى إسرائيل بعد قيامها سنة ١٩٤٨م ، أى أنهم ليسوا أبناء السفارديم ، ولا أبناء اليهود الشرقيين ، إنهم تحديدًا أبناء أصحاب الحضارة الأرقى ، والمكانة الأرفع ، والبشرة البيضاء ، أبناء الصفوة الإسرائيلية من الأشكنازيم فقط ، الذين يتخذون من اليهود الشرقيين هدفًا يصبون عليه ازدراءهم وكراهيتهم ، بنفس القدر الذى كرهوا به وازدروا يهود الشتات والعرب الفلسطينيين على حد سواء .

إنه (اصطلاح مشحون) - كما يقول شمعون بلاص - العراقى الأصل - لا يميز مكان الولادة ، اصطلاح يستثنى أبناء الطوائف الشرقية الذين ولدوا هنا ، ويضم فى ثناياه الأطفال الذين ولدوا فى أوربا وفى أمريكا ، وتلقوا تعليمهم هنا ..

إن (الصبار) يمثل نموذجًا ، ولا يمثل مخلوقًا استاتيكيًا ، إن معظم مواليد (البلد) ليسوا (صباريم) كلاسيكيين .

(وقد كانت صداقة ورفقة السلاح عامل خلق للتضامن بين « الصباريم » ، حيث منحتهم إحساسًا بالتفوق ، وإحساسًا بالترفع ، سواء على جيل الآباء ، الذين كانت نفوسهم موزعة بين بيئتين ، وثقافتين ، ووطنين ، أو على معاصريهم الذين وصلوا إلى البلاد باعتبارهم ناجين من أحداث النازية ، أو كلاجئين من الدول العربية) .

وقد أكد بن جوريون هذا التوجه ، عندما قال : (ليس علينا أن نخرج شعب إسرائيل من الشتات فحسب ، بل يجب أن نخرج الشتات من شعب إسرائيل) .

الصبّار الراقى لا يتميز بما فيه ، بل أيضًا بما ليس فيه ، فليس فيه خوف ولا ضعف ولا رهبة فى القلب ، وليس فيه شهوة الربا ، وليس فيه نفاق ، وليس فيه (شتاتية) ، إنه (ابن البلد) ، ثمرة آمال الأجيال .

يقول الأديب ساميخ يزهار فى روايته (أيام تسيكلاج) : (تعال للحظة نتحدث عن الشعب اليهودى ، أى شعب يهودى ، حب الشعب اليهودى ، من ذا الذى يحبه ؟ ألسنا نهرب كالملسوعين من كل ما هو يهودى ؟ وهذا مبعث كرامتنا ، وانتصاب هاماتنا ، ولتعلموا صراحة ، وبشكل قاطع ، أننا نشمئز من كل ما نشتم منه رائحة كهذه ، اعتبارًا من دروس التاريخ اليهودى ، بكل ما يتضمنه من اضطهادات وانتهاء بالأكلات والتأوهات اليهودية ، ومن كل ما هو نطقه شتاتى ، ومن عادات الشتات ، والييديش من بينها .. إننا ننفض عن كاهلنا بصراحة أى انتماء أيًا كان ، ليس فقط مما تفوح منه رائحة الدين والتقاليد ، وليس من كل ما يطلقون عليه « المشاعر اليهودية » ، بما فى ذلك الترتيل الدينى ، وليس من أكلات السمك ، وطقوس الجنازات فقط ، بل أيضًا من كل من يأتى ليطلب بقوة الحقوق بالانتساب ، أو باحترام للمشاعر ، منذ « الهجرة الثانية » ، وحتى تاريخ الهاجاناه) .

يقول روبنشتاين : (إنه – الصبّار – لا يستطيع أن يفهم لماذا سمح ستة ملايين يهودى للنازيين بأن يقتلوهم ، إنه لا يستطيع أن يفهم لماذا ماتوا مستسلمين ، إن هذا كابوس بالنسبة له ، ووصمة عار) .

وفى سنة ١٩٦٩م أجرى كل من د. تامارين و د. بن تسفى بحثًا عن التصور الذاتى للصبار ، فجاءت الصورة على النحو الآتى :

المظهر الخارجى : طويل ، له خصلة شعر على جبينه ، قوى متين ، أسود ، ذو عينين لامعتين ، شعره أصفر أو رمادى . (الوصف بالسواد يناقض وصفًا سابقًا بالبياض ، ثم إن السواد يفيد أنه أثيوبى أو يمنى ، أو هندى ، وهذه الشعوب محتقرة داخل إسرائيل) .

الملابس : بسيطة لا مبالية ، صندل ، بنطلون ، قبعة (تمبل) .

الشخصية : فعال (يقظ ، وأحيانًا هائج) ، عدوانى (عنيف ومتمرد) ، يفتقر إلى الكياسة ، متفاخر ، متكبر ، وطنى ، مؤثر ، خشن الطباع ، مقبول وصاحب موقف ، طيب القلب ، جاد ومتزن ، حر ، ريادى ، لديه حس بالسخرية .

وفى مقابل هذه الصورة للصبار فإن ملامح اليهودى الشتاتى :

أحدب ، نحيف ، ذو نظرة غريبة ، ضعيف ومتمارض ، عيناه عصبيتان ، لديه ضفائر سوداء ولحية ، شاحب ، وإذا كان بالغًا تظهر عليه علامات الشيخوخة ، مثل الرعشة أو التجاعيد ، يرتدى ملابس تقليدية أوربية باهتة وبالية ، على رأسه قبعة أو طاقية .. ومن حيث شخصيته : منغلق ، غريب فى كل مكان ، يستولى عليه الخوف والشك ، لا يخالط الناس ، دينى تقليدى ، ثقيل الحركة ، يفتقر إلى اليقظة والنشاط ، ليست لديه ثقة فى الآخرين أو فى نفسه ، منحط ، هادئ ومتواضع ، صامت ، خجول ومرتبك ، يلتزم بالآداب ، لا يستمتع بالمباهج ، تظهر عليه آثار مشكلة يعانيها ، مجتهد ، جاد ، تشغله المسائل الروحية .

أما المرأة الشتاتية : فحدباء ، نحيفة ، قصيرة ، ذات شعر أسود ، عيناها عصبيتان سوداوان أو لامعتان ، ونظرتها غريبة شاحبة .

هذه الصورة ليهودى الشتات تفتقر إلى (الاستقراء) ، أو إلى الصفات المشتركة بين جملة يهود الشتات ، وإنما تنحو منحى ذكر الصفات التى يزدريها (الصبار) ، رجل الغد الذى تغذى بلبان النقمة والسخط على العالم كله ، والذى تربى ليكون سوط عذاب لمن يقف ضد طموحاته ، أو يكون عقبة تهدد قيام (الدولة) .

وهذه (الدولة) لا تتطلب وجود شعب متكامل ، فالتكامل يمكن تحقيقه بالالتفاف حول الهدف ، وكم من دول تكونت من طوائف متباينة ، لغة ودينًا .

وقد حرص قادة اليهود على عدم الالتزام بما تلتزم به الدول الأخرى ، فليس ثمة حدود مرسومة ، وإن ارتفع شعار (من النيل إلى الفرات) ، وليس ثمة مبادئ للتعايش مع دول الجوار ، إلا ما يعد خطوات مرحلية ، أو قناعات إعلامية .

يقول الدكتور الشامى (إشكالية اليهود فى إسرائيل ص ١٢١) : إنه لا يوجد ما يسمى الشعب اليهودى فى ماضى التاريخ اليهودى ، لأن الجماعة اليهودية اتخذت دومًا وضع الطائفة المنغلقة على نفسها ، طوال تاريخها ، وإن الأساس الدينى والوضع الاجتماعى لهذه الطائفة لا يؤدى إلى قيام كيان قومى طبيعى .

لكن الصهيونية قادرة على صنع التاريخ الذى تريد ، وقد نجحت فى إحياء لغة ميتة ، وليس من لغة بلا تاريخ ، وحسب هذه اللغة أنها حملت (أدبيات) المنافى خلال قرون طويلة ، ومن عجب أنه خلال إحياء هذه اللغة الميتة ، نبتت قرون الشياطين (التنويرية) ، على الساحة العربية ، تطالب بما صنع أتاتورك ضد اللغة والدين والتراث !!

● حين يكون المخاض يكثر الحديث حول (ولد أو بنت) ، حول (الأسماء) ، حول (الأوصاف) .

وهذا ما دونته (الأدبيات) الإسرائيلية إبان مخاض ولادة (إسرائيل) .

يقول بوعز عفرون : (إن الهدف الأصلى للصهيونية العلمانية لم يكن « امتلاك القوة » ، بل تحقيق « التطبيع » وعودة الشعب اليهودى إلى التاريخ ، والوصول إلى وضع متساو مع الآخرين ، والتطبيع يعنى حدوث تغيير كيفى فى الشعب اليهودى داخل البلاد ، وتحوله من طائفة دينية إلى طائفة قومية ، أى الانفصال عن الشعب اليهودى فى أماكن شتاته ، ويكمن مغزى هذا الانفصال فى الامتناع عن استغلاله ، والامتناع عن تطبيق سياسة قائمة على التعالى عليه ، والامتناع كذلك عن أن تصبح مصدرًا لأحلامه ، وكذلك الامتناع عن الادعاء بأننا نشكل ما يشبه المركز بالنسبة له ، ومغزى هذا أن الشعب اليهودى له الحق فى أن يعيش فى أماكن شتاته ، دون أن يشعر بأنه فى وضع أقل من الأمة الإسرائيلية ، كما أن الأمة الإسرائيلية- من جانبها - يجب

ألا تعتبر نفسها بمنزلة « المستقبل » بالنسبة للشعب اليهودى ، كما أن الأمة الإسرائيلية ، ومن خلال انفصالها عن وضع الطائفة اليهودية ، فصلت نفسها أيضًا عن صفة « اليهودى » وتحول الانتماء إلى نتيجة بسيطة تتمثل فى الحصول على الجنسية الإسرائيلية ، دون أى تفرقة ، من حيث الأصل العرقى ، أو الطائفى ، أو الدينى ، أو الجنسى) .

(ومعنى هذا التطبيع هو الانفصال نهائيًا عن قيم وأبنية وأنماط التفكير الخاصة بالطائفة الدينية اليهودية ، وخلق أمة إسرائيلية جديدة ، إن أى دولة تقوم على أساس مغاير لذلك ليست فى الحقيقة دولة حقيقية ، وفقًا لمغزى هذا المصطلح) .

(إن الثقافة العلمانية التى تطورت فى إسرائيل تفتقر إلى أى سمة يهودية ، تمامًا مثل الثقافات العلمانية فى البلاد التى يعيش فيها اليهود) .

ويؤكد عفرون نفس المعانى مرة أخرى بقوله : (إن السمات القومية الإسرائيلية ليست سمات يهودية على الإطلاق ، بل هى سمات مميزة للمجتمعات الطلائعية الغنية ، مثل : مدى تحقيق المساواة ، توافر النشاط ، والتفاؤل ، والاستخفاف بالقيود التقليدية ، والاستعداد لقبول التجارب والتحديات ، وذلك إلى جانب سمات سلبية ، مثل : التسلط ، والتطرف القومى الضيق ، وتبجيل القوة ، وهى أمور مميزة لكثير من الأمم التى حالفها الحظ فى ساحة القتال) .

ويرفض عفرون استمرار وصف الدولة بأنها يهودية ، على أساس (أن وصف الدولة بأنها دولة يهودية يعنى أن أكثر من ثلث ، وفى الغد نصف السكان الذين يعيشون فى الإطار السياسى الإسرائيلى - وهم من غير اليهود - لا يمكنهم قبول مثل هذا الوصف ، ونتيجة لذلك فإن هذا الإطار يتفسخ حتمًا فى اللحظة التى تهتز فيها قوة الأساس القومى السائد ، ويحدث ذلك عندما ينفجر تمرد معلن أو غير معلن ضد الإطار الرسمى ، وتكون هذه فى الحقيقة حالة حرب أهلية مكبوتة) .

والحل الذى يقترحه بوعز عفرون ، بدلًا من قانون العودة (الذى يمنح حق الهجرة والمواطنة لكل يهودى يريد أن يهاجر إلى إسرائيل) - الاستعانة بقانون إنسانى ليبرالى ، يترتب عليه (منح الملجأ للاجئين المضطهدين ، سواء كانوا يهودًا أو فلسطينيين ، على أساس أن الدولة مشتركة بين الشعبين ، ولكن دون منحهم الجنسية

بصورة تلقائية ، ومن أجل ذلك سيضطر اللاجئ إلى مواجهة الاختبارات العادية للجنسية التى لن تكترث بالجانب الدينى والقومى) .

ويحذر من الاستجابة لمطالب الشوفيتين المتطرفين الذين يطالبون بضم هذه المناطق المحتلة بعد حرب ١٩٦٧م ، (لأنه عندئذ سيظهر وضع يصبح فيه ما يزيد على ثلث السكان من غير اليهود ، وهو ثلث يتميز بالقدرة الكبيرة على الإنجاب ، كما أن كل الأوصاف التى أطلقت على البلاد - كدولة يهودية - ستواجه خلال جيل واحد حقيقة أن نصف السكان هم من غير اليهود) .

ويرفض الاستيطان الإسرائيلى فى هذه المناطق المحتلة ، (لأنه فى حالة دوام الاحتلال ستنشأ مجموعة عرقية ذات صلاحيات زائدة تستعبد السكان المحتلين إلى الأبد ، مما يضر بمفهوم الدولة القومية ، لأن حقوق المواطنة فى الدولة القومية ستمتد هنا إلى ما وراء الأراضى الإقليمية للدولة ، وفقًا للانتماء العرقى ، وليس السياسى) .

ويرى عفرون أنه (ما دامت العلاقات القائمة على العداء بين إسرائيل وجيرانها مستمرة - وهى علاقات يحرص النظام السياسى على استمرارها ، لكيلا يضطر للتخلى عن جزء من هذه المناطق التى احتلها أو عنها جميعًا ، فى إطار أى تسوية - فلن يكون لدى إسرائيل أى استعداد للانفتاح على العناصر غير اليهودية داخلها ، وستكون إضافة سكان غير يهود لدولة إسرائيل بمنزلة إضافة سكان معادين لها ، بصورة فعلية أو منظورة ، ويعنى هذا إضعاف الدولة) .

وهذا رأى يختلف معه إلى حدٍّ ما الأديب الإسرائيلى أ . ب . يهوشواع ، بقوله : إن الشعب اليهودى (يشبه إنسانًا يسير وسط الطريق ، وحين تصدمه سيارة يقودها مجنون ، فإنه يتهم السائق ، ويواصل طريقه « الشجاع » وسط الطريق ، بينما يحاول أن يطور نظرية روحية وأيديولوجية حول الطريقة التى ينبغى بها أن يدور السائقون يمنة ويسرة ، حتى لا يصيبوه) .

ويقول يهوشواع : إن (الشعب اليهودى لم يخلق فى فلسطين ، وإن العلاقة المادية والأولية بين الشعب ووطنه ليست علاقة طبيعية ، لقد تم إعداد اليهود كشعب فى مصر ، ومن هنا فإن الشتات كبوتقة صهر لليهود تسللت إلى أعماق الوجود اليهودى ، وأكثر من هذا ، لقد أعطيت التوراة لهذا الشعب فى الصحراء ، وليس فى فلسطين) .

أما دخول بنى إسرائيل إلى فلسطين ، فإنه يرى أنه (ليس احتلالًا ماديًا فحسب للبلاد ، بواسطة شعب جوال ، بل هو احتلال ذو مغزى روحى ، وأن وعد الشعب بالبلاد كان مقرونًا بشروط خطيرة ، لأن العودة وحدها لن تضمن سيطرته عليها ، وإذا لم يحقق هذه الشروط سيتحمل عقابات كثيرة ، ذروتها الطرد من البلاد ، أى الشتات) .

ويكتشف يهوشواع أن (وجود الصحراء فى الوعى اليهودى مهم للغاية ، حيث إن كل الأعياد القومية التى يحتفل بها اليهود - المظال والفصح والأسابيع - مرتبطة بوجود اليهود فى الصحراء ، لذلك يخشى اليهود من دخول البلاد ، وتصبح كلمة « الخوف » مفتاحًا آخر من أجل فهم علاقة اليهود بفلسطين) .

ويقول يهوشواع : (إن كل الهجرات اليهودية الصغيرة إلى فلسطين ، والتى لم تتوقف فعلًا على الإطلاق ، تثبت أنه كان من الممكن الوصول إلى فلسطين والاستيطان بها ، ولكن الغالبية من اليهود لم ترغب فى ذلك .. إن اليهود - كما نجحوا فى التسلل عبر الشقوق التى فتحوها فى أسوار بلاد كثيرة ، وفى الصمود فى وجه أنظمة حكم مختلفة وقاسية ، ووسط ثقافات أجنبية وبعيدة - كانوا يستطيعون عمل هذا أيضًا فى فلسطين ، والدليل القاطع على أن اليهود لم يبذلوا أى جهد من أجل العودة إلى فلسطين ، هو عدد اليهود الذين كانوا يقيمون فيها ، فى بداية القرن التاسع عشر ، لقد كان مجموع اليهود هو خمسة آلاف يهودى من بين ٢,٥ مليون يهودى - أقاموا فيها بعد كل هذه الهجرات المتواصلة) .

(إن الأبواب مفتوحة ، والإمكانيات هائلة ، لكن المهاجرين لا يأتون ، إن موجات الهجرة التى وصلت إلى فلسطين كانت فى غالبيتها العظمى موجات هجرة تحت ضغوط : لاجئى أحداث النازية ، ولاجئى البلاد العربية ، ولاجئى البلاد الشيوعية ... إلخ ، إن أقلية لا بأس بها فقط هى التى وصلت إلى إسرائيل بدافع من الرغبة الحرة) .

إذا جمعنا آراء عينات مختلفة من (الطبقات) اليهودية ، (أدركنا أن كل واحد منهم يفسر مضمون اليهودية وطابع الانتماء إليها بصورة مختلفة ، ووجدنا أن لكل واحد منهم تبريره الخاص لعدم هجرته إلى إسرائيل ، ووجدنا أن لكل واحد

منهم نقدًا مختلفًا لما يجرى فى إسرائيل ، ولكنهم جميعًا يشتركون فى شىء واحد ، وهو أنهم لا يهاجرون إلى إسرائيل) .

تقول شولاميت لاسكوف : (إن معدل هجرة يهود روسيا إلى الولايات المتحدة الأمريكية زاد بسرعة وبعشرات ومئات الأضعاف على معدل الهجرة إلى فلسطين ، بالرغم من أن تكاليف السفر إلى فلسطين كانت تبلغ ثمن تكاليف السفر بالسفينة إلى الولايات المتحدة الأمريكية) .

إن بوعز عفرون يتساءل : (ماذا كان سيحدث للهجرة إلى البلاد ، ولو بمثل هذه المعدلات المتواضعة ، لو أن تكاليف السفر إليها كانت أكبر من تكاليف السفر إلى أمريكا) ؟

ويرى يهوشواع : (أن الشتات كحالة ، وكاحتمال ، هو من بين الأسس الأولية للغاية التى تشكل مضمون الوجود اليهودى ، وأنه يوجد فى الجزئيات وفى الذرات التى تبنى هويته الروحية والوجودية ، وأنه جزء عضوى من الخرافات القومية لليهود ، وأنه ليس حالة مفروضة من الخارج ، بل حالة داخلية اختارها اليهود ، ويشتاقون إليها) .

ويحذر يهوشواع من القوة التى يمثلها هذا الشتات الآن ، نظرًا للدور الخطير الذى يلعبه فى مساندة إسرائيل ، ويدعو الإسرائيليين إلى الصمود ضده ، حتى لا يهتز أساس وجودهم السيادى .

(لقد أخذ الشتات اليهودى فى القوة من جديد فى السنوات الأخيرة ، ليس من الناحية الكمية فحسب ، بل من حيث وزنه فى نطاق التوازن بينه وبين إسرائيل ، إن الشتات الذى يمنح إسرائيل المساعدة والدعم يشكل فى نفس الوقت تهديدًا لها ، والذين بنوا هويتهم القومية على دولة إسرائيل فحسب يجب أن يصمدوا ضد الشتات اليهودى ، وضد قوى الشتات التى يمكن أن تهز أساس وجودهم السيادى الذى تم تحقيقه بالعمل الكادح) .

ويرى يهوشواع أن كثيرين من الإسرائيليين لا يرتاحون لاستعمال مصطلح (إسرائيلى) ، كمفهوم وحيد بالنسبة للهوية ، ويفضلون الازدواجية (يهودى إسرائيلى) ، وهم يخشون من أنهم إذا استعملوا مصطلح (إسرائيلى) يكونون بذلك

قد تنازلوا عن الماضى كله ، وعن التراث اليهودى ، والأمر ليس كذلك (حيث إننى أعتبر أن الفصل بين الاسمين هو أساس البلاء العظيم ، لأن ذلك يجعل الشخص يعزو فشله لهذا الجزء أو ذاك من هويته ، وألا يرى نفسه ضمن وحدة كاملة وموحدة ، وعلاوة على ذلك فإن النواة اليهودية بداخلنا هى التى تمكننا من مغادرة البلاد بسهولة والعودة إلى الشتات ، دون أن نحطم هويتنا ، إن اليهودية هى أنجح جواز سفر للتنقل فى العالم ، وقد برهنت على ذلك لأكثر من ألفين وخمسمائة عام) .

يؤيده - إلى حد ما - فى هذا أنطوان شماس ، إذ يقول : (إن الهوية الإسرائيلية فى نظرى عبارة عن ضرورة لكل مواطن فى دولة إسرائيل ، يطلب من وزارة الداخلية أن تكتب له فى بطاقة هويته أنه « إسرائيلى » ، بالإضافة إلى أنه يكون لديه اعتقاد جازم بالأمور الآتية :

١ - أن الصهيونية - كحركة قومية - قد انتهت مهمتها مع إقامة دولة إسرائيل .

٢ - أن كل من يعيش داخل الخط الأخضر - وهو مواطن بدولة إسرائيل - يوصف بأنه إسرائيلى .

٣ - أن « قانون العودة » هو قانون عنصرى ، وقد حان الوقت لتحويله إلى قانون هجرة عادى ، كما هو متبع فى دول العالم الغربى ، وعلى الدولة أن تقرر ما إذا كان فلان جديرًا بأن يدعى « إسرائيليًا » ، فالجنسية الإسرائيلية ليست شيئًا أوتوماتيكيًا وبديهيًا .

٤ -أن يكون كل الإسرائيليين متساوين فى الحقوق والواجبات .

٥ - أن دولة إسرائيل اليوم ليست دولة ديمقراطية ، حتى بالنسبة لليهود أنفسهم - كما كانت حتى عام ١٩٦٧م - حيث إن الاحتلال والديمقراطية لا يلتقيان .

٦ - أن كل ما سبق ذكره يمكن أن يتحقق فقط عندما تعود إسرائيل إلى حدود دولة إسرائيل .

ويقول كانيوك : (لقد كانت الهوية - بالنسبة لى منذ الأزل - مشكلة كبيرة ، لأنها أكثر الأمور حرجًا فى الوجود الإسرائيلى ، وأنا أعرف جيدًا مفترق الطرق اليهودى الإسرائيلى ، فهو مفترق موحش ومحفوف بالمخاطر والمفاجآت ، ودون تغيير

مطلق فى القيم والقوانين الموجودة لا أمل فى السيادة العبرية .. إن الهاربين من الأزمات اليهودية يتوجهون إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، ومعظم يهود إيران منهم ، لأنه لا يوجد فى إسرائيل ما يجذب من يبحثون عن وطن ، كذلك فإن يهود أمريكا الجنوبية الذين يهربون من بلاد تتميز بالعنصرية يهاجرون إلى أستراليا ، لأن هجرتهم إلى إسرائيل تعنى الهجرة إلى بلاد تسودها العنصرية غير المنطقية ، فلا داعى للخيال ، لأن من يبحث عن دولة لا تفرق بين الناس وفقًا لدمائهم لا يأتى إلى هنا) .

● هذا (التوصيف) للهوية الإسرائيلية يعبر عن مشاعر (أدبية) ، لا سياسية ، حتى أولئك الذين يدعون إلى السلام ، مأخوذين بالجرائم الإسرائيلية ، بالغة العنف ، والخوف من (رد الفعل) اليائس الذى تجذّر على أيدى حركة (حماس) ، وحركة (المجاهدين) ، ومن قبل على أيدى (القسام) ، ثم (عرفات) ، ثم حركة (نضال) .. إن اليأس الذى صنع (الصهيونية) هو (اليأس) الذى يصنع المقاومة العربية ، ولهذا كانت حركة (السلام الآن) تعبيرًا عن تدارك الخطر المنظور الذى قد يحرق الأخضر واليابس ، إن المطلوب بثأر حين يحمل كفنه إلى مجلس الأعداء يرمى إلى أن يمتص غضب (الثأريين) ، أو يريد التطبيع معهم ، (والتسلل) إلى صفوفهم .

لقد نهض اليهود بمهام التجسس فى كل الحروب العالمية لصالح كل الجهات ، وفى حالات السلم نهض اليهود بإشعال الحرائق فى كل مكان وصلوا إليه ، وفى كل مكان يريدون الوصول إليه ، وبذروا بذور الخراب والتدمير المادى والمعنوى (نفسيًّا وروحيًّا ، وعقليًّا) .. إنها عملية توزيع الأدوار ، وتغيير الأقنعة .

يقول بيتر ناثان : (.. فإذا كنت معاديًا للرأسمالية ، فإنها من اختراع اليهود ، وهاهو جميع رأسمال العالم بيد اليهود ، أما إذا كنت معاديًا للشيوعية فستجد أن جميع الاشتراكيين والشيوعيين من اليهود ، كما هو الحال فى ماركس وتروتسكى وهاينه وتولز ، وإذا فقدت ابنك فى الحرب ، فاليهود هم الذين سببوها ، وإذا اعتبرت الصلح مخلًّا بشرف الأمة ومصالحها ، فاليهود هم الذين رتبوا الصلح) .

إن اليهودى بطبعه لا يعوم ضد التيار ، لكنه يعمل على صناعة التيار ، ويركب ظهره وتيار (السلام الآن) يدعو إلى :

١ - أن السلام يجب أن يسود منطقة الشرق الأوسط ، بحيث تتمتع شعوب المنطقة - بما فى ذلك الشعبان الفلسطينى والإسرائيلى - بالحقوق المتساوية ، وتسوية الصراع الإسرائيلى الفلسطينى على أساس من الاعتراف المتبادل بين دولة إسرائيل ودولة فلسطين .

٢ - أن التسوية يجب أن تضع نهاية للاحتلال الإسرائيلى الذى ترتب على حرب ١٩٦٧م .

٣ - أن التسوية يجب أن تتضمن حلًّا لمشكلة اللاجئين الفلسطينيين من جميع وجوهها .

٤ - أن جميع الخلافات ينبغى أن تحل من خلال مفاوضات تتم بين ممثلين معترف بهم من جميع الأطراف ، من حكومة إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية ، بهدف التوصل إلى حل جذرى ، يتضمن حق شعوب المنطقة فى العيش داخل حدود آمنة ومعترف بها ، وعدم اللجوء للعنف فى حل الخلافات .

٥ - أن المفاوضات بين الأطراف يجب أن تتم فى إطار مؤتمر دولى للسلام .

وهذه المبادئ المتسمة بالإنصاف دعت إلى مثلها (تقريبًا) حركة (الشرق من أجل السلام) التى شكلتها جماعة من المفكرين الإسرائيليين الذين تعود جذورهم إلى منطقة الشرق الأوسط .

وإذا صحت النيات فقد تصح الأفعال ، وما علينا إلا استغلال هذه (النباتات) التى قد تغلظ لها سوق !![١] .

* * *

(١) كثير من نُقول هذا الفصل عن (إشكالية الهوية فى إسرائيل) للدكتور رشاد الشامى .

هناك فرق !!

إسرائيل عبارة عن شريط ضيق من الأرض ، جزء كبير منه مازال صحراويًا ، مثل صحراء النقب ، أو غير مأهول بالسكان ، مثل منطقة الجليل ..

إن المسافة من تل أبيب إلى القدس يمكن اجتيازها بالسيارة فى أقل من ساعة ، كما يمكن رؤية مشارف القدس من فوق أحد أسطح منازل تل أبيب ، ويتطلب اجتياز البلاد من أولها إلى آخرها فى أطول محاورها - من إيلات إلى الحدود اللبنانية - ثمانى ساعات بالسيارة ، وخمسًا وأربعين دقيقة بالطائرة .. وفى المثلث الصغير الواقع بين تل أبيب وحيفا ، وهو وسط الدولة ، يتكدس ٨٠٪ من السكان ، بالرغم من أن المسافة بينه وبين النقب ، أو الجليل - بمعايير المسافات الأوربية والأمريكية - لا تكاد تذكر .

ومع هذا ، أمكن لهذا الكيان المحاط بكيانات عربية تبلغ مساحتها أكثر من مائة ضعف ، ويبلغ تعداد سكانها أكثر من مائة ضعف من سكان إسرائيل - أن يقول : لا ، أهى عصا موسى تلقف ما يأفك العرب ؟

قد نجد من يتحدث عن الأسلحة الفاسدة ، وعن الاحتلال الإنجليزى الفرنسى ، وعن المساعدات الأجنبية ، لكن لغة غاندى لقومه : لو أنكم ذباب يطن فى آذان الإنجليز لأصمهم ، ولو ألقى كل منكم حجرًا فى بحر المانش لأغرق الجزر البريطانية ، ولقد أجبر غاندى الإمبراطورية التى لا تغرب عنها الشمس ، بالمقاومة السلبية ، وبمقاطعة السلع الإنجليزية ، لم يتهددهم بالإلقاء فى البحر ، ولم يتطاول على ملكتهم بالسباب ، ولم يملأ المصارف الأجنبية بدماء شعبه .

إن القضية هى قضية (الغثاء) ، ولماذا هو (غثاء) ، أو (ركام) ، برغم أنف (وحدة الدين واللغة والتاريخ المشترك والعادات والتقاليد) ، وبرغم أنف (التراث العظيم) الذى نحمله على ظهورنا (كمثل الحمار يحمل أسفارًا) ، أو ندوسه بأقدامنا ، كما يفعل السكسونيون واللاتينيون والتنويريون من أبناء العرب الأمجاد .

إننا لا نزال – حتى يومنا هذا – نخرب بيوتنا بأيدينا وبأيدى أعدائنا ، من الخبراء والوسطاء ، من أجل العمولات ، ومن أجل المنافسات ، ومن أجل الولاءات المشبوهة .

هل تصدق أن الذين يقتلون بأيدى العرب أكثر من الذين يقتلون بأيدى أعدائهم ؟!

هل تصدق أن الإسرائيلى الأسير قد يفتدى بأكثر من مائة أسير عربى ، وأن استعادة جثة إسرائيلى تتم فى مقابل فك أسر عشرات من العرب الأحياء ؟!

إن هذا المناخ (الملوث) القبيح الوجه واليد والسان ، هو الذى أورث اليهودى (التائه) أكثر من ألفى عام – شعورًا بالتفوق ، وشعورًا بالقدرة على النصر .

ظللنا دهرًا نقول : سنلقى إسرائيل فى البحر ، فإذا بنا نغوص فى الأوحال ، ونغرق فى تبادل الاتهامات ، ونختفى خلف آلاف الشعارات .

حتى إذا .. وآن الجلوس على موائد المفاوضات ، صرنا نتسقط الفتات ، وهو كالسراب (يحسبه الظمآن ماءً) .

● **وبعد** .. فهل يمكن التحدث عن شخصية يهودية إسرائيلية واحدة ، برغم أنف التباين والتنوع فى الأصول الحضارية والثقافية لجماعات وفدت من ٧٠ دولة ، وبرغم أنف التباين والاختلاف فى أساليب التنشئة الاجتماعية بين كل من السفارديم والأشكنازيم والصباريم والفلاشا ؟

لكن ، ماذا أجدت الروابط التاريخية والثقافية والدينية والعمق الاستراتيجى بين مصر والسودان ، وبين العراق والكويت ، وبين قطر والسعودية ، وبين اليمن وعمان ، وبين اليمن والسعودية ، وبين الجزائر والمغرب ، وبين ليبيا وجميع دول الجوار وغير الجوار ؟!

وماذا عن التمزق الذى أصاب الاتحاد السوفييتى بعد ٧٠ عامًا من الشعارات والأبنية الاشتراكية ؟

وماذا عن الصرب والمسلمين والكروات ، وبين التشيك والسلاف ؟!

إن قيمًا جديدة تحكم العالم اليوم هى التى وحّدت بين اللصوص والمغامرين فى

الأمريكتين ، وفى معظم دول أفريقيا ، وفى أستراليا ، بينما قطعت أوصال دول أخرى ذات عراقة تاريخية ، وذات روابط كثيرة ، أهمها المعاناة المشتركة فى مواجهة عدو مشترك .

إن الأمر ليس خاصًّا بمكونات شعب من الشعوب ، بل بنوع القيادة التى تتولى أمر هذا الشعب .

قد يقال : (إن الأشكنازيم يحتلون قمة الهرم الاقتصادى والاجتماعى فى إسرائيل ، وهم الذين يسيطرون على كل مراكز القوة السياسية والاقتصادية والعسكرية .. بحيث يرتبط كل ما هو متصل بتاريخ إسرائيل وثقافتها وتراثها بتاريخ وثقافة اليهود الأشكنازيم فى أوربا الشرقية والغربية ، وبحيث يسود الطابع الحضارى الغربى دولة إسرائيل ، باعتبار أن بُنَّاءَها الأساسيين ينتمون إلى هذا الطابع الحضارى الغربى) .

وهذا مجرد رؤية من الخارج أشبه بالذى يغرق بين المبادئ الحزبية المتخالفة ، أو (المتنافرة) على الساحة اليهودية ، وما هذه المبادئ إلا إفرازات من أجل تدعيم الكيان ، وتوسيع الرقعة ، وإبادة العنصر العربى .

إنهم لا يزالون ينقبون عن حجر من قصر سليمان ، أو هيرود ، أو عن كهف الماسادا ، أو عن بقايا مدينة دمرها يشوع ، تأكيدًا لحقهم فى أن يكونوا المالكين الحقيقيين اليوم ، ملكًا شرعيًّا موثقًا !!

إن البرديات السبع لسفر أشعيا التى اكتشفها عرب بالقرب من البحر الميت ، والتى اشترتها حكومة إسرائيل قبل ١٩٦٧م محفوظة اليوم فى القدس ، كرفات قديس ، فى مقر خاص بنى لذلك ، يطلق عليه (هيكل الكتاب) ، وهذه البرديات قد تكون انتقلت مع أحد الأحبار أو (النكرات) إبان الاضطهاد والشتات ، وقد تكون ملك أحد المسيحيين ، لكنها الوقاحة و (البلطجة) التى زعمت أن اليهود هم بناة الأهرام ، وهى الوقاحة و (البلطجة) التى تزعم أن (إسرائيل هى – وبامتياز – علامة التاريخ الإلهى فى العالم ، فإسرائيل هى محور العالم ، وهى العصب والمركز والقلب) .

يقول البروفيسور يجال يادين : لقد قام الشباب بحفائر شاملة ، فى المدة من

١٩٦٣ / ١٩٦٥م ، للبحث عن بقايا أواخر المدافعين عن قلعة الماسادا !!

ثم جدّت الدولة فى ترميم المكان ، وإعادة بناء (القلعة) جزئيًا ، وعن طريق القطار المعلق (التلفريك) يتم الحج إليها من قبل السائحين ، وتقام حفلات تمثل الترابط بين السياسة وعلم الآثار فى التاريخ الإسرائيلى الحديث .

وتفد إلى المكان جموع طلاب المدارس ، ووحدات من الجيش الإسرائيلى ، فى مسيرات إلى (القلعة) ، ويقسم جنود المدرعات يمين الولاء على مرتفعات (ماسادا) ليلًا ، على ضوء مئات المشاعل .

وبعد احتلال القدس العربية فى حرب يونية ١٩٦٧م ، أخذ الإسرائيليون فى سلسلة حفريات حول (حائط المبكى) ، من أجل اكتشاف مراحل من التاريخ اليهودى القديم ، أو من أجل حدوث انهيار للمسجد الأقصى !!

إنهم يصنعون من الوهم تاريخًا ، ومن (الحبة قبة) ، دون الاستغراق فى حرب بين الأصالة والمعاصرة ، أو بين السلفية والتنويرية ، والتشكيك فى رواية التاريخ والحديث النبوى ، والتهجم على كبار الصحابة ، وكبار العلماء والفقهاء ، وإعادة كتابة تاريخ الخوارج والقرامطة بأسلوب التمجيد والتنوير والتشريك - الاشتراكية - وسبق الوعى الحضارى .

إن اليهود يصنعون من أخطائنا وتمزقاتنا تاريخهم ، كما يصنعون من جرائمهم أمجادًا يعتزون بها ، ويُعلون من شأنها .

يقول الأديب اليهودى (عاموس عوز) فى حوار مع شخصية سياسية هامة ، أشار إليها بالحرف (زد Z) :

(إن كثيرين من مشاهير العالم كانوا قتلة إرهابيين ، فلماذا أكون أنا أفضل منهم من الناحية الأخلاقية ؟ إننى أريد أن تنضم إسرائيل إلى هذا النادى الذى يضم مجموعة من الزعماء الأقوياء الذين لا يراعون المبادئ والأخلاق ، لأنه حينئذ سيهابنا العالم ، بدلًا من أن يعطف علينا ، حقيقة سيبدأ العالم فى الارتجاف خوفًا من نزواتنا ، بدلاً من الإعجاب بنبل أخلاقنا ، لكن اتركهم يعوون فى العراء ، ويصفوننا بأننا أمة من الكلاب المسعورة ، دع العالم كله يعرف أننا لا نتورع عن إثارة حرب عالمية ثالثة إذا قتل أحد سفرائنا بالخارج) .

(إننى لا أهتم بأن يطلقوا علينا أفظع الألقاب ، لا يهم ، فكل شىء محرم مسموح فى سبيل البقاء ، حتى طرد العرب من الضفة الغربية ، فليقولوا عنا إننا نازيون ، ماذا لو قتلنا من العرب مليونًا ، أو حتى ستة ملايين ؟ ماذا سيحدث ؟ سيكتب التاريخ عنا صفحتين فقط مجللتين بالسواد ، وسيكون ثمن ذلك عظيمًا ، سيأتى إلينا يهود الشتات ، ونصبح أمة تعدادها خمسة وعشرون مليونًا ، أمة تدعو إلى الاحترام ، وبعد ذلك سينسى التاريخ ، ويأتى أدباؤنا ليكتبوا روايات عظيمة عن المذابح التى ارتكبناها فى حق العرب ، وسيحصلون على جوائز نوبل ، مثلما فعل أدباء النازية) .

(والذى سيحدث أنه بالرغم من هذه الجرائم التى سنرتكبها ، سنجد فى جميع أنحاء العالم ، من موسكو إلى بكين ، إلى واشنطن ، من يتمسح فينا ويتودد إلينا ، ويخطب ودنا ، برغم أيدينا الملطخة بالدماء ، ما العيب فى أن يكون لنا سجل إجرامى ، إن كل الدول الكبرى لها مثل هذا السجل ، ثم أصبحت محترمة ومتحضرة ، ونسيت ماضيها الإجرامى القديم) .

وفى هذا يقول الشاعر شاءول تشرغوفسكى :

سأجعل سيفى يشرب فخورًا من دمائهم
ستستحم خطواتى فى دماء القتلى
وتدوس قدماى على شعر رءوسهم
سأقطع باليمين ، وأحصد بالشمال
لقد اشتعل غضبى وصار جحيمًا

● وهذا لا يمثل سطوة اليهود بقدر ما يمثل خذلان العرب .. حين اجتمعت القبضة العربية لأيام سنة ١٩٧٣م جرت الفئران اليهودية تلتمس الجحور ، وتركت أحدث الأسلحة العالمية ، تمامًا كما حدث على الجانب الآخر سنة ١٩٦٧م ، عندما دفنت القيادة العربية رأسها فى الشعارات .. ومن عجيب أمر التنويريين أنهم لا يزالون يدافعون عن قادة ١٩٦٧م ، على طريقة (سعيد أبو زلومة) الذى نصحه أصدقاؤه بتغيير اسمه ، فإذا هو يغيره بـ (سعد أبو زلومة) !!

يقول عدنان الباجهجى ، مندوب العراق فى الأمم المتحدة غداة (وكسة) ١٩٦٧م :

(إن الغزو الصهيونى يستمد الوحى والقوة الدافعة لتصرفاته من أحلام وتطلعات تلك الأرواح التى تعرضت للتعذيب فى الجيتوات الأوربية ، إذ يبدو أن السنوات الطويلة من الإذلال والاضطهاد اللّذين عاناهما اليهود فى أوربا ، والذى بلغ بالنقمة إلى الذروة متمثلاً فى عمليات الإبادة النازية - تركت شرخًا عميقًا فى البنية الروحية لليهود الأوربيين الذين يقودون إسرائيل اليوم ، وهكذا فإن أحقاد مئات الأعوام تجد اليوم متنفسًا لها من خلال الوحشية التى يعامل بها العرب على نحو لم يسبق له مثيل قط) . واليهود لا ينكرون هذا ، بل يباهون به .

يعلق الصحفى اليهودى يعقوب تيمرمان على ما ارتكبه جيش الدفاع الإسرائيلى من فظائع ضد المدنيين أثناء حرب لبنان سنة ١٩٨٢م ، بقوله : (كل يهودى يحمل فى داخله أثر جرح نفسى قديم أو حديث ، نتيجة الإذلال الذى تعرض له ، وبالتالى فإن هذه الشخصية أحوج ما تكون للبطولة والشفاء من هذه الجراح) .

وكما يقول الباحث الأمريكى بارى بليخمان : إن إسرائيل تعتبر الانتقام (صورة شرعية من صور السلوك القومى) .

وحتى يجد اليهود مساغًا لهذا السلوك الإجرامى (القومى) ربطوه بالتاريخ الذى صنعه الحاخامات ، أبناء السبى البابلى .. وإذا كان هؤلاء الحاخامات قد (ألفوا) تاريخًا ، أو (كتابًا مقدسًا) ، يعتزون به ، ويرجون به شفاء الجروح التى غوّرتها سنوات السبى - فإن يهود اليوم يصنعون من هذه (الحكايات) أوامر عسكرية ، و (مقدسات) واجبة التنفيذ .

جاء فى سفر التثنية (٧ : ٢٢ / ٢٤) : (الرب إلهك يطرد هؤلاء الشعوب من أمامك .. ويدفع ملوكهم إلى يدك ، فتمحو اسمهم من تحت السماء) .

ويفصل سفر التثنية (٢٠ : ١٠ / ١٦) ما يجب فعله مع تلك الشعوب ، قائلًا :
(حين تقرب مدينة لكى تحاربها استدعها إلى الصلح ، فإن أجابتك إلى الصلح ، وفتحت لك ، فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ، ويستعبد لك ، وإن لم تسالمك ، بل عملت معك حربًا فحاصرها ، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك ، فاضرب جميع ذكورها بحد السيف ، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما فى

المدينة ، كل غنيمتها فتغنمها لنفسك ، وتأكل غنيمة أعدائك التى أعطاها الرب إلهك ، هكذا تعمل بجميع المدن البعيدة منك جدًّا التى ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا ، وأما مدن هذه الشعوب التى يعطيك الرب إلهك نصيبًا لك فلا تستبق منها نسمة) .

وكان يشوع بن نون - فى حكاية الحاخامات - هو الذى أرسى تقاليد العسكرية الإسرائيلية التى تحظى بالقداسة ، والتى تنفذ كما لو كانت طقسًا من طقوس القرابين البدائية .. يقول سفر يشوع (٣ : ٦) :

(قال يشوع للكهنة : احملوا تابوت العهد ، واعبروا أمام الشعب ، فحملوا تابوت العهد وساروا أمام الشعب) .

وما زال جيش الدفاع الإسرائيلى يحافظ على هذه التقاليد حتى الآن ، فكل وحدة من وحداته تحمل تابوتًا توضع فيه التوراة ، وقد نقشت عليه الآية : (انهض بالله ، ودع أعداءك يتشتتوا ، واجعل الذين يكرهونك يهربون أمامك) .

وكما فعل يشوع وجنوده فى أريحا وعاى ولبنة ولخيش وجازر وعجلون وعبرون ودبير ، وكل أرض الجبل والجنوب والسفح والسهل وكل ملوكها ، إذ (قتلوا كل ما فى المدينة من رجل وامرأة ، من طفل وشيخ ، حتى البقر والغنم بحد السيف) .

وكما فعل داود مع أعدائه ، وكما يقول سفر ميخا (٤ : ١٣) : (قومى ودوسى يا بنت صهيون ، لأنى أجعل قَرنك حديدًا ، وأظلافك أجعلها نحاسًا ، فتسحقين شعوبًا كثيرة ، وأحرم غنيمتهم للرب ، وثروتهم لسيد كل الأرض) .

كذلك بعد عشرات القرون يريدون أن يعودوا بالتاريخ إلى الوراء ، دمًا دمًا .

كان بن جوريون يقول : (إنى أعتبر يشوع هو بطل التوراة ، إنه لم يكن مجرد قائد عسكرى ، بل كان المرشد ، لأنه توصل إلى توحيد قبائل إسرائيل) .

وهذا ماكس نوردو (١٨٤٩ / ١٩٢٣) الزعيم الصهيونى المجرى ، ابن أحد الحاخامات ، الفيلسوف الذى أشاد به الرواد من أدباء العرب - يقول :

(سوف نبذل ما فى وسعنا لكى نعمل فى الشرق ما عمله الإنجليز فى الهند ، بل أوسخ وأقذر منهم ، أعنى بذلك النشاط الثقافى والحضارى ، وليست السيطرة

والتسلط ، فنحن ننوى الذهاب إلى فلسطين بمثابة حملة معتمدة للمدنية والتحضر ، ورسالتنا هى توسيع الحدود الخلفية حتى نصل إلى الفرات) .

ويقول مارتن بوبر الفيلسوف الصهيونى الذى صنعت عنه رسائل جامعية عربية تشيد به :

(إن أغلبية الشعب اليهودى قد فضلت أن تتعلم من « هتلر » أكثر مما تعلمت من « موسى » ، ذلك أن « هتلر » أثبت أن التاريخ ليس من نصيب من يملك الإيمان ، ولكن من نصيب من يملك القوة ، وإذا ملك القوة فإنه يستطيع أن يقتل دون حياء) .

● وبناء على مواثيق الأسفار المقدسة كان رجال الهاجاناه – فى الهجوم على القرى العربية – يضعون شحنات متفجرة حول المنازل المبنية بالحجارة ، ويبللون إطارات النوافذ والأبواب بالبنزين ، ثم يفتحون بعد ذلك نيرانهم فينفجر الديناميت ، ويحرق السكانَ النائمين حتى الموت .

وافتخر مناحم بيجن بأن القوات اليهودية تتقدم فى حيفا ، كما ينفذ السكين فى الزبد ، والعرب يهربون ويصيحون : « دير ياسين » ، وقال : (لولا النصر فى دير ياسين لما كان هناك دولة إسرائيل) .

لقد اتبع أسلوب الإبادة فى بقية المدن ، مما جعل السكان يهربون ، حتى تم طرد مليون عربى فى سنة ١٩٤٨م .

وقد أعلن الحاخام العسكرى موشى جورن أن الحروب الثلاثة التى جرت بين إسرائيل والعرب – خلال السنوات ١٩٤٨ و١٩٥٦ و١٩٦٧م – هى فى منزلة « الحرب المقدسة » ، فأولها لتحرير أرض فلسطين ، والثانية لاستمرار دولة إسرائيل ، أما الثالثة فكانت لتحقيق نبوءات إسرائيل .

ويرى زعماء إسرائيل اليوم ، أو واضعو الأسس لسياستها ، أن هناك استمرارية للتاريخ العسكرى اليهودى ، منذ أيام موسى ويشوع حتى الآن ، (فبن جوريون يتحدث عن أعداء دولة إسرائيل الصهيونية ، على أنهم مصر وبابل ، ويشير للعراقيين على أنهم أشوريون وبابليون ، وإلى اللبنانيين على أنهم فينيقيون ، بل إنه كان يعتقد أن إسرائيل كشعب كانت تواجه كل هذه الأمم على حدة ، خلال أربعة الآلاف

سنة الماضية ، لكنها الآن - ولأول مرة - تواجهها مجتمعة ، ويشير إلى ثورة باركوخبا على أنها آخر معارك الجيش قبل ١٩٤٨م) .

وقد أصبح اسم (المكابى) رمز المؤسسات وجمعيات شبابية وعمالية ورياضية وكشفية وشبه عسكرية كثيرة فى إسرائيل .

وقد توصل الحاخام موسى بن تسيون فى تفسيره الدينى للتلمود إلى ضرورة القضاء على الفلسطينيين واستعمار كل أرض إسرائيل التاريخية .

وأما الحاخام إبراهيم أفيدان فقد قال للجنود الإسرائيليين : إنه (مصرح لكم ، بل من واجبكم - طبقًا للشريعة - أن تقتلوا المدنيين الطيبين ، أو بمعنى أصح المدنيين الذين يبدون طيبين) .

وكتب الربِّى يعقوب أريتيل : (إن السكان الأجانب فى بلادنا ، والذين ربما من غير ذنب أقاموا فيها عندما كانت خالية ، سوف يضطرون ذات مرة أن يحددوا مصيرهم ، برغبتهم الحرة ، بأن يكونوا « متهودين عن إيمان » ، أو متهودين جزئيًا ، أو سكانًا مؤقتين ، وإذا لم يقرروا - برغبتهم الحرة - الهجرة إلى بلد آخر ، فعليهم أن ينظروا إلى أورشليم باعتبارها عاصمتهم الروحية ، ومصدر وحيهم الأخلاقى ، إننا ضد انتزاع ملكيتهم وظلمهم بالقوة ، لكن المنطق يفرض علينا أن نقول لهم الحقيقة ، وألا نخدعهم ، إن الأخلاق تفرض علينا ألا نكذب ، وألا نعدهم بوعود لن يمكننا تنفيذها فى المستقبل البعيد أو القريب) .

وقال زئيف جابوتنسكى (١٨٨٠ / ١٩٤٠) : (إن الاقتتال بالسيف ليس ابتكارًا ألمانيًا ، بل هو ملك لأجدادنا الأوائل ، إن السيف والتوراة قد نزلا علينا من السماء) .

أما مناحم بيجن فيقول : (نحن نحارب فنحن إذن نكون) ، ويقول : (بالدم والنار سقطت يهوذا ، وبالدم والنار ستقوم يهوذا) .

* * *

الهولوكوست !!

اليهودى لينى برينر كشف عن وثيقة عرفت باسم (أنقرة) تدل على أن الإرهابى (شتيرن) صاحب العصابة التى عرفت باسمه ، قام سنة ١٩٤٠ بالاتصال بالفاشيين الإيطاليين ، ثم النازيين الألمان ، بهدف التحالف معهم ، والحرب إلى جانبهم ، بشرط المساعدة على قيام دولة إسرائيل ، وذلك حين كان نجم (المحور) فى صعود .

وفى سنة ١٩٤٠م جرى اتصال بيهودى عميل لموسولينى كان يعمل فى الشرطة البريطانية فى القدس .

وفى سنة ١٩٤١م قابل نفتالى لونسيتك الألمانيين رودلف روزين ، وأوتوفرن مسئول الإدارة الشرقية فى الخارجية الألمانية .

وكان على الصهيونيين أن يظهروا للمحور أنهم جادون بالدخول فى نزاع عسكرى مع بريطانيا ، ومن ثم كانت محاولات قتل اللورد موين ، وتفجير فندق النبى داود ، وشنق بعض الجنود الإنجليز ، لكنها لم تكن محاولات مقنعة ، ولهذا كان شتيرن وزملاء له يرون أن الصهاينة هم الذين خانوا المحور .

ومع هذا اصطنعوا أسطورة الهولوكوست ، لتكون (حائط مبكى) جديدًا ، يستثير همم اليهود وسخطهم ، لا على ألمانيا ، ولكن على العرب ، على طريقة العلاج النفسى الذى يجد فى تحطيم (شىء ما) تخفيفًا للمعاناة ، وشفاء من الكآبة ، فلما وجدوا الأرض التى (بلا شعب) ، ووجدوا من أمريكا العون والتأييد ، توجهوا إلى الألمان يبتزونهم بهذه الأسطورة ، ثم توجهوا إلى النمسا ، وأخيرًا – وليس آخرًا – إلى سويسرا .

من أجل هذا ، غرسوا فى الوجدان اليهودى أن اختيارهم للإبادة كان لأنهم الوحيدون من بين الشعوب الذين لا يملكون وطنًا خاصًا بهم ، وطنًا يمارسون على أرضه (البروفات) والتجارب التى يمكن تحقيقها فى جميع أنحاء العالم .

يقول المؤرخ هنريش ترتيشكا : (إن اليهودى يخلق من يهوديته أكثر من مشكلة سياسية دقيقة ، إنه يتحاشى أى نقد ، فمن يجرؤ اليوم على ذم اليهود ؟ إن الذى يتناول المسألة اليهودية لم يسلم من افتراس وتمزيق كلاب الحراسة اليهودية ، فاليهود معصومون من النقد .. هذا هو قانون اليهود) .

● استثمرت إسرائيل قضية (الهولوكوست) بحيث بدأت بمطالبة ألمانيا بدفع تعويضات قيمتها بليون ونصف بليون دولار ، واستمر ابتزاز الحكومة الألمانية التى تعانى من الخراب والدمار ومن التقسيم ومن الاحتلال - حتى دفعت ٦٠ بليون دولار لإسرائيل ، تحت ذرائع عدة ، مرة للتعويض عن أرواح الذين فقدوا ، ومرة للتعويض عن ممتلكاتهم ، ومرة لتغطية تكاليف توطين المهاجرين الألمان إلى إسرائيل .

ومن أجل هذا خصص اليهود لضحايا نكبة النازية يوم حداد خاص ، هو يوم ٢٧ أبريل ، إذ يبدأ بصفارات الإنذار فى أنحاء البلاد ، لمدة دقيقتين ، وبهذه المناسبة تغلق أماكن الترفيه : المسارح ودور السينما ، والبارات والنوادى الليلية ، وتصدر كبريات الصحف ملاحق خاصة ، ويعقد الكنيست جلسة خاصة ، تبث الإذاعة والتليفزيون برامج خاصة ، وتحظر البرامج الخفيفة ، وفى المدارس يرددون على مسامع التلاميذ ما حدث فى أوشفيتس وترلينكا ، ويجتمع الآلاف فى المقابر حول النصب التذكارى .

وهناك كرة ذهبية جمعت من حشوات ضروس اليهود الذين قتلهم النازى ، لتعرض تذكيرًا بوحشيته .

لكن ، ما مدى صلة هذه (الأسطورة) بالواقع ؟

أولًا : يجب الوقوف عند أسطورة (يشوع) ، لتعرف كيف أن هذا (التكوين) الشاذ الذى تسمى باسم يهوذا أو إسرائيل ، يأخذ بالمبدأ الأخلاقى الدنىء الذى يقول : (اكذب واكذب ، حتى يصدقك الآخرون) ، والكذب يأخذ صورة الاتهام ، وصورة الإشاعة ، وقد يذهب إلى إسناده إلى مسئول .

ويكفى أن هؤلاء القوم كذبوا على الله بنسبة ما كتبوه من أسفار إليه ، ووسموها بالقداسة ، وكذبوا على الأنبياء ، واتهموهم أشنع الاتهامات .

أما عن يشوع فإن الحفائر قد برهنت على أن الإسرائيليين الذين وصلوا فى نهاية القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، لم يستطيعوا الاستيلاء على أريحا ، لأنها كانت غير مأهولة فى ذلك الوقت ، فمدينة عصر البرونز الوسيط كانت قد دمرت سنة ١٥٥٠ ق . م ، ثم هجرت بعد ذلك .. وفى القرن الرابع عشر سكنت بصورة ضعيفة ، فقد وجدت آنية من الفخار ترجع إلى ذلك العصر ، داخل مقابر العصر البرونزى الوسيط التى استخدمت مرة أخرى ، ووجد منزل به إبريق صغير يرجع إلى منتصف القرن الرابع عشر ، ولا شىء هناك ينتسب إلى القرن الثالث عشر ، ولا توجد أية آثار لحصون العصر البرونزى الحديث .

وكانت النتيجة التى توصلت إليها الآنسة ك . م . كينون أنه من المستحيل ربط تدمير أريحا بدخول الإسرائيليين فى نهاية القرن الثالث عشر قبل الميلاد .

وهكذا الحال بالنسبة للاستيلاء على مدينة عاى ، فقد قامت بعثتان بالحفر والتنقيب فى الموقع ، وجاءت النتائج متطابقة ، وهو أنه لم تكن توجد مدينة وقت قدوم الإسرائيليين ، ولم يكن هناك ملك لعاى ، فقد كانت هناك أطلال تعود إلى ١٢٠٠ سنة .

مع مزيد الاحترام للتنقيبات وللمنقبين ، فإن ثمة ما يوحى بالشك فى الموقع وفى قيمة الآثار ، بدليل أن من التنقيبات ما يكذب بعضه بعضًا ، وحسبنا دراسة الأسفار المقدسة ذاتها ، ومدى نسبتها إلى القداسة ، ومدى حظها من الصدق ، وقد أجمع كثيرون من النقاد اليهود والمسيحيين على أنها من تأليف الحاخامات ، ولا علاقة لها بالوحى الإلهى ، وأن المؤلفين كانوا واقعين تحت تأثير الظروف الصعبة التى أحاطت بهم خلال الاحتلال البابلى واليونانى والرومانى .

● أما عن الهولوكوست ، فالدكتور كيبوفى من مركز الوثائق فى تل أبيب عام ١٩٦٠م اعترف بأنه (لا توجد أى وثيقة ممضاة من هتلر أو هيملر أو هيدريش تتحدث عن إبادة اليهود .. ولا تظهر عبارة « الإبادة » فى خطاب جورنج الموجه إلى هيدريش بشأن الحل النهائى للمسألة اليهودية) .

وصرح ريمون أرون وفرانسوا فيرى ، (وهما من كبار المفكرين الفرنسيين) – فى مؤتمر صحفى عقد فى فبراير ١٩٨٢م بأنه (رغم البحوث المتعمقة لم يتم العثور مطلقًا على أمر من هتلر بإبادة اليهود) .

لقد كان هتلر فى السنتين الأخيرتين من الحرب ، وبعد هزيمته فى ستالينجراد ، فى وضع ميئوس منه ، فالحلفاء يدمرون مراكز الإنتاج الحربى بقصفهم لها ، ويحطمون طرق المواصلات ، واضطر إلى حشد أعداد أخرى للعمل فى المصانع ، فكان يعمل فى مونوفيتز بالقرب من أوشفيتس ١٠,٠٠٠ معتقل ، و ١٠٠,٠٠٠ عامل مدنى ، و١٠٠٠ سجين حرب بريطانى .

وفى ٢٥ يناير ١٩٤٢م وجه هيتلر تعليماته إلى المفتش العام لمعسكرات الاعتقال ، جاء فيها : (استعد لاستقبال ١٠٠,٠٠٠ يهودى .. وستسند مهام اقتصادية كبيرة إلى معسكرات الاعتقال فى الأسابيع القادمة) .

وفى مايو ١٩٤٤م أمر هتلر باستخدام ٢٠,٠٠٠ يهودى ، كعمال فى البرنامج الإنشائى « جاجر » ، ومنظمة تودت ، وصدر أمر فى ١٨ نوفمبر ١٩٤٣م تمنح بمقتضاه علاوة للمعتقلين - حتى اليهود منهم - الذين يبرزون فى العمل .

وكتب أحد القانونيين الأمريكان الذين أرسلوا إلى (داخاو) بعد أن أصبح معسكرًا أمريكيًا ، ومركزًا لمحاكمة مجرمى الحرب - يقول :

(لقد عشت فى داخاو طوال ١٧ شهرًا بعد الحرب كقاض عسكرى للولايات المتحدة ، وأستطيع أن أشهد أنه لم يكن هناك أى غرف للغاز ، وما يعرض على الزوار يقدم بطريقة خاطئة على أنه غرفة للغاز ، مع أنه محرقة لجثث الموتى ، ولم يكن هناك أى غرف للغاز فى ألمانيا .. ويقولون : إنه كان فى أوشفيتس غرف للغاز ، ولكننا لم نحصل على إذن من السلطات الروسية التى كانت تشرف على هذه المنطقة لزيارتها .. كما أنهم يستخدمون الأسطورة القديمة للدعاية بأن ملايين اليهود قد قتلوا ، وأستطيع أن أؤكد - بعد ست سنوات على انتهاء الحرب فى ألمانيا والنمسا - أنه كان هناك الكثير من اليهود الذين قتلوا ، ولكن رقم المليون لم يتم بلوغه أبدًا ، وأعتقد أننى مؤهل أكثر من غيرى للحديث عن هذا الموضوع) .

وفى كتاب (السيرة الذاتية) لرودولف هيس جاء ما يلى : (أثناء استجوابى الأول انتزعت الاعترافات منى بضربى ، ولا أعرف ما فى هذا التقرير رغم أننى قد وقّعت عليه) .

أما عن ريتشارد باير ، آخر قائد لمعسكر أوشفيتس ، فقد تم توقيفه فى ديسمبر

١٩٦٠م بالقرب من هامبورج ، حيث كان يعمل ويعيش ، وفى يونية ١٩٦٣م مات فى السجن فى ظروف غامضة .

وطبقًا لمصادر عديدة ، رفض باير بعناد إثبات وجود غرف الغَاز فى القطاع الذى كان يشرف عليه .

ويقرر محامى نورمبرج ، أبراهام أنجلهاردت ، أن باير قد دُسّ له السم أثناء التحقيق .

ونتيجة لهذه الجرائم التى أحاطت بمحاكمة النازيين فى نورمبرج قرر جرشتين ، أحد ضباط النازى ، أن عدد الضحايا بلغ ٢٥ مليونًا (بواقع ٦٠,٠٠٠ يوميًا فى معسكرات بيلزيك وتريلينكا وسوبيبور) .

وزعم أنه رأى من ٧٠٠ إلى ٨٠٠ شخص مكدسين وقوفًا فى غرفة مساحتها ٢٥ مترًا مربعًا ، (أى أكثر من ٢٨ فى المتر المربع) .

وفى أغسطس ١٩٦٠ أعلن معهد التاريخ المعاصر فى ميونخ للصحافة ما يلى : (لم تستكمل غرف الغاز فى داخاو ، ولم توضع موضع التنفيذ أبدًا .. وإن الإبادات الجماعية لليهود بالغاز بدأت فى ١٩٤١ / ١٩٤٢ ، وفى مناطق محدودة من بولنده المحتلة فقط ، وليس فى ألمانيا بأى حال من الأحوال .

● وبما أن صناعة السينما (العالمية) تخضع لسلطان اليهود ، بطريق مباشر أو غير مباشر ، فقد جعلوها تتحدث بأكاذيبهم ، وتنشرها مصورة مشخصة ناطقة على العالم ، ولم يبالوا بما تحمل الأفلام من تناقضات ، لأنهم على ثقة من أن فى وسعهم سوق القطعان البشرية كما يشتهون .

جاء فى فيلم (الليل والضباب) الذى أخرجه سنة ١٩٥٥م المخرج الفرنسى آلان رينيه – أن ضحايا الإبادة ٩ ملايين ، بينما هم ٨ ملايين وفقًا « لوثائق خدمة تاريخ الحرب » الذى أصدره المكتب الفرنسى للنشر سنة ١٩٤٥م ، و ٤ ملايين طبقاً للتقرير السوفييتى الذى جعلت منه محكمة نورمبرج دليل إثبات شرعى .. ومليونان حسب ما جاء فى كتاب المؤرخ اليهودى ليون بولياكوف (ترانيم الحقد) سنة ١٩٧٤م .. ومليون وربع حسب ما جاء فى كتاب المؤرخ اليهودى راءول هيلبرج (تدمير يهود أوربا) سنة ١٩٨٥م .

وفى مقال للسيد فرانسوا بيدا ريدا ، مدير معهد التاريخ المعاصر فى باريس - أن عدد ضحايا معسكر أوشفيتس يتراوح بين ٩٥٠,٠٠٠ على أقل تقدير و ١,٢ مليون على أكثر تقدير .

والفيلم الذى عرض فى نورمبرج أثناء المحاكمات أوضح وجود (غرفة غاز) واحدة فقط فى معسكر داخاو ، وقد نظمت الزيارات للسياح والطلبة ، حيث توجد اليوم لوحة تذكارية ، جاء فيها أن أحدًا لم يلق فيها حتفه بالغاز ، لأنها لم تستكمل أبدًا .

● إن هذه الدعاوى الكاذبة سفهها الكاتب الفرنسى الكبير روجيه جارودى فى كتابه (الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية) بنقول وأسانيد كثيرة ، ودعم تلك النقول والأسانيد بعلاقة الصهاينة بزعماء النازية ، إذ كتب المنظّر النازى روزنبرج : (ينبغى مساندة الصهيونية بكل قوة ، حتى يتسنى نقل مجموعة من اليهود الألمان سنويًا إلى فلسطين) .

وكتب مولاو شوانت فى ٢٨ أغسطس ١٩٣٥م إلى وزارة الداخلية : (ليس هناك من الأساليب ما يدعو إلى عرقلة النشاط الصهيونى فى ألمانيا ، بواسطة أى إجراءات إدارية ، لأن الصهيونية لا تتعارض مع برنامج الاشتراكية القومية - النازية - التى هدفها هو إبعاد يهود ألمانيا تدريجيًا) .

وابتداء من عام ١٩٣٣م بدأ التعاون الاقتصادى ، وأنشئت شركتان هما : شركة هعفرا ، فى تل أبيب ، وشركة يالترو فى برلين ، وكانت آلية العملية أن يودع أى يهودى يرغب فى الهجرة فى بنك فاسرمان فى برلين ، أو فى بنك فاربورج فى هامبورج - مبلغًا لا يقل عن مائة جنيه استرلينى ، وبهذا المبلغ يشترى المصدرون اليهود بضائع ألمانية وجهتها فلسطين ، ومع دفع القيمة المقابلة بالجنيهات الفلسطينية ، لحساب شركة هعفرا فى البنك الأنجلو فلسطينى فى تل أبيب ، وعندما يصل المهاجر إلى فلسطين يتسلم ما يعادل المبلغ الذى أودعه فى ألمانيا .

وقد شارك عدد كبير من رؤساء وزراء إسرائيل فى هذه العملية ، ولا سيما بن جوريون ، وموشى شاريت ، وجولدا مائير ، وليفى أشكول الذى كان الممثل فى برلين .

ودامت سياسة التعاون حتى سنة ١٩٤١م ، وكان إيخمان هو همزة الوصل مع كاستنر .

● ولأن جارودى جرؤ على فضح هذه الافتراءات ، فقد أطلقت الصهيونية عليه كلابها .

فى مقال للأستاذ فهمى هويدى (الأهرام ٧ مايو ١٩٩٦م) تحت عنوان (جارودى فى قفص الاتهام) ، ذكر أنه قدم إلى المحاكمة بتهمة العداء للسامية ، ونفى الجرائم المقترفة ضد الإنسانية ، وتبنت الدعوى ضده منظمة تحت السيطرة اليهودية ، تحمل اسم (منظمة مكافحة العنصرية والصداقة بين الشعوب) .. حوكم الرجل على (أفكاره) التى وردت فى الكتاب ، مع أنها لم تمس شيئًا من عقيدة اليهود الدينية ، وإنما ركزت على مزاعم الصهيونية ، ومشروعها السياسى الوحشى .

وصمتت منظمات حقوق الإنسان واتحادات الكتاب والهيئات العلمية والنخب السياسية ، مع أنها ما برحت تحتفى بكاتب مثل سليمان رشدى الذى طعن فى الإسلام ونبيِّه ، وبسطت حمايتها على كل من تهجم على عقيدة المسلمين وهتك مقدساتهم ، بحجة الدفاع عن حرية الرأى .

ولم يكن جارودى أول الذين غامروا بتجاوز الخط الأحمر ، وتفنيد المزاعم الصهيونية المتعلقة بعدد الضحايا ومبالغات أفران الغاز ، وإنما سبقه آخرون ، أصبحوا يشكلون طابورًا من المثقفين والباحثين الذين واتتهم الشجاعة ، وكلفهم ذلك الكثير ، فمنهم من ضاع مستقبله العلمى ، ومنهم من قطع رزقه ، وأغلقت الأبواب فى وجهه ، ومنهم من ألقى فى غياهب السجن ، ومن جرت تصفيته جسديًا .

وجيل السبعينات يذكر قصة البروفيسور روبير فوريسون ، أستاذ الأدب الفرنسى بجامعة ليدن ، الذى بحث طويلًا مسألة غرف الغاز ، وحقق الروايات المختلفة بشأنها على لسان العائدين من معسكرات الاعتقال والمحاربين ، وانتهى من بحثه إلى أن مسألة غرف الغاز بدعة غير حقيقية ، اصطنعتها مخيلة العائدين الذين أرادوا أن يصوروا للناس هول ما رأوا ، ولكى يزيدوا من أهميتهم لدى ذويهم ، وأمام المجتمع ، أو لكى يكتسبوا تعاطف الناس .

وما إن جهر الأستاذ الفرنسى بهذا حتى ثارت ثائرة الدوائر الصهيونية ، ولم

تهدأ إلا بعد أن فصل من الجامعة ، وتم اغتياله أدبياً وأكاديمياً .

وفى الثمانينات تكررت القصة مع هنرى روكيه الذى أعد رسالة دكتوراه حول موضوع غرف الغاز ، نوقشت فى جامعة (نانت) ، واعتمدت الرسالة على مناقشة ما جاء فى اعترافات ضابط ألمانى استسلم للقوات الفرنسية ، وانتهى الباحث إلى التشكيك فى وجود غرف الإعدام بالغاز ، ونوقشت الرسالة ، وحصل الباحث على الدكتوراه بتقدير جيد جدًّا ، دون أن يلتفت إليه أحد ، وحين أجرى حوارًا بثته الإذاعة تحدث فيه عن موضوع رسالته والنتائج التى توصل إليها ، قامت القيامة ، وكان أن ألغيت الرسالة ، وسحبت منه الدكتوراه ، بقرار من وزير التعليم العالى ، وتم فصل الأستاذ الذى أشرف على الباحث .

وفى ألمانيا تورط أحد قضاة مدينة هامبورج فى عمل علمى مماثل ، إذ أصدر سنة ١٩٨١م كتابًا بعنوان (أسطورة أوشفيتس) ، وأحدث الكتاب ضجة كبيرة فى ألمانيا ، وأثار احتجاجات صاخبة من جانب اليهود ، وانتهى الأمر إلى سحب جامعة (جوتينجن) شهادة الدكتوراه التى كانت قد منحتها له ، لأنه (انتهك الكرامة الإنسانية) ثم تم خصم ١٠٪ من مرتب القاضى منذ صدور الكتاب ، أى بأثر رجعى !!

وفى عام ١٩٩٤م أقر البرلمان مشروع قانون يتضمن أن إنكار وجود معسكرات إبادة لليهود جريمة يعاقب مقترفها بالسجن لمدة تصل إلى خمس سنوات .

وفى بريطانيا حملة مستمِرّة منذ سنوات ضد المؤرخ ديفيد إرفينج الذى ما برح يفند مزاعم الصهيونية حول إبادة اليهود فى أوربا ، فالتظاهرات المعادية له تحاصر بيته فى وسط لندن بين الحين والآخر ، وكتبه تجمع من الأسواق حتى لا تتداول ، والجاليات اليهودية تتعقبه حيث ذهب ، وتم طرده من كندا التى دعى إليها لإلقاء محاضرة ، وحظرت عليه أستراليا دخول أراضيها ، وقضت محكمة ألمانية بتغريمه عشرة آلاف مارك .

وفى النمسا صدر حكم ضد الناشر جيرد هونسيك بالسجن ١٨ شهرًا ، لأنه نشر فى مجلته (هالت) أن الغاز السام فى معسكرات الاعتقال النازية لم يكن يستخدم إلا لإزالة الطفيليات والجراثيم من الملابس المتسخة ، ولم يستخدم قط ضد الأشخاص ، وقد توصل إلى تلك النتيجة بعد دراسة استمرات خمس سنوات لمختلف الوثائق .

وفى الولايات المتحدة ، حين جرؤ المؤرخ الأمريكى الدكتور (بوتز) ، مدير معهد لدراسة التاريخ فى لوس أنجيلوس - على القول بأن مذبحة اليهود مزعومة ، وليس من دليل قاطع لإثباتها ، شب حريق كبير فى معهده تسبب فى خسائر بلغت ٣٠٠ ألف دولار ، وتم إغلاق فم الرجل .

والمؤرخة الأمريكية كريستينا جيفرى حين أبدت رأيًا فى أحد البرامج التعليمية المقترحة لتدريس الهولوكوست لطلاب المدارس الثانوية ، عوقبت بفصلها من عملها مؤرخة بمجلس النواب الأمريكى .

وفى اليابان نشرت صحيفة ماركو بولو تكذيبًا لهذه (المحرقة) فى عشر صفحات ، فكان العقاب أن فسخت الشركات الكبرى عقود الإعلانات الموقعة معها ، وانتهى الأمر بوقف إصدار الصحيفة ، وتقديم اعتذار علنى لليهود .

* * *

هامش : أثناء حرب العراق الكويت ، جرؤ القائد العراقى الذى أحاطت به جيوش (الحلفاء) برًا وبحرًا وجوًا ، فأطلق عدة صواريخ فى اتجاه إسرائيل .. وكان لابد من عقابه .

أعلنت أمريكا أن أجهزتها قادرة على رصد (ماركة) سروال صدام ، وهو نائم فى مخبئه ، بمعنى أنها لا تخفى عليها خافية فى أرض العراق ، ومع هذا ظلت ست سنوات ولا تزال تبحث عن أسلحة الإبادة التى يخفيها صدام ، وتحت دعوى ما يخفيه من أسلحة الإبادة يجرى تفتيش كل مكان ، بطريقة مستفزة مستذلة ، وتطالب بتفتيش قصور صدام ، وبتفتيش جيوب كل عراقى ، مع محاصرة العراق اقتصاديًا، ومنع العراق من بيع بتروله ليشترى الطعام والدواء لأطفاله الذين يموت منهم الآلاف بسبب سوء التغذية ، وبسبب فقدان الدواء ، ولا أمل فى وقف حد لهذه المهزلة ، لأن حشود الطائرات والبوارج رابضة على الحدود ، وطائرات التجسس تمرح فى سماء العراق ، ولأن اليهود يسيطرون على وزارة الدفاع ووزارة الخارجية ووزارة المالية ، ويأتمر الرئيس ومجلسا النواب والشيوخ بأوامر اللوبى الصهيونى ، أو بقوة (المافيا) الصهيونية المسيطرة على سوق المال والأعمال والإعلام واللهو والدعارة .

وكنا قد أشرنا إلى سقوط النمور الآسيوية فى حمأة التلاعب اليهودى بسوق المال ، عن طريق رجل واحد ، مليونير يهودى يدعى سويروس .

يقولون : إن القيصر الرومانى أشار إلى طفله ، وقال هذا هو الحاكم الحقيقى للإمبراطورية ، فلما سئل فى ذلك ، قال : إنه يحكم أمه ، وأمه تحكمنى ، لكن هذه (الطرفة) لا تمثل الواقع اليهودى ، قد تتحدث عن الذبابة القاتلة ، وقد تتحدث عن الجرثومة القاتلة ، أو عن مرض الإيدز ، لكنه السرطان الذى زج بالولايات المتحدة إلى الدخول فى الحرب العالمية الأولى لإنقاذ الحلفاء من هزيمة منكرة فى مقابل الحصول على وعد بلفور ، السرطان الذى مد (أورامه) حول (الفاتيكان) حتى دعا البابا يوحنا بولس الثانى إلى عقد مؤتمر كبير حضره ٦٠ من كبار رجال الكنائس العالمية لإصدار وثيقة تتناول (جذور معاداة اليهودية فى الأوساط المسيحية) ، وأعلن البابا فى بيانه الختامى عن عدم رضائه عن المقاومة المسيحية ضد النازية ، ووصفها بأنها لم تكن بالشكل المطلوب الذى كانت تنتظره الإنسانية ، ثم طالب بسرعة إجراء عملية ترتيب وتنظيف للذاكرة المسيحية من الشوائب والأفكار المعادية للشعب اليهودى ، وأضاف أن الفاتيكان قد عزم على فتح صفحة جديدة فى العلاقة بين المسيحية واليهودية .

وكان الكاردينال إدوارد كاسيدى قد أنجز - بأمر البابا - وثيقة (نحن نتذكر) تضمنت إدانة الاضطهاد الذى تعرض له اليهود فى الحرب العالمية الثانية ، وشجب المذابح التى تعرض لها الأرمن وشعوب أمريكا الجنوبية وأفريقيا والبلقان ، وما أصاب شعوب الصين وكمبوديا والاتحاد السوفييتى بسبب الحكم الاستبدادى .

وبعد إعلان محتويات الوثيقة فى الفاتيكان صباح ١٦ مارس ١٩٨٨م ، وبعد أن وصف البابا الوثيقة بأنها (طلب غفران) ، وبعد أن أعلن كاسيدى أن الوثيقة (إقرار بالشعور بالندم واعتراف بالخطيئة ، ومع أن البابا بيوس الثانى عشر الذى عاصر الحرب العالمية الثانية قد أصدر عدة بيانات احتجاج مطالبًا بوقف المذابح اليهودية ، ومع أن هذا البابا فى أوائل الخمسينات من القرن العشرين استصدر قرارًا ببراءة اليهود من دم السيد المسيح .. مع هذا كله أعلن الحاخام الأكبر الإسرائيلى مائير لاو عن خيبة أمله الكبيرة فى وثيقة (طلب الغفران) ، وأعلن زعماء اليهود فى

العالم إدانة الوثيقة ، وطالب حاخام فرنسا الأكبر الكنيسة الكاثوليكية فتح ملفاتها الخاصة بزمن الحرب لكشف الحقيقة كاملة عما حدث .

واقترح سيمون صمويلز ممثل معهد ويسنثال فى أوروبا أن يسلك الفاتيكان مسلكًا عمليًا ، يتمثل فى :

١ - فتح محتويات الأرشيف - أرشيف الهولوكوست - أمام لجنة دولية محايدة .

٢ - إدانة المصطلحات التى تتجاهل وتقلل من شأن الهولوكوست .

٣ - توجيه تهديد لكل المحاولات التى تريد أن تضفى البطولة على بعض الرموز الكاثوليكية التى تعاونت مع النازيين .

٤ - تناول الهولوكوست فى كافة المناهج التعليمية فى جميع المدارس الكاثوليكية واتحادات الشباب .

هل تعلم أن (الفاتيكان) يمثل جميع المسيحيين الكاثوليك فى جميع أنحاء العالم ، وأن جميع الدول الكبرى ماعدا روسيا والصين والهند تدين بدينه ؟! لكنه فى الوقت ذاته يمثل إمبراطورية اقتصادية يمكن للسطوة اليهودية أن تتلاعب بها .

وإذا كان المستقبل الاقتصادى والسياسى يبسط جناحيه للصين (ربع سكان العالم) فقد سعت إسرائيل ، بعد أن مهد لها الاستثمار اليهودى ، لتلف شباكها حول هذا المارد الخطير ، لتتألفه ، وتتعلق بكتفيه ، ثم تمتص دمه ، وقد سبقت مجموعات من اليهود فاستوطنت شنغهاى وهونج كونج ، وحققت نفوذًا كبيرًا فى الدوائر المالية والاقتصادية ، وجاءت إسرائيل تدرس احتياجات الصين العسكرية ، وبخاصة أنها تملك أو يمكنها الوصول إلى أحدث ما وصلت إليه التكنولوجيا العسكرية الأمريكية والغربية ، وفى ضوء الحظر الذى تفرضه على الصين كل من أمريكا وأوروبا ، فإن يد إسرائيل الممتدة تعد ثغرة كبيرة فى جدار هذا الحظر ، وقد أخذ التعاون الصينى الإسرائيلى فى إنتاج الطائرة المقاتلة (اف - ١٠) ، وهو مشروع قومى بالنسبة للصين ، وبعد أن رفض الكونجرس الأمريكى فكرة إنتاج الطائرة (لافى) من خلال تعاون أمريكى / إسرائيلى يصبح مشروع الطائرة (اف - ١٠) رسالة تحذير موجهة من إسرائيل إلى أمريكا ، ثم إن إسرائيل فى سعيها الحثيث للمشاركة الصينية فى

مجال التكنولوجيا العسكرية ، لا تناور السياسة الأمريكية فحسب ، بل لتتحكم فى سوق السلاح الصينى العربى ، وتراقب حجم التعاون الصينى العربى .. ولم تكتف إسرائيل بهذا المسعى العسكرى ، لقد تغلغلت بخبرائها الزراعيين فى أنحاء الصين ، وأنشأت عدة مزارع نموذجية لإنتاج الخضراوات والزهور ، وتصدير فائضها إلى الخارج ، وهى أيضًا تسعى إلى جمع التبرعات لصالح الطلبة الصينيين الراغبين فى تعلم اللغة العبرية والديانة العبرية .. والطريق الطويل يبدأ بخطوة .

● يجب ملاحظة أن الصين ذات الأبعاد الشاسعة ، أرضًا وسكانًا ، وذات المتغيرات الجريئة التى فرضها الحزب الشيوعى فى بلاد الثوابت التاريخية ذات الأعماق الغائرة - تؤهل لأكثر من وسيلة لاختراق هذا الكيان (الضخم) الذى تترصده مطامع يابانية أمريكية .

ولما كانت أحداث التمزق الروسى ، والتوابع الزلزالية التى هزت القيم والمبادئ وفجرت القوميات ، وأشعلت الفتن والمطامع ، لا تزال تدق الأجراس ، فإن صانعى (بروتوكلات حكماء صهيون) الذين أمسكوا بزمام الدب الروسى ، حتى جعلوه يرقص فى (سيرك) السياسة والاقتصاد الأمريكيين ، لا يشق عليهم أن يجدوا أكثر من وسيلة لاستعادة (حرب الأفيون) بطريقة أو بأخرى .

إن غالبية أعضاء الوزارة الروسية التى كان يرأسها سيرجى كيريينكو (٣٥ عامًا) من اليهود الذين يسيطرون على كل وسائل الإعلام الأساسية ، والهيئات المصرفية ، والبنوك التجارية .

ويتحكم الملياردير جوسينسكى رئيس المؤتمر اليهودى فى قناة (إن . تى . فى) أشهر قناة تليفزيونية روسية وعالمية .

كما أن الملياردير اليهودى بيريزوفسكى يمتلك أوسع الصحف اليومية انتشارًا .

فلا غرو أن تدور عجلة الحياة الروسية تبعًا لمشيئة (العم سام) ، سواء لبس هذا (العم) قبعة أمريكية أو قلنسوة يهودية ، مادام التوقيع على جميع (الاتفاقيات) باسم نجمة إسرائيل .

إن ما يحدث الآن فى فرنسا بلد (الحرية والإخاء والمساواة) ، وفى باريس

(مدينة النور) من محاكمة أحد أقطاب الفكر العالمى ، لأنه (أسلم) ، أو لأنه أصدر كتابًا يشكك فى أرقام ضحايا النازية من اليهود ، فيُجند لمقاضاته ١٤ مكتبًا للمحاماة ، ويعتدى بالضرب على ناشر الكتاب الفرنسى ، حتى تكسر جمجمته ، وتحرق مكتبات موزعى الكتاب فى كل من اليونان وسويسرا ، وتسرق سيارة (جارودى) ، وتلقى القنابل المسيلة للدموع ، فى جامعة السوربون ، على من يؤيدون (المؤلف) ، ويهدد الراهب بيير لتأييده (المؤلف) ، ويطلب من الزعامة الدينية العليا فى الكنيسة الفرنسية اتخاذ موقف مضاد لجارودى الذى (أسلم) - يفسر هذا كله ما جاء فى كتاب (دليل اليهودية الفرنسية) الذى نشره الصهاينة ، ثم سحبوه من التوزيع ، من أن (صندوق المجددين اليهود الذى أسسه هنرى هايدنبرج عام ١٩٧٠م ، أريد به تأسيس نظام لوبى فى فرنسا) ، وإن (يهود فرنسا فى معظمهم من إسرائيل ، وكل حزب إسرائيلى له فرع فى فرنسا) ، وإن (من يهاجم إسرائيل فإنه يهاجم اليهود فى فرنسا) ، وإن (منظمات يهودية عدة تأسست فى أمريكا لها تمثيل فى فرنسا) .

وفى تركيا بلد (الخلافة الإسلامية) لعدة قرون ، يمتلك اليهود صحفًا ومحطات تليفزيون مؤثرة فى اتخاذ القرار ، فتوزيع جريدة (حديث) اليومية يصل إلى مليون نسخة يوميًا ، وشعارها (تركيا للأتراك) ، وجريدة (فليت) تحتل المركز الرابع بين كل صحف تركيا ، هذا بالإضافة إلى صحف (جمهوريتا) ، و (كون إيدين) ، و (شالوم) .

ولليهود محطة .Show T. V ذات البرامج الإباحية ، يشرف عليها إيرول اق صوى الذى يملك عدة مصارف فى فرنسا وأمريكا ، وتؤيدها مجموعات المال اليهودية ، وفى مقدمتها شركة (بروفيلو) التى يملكها اليهودى الشهير جاك قمحى ، وشركة (جرانديك) التى تَمْلكها عائلة يهودية تعيش فى سويسرا .

وهذا النشاط الإعلامى يؤازره ويوجهه اللوبى اليهودى الأمريكى ، للضغط على العسكريين الأتراك ، من أجل تنمية الروابط مع إسرائيل ، بعقد صفقات أسلحة ، وإجراء مناورات مشتركة ، ومحاربة أى اتجاه إسلامى يمكن أن يؤثر فى المسيرة التى رسمها (أتاتورك) .

وما حدث من حلّ (حزب الرفاه) الإسلامى الذى يمتلك أغلبية (برلمانية) وأغلبية فى (التمثيل المحلى) أكبر دليل على مدى تسلط اليهود ، وإحكام قبضتهم على صانعى القرار .

● إن هذا الذى يحدث فى أفغانستان ، وما حدث ويحدث فى البوسنة والهرسك ، وفى كوسوفا وما يحدث فى العراق والجزائر والسودان ، وما يعد لحدوثه فى كل من إيران وليبيا وأفغانستان ، وما يجرى خلف (كواليس) بلاد عربية أخرى ، من عربدة القروض والخبراء والمخابرات والقواعد العسكرية والمنظمات الإرهابية - إنما هى خيوط تحاك على أنوال (بروتوكلات حكماء صهيون) ، تحت إشراف ذلك (اللوبى) الذى أحكم قبضته على صانعى القرار الأمريكى ، مستعينًا بطبيعة الكيان الأمريكى الذى تشكل من جنسيات مهاجرة (بلا جذور) ، محكومة بالتطلعات الاقتصادية ، متجاوزة كل القيم والحقوق الفردية والدولية .

يقول اليهودى جوناثان جولد بيرج فى كتابه (قوة اليهود فى أمريكا) الذى صدر حديثًا :

طرد اليهود جميعًا من ألمانيا عام ١١٨٢م ، ومن انجلترا عام ١٢٩٠م ، ومن فرنسا عام ١٣٠٦ ، وعام ١٣٩٤ ، ومن النمسا عام ١٤٢١ ، ومن أسبانيا عام ١٤٩٢ ، ومن البرتغال عام ١٤٩٧ .

وخلال قرن واحد اضطر ٢٥٠ ألف يهودى أن يقبلوا اعتناق المسيحية ، تحت ضغط الحكومات المحلية ، ولكن استمر أكثرهم يمارسون الشعائر اليهودية سرًا ، رغم أن انكشاف أمرهم كان يعنى الموت .

وفى شهر يناير ١٤٩٢م سقطت آخر المعاقل الأندلسية تحت أقدام تحالف الملك فرديناند ملك أراجون وإيزابيلا ملكة قشتاله ، وأعلن المنتصران منح كل من هو غير مسيحى مهلة حتى أول أغسطس ليعتنقوا المسيحية أو يغادروا البلاد .

وفى البرتغال أصدر الملك مانويل الأول عام ١٤٩٧م أوامره بأن يجرى تعميد كل اليهود ، ولم يكن أمامهم مهرب ، فقد استمرت المحارق فى لشبونه حتى عام ١٧٦٠م .

وانتقلت المحارق - مع جيوش الاستعمار - إلى بيرو عام ١٦٢٩م ، وإلى المكسيك عام ١٦٤٩م ، فأحرقت مجموعات كاملة من اليهود .

وأخذت مجموعات صغيرة تتسلل إلى داخل الولايات الأمريكية .

وبدأ تدفق اليهود الروس إلى أمريكا عام ١٨٨١م ، بعد اغتيال القيصر الكسندر الثانى ، على يد أحد الثائرين ، مما أشعل ثورة معادية لليهود فى أنحاء روسيا ، وعلى مدى أربعة عقود من الزمان هرب اليهود الروس بأعداد كبيرة من اضطهاد روسيا القيصرية .. وفى عام ١٩٢٤م بلغ عدد اليهود الروس فى أمريكا نحو المليونين .

وعندما تولى القيصر ألكسندر الثالث العرش سنة ١٨٨١م تبنى نظامًا ثلاثيًا للخلاص من اليهود ، عن طريق إجبارهم على اعتناق المسيحية ، وعن طريق الهجرة الإجبارية ، وعن طريق التجنيد أكثر من ثلاثين عامًا .

وبحلول الربع الأخير من القرن العشرين أصبح اليهود يشكلون ٢٠٪ من طلبة الجامعات المرموقة ، و٢٠٪ من المحامين العاملين بالمكاتب الشهيرة .. وكان معظم المعلمين فى مدينة نيويورك من اليهود ، كما كان التدريس فى كافة أمريكا الأسلوب المفضل لليهود ، للخروج من (الجيتو) ، أو لتوجيه الأجيال الجديدة وفق ما رسمته (البروتوكلات) .

وقد أعان انتشار التعليم بين اليهود على تسلق جميع الأغصان ، من أجل الحصول على أطيب الثمار .

وهذا موردخاى مانويل نواه ، ولد فى فيلادلفيا عام ١٧٨٥م ، وفى شبابه انضم للحزب الديمقراطى ، وحصل على درجة ميجور فى ميليشيات بنسلفانيا ، ثم دخل السلك الدبلوماسى سنة ١٨١٣م ، وعمل قنصلًا فى تونس .

ولما عاد إلى أمريكا سنة ١٨١٥م استقر فى نيويورك ، وعمل فى عدة صحف ، وكتب عدة مسرحيات ، وصار مأمورًا بالشرطة ، ومفتشًا بالميناء ، ثم قاضيًا ، وحاول تأسيس دولة يهودية فى جزيرة شلالات نياجرا ، ودعا إلى توطين اليهود فى فلسطين ، وطلب من الرئيسين السابقين آدامز وجيفرسون أن يدعما فكرته قبل أن

تظهر الأفكار الصهيونية بزمن طويل ، وعندما أرادت الطوائف اليهودية الأوربية الاتصال بيهود أمريكا ، كانت الخطابات ترسل باسم الجنرال نواه فى نيويورك ، وعندما صار رئيسًا للجمعية الخيرية العبرية عام ١٨٤٢م تدفقت التبرعات من جميع الطوائف اليهودية الأمريكية .

هذه الشخصية (الديناميكية) تمثل الإطار الواسع الأرجاء لحركة التكوين اليهودى الذى وجد المناخ الصالح لغرس كل البذور حتى تصبح أمريكا أكبر المزارع اليهودية فكرًا وطموحًا .

فى عام ١٨٥٠م وقعت الولايات المتحدة وسويسرا اتفاقية صداقة تكفل حماية مواطنى كل دولة منهما على أرض الدولة الأخرى ، وكان الاستثناء الوحيد هم يهود أمريكا الذين حظر عليهم دخول عدد من (الكانتونات) السويسرية ، فاحتج يهود أمريكا ، لأن حكومتهم ترفض حمايتهم ، وبعد أربعة أيام من الاحتجاج راجع البيت الأبيض الاتفاقية ، وتم إلغاء هذا الاستثناء .

وعندما أعد الكونجرس لإجراء تعديل دستورى لإعلان أمريكا دولة مسيحية اتصل سيمون وولف بعدد من شيوخ المجلس ، وتم وقف هذا التعديل .

وعندما قبل جيش الوحدة المجندين من رجال الكنيسة سنة ١٨٦١م استصدر وولف أمر بتجنيد الحاخامات .

وحين أصدر الجنرال يوليسيس أوامره سنة ١٨١٢م بطرد اليهود من ولايات الحدود ، حتى لا يعملوا فى التهريب ، قاد وولف مجموعة من اليهود للقاء الرئيس لنكولن ، فتم إلغاء أوامر الجنرال .

وبهذا مد اليهود أذرعهم نحو آفاق بعيدة ، حتى كان أول رئيس للاتحاد الأمريكى للعمال يهوديًا ، هو صامويل جومبرز المهاجر صانع السيجار ، وكانت أول رئيسة للمنظمة القومية للمرأة يهودية ، هى الكاتبة بيتى فريدمان ، وكان أول الاشتراكيين المنتخبين فى الكونجرس من اليهود ، وهما الصحفى فيكتور بيرجر ، والمحامى مائير لندن .

وكان نصف البيض الذين ذهبوا إلى الجنوب فى الستينات ، مدافعين عن الحقوق المدنية ، من اليهود .

وأسس الناشر اليهودى برنشتاين جماعة مراقبة حقوق الإنسان ، وأسس المنتج التليفزيونى نورمان لير منظمة (العاملون من أجل الطريق الأمريكى) .

وفى سنة ١٩٧٣م أقر الكونجرس الأمريكى (قانون جاكسون - فانيك) الذى جعل من حقوق اليهود السوفييت شرطًا مسبقًا للمعاملات الاقتصادية بين الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفييتى .

كل هذا النجاح الذى أحرزه اليهود الأمريكان جعل رؤساء الدول الأخرى يتوسلون إلى قضاء مصالحهم مع أمريكا عن طريق (التفاهم) مع اللوبى اليهودى الأمريكى .

ذكرت جريدة جيروزاليم بوست الإسرائيلية أن الرئيس الرومانى شاوشيسكو - إبان زيارته إسرائيل ، فى أغسطس ١٩٨٧م - طلب من شامير أن يمارس نفوذه على اللوبى اليهودى الأمريكى لتحسين العلاقات مع أمريكا .

وبعد شهر واحد التقى شيمون بيريز وزير الخارجية الإسرائيلية بوزير الخارجية التركية - فى نيويورك - فطلب بيريز من تركيا مساعدة إسرائيل لتحسين علاقاتها بالعالم الإسلامى ، وطلبت تركيا أن يتحدث بيريز مع (اللوبى الإسرائيلى) فى واشنطن لتزكية أوضاع تركيا .

ولا يخفى أن معظم الزعماء والرؤساء الذين يزورون أمريكا من البلاد العربية والإسلامية يأخذون طريقهم إلى الحصول على تأييد مراكز القوى اليهودية فى الكونجرس وفى غيره من المؤسسات المؤثرة .

فى ٢٧ يولية ١٩٩٤م صوت الشيوخ على التعديلات المقترحة على قوانين التعليم الابتدائى والثانوى لعام ١٩٩٤م ، وفق ما أراد ميشيل ليبرمان المحامى بمنظمة مكافحة تشويه صورة اليهود ADL ، بوقف الصلاة فى المدارس ، بنسبة ٥٣ إلى ٤٧ صوتًا ، وكان المجلس فى فبراير السابق قد وافق على اقتراح جيسى هيلمز بأن من حق الطفل دستوريًا الصلاة فى المدارس ، بنسبة ٧٥ صوتًا ، لكن ضغط اللوبى أقنع ٣١ من الشيوخ بتغيير مواقفهم .

يقول أوليفر توماس المخطط القانونى الاستراتيجى للمجلس القومى للكنائس : (أشعر أنه لم يستطع أحد أن يحرك القاعدة الجماهيرية مثلما فعل اليهود) .

لقد عارض اليهود إبراز الرموز الدينية أيامًا كانت داخل الممتلكات والمنشآت الحكومية ، حتى لا تكون وسيلة لإنبات المشاعر الدينية القديمة ضد اليهود .

● منذ كان اليهود يقرضون ملوك وأمراء أوربا وهم يعلمون أهمية المال فى تحويل الملوك إلى سوقة ، والسوقة إلى ملوك .

فى عام ١٩٨٧م أصدر فيليب ستيرن كتابًا بعنوان (أفضل كونجرس يمكن شراؤه بالمال) ، وفى عام ١٩٩٢م أصدر جزءًا ثانيًا من نفس الكتاب ، وقال فيه : إن خمسين لجنة عمل سياسى مؤيدة لإسرائيل تبرعت بأكثر من ٤ ملايين من الدولارات للمرشحين الفيدراليين ، وتتضح ضخامة المبلغ بمقارنته بتبرّعات اللجان السياسية الأخرى للمدافعين عن قضايا محددة ، مثل معارضة الحد من التسلح الشخصى ٩١٤ ألف دولار ، أو الإجهاض ٧٤٧ ألف دولار ، ويضاف إلى هذا المبلغ الآخر ٣,٥ مليون دولار قيمة تبرعات الأفراد المباشرة للمرشحين الذين تدعمهم لجان العمل السياسى الإسرائيلية ، ويضاف مبلغ ١,٤ مليون دولار من لجان العمل السياسى التى تدعمها شركات كبرى ، وتضاف تبرعات يهود وول ستريت وهوليود أكبر تجمع لأثرياء اليهود .

وفى هذه الدولة التى تمول فيها الحملات السياسية بأموال خاصة نجد أن ما بين الربع إلى النصف من تمويل الحزب الديمقراطى يأتى من اليهود ، إما بجهود المتبرع نفسه ، أو بجهود جمع التبرعات .

وترتب على هذا أن صار اجتذاب الصوت اليهودى يعنى الدخول فى أحياء اليهود ، وارتداء طواقيهم ، والتصوير فى مطاعم الكوشير ، وإبداء الإعجاب اللانهائى بدولة إسرائيل ، وتأييد كل احتياجاتها .

ومنذ عام ١٩٧٢م أسست كل حملة رئاسية تقريبًا منظمة يهودية مستقلة بميزانيتها وعامليها ، للتغلغل بين أعضاء الجالية اليهودية واجتذاب أصواتهم .

ومع أن أكثر التبرعات للديمقراطيين ، ففى عهد نيكسون الجمهورى منحت المناصب للقيادة اليهودية ، تقديرًا لجهود المليونير اليهودى ماكس فيشر فى جمع التبرعات للحزب الجمهورى .

● والدولار اليهودى لا يقف وحده من أجل تغيير اتجاه الريح ، فثمة وسائل الإعلام المتعددة ، مقروءة ، ومسموعة ، ومشاهدة ، فثمة غير الصحف اليومية مئات الصحف الأسبوعية ، ومئات المجلات الشهرية ، والفصلية ، تنشرها الاتحادات والمنظمات ، على مستوى الدولة ، والمستوى المحلى فى الولايات والمدن .

نشرت مجلة (فانيتى فير) تحقيقًا صحفيًا مطولًا فى أكتوبر ١٩٩٤م حول ملوك صفوة الإعلام ، أو إعلام الصفوة ، بعنوان (المؤسسة الجديدة) ، جاء فيه أن نصف هؤلاء الملوك ، وعددهم ١٢ من اليهود .. وهؤلاء يمثلون صفوة القوة الأمريكية الحقيقية فى مجال الإعلام الجماهيرى ، ووسائل الاتصال والترفيه وصناعة الكومبيوتر ، رجال ونساء صنعوا بطموحهم من أمريكا قوة عظمى حقيقية فى عصر المعلومات .

وفى استوديوهات هوليود يرتفع عدد العاملين اليهود ، لدرجة تجعلنا نقول : إنها صناعة سيطر عليها اليهود .

يقول جون فيشر ، مدير العلاقات الكاثوليكية ، فى المجلس القومى لأساقفة الكاثوليك : (إذا كانت هناك قوة يهودية فهى قوة الكلمة ، قوة كتّاب أعمدة الرأى ، وصانعى الرأى العام .. مجتمع اليهود مجتمع متكلم ، ولديه الكثير ليقوله .. وإذا كان باستطاعة أحد أن يشكل الرأى العام فهو ولا شك قادر على صنع الأحداث أيضًا) .

واليهود هم الذين صنعوا هوليود ، كما يقول المؤرخ نيل جابلر فى كتابه (إمبراطورية من صنعهم) عام ١٩٨٨م .

لقد قاموا ببناء الاستديوهات ، وابتكروا نظم التوزيع ، وأقاموا دور السينما ونشروها فى كل أنحاء الدول ، وهؤلاء اليهود هم سوكر وفوكس وجولدوين وماير ، والإخوة وارنر ، وآخرون ، وقد قاموا بتحويل هذا الابتكار التكنولوجى إلى صناعة ملايين الملايين من الدولارات .

وبعد جيل آخر قامت مجموعة أصغر من المستثمرين اليهود بنفس العمل ، بالنسبة للبث الإذاعى ، ثم البث التليفزيونى ، وأشهر من قاموا بتأسيس شبكات للإذاعة والتليفزيون ويليام بيلى ، وسى بى إس ، وإن بى سى ، ودافيد سارنوف ، وليونارد جولدنسون ، وإى بى سى .

ويمكن القول إن لليهود تأثيرًا واضحًا على صناعات أخرى ، مثل وول ستريت ، وسمسرة العقارات فى نيويورك ، كما أن لهم الأغلبية فى صناعة الأزياء .

كأنما فات جولد بيرج الحديث عن الأسواق المالية ، والملاهى ، وصالات القمار ، وتجارة الرقيق ، ومافيا الجريمة والمخدرات ، والدعارة ، أو كأنما سكت عنها لأنها من المسلمات ، مع أنها من أخطر الوسائل لهدم من يريدون ، كما هو حادث اليوم مع الرئيس كلنتون ، وما سبق حدوثه مع كنيدى ونيكسون .

ولم يفت جولدبيرج أن يقول : إن اليهود قادرون على تشويه من يرغبون فى تشويه صورته حتى وإن كان المسيح ذاته ، ففى عام ١٩٨٨م ظهر فيلم (الإغراء الأخير للمسيح) الذى عرض السيد المسيح فى صورة مشوهة ومادية ، والفيلم من إنتاج شركة MCA التى يجلس على قمتها اثنان من اليهود ، هما ليوفا سرمان رئيس مجلس الإدارة ، وسيدنى شاينبرج مدير الشركة ، وكذلك كان موزعو الفيلم من اليهود ، وقد أثار الفيلم غضب دوائر المسيحيين المحافظين فى أمريكا ، لكن ماذا بعد الغضب ؟ إنهم ما يلبثون أن يجدوا ما يلهيهم ويشبع غرائزهم فى أفلام أخرى كثيرة ، إن فيلمًا كهذا بين أعمال كثيرة يراد به اختبار مدى قدرة اليهود ، ومدى ثورة غير اليهود .

وهذا وليام صافير ، كاتب رأى فى جريدة نيويورك تايمز ، منذ ١٩٧٣م ، أراد أن يختبر مدى تأثيره فى عالم الصحافة ، ومدى قدرته على هز شباك الآخرين ، فكتب فى ديسمبر ١٩٩٣م ، عمودًا اتهم فيه الأدميرال بوبى إينمان بأنه معاد لإسرائيل ، وكان مرشحًا لمنصب رئيس جهاز المخابرات الأمريكية ، فشطب اسمه من الترشيح .

وليس إينمان إلا نموذجًا لضحايا العداء للسامية ، أو معارضة المطامع الإسرائيلية ، فما أكثر النواب والشيوخ الذين يسقطون فى سلة المهملات لمجرد اقترابهم من شباب العناكب السامة .

فى عام ١٩٦٥م كتب باول جاكوب فى مذكراته (هل كيرلى يهودى ؟) ، مصورًا كلاب الحراسة اليهود بقوله :

(دخل يهودى مرحاضًا فى إحدى حانات ثيرد أفينيو ، بمدينة نيويورك ، فوجد

على الحائط عبارة مُقْذعة ضد اليهود ، فأجرى مكالمة هاتفية ، اندفع بعدها مندوب منظمة مكافحة تشويه صورة اليهود ADL إلى الحانة ليرفع البصمات عن الحائط ، لتقوم بمراجعتها من بين بصمات مليونى شخص مشتبه فى معاداتهم للسامية ، ثم تنشر صورة للحائط فى أول نشرة تصدرها المنظمة ، وتحتها تعليق أن هذا يوضح تزايد التيار المعادى للسامية ، وأن على كل يهودى أن ينضم لعضوية المنظمة ، أما ثانى من يصل لموقع الحادث فهو ممثل منظمة لجنة يهود أمريكا AJC الذى يتلفت حوله ، ثم يعلن عن خطة لإجراء بحث أكاديمى مهم عن الشعارات المعادية للسامية التى تكتب على الحوائط ، ثم تنشر المنظمة كتيبًا يؤكد أن مبتكر مشروب المارتينى هو رجل يهودى ، ويوزع المارتينى فى جميع حانات الدولة ، ثم يصل مندوب منظمة المؤتمر اليهودى الأمريكى ليضرب طوقًا حول الحانة ، ويقدم التماسًا للمحكمة العليا ، لإصدار قرار بمنع بيع الكحوليات لأى شخص يثبت أنه معاد للسامية) .

● جاء فى كتاب (رباط العاطفة) لمؤلفيه جورج ودوجلاس بول سنة ١٩٩٢م :

(إن حجم الممارسة اليهودية فى مضمار السياسة الأمريكية لا يتناسب - بأى شكل - مع حجم تعداد اليهود ، إذ تنبع قوتهم من اهتمام نشط بالشئون العامة للدولة ، ورغبة فى العمل الجاد من أجل قضايا يؤمنون بها ، كما تنبع من حاستهم الخاصة لفهم العملية الانتخابية ، وموهبتهم فى التنظيم الدقيق) .

وقد استفاد زعماء إسرائيل من كل هذه الخصائص ليهود أمريكا ، ومن ثم هم دائمًا يضغطون على يهود أمريكا لصالح إسرائيل ، لدى الجهازين التشريعى والتنفيذى للولايات المتحدة ، ويؤكدون على ضرورة الدفاع عن قضايا إسرائيل أمام صانعى الرأى العام الأمريكى .

جرؤ أيزنهاور ، بطل الحرب العالمية الثانية ، على اتخاذ قرار بإلزام إسرائيل الانسحاب من سيناء عام ١٩٥٧م رغم معارضة الأصوات اليهودية المعارضة ، ورغم معارضة الكونجرس .. لكنه ما لبث أن ندم على ما فعل ، وقال لأصدقائه ، قبل وفاته : (بمزيد من النفوذ الصهيونى فى واشنطن ، كان يمكن أن نتجنب هذا الخطأ) .

وكأنه يوصى النفوذ الصهيونى بمزيد من الضغط ، أو يوصى خلفاءه فى قيادة أمريكا ألا يقعوا فى خطأ اتخاذ قرار يضر بالمطامع الإسرائيلية .

وعلى هذا أحاط كل من كنيدى وجونسون نفسيهما بعدد كبير من اليهود ، فى المكتب البيضاوى ، من بينهم مستشارون مقربون ، ومتبرعون أسخياء ، وأصدقاء على المستوى الشخصى .

وكان جون كنيدى صاحب أول صفقة سلاح أمريكية تصل إلى إسرائيل ، إذ أقر صفقة صواريخ هوك تسلمتها إسرائيل بعد اغتيال كنيدى عام ١٩٦٤ .

واستمر ليندون جونسون على نفس سياسة كنيدى الدافئة تجاه إسرائيل ، وكان أول رئيس أمريكى يستقبل رئيس وزراء إسرائيل ، فى زيارة رسمية ، حيث استقبل ليفى أشكول فى البيت الأبيض عام ١٩٦٤م ، ثم أقر فى سنة ١٩٦٦م ثانى صفقة سلاح أمريكى لإسرائيل ، وهى صفقة طائرات حربية .

وجعل نيكسون من إسرائيل أكبر متلق للمساعدات الخارجية الأمريكية ، وعد إسرائيل سندًا استراتيجيًا للولايات المتحدة .

ومع أنه لم يكن محبوبًا من اليهود ، بسبب انتمائه للمحافظين المتشددين ، فقد كان يحيط نفسه بعدد كبير من اليهود ، منهم ليونارد جارمنت مستشار البيت الأبيض ، ووليام صافير الذى كتب خطب الرئيس ، ووزير الخزانة آرثر بيريز ، ورئيس الجهاز الاستشارى الاقتصادى هيربرت ستاين ، بالإضافة إلى هنرى كسينجر مستشار الأمن القومى .

وفى عهده ازدهرت العلاقات الأمريكية الإسرائيلية ، بصورتها المعروفة حاليًا ، ومبيعات السلاح الضخمة ، والمساعدات المالية التى تصل إلى مليارات الدولارات ، مع أنه وصل إلى الحكم بدون مساندة يهودية .

وفى عهده نما اللوبى اليهودى ، وتضخمت سمعته وصلاته ونفوذه ، وتطورت أيباك ، اللوبى الأساسى فى مجال السياسة الخارجية ، من مكتب مكون من ثلاثة عاملين فقط إلى منظمة كاملة يعمل بها ١٥٠ شخصًا ، وميزانيتها ١٥ مليون دولار ، وتضاعف عدد اليهود النواب فى الكونجرس ثلاث مرات .

وعلى مدى العقدين الماضيين - منذ عهد نيكسون - أسست الولايات المتحدة مكتبًا خاصًا لتعقب واصطياد مجرمى النازى ، وجعلت من هجرة اليهود السوفييت أحد أهداف سياستها الخارجية ، وسعت لتحرير المجتمعات اليهودية القديمة فى سوريا وإثيوبيا .

وفى مايو ١٩٩١م توسطت واشنطن من أجل يوم واحد لوقف إطلاق النار ، أثناء الحرب الدامية فى إثيوبيا ، من أجل السماح للطائرات الإسرائيلية باجلاء ٢٠ ألف يهودى إثيوبى ، وهو عمل ضخم غير مسبوق تم فى ٢٤ ساعة فقط .

كما افتتحت واشنطن متحف الهولوكوست بتكلفة ١٦٨ مليون دولار ، لتخليد ذكرى اليهود من ضحايا الحرب العالمية الثانية فى أوربا ، وقد أقيم هذا المتحف بتأييد من الكونجرس ، وبتمويل خاص ، على أرض حكومية ، فى قلب المتاحف بواشنطن .

● وأثناء حكم الرئيس بوش أحاط وزير الخارجية جيمس بيكر نفسه بطاقم من الخبراء فى شئون الشرق الأوسط ، بهدف دفع عملية السلام ، وكان على رأس الفريق دنيس روس ، مدير التخطيط السياسى فى مكتب بيكر ، وقد رأس مكتب الشرق الأوسط فى مجلس الأمن القومى فى سنوات ريجان الأخيرة ، وكان يساعد روس فى عمله الجديد دانيال كورتر النائب فى مكتب الشرق الأدنى بالخارجية الأمريكية ، وأرون دافيد ميللر أحد نواب روس فى مكتب التخطيط السياسى ، ويتصل هذا الفريق بالبيت الأبيض من خلال ريتشارد هاس خبير شئون الشرق الأوسط فى مجلس الأمن القومى .

والأربعة روس وكورتر وميللر وهاس يهود .

وقد أغضب هذا الفريق اليهودى رئيس الوزراء الإسرائيلى إسحق شامير ، واليهود الأمريكيين المؤيدين له ، بسبب ضغوط بوش على إسرائيل ، من أجل وقف بناء المستوطنات فى الأراضى المحتلة ، ومقايضة الأرض بالسلام ، وكثيرًا ما كان شامير ومساعدوه يصفون هذا الفريق بالخونة .

وفى عام ١٩٩١م فى قمة المواجهة بين إدارة بوش وإسرائيل ، كان عدد اليهود الذين يشغلون منصب مساعد وزير الخارجية لا يقل عن سبعة من إجمالى تسعة عشر .

وحدث فى ١٩٩١م أن استقبلت إسرائيل طوفانًا من المهاجرين السوفييت الذين هربوا إثر انهيار الاتحاد السوفييتى ، وكان المتوقع أن يصل عددهم بحلول ١٩٩٥م إلى مليون مهاجر ، وتبلغ تكلفة توطين المهاجرين حوالى ٧٠ بليون دولار (ضعف إجمالى الناتج القومى الإسرائيلى) ، لذلك طلبت إسرائيل من حكومة بوش

ضمانات قروض قدرها عشرة بلايين من الدولارات ، فى صورة قروض تجارية على مدى خمس سنوات متتالية .

رأى بوش أن توقيت الطلب غير مناسب ، إذ كانت هناك محاولات لعقد مؤتمر عربى إسرائيلى فى مدريد من أجل السلام .

ولم يكن بوش راغبًا فى إغضاب الزعماء العرب ، بمنح إسرائيل دفعة مساعدات بالغة الكرم على هذا النحو ، فأعلن فى الكونجرس تأجيل المسألة لمدة ١٢٠ يومًا .

وكان أن قامت قيامة اليهود ، فاحتشد فى واشنطن ألف وثلاثمائة من زعماء المنظمات اليهودية ، من الحاخامات والأساتذة والمحامين والعاملين فى الحقل الاجتماعى ورجال المال والأعمال ، ليضغطوا على نواب الكونجرس .

وإزاء هذه الضغوط قرر الرئيس بوش أن يخاطب الشعب الأمريكى مباشرة حول تلك (القوى السياسية) التى يقف فى مواجهتها (رجل وحيد فى البيت الأبيض) ، فتبخر تأييد الكونجرس لضمانات القروض فى ليلة واحدة ، وتمت الموافقة على مطلب الرئيس بتأجيل المسألة أربعة أشهر .

وقد علقت جاكلين ليفين الزعيمة البارزة فى المجلس اليهودى الأمريكى ، على هذا الموقف بقولها : (سنعتبر يوم ١٢ سبتمبر فى تاريخ اليهود هو يوم الخيانة الكبرى ، وإذا لم تكن كلمات الرئيس إشارة واضحة ومقززة لمعاداته للسامية ، فهى على الأقل قريبة جدًا من ذلك) .

وقد أيد أميس ، مذيع برامج المنوعات فى لوس أنجلوس : (هذا الوغد فتح عينى على الحقائق) .

وفى صباح الثالث عشر من سبتمبر ١٩٩٣م اجتمع ثلاثة آلاف شخص من الرؤساء ووزراء الخارجية وأعضاء الكونجرس والدبلوماسيين والصحفيين ، من جميع أنحاء العالم ، فى حديقة البيت الأبيض ، ليشهدوا رئيس وزراء إسرائيل ، ورئيس منظمة التحرير الفلسطينية ، يتصافحان تحت رعاية الرئيس الأمريكى ، بعد أن وقع إسحق رابين وياسر عرفات على الاتفاقية التاريخية لإنهاء الصراع بين شعبيهما .

ولما كانت الكلمات والوثائق لا تملك القدرة على التنفيذ ، أو تحوز قدرًا من الاحترام ، إلا إذا صدقت النوايا ، أو إذا صح التوافق بين القوتين الموقعتين على الاتفاق .

ولما كان اليهود المتشددون يرون أن حكومة رابين أقدمت على عمل انتحارى ، وأن عليهم إنقاذها .

وقد رصد (الدليل السنوى ليهود أمريكا) حوالى ٣٠٠ منظمة يهودية أمريكية ، وحوالى مائتى اتحاد للأعمال الخيرية اليهودية ، وتبلغ ميزانيتها حوالى ستة مليارات دولار سنويًا ، بالرغم من أن الدستور الأمريكي يمنع الحكومة من الاعتراف بأى مؤسسة دينية ، كما توجد حوالى ٣٠ مجموعة أخرى تابعة لمنظمة الصهيونية العالمية WZO ، وهى منظمة تبلغ من العمر مائة عام ، وهى تعمل كجهاز ربط رسمى بين يهود الشتات ، بعد أن نجحت فى تأسيس دولة إسرائيل .

هذه القوى والتنظيمات اليهودية مجتمعة استطاعت أن تلتف حول الاتفاقية ، مع العلم بأن رابين من أخطر الصهاينة تعاملًا مع الكفاح الفلسطينى ، حتى أمر بتحطيم عظام (أطفال الحجارة) ، وله تاريخه الإرهابى الطويل مع العصابات التى أقامت دولة إسرائيل ، ولما صار وزيرًا للدفاع كان همه القضاء على مخيمات اللاجئين الفلسطينيين خارج إسرائيل ، وتجريف بيوت الفدائيين الفلسطينيين داخل إسرائيل .. ومثل هذا الرجل لا يمكن أن يضحى بتاريخه على (ورقة السلام) ، إنما هى وسائل (تكتيكية) لتطويع الزعامة الفلسطينية وتدجينها ، لكن تحالف الحاخامات الأرثوذكس والصهاينة الصقور مالبثوا أن حصلوا على الإشارة الحمراء ، فقتل رابين ، وتولى نيتانياهو أمر معالجة (اتفاقية السلام) ، فجعل يدور بالزعامة الفلسطينية فى أكثر من سرداب ، حتى بلغ السيل الزُّبَى ، وجاوز الحزام الطبيين ، واتسعت الأطماع الإسرائيلية على يد الرئيس كلينتون ، لتحقيق مزيد من إذلال العرب ، باسم السلام ، وباسم الإرهاب الإسلامى ، وباسم أسلحة الدمار الشامل !!

● حاول جارودى أن يذكر العرب بقدرتهم الاقتصادية ، وبقدرتهم الشرائية ، فطالبهم أن يضغطوا بهاتين القوتين للحصول على حقوقهم الدولية المشروعة ، ملفتًا أنظارهم إلى ما حدث سنة ١٩٧٣م من استغلال سلاح البترول فى تحقيق انتصار عسكرى ، وانتصار اقتصادى برفع ثمن برميل البترول أضعافًا مضاعفة ، لكن للأسف ، هرب العرب المنتصرون عسكريًا ليقعوا فى جيب كيسنجر وزير الخارجية اليهودى الأمريكى ، وهرب العرب المنتصرون اقتصاديًا ليقعوا فى جيوب المصارف اليهودية فى أنحاء العالم ، ثم وقع المنتصرون اقتصاديًا وعسكريًا ليقعوا فى حروب

داخلية وخارجية ، تحت مظلة الإرهاب ، وتحت مظلة الخوف من صدام حسين ، وتحت مظلة القواعد والمناورات العسكرية ، التى تأذن بها أو تتفضل قيادة البنتاجون بالتنسيق مع قيادة جيش الدفاع الإسرائيلى .

وفات هؤلاء النشامى الأشاوس جميعًا أن إسرائيل تحتفل كل ربيع بمولدها فى نيويورك ، وتنظم استعراضًا بهذه المناسبة يسير فى شارع فيفث أفينيو تحت اسم (استعراض تحية إسرائيل) ، ويطلق عليه سكان نيويورك (استعراض يوم إسرائيل) ، يشترك فيه الآلاف من طلبة المدارس اليهود بأزيائهم المميزة ، ويسيرون فى طابور العرض والموسيقى ، ومعهم طلبة المدارس الصديقة من غير اليهود ، ويقدر عدد المشتركين فى هذا العرض بين ١٥٠ ألفًا ونصف المليون .

ولم يفت جارودى أن كتاب (موت ستة ملايين) لأرثر مورز الذى صدر سنة ١٩٦٨م لمس جرحًا غائرًا لدى يهود أمريكا ، إذ يكيل الاتهام لحكومة روزفلت - بشكل جرىء جدًّا - لتجاهلها الفرص العديدة لإنقاذ اليهود من النازى ، ومنذ ظهور هذا الكتاب قامت صناعة كاملة من الكتب تتبنى نفس فكرة الإهمال والتجاهل ، وتصدرت نسبة كبيرة من الكتب قوائم المبيعات ، بالإضافة إلى فيلم وثائقى ، ومحكمة دولية يرأسها قاضى المحكمة العليا السابق أرثر جولدبرج ، وقد حاكمت قيادة العمل اليهودى الأمريكى لخضوعهم لروزفلت .. ومن قبل أذيعت محاكم جرائم الحرب فى نورمبرج فى عامى ٤٥ ، ١٩٤٦م ، وأذيعت محاكمات إيخمان تليفزيونيًا عام ١٩٦١م ، ونشرت كتب كثيرة عن الهولوكوست ، مثل كتاب هيرسى (الحائط) عام ١٩٥٠م ، و(مذكرات آن فرانك) عام ١٩٥٢م ، و(المساء) لإيلى ويزل عام ١٩٦٠م ، و(الفجر) لنفس المؤلف عام ١٩٦١م ، بالإضافة إلى عدد من الأفلام الروائية أنتجتها هوليود ، وأفلام تسجيلية كثيرة .. كل هذا لتكريس الشعور بالذنب ، وإدانة الأحياء والأموات من غير اليهود ، حتى إذا كان الحديث عن التعويض ، سهلت المبالغة فيه ، وتضاعفت أرصدته لقيام دولة إسرائيل ، بالإضافة إلى تعبئة الخوف فى نفوس صانعى القرار على المستوى العالمى .

وكان أن أعلن الرئيس كارتر عن تأسيس (لجنة رئاسية للهولوكوست) ، أصبحت فيما بعد (المجلس الأمريكى لإحياء ذكرى الهولوكوست) ، وقد رأس اللجنة أحد الناجين من النازى ، المخرج إيلى ويزل ، ووافقت اللجنة على إقامة متحف

قومى للهولوكوست ، حتى يظل يروى إبادة النازى لليهود ، وتقصير كافة الدول - وفى مقدمتها أمريكا - فى المسارعة لإنقاذ اليهود .

وعندما سعى الأرمن لدفع قضيتهم فى الكونجرس لإصدار قرار لإحياء ذكرى معاناتهم على يد الأتراك فى ١٩١٥ / ١٩١٦م اصطدموا بشدة بكبار القيادات اليهودية ، وبكبار مؤيدى إسرائيل ، حتى يظل اليهود وحدهم مبعث إدانة العالم .

وجاء كلينتون ليفتتح المتحف فى ٢٢ أبريل ١٩٩٣م ، ويقوم بجولة فى أرجاء أربعة طوابق لمدة ساعتين ونصف الساعة ، ثم أقام كلينتون ونائبه آل جور وزوجتاهما حفلًا داخل البيت الأبيض ، حضره ٥٠٠ من زعماء اليهود ، تكريمًا لشهداء الهولوكوست .

●● وبسبب من السطوة الاقتصادية اليهودية التى امتدت إلى جميع وسائل الاتصال ، مادية ومعنوية مدّ مجلس الكنائس العالمى يده إلى القيادة الصهيونية العالمية ، وصار ينسق معها مواطن النفوذ ، ويوفق معها العوامل والأهداف .

لكن ، إلى متى تظل سهام اليهود تضرب فى كل اتجاه ؟!

يقول علماء الجريمة : إنه ليس ثمة (جريمة كاملة) ، فلابد من أن يترك المجرم أثرًا يدينه ، ويأخذه بجرمه .

والدنيا دول ، ولن يظل العرب والمسلمون يبيعون مستقبلهم بالأحلام المرهونة بالفردية (الطاغية / المستذلة) ، الوالغة فى (جفان) الآخرين ، المتاجرة بالدين والدنيا معًا .

والقوة الحقيقية لا تتمثل فى ضراوة السلاح ، ولا فى غزارة البترول ، ولا فى شراسة الإفك ، ولا فى براعة التخطيط والتنفيذ ، وكثيرًا ما يؤخذ الحذِر من مأمنه ، وتتحول المصالح إلى منافسات ، والمنافسات إلى عداوات .

﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة : ٢٤٩] .

﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج : ٤٠] .

د. كامل سعفان



أهم المصادر والمراجع

١ - **الكتاب المقدس** .
٢ - **خطط المقريزى** .
٣ - **بروتوكلات حكماء صهيون** .
٤ - **أبو الأنبياء** - عباس محمود العقاد .
٥ - **مصر الفراعنة** - ألان جاردنر .
٦ - **مصر الفرعونية** - أحمد فخرى .
٧ - **أضواء على السيرة النبوية** - عبد الحميد جودة السحار .
٨ - **فجر الضمير** - بريستيد .
٩ - **معالم التاريخ الإنسانية** - ويلز .
١٠ - **مصر القديمة** - سليم حسن .
١١ - **الله** - عباس محمود العقاد .
١٢ - **عبقرية المسيح** - عباس محمود العقاد .
١٣ - **قصة الحضارة** - ول ديورانت .
١٤ - **عصر الإسكندرية الذهبى** - نبيل راغب .
١٥ - **سفر الرؤيا** - وليم باركلى .
١٦ - **رسالة فى اللاهوت والسياسة** - سبينوزا .
١٧ - **محمد واليهود** - بركات أحمد .
١٨ - **دلالة الحائرين** - موسى بن ميمون .
١٩ - **أهل الذمة فى مصر** - سلام شافعى محمود .
٢٠ - **الشخصية اليهودية الإسرائيلية** - رشاد الشامى .
٢١ - **الجمعيات السرية** - عبد الوهاب المسيرى .
٢٢ - **اليهود فى البلدان الإسلامية** - صموئيل أتينجر .
٢٣ - **الصهيونية غير اليهودية** - رجينا الشريف .

٢٤ - **الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية** - رجاء جارودى .
٢٥ - **بين البابية والماسونية نسب** - محمد إبراهيم البدرى .
٢٦ - **هجرة اليهود السوفييت** - عبد الوهاب المسيرى .
٢٧ - **إشكالية الهوية فى إسرائيل** - رشاد الشامى .
٢٨ - **اليهود فى مصر** - نبيل عبد الحميد .
٢٩ - **اليهود فى مصر** - سعيدة حسنى .
٣٠ - **موقف الصحافة المصرية من الصهيونية** - سهام نصار .
٣١ - **الترانسفير** - ترجمات مختارة من العبرية .
٣٢ - **اليهود والتحالف مع الأقوياء** - عبد الرازق السامرائى .
٣٣ - **الأثر العربى فى الفكر اليهودى** - د. إبراهيم هنداوى .
٣٤ - **اليهود فى عقل هؤلاء** - د. عبد الوهاب المسيرى .
٣٥ - **قوة اليهود فى أمريكا** - جوناثان جولدبيرج .

* * *

فهرس الكتاب

الموضـــــوع	الصفحة



فى هذا الكتاب

كان اليهود يتحصنون داخل ما يسمى (الجيتو Ghetto) ، ويُقال إن هذا اللفظ مأخوذ عن كلمة (Getto) ، وهو مسبك كان فى البندقية ، كأنّ اليهود أرادوا أن يعيدوا سبكهم فى ذلك الحى من المدينة الذى ينكفئون فيه على نفوسهم ، يضمدون جراحهم ، ويلملمون ما تبعثر منهم ، ويكيدون للعالم كله الذى وقف منهم ، أو وقفوا منه ، موقف العداء .. وبهذا يتسع مفهوم الجيتو للحالة النفسية (التاريخية) التى جعلت من اليهود (شعبًا مختارًا) للّه أو للشيطان ، لا يحسن الحياة مع الآخرين ، لأنه لا يأمن جانبهم ، أو لأنه يعمل على الكيد لهم ، ومن ثم فالعزلة والظلام وسيلته إلى حماية نفسه ، وإلى التأهب للانقضاض ، مستغرقًا فى أسطورة (الماساده) ، قلعة هيرود التى آثر العازر قائد اليهود المحاصرين بها الانتحار دون التسليم ، وعلى طريقة (اطلبوا الموت توهب لكم الحياة) ، و(المستقتل لا يقتل) ، فقد عزم اليهود أن يحملوا أكفانهم على أكفهم ، أكفانًا مسحورة مسعورة ، من الرهون والمراباة وأكل أموال الآخرين بشتى الحيل والخداع .. ولما كان (الجيتو) فى (حارة اليهود) لا يعين على تحقيق المطامع العالمية ، وحارات اليهود منتشرة فى أنحاء العالم بلا روابط ، أو بروابط غير مسعفة ، وغير قادرة على تجميع الجهود - فقد انبثق الفكر الحاقد الناقم شديد الجشع عن (بناء) أسطورى وهمى أشبه بخيوط العنكبوت ، تصطاد الحشرات والديدان من أجل الحصول على آكلى الحشرات والديدان ، فكان من المكائد الناجحة التى لا تزال تعبث فى أفنية الآخرين ، بأيدى الزعماء وكبار رجال الأعمال والمثقفين ما أسمَوْه (الماسونية) ، أو العمل من أجل بناء العالم على أسس جديدة من التعاون الحر وتبادل المنفعة ، ومن خلال أعضاء هذه الجماعة القادرين على الوصول إلى أدق الأسرار وأخطرها ، والقادرين على التأثير فى (صنع القرار) ، أمكن لليهودية (الدولية) التى ترجمت فى بعض انطلاقاتها إلى (الصهيونية) ، أن تجمع خيوطًا كثيرة تشدها متى شاءت ، وترخيها متى شاءت ، وتعقدها متى شاءت ، وتصنع منها النسيج الذى تريد وقتما تريد وحيثما تريد .